تاريخ الرومان

الجزء الأول

د. إبراهيم نصحي



تاريخ الرومان

الجزء الأول

منذ أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م

تأليف

الدكتور ابراهيم نصحي

الطبعة الثانية

١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لو لم يكن هناك باعث آخر على أن نهتم بدراسة التاريخ الروماني سوى اتصاله الوثيق بالتاريخ القديم للوطن العربي على مدى عدة أجيال ، لكان ذلك وحده كافياً . فما بالنا وقد كان الرومان — برغم كل نقائصهم — من عمالقة بناء الحضارة الإنسانية ، ويمدنا تاريخهم بمثل فذ لدورة كاملة بالغة الأهمية من دورات الحضارة : من نهوض وارتقاء على أساس مكين من الخلق العظيم والصفات الفاضلة إلى تدهور واضمحلال عندما أفسدت القوة الطاغية نفوس أصحابها وضمائرهم وتحكمت الأهواء والأطماع الشخصية في توجيه دفة الدولة . ومما له أهميته القصوى أن هذا التاريخ يطالعنا بأمثلة ناطقة للأساليب السياسية التي لا تفتأ الدول الكبرى تستخدمها لتحقيق أهدافها الأنانية .

وبرغم الجهود المتواصلة التي يقوم بها الباحثون منذ أمد طويل ، فإن الغموض ما زال يغلف الكثير من مشاكل التاريخ الروماني ، وإن كنا في كل يوم تقريباً نزداد علماً بهذا التاريخ ونعدل معلوماتنا عن كثير من نقاطه .

وقد فتح هذا الغموض أبواب الاجتهاد على أوسع مصاريعها لتفسير المشاكل العديدة المعقدة التي يزخر بها التاريخ الروماني بسبب طبيعة مصادره على نحو ما سنرى في حينه . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي تعدد وجهات نظر الباحثين ازاء الكثير من هذه المشاكل . بيد أن ذلك لم يحل دون وجود كثرة من الباحثين تميل إلى ترجيح وجهة نظر معينة في كل مشكلة . ومع ذلك فإننا قلما نجد باحثين اثنين يتفقان ازاء المشاكل جميعها ، وإن اتفق أغلب الباحثين من حيث الاطار العام وطريقة عرضه .

وقد اكتفيت بالإشارة إلى المشاكل الثانوية ومناقشة أهم وجهات النظر في المشاكل الرئيسية بالقدر الذي يكفي لبسط وجهة النظر التي أرجحها ، لأن الافاضة في ذلك تتعارض وهدفي من هذا الكتاب ، وهو إعطاء صورة متكاملة واضحة المعالم للاطار العام لتاريخ الرومان وحضارتهم ، بقدر ما أتاحه لي اطلاعي على المصادر الأصلية وعلى الكثير من المراجع الأجنبية ، وما أفدته من تجربة تدريسي لهذا التاريخ سنين عديدة ، وما توصلت إليه من تمحيص الآراء التي أبديت فيه . وإذا كنت بطبيعة الحال لم أرجح إلا الآراء التي بدت لي أنها الأدنى إلى تصوير الحقيقة ، فانني لا أزعم أن كل ما عدا ذلك باطل ، أو أنني بلغت الكمال أو قاربته في تصوري لتاريخ الرومان ، أو أن هذا هو فصل الخطاب ، وان كان في وسعي أن أقرر بدون تحفظ أنني وضعت نصب عيني أن البحث التاريخي محاولة صادقة للوصول إلى الحقيقة . وإذا كان التاريخ السياسي ، الخارجي منه والداخلي ، يحتل مكان الصدارة ويشغل حيزاً كبيراً في هذا الكتاب ، فانني عنيت كذلك بمعالجة النواحي الاقتصادية والاجتماعية والحضارية ، كما عنيت بإثبات المصادر والمراجع في كل فصل .

ولما كانت المكتبة العربية تفتقر افتقاراً شديداً إلى ما يمكن أن يعطي القارىء العربي عن تاريخ الرومان وحضارتهم فكرة شاملة صحيحة أو تكاد أن تكون كذلك ، فانني أرجو أن أكون قد وفقت إلى سد ثغرة ولو صغيرة في هذا المجال . ولعل أن يكون هذا الكتاب حافزاً على اصدار ما هو أفضل منه وأوفى بالغرض .

هدانا الله جميعاً وسدد خطانا ووفقنا إلى أداء الواجب .

ابراهيم نصحي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

إزاء رغبتى الملحة فى الإقلال من مشاغلى قدر الطاقة مراعاة لسنى وصحتى كنت أبعد ما أكون عن محاولة إصدار طبعة ثانية لتاريخ الرومان بجزئيه ، بل عن التفكير فى ذلك . بيد أنه لم يسعنى إلا النزول عند رغبة بعض الزملاء الكرام فى أن تتاح لطلابنا فرصة أوسع مما أتاحته لهم الطبعة الأولى ، وهى التى يبدو أن الجامعة الليبية فى حرصها على توفير الكتب لطلابها قصرت تداول نسخ تلك الطبعة بوجه عام على أولئك الطلاب .

وإزاء انتهاء مدة السنوات الخمس التى اشترت الجامعة الليبية حق نشر الكتاب بجزئيه فى خلالها ، وتفضل الجهاز المركزى للكتب الجامعية والمدرسية

القسم الأول

إيطاليا منذ أقدم العصور
حتى قيام الدولة الرومانية

الفصل الأول

الخلفية الجغرافية لتاريخ الرومان[1]

ان تاريخ أصحاب الحضارة الزاهرة التي قامت قديماً في شبه جزيرة البلقان وانتشرت في أرجاء البحر المتوسط وإلى ما ورائه يُدعى تاريخ الإغريق أو تاريخ بلاد الإغريق أو تاريخ العالم الإغريقي ، على حين أن تاريخ أصحاب الحضارة الزاهرة الأخرى التي قامت قديماً في ايطاليا وانتشرت بدورها في أرجاء العالم القديم يُسمى تاريخ الرومان أو تاريخ روما أو تاريخ العالم الروماني . ومعنى ذلك أنه في الحالة الأولى يُنسب التاريخ إلى الإغريق كافة أو إلى بلادهم جملة ، بيد أنه في الحالة الثانية يُنسب التاريخ إلى الرومان أو إلى

---

(١) المراجع :

W. E. Heitland, The Roman Republic, vol. I, 1923, Ch. I, 2 ; M. L. New biggin, The Mediterranean Lands, 1924, Chs. I - III, VII; The Geography of the Mediterranean Region : Its Relation to Ancient History, Chs. XI - XX ; M. A. Cary, History of Rome to the Reign of Constuntine, 1938, Ch I; The Geographic Background of Greek and Romun History, 1949; A. E. R. Boak, A History of Rome To 565A.D.,1962, Ch. I; H. H. Scullard, A History of the Roman world from 753 To 146 B. C., 1969, pp. 1 - 3; M. Grant, the Ancient Mediterranean, 1969.

mare nostrum

مدينة روما دون باقي سكان ايطاليا أو باقي المدن التي عرفتها ايطاليا في العصور القديمة . ومرد ذلك أساساً إلى أنه في الحالة الأولى لم تسيطر مدينة اغريقية واحدة على باقي العالم الإغريقي أو تنفرد بلعب الدور الأول في تاريخ الإغريق . وأما في الحالة الثانية فإن مواطني روما نجحوا في أن يجعلوا من مدينتهم الصغيرة دولة قوية ذات بأس استطاعت أن تبسط سلطانها تدريجاً حتى سيطرت على ايطاليا بأجمعها ثم على كل أقاليم البحر المتوسط ، مما حدا بالرومان إلى أن يدعوه « بحرنا » (mare nostrum) . وهكذا نجحت روما حيث أخفقت أثينا واسبرطة وطيبة بل الممالك الإغريقية الكبيرة التي أقيمت بقوة السلاح على أنقاض امبراطورية الاسكندر الأكبر .

أولاً – طبيعة تكوين ايطاليا ومناخها

١ – الأقليم الشمالي أو وادي البو :

وتتكون ايطاليا[١] من اقليمين رئيسيين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً كبيراً من حيث خصائصهما الطبيعية . وأحد هذين الاقليمين يؤلف الجزء الشمالي من ايطاليا ، وهو عبارة عن سهل فسيح تطوقه سلسلة جبال الألب على هيئة هلال غير منتظم يمتد من البحر الأدرياتي قرب تريستا حتى البحر المتوسط قرب نيس على الريفييرا الفرنسية ، حيث تنفرج جبال الألب عن ممر يسهل عن طريقه بلوغ شمال ايطاليا . وفي الطرف الشمالي الشرقي لجبال الألب يوجد ممر على ارتفاع حوالي ٤٥٠ متراً . وإذا كان ارتفاع الممرات

(١) الاسم القديم Italia مشتق من الكلمة الأوسقية القديمة Vitellio ومعناها « أرض العجول » كناية عن الغنى في المرعى وتربية الماشية . وكان الإغريق هم الذين أطلقوا هذا الاسم في القرن الخامس قبل الميلاد على الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة المجاور لصقلية وبالتدريج أخذ مدلول هذا الاسم يتسع إلى أن أصبح اسم ايطاليا قبل نهاية القرن الأول قبل الميلاد يشمل جغرافياً وسياسياً كل البلاد من أقصى الجنوب حتى جبال الألب .

الموجودة في وسط هذه الجبال وغربها يتراوح بين أربعة وستة أمثال ذلك تقريباً ، فإن روافد نهري الراين والرون تيسر الوصول إلى هذه الممرات . وقد كان طبيعياً أن يترتب على وجود هذه الممرات أن جبال الألب لم تكن حاجزاً مانعاً في وجه الهجرات القادمة من داخل القارة الأوربية .

ويقدر اتساع الأقليم الشمالي من الشرق إلى الغرب بحوالي ٥٠٠ كيلو متر ومن الشمال إلى الجنوب بحوالي خُمس ذلك . ووادي نهر البو (Padus) ، وهو أعظم أنهار ايطاليا كافة ، يشغل أكثر أنحاء هذا السهل . ونهر البو ينبع من جبال الألب في الغرب ، وبعد أن تغذيه روافد كثيرة يصب في البحر الأدرياتي في الشرق . ولما كان هذا السهل قد تكون من الرواسب الطميية التي حملتها في ركابها مياه البو وروافده من جبال الألب ، وكانت هذه المياه تتدفق بغزارة على مدار العام ، فإنه على هذا النحو تهيأ لهذا السهل الفسيح عاملان رئيسيان لازدهار الزراعة فيه ، وهما خصوبة التربة ووفرة المياه . بيد أن المستنقعات والغابات كانت تغطي جنبات هذا السهل في بداية الأمر ، وتبعاً لذلك فإن قيام الزراعة وانتشارها في أرجائه اقتضيا تسخير جهود بشرية طائلة على مدى قرون طويلة .

٢ – الأقليم الجنوبي أو شبه الجزيرة الإيطالية :

والأقليم الآخر يؤلف الجزء الجنوبي من ايطاليا ويتكون من شبه جزيرة تقع بين البحر التيراني في الغرب والبحر الأدرياتي في الشرق ، وتمتد من الشمال الغربي صوب الجنوب الشرقي لمسافة حوالي ١٠٠٠ كيلو متر دون أن يزيد عرضها في أي مكان على ٢٠٠ كيلو متر . وعلى حين أن الأقليم الشمالي يفتقر إلى شواطىء طويلة ، وتطوقه سلسلة جبال الألب دون أن تخترقه ، ويخلو من البراكين ، تحف الشواطىء بالأقليم الجنوبي على طول

امتداده ، وتشقه سلسلة جبال الأبنين وكأنها عموده الفقري — على حد قول المؤرخ الروماني ليفيوس[1] — وتوجد في بعض مناطق الشاطىء الغربي والجزر المجاورة له عدة براكين بعضها خامدة (شمالي نهر التيبر وجنوبيه في أترووريا Etruria ولاتيوم Latium وقمبانيا Campania) وبعضها الآخر ما زالت تمارس نشاطها منذ العصور القديمة (فيسوفيوس في قمبانيا بالقرب من خليج نابولي ، وأسترامبولي بأحدى جزر ليباري وأتنا في صقلية) . وبرغم ما كانت لثورات البراكين من نتائج مدمرة وقت حدوثها . فإن نتائجها على المدى الطويل كانت مفيدة ، ذلك أن ما قذفته من حمم ساعد على تكوين تربة جيدة صالحة بوجه خاص لزراعة الكروم . وآية ذلك أن أرض قمبانيا البركانية أخصب أراضي ايطاليا . وإذا كان من شأن الطين المسيك الذي يؤلف الطبقات التالية للطبقة البركانية الخصبة العليا في سهول أترووريا ولاتيوم أنه كان يجعل هذه الطبقة عرضة لأن تحولها الأمطار إلى مستنقعات ، فإن هذه السهول استطاعت بفضل أعمال الصرف والكفاح الدءوب انتاج حاصلات وفيرة على مدى قرون عديدة ، بل انها حتى في حالة غمرها جزئيا بالمياه كانت تستطيع أن تهيىء مراعي جيدة في الشتاء لرعاة الوديان المجاورة المرتفعة .

وجبال الأبنين تبدأ عند الطرف الجنوبي الغربي للأقليم الشمالي ، وبعد أن تأخذ هيئة قوس مفرطحة تفصل الأقليم الشمالي عن أغلب شبه الجزيرة تنصرف نحو الأقليم الجنوبي فتشقه من شماله حتى جنوبه وتشغل نصف اتساعه تقريباً . ومع ذلك فإن هذه الجبال — شأنها شأن البراكين — ليست كلها نقمة على شبه الجزيرة الإيطالية ، فهي أيضاً مصدر خير عميم لها . ذلك أنه تتخللها كثير من الوديان الخصبة الفسيحة ، كما أنه في جهات عديدة من هذه الجبال توجد غابات كثيفة ومراع رحبة . وأهم من ذلك أن هذه الجبال تساعد على تكثيف السحب وهطول الأمطار . وتبعاً لذلك فإنه تنبع من هذه

---

(1) Liv., XXXVI, 15.

الجبال أنهار كثيرة تغذي الوديان السفلى بمياه الري ، هذا إلى أن الغابات التي تغطي منحدرات هذه الجبال تساعد على اختزان المياه وتبعاً لذلك على توفير المياه الجوفية . وتبلغ جبال الأبنين أقصى ارتفاعها في جانبها الشرقي حيث تقترب من شواطىء الأدرياتي اقتراباً شديداً دون أن تترك سوى شريط ساحلي ضيق إلا عند ابوليا (Apulia) في الجنوب حيث يوجد سهل فسيح يهيىء مراعي ممتازة للماشية والأغنام . وهذا الشريط الساحلي الضيق تقطعه عدة مجار مائية قصيرة .

وأما الجانب الغربي لجبال الأبنين فإنه أقل ارتفاعاً وأكثر بعداً عن شاطىء البحر التيراني مما أتاح أمرين : وأحدهما ، هو وجود سهول واسعة هي سهول أترووريا ولاتيوم وقمبانيا ، وان كانت تتناثر في أرجاء هذه السهول عدة تلال مرتفعة . والأمر الآخر هو وجود أربعة أنهار كبيرة نسبياً وهي من الشمال إلى الجنوب : الأرنوس (Arnus) والتيبر (Tiber) وليريس (Liris) و فولتورنيوس (Volturnius) . بيد أن الصفة الغالبة لأكثر الأنهار التي تنبع من جبال الأبنين أنها سريعة الجريان شديدة التدفق ، تندفع كالسيل الجارف لتصب في البحر وتلقي بما تحمله مياهها من طمى وصخور رملية عند مصابها ، حيث يتراكم ذلك كله فيقل عمق الماء وتمتد الأرض تدريجاً في البحر ، ولا سيما أنه لا يوجد مدّ بحري قوي يفتت هذه الرواسب ويزيلها . وظاهرة الترسيب أكثر وضوحاً في بعض الأماكن من غيرها ، ولعلنا نجد خير مثل لها عند مصب كل من نهري التيبر والأرنوس . وقد ترتب على ذلك نتيجتان : وإحداهما ، هي أن ايطاليا لم تعرف موانىء نهرية كبيرة مثل لندن وهمبرج . والنتيجة الأخرى ، هي أنه حيثما أنشىء بالقرب من مصب أحد الأنهار ميناء على قدر كاف لسد حاجة الملاحة في العصور القديمة كانت ظاهرة الترسيب مصدر متاعب دائمة لأولي الأمر . ونضرب مثلاً لذلك بما حدث في حالة أوستيا (Ostia) وهي التي أنشئت أولاً عند مصب التيبر مباشرة لتكون ميناء لروما ،

ولكن عوامل الترسيب عند هذا المصب اضطرت الامبراطور قلاوديوس (Claudius) عند منتصف القرن الأول للميلاد إلى نقل الميناء عدة كيلو مترات شمالي الموقع القديم .

٣ ـ طبيعة سواحل ايطاليا :

وانه لمما يستوقف النظر أن سواحل ايطاليا ، وهي التي يبلغ طولها أكثر من ٣٠٠٠ كيلو متر قليلة التعاريج فقيرة في الخلجان العميقة والموانىء الطبيعية الجيدة . وينهض دليلاً على ذلك أنه لم يوجد في الساحل الشرقي إلا ميناء واحد جيد هو بروندزيوم (Brundisium) في أقصى الجنوب ، لكنه لما كان هذا الشاطىء قليل السكان فقيراً في الأرض الخصبة . فإنه لم يحتج إلى موانىء تجارية . والساحل الغربي الآهل بالسكان والغني بالأرض لم توجد فيه إلا بعض الموانىء الجيدة في خليج نابولي وميناءان جيدان في خليج جنوه – وهما جنوه ولوناي بورتوس (Lunae portus = سبزيا Spezia)) – لكن هذين الميناءين لم يكتسبا أهمية تذكر إلا في وقت متأخر في التاريخ الروماني . وإذا كانت أوستيا قد سبقتهما إلى ذلك فانها لم تكن ميناء طبيعياً . ومما يجدر بالملاحظة أن موانىء خليج نابولي وكذلك الميناء الكبير الوحيد على الشاطىء الجنوبي – تارنتم Tarentum – كانت في قبضة الإغريق .

بيد أنه كان يعوض الساحل الغربي عن فقره في الموانىء الجيدة ضحالة مياه البحر التي تحف به ، مما كان ييسر رسو السفن الصغيرة الشائعة أول الأمر في العصور القديمة . ولكنه عندما شاع استخدام السفن الكبيرة وبدأ القراصنة يعتدون على الموانىء المكشوفة تبينت على الفور مضار الأفتقار إلى الموانىء العميقة التي يسهل الدفاع عنها . غير أنه عندئذ كانت روما قد نشرت نفوذها في ايطاليا ووضعت قبضتها على ما كان في يد الإغريق من موانىء

وأخذت تصطنع موانىء جديدة لمواجهة نشاطها التجاري . وازاء ما امتاز به الساحل الغربي على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الإيطالية من حيث وفرة العمران ووفرة الأراضي الخصبة والأنهار الكبيرة نسبياً وأسباب التيسير لرسو السفن وتبادل التجارة قام بدور رئيسي في تقدم ايطاليا مادياً وحضارياً .

٤ — جزيرة صقلية :

وأما عن الجزر القريبة من ايطاليا ، فإن صقلية وحدها هي التي قامت بدور هام في التاريخ الروماني . وهذا يتضح بوجه خاص في أثناء الصراع بين روما وقرطجنة . ولا يفصل صقلية عن شبه الجزيرة الإيطالية إلا مضيق مسينا . كما انه لا يفصلها إلا ١٢٨ كيلو متراً من بحر غير عميق عن افريقيا حيث كانت تربض قرطجنة ، وهي التي أقامت لها مستعمرات في صقلية وكانت تمارس فيها نشاطاً كبيراً . ولذلك فإن روما ما أن غدت سيدة شبه الجزيرة الإيطالية حتى استشعرت ضرورة السيطرة على صقلية لحماية شبه الجزيرة من الغزو الخارجي .

٥ — المناخ :

ومناخ ايطاليا بوجه عام من الطراز الشائع في حوض البحر المتوسط ، فهو جاف صيفاً ممطر شتاء دون إفراط سواء في درجة الحرارة أم في درجة البرودة ، وان كان ذلك يتباين تبايناً كبيراً من مكان إلى آخر تبعاً لارتفاع المكان عن مستوى سطح البحر أو لانخفاضه عنه ، ولموقعه في الشمال أو في الجنوب ، ولقربه من البحر أو بعده عنه . ونتيجة لانتشار المستنقعات في أودية الأنهار وعند مصابها حيث تتراكم الرواسب وجدت بيئات مناسبة لتوالد ناموس الملاريا ولذلك نكبت ايطاليا قديماً وحديثاً بتفشي هذا المرض من حين إلى آخر .

ثانياً – موارد الثروة

١ – الثروة الزراعية والحيوانية :

وقد اشتهرت ايطاليا في العصور القديمة بأن أهم موارد ثروتها كانت الزراعة وتربية الحيوان . ذلك أن الأراضي الواطئة كانت تنتج حاصلات وفيرة من مختلف أنواع الحبوب – مثل القمح والأذرة والشعير – وكذلك من البقول – مثل البازلاء والفاصوليا وغيرها . وتربة قمبانيا اشتهرت بانتاج ثلاث حاصلات متعاقبة في العام الواحد . وفي كل أنحاء ايطاليا ، فيما عدا الجهات الجبلية ، كانت تزدهر أشجار الكروم والزيتون ، وعلى مر الزمن ، وبخاصة منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، غدا استثمار الأرض في هذا اللون من الفلاحة أجدى من استثمارها في زراعة الحبوب الغذائية ، مما كانت له نتائج اجتماعية وسياسية خطيرة على نحو ما سنتبينه فيما بعد . وكانت تغرس كذلك أشجار التين والنّقل ، وبعد اتساع روما في شرق البحر المتوسط أدخلت أنواع أخرى من الفاكهة مثل التفاح والكمثري . وأما زراعة الحوامض فإن شأنها شأن زراعة الأرز لم تتعلمها ايطاليا من الشرق إلا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية بوقت طويل . ولما كانت تتوافر مراع ممتازة للأغنام والماعز والماشية والخيول في المناطق الساحلية المنخفضة شتاء وفي المنحدرات الجبلية صيفاً ، فإن تربية الحيوان كانت تلي الزراعة في ايطاليا من حيث الأهمية .

وفي العصور القديمة كانت ايطاليا تفوق أغلب أقاليم البحر المتوسط من حيث الغنى بالغابات ، وهي التي كانت تنتشر في الأقليم الشمالي على السفوح الجنوبية لجبال الألب وفي وادي البو وعلى امتداد ساحل ليجوريا (Liguria) وفي الأقليم الجنوبي على سفوح الأبنين وفي لاتيوم وأودية نهر التيبر وروافده وكذلك في جنوب أتروريا حيث أعاقت طويلاً زحف الرومان عبر هذا الأقليم . وقد كان الرومان والأتروريون أو الأتروسقيون(Etrusci) والإغريق

والقرطجنيون يقبلون على استخدام الخشب الإيطالي في بناء السفن . وكان هذا الخشب يستخدم كذلك بكثرة في المباني وفي صنع الأثاث . وكانت غابات أشجار الصنوبر مصدراً هاماً للقطران والصموغ ، كما أن أحراج أشجار البلوط والزان والقسطل كانت توفر علفاً ثميناً لقطعان الخنازير . ومن المرجح أن ايطاليا كانت قديماً أغنى بغاباتها مما هي اليوم ، بل يبدو أنه قبل العصر المسيحي بعدة قرون كانت مساحة كبيرة من غاباتها قد اختفت نتيجة لنشاط الحطابين خدمة لأغراض مختلفة وكذلك نتيجة لنشاط الراغبين في تطهير الأرض لزراعتها أو لتحويلها إلى مراع . ويبدو أنه حيثما قطعت الأشجار مرة قلما خلفتها أشجار أخرى ، ذلك أن التربة الصالحة لنمو الأشجار على المنحدرات الجبلية كانت عبارة عن طبقة رقيقة ، وبعد قطع الأشجار كانت مياه الأمطار تكتسح تلك الطبقة قبل أن يتمكن النبت الجديد من النمو . بل أنه حيثما أمكن ذلك كانت قطعان الأغنام والماعز التي تطلق للرعي في تلك الأماكن كفيلة بالقضاء على كل ما ينمو فيها .

٢ — الثروة المعدنية :

ولم تتمتع ايطاليا بثروة معدنية كبيرة ، وان كانت مناجم النحاس في تروريا وليجوريا وجزيرة سردينيا ، والكميات الوفيرة من خام الحديد في أجزيرة ألبا (Alba) القريبة من شاطىء أترووريا ، قد ساعدت إلى حد كبير على سد حاجة ايطاليا في العصور القديمة إلى أهم معدنين لازمين لها . وكان يمكن الحصول على الملح من مناجم صقلية وكذلك من المستنقعات الملحية الواقعة عند مصب التيبر وعلى امتداد الشاطىء الغربي في أواسط ايطاليا . وأما أحجار البناء من مختلف الأنواع ، بما في ذلك الرخام الممتاز ، فإنها كانت على الدوام وفيرة . وفضلاً عن ذلك فإن لاتيوم وأترووريا وغيرهما من أقاليم ايطاليا

غنية بالصلصال الصالح لصناعة أنواع ممتازة من الآجر والقرميد والآنية الفخارية .

ثالثاً – نتائج طبيعة تكوين إيطاليا

وإذا لم يكن من شأن طبيعة تكوين ايطاليا تنمية التجارة الخارجية ، فإنه لم يكن من شأنها كذلك تيسير سبل المواصلات الداخلية ولا تحقيق الوحدة السياسية ، فقد كان من معوقات ذلك كله امتداد شبه الجزيرة امتداداً طويلاً يلازمه امتداد جبال الأبنين امتداداً منحرفاً ، لم يترتب عليه اعاقة الاتصال بين الشاطئين الشرقي والغربي فحسب ، بل كذلك بين شبه الجزيرة ووادي البو . وفضلاً عن ذلك فإن أ كثر أنهار شبه الجزيرة لم تكن مواتية لاستخدامها في النقل والانتقال بسبب سرعة جريانها وتباين كميات مياهها من وقت إلى آخر . وهكذا كانت وحدة ايطاليا الجغرافية وحدة ظاهرية أكثر منها حقيقية . وقد أسهمت الطبيعة من ناحية أخرى في تعويق وحدة ايطاليا ، ذلك أن الميزات التي حبت بها ايطاليا شجعت على الهجرة إليها شعوباً عديدة شديدة البأس محبة للحرب متباينة في الأصل وفي الحضارة .

بيد أن موقع روما في وسط شبه الجزيرة الإيطالية ، عند مكان يسهل فيه عبور نهر التيبر وعلى قيد مسيرة يوم من الشاطىء الغربي وبذلك كانت في مأمن من قراصنة البحر ، أكسبها ميزة كبرى على مدن الشمال والجنوب سواء بسواء . ومع ذلك فإنه لم يتيسر لروما أن توحد شبه الجزيرة إلا بعد أن خاضت غمار حروب ضروس عديدة . وحتى بعد نجاح روما في توحيد شبه الجزيرة الإيطالية تحت لوائها ، لم تستطع ضم الأقليم الشمالي – وادي البو – إلا بعد أن أنفقت في ذلك قدراً كبيراً من الوقت والجهد والدماء ، ومع ذلك فإنها لم تضمن ولاءه الدائم لها إلا في أواخر العصر الجمهوري بعد

أن نشرت حضارتها في أرجائه . وعندما بسطت روما سيطرتها على شبه الجزيرة تحسنت سبل المواصلات الداخلية . وذلك من ناحية بفضل ما وجهته من عناية إلى تنظيم مجاريها المائية بالوسائل الهندسية . ومن ناحية أكبر بفضل شبكة الطرق العامة التي أنشأتها لربط أجزاء البلاد المختلفة بعضها ببعض . وبسيطرة روما على شبه الجزيرة الإيطالية أصبحت تسيطر على إقليم لا تفوقه في عالم البحر المتوسط إلا مصر من حيث عدد السكان .

وإذا كان موقع روما في وسط شبه الجزيرة عاملاً بالغ الأهمية في بسط سيطرتها عليها . فإن كثرة عدد سكان شبه الجزيرة وموقعها في وسط البحر المتوسط لم يكونا أقل أهمية في بسط سيادة روما على عالم هذا البحر . ذلك أن روما ما أن نجحت في السيطرة على شبه الجزيرة حتى أتاح لها موقع دولتها ووفرة المقاتلين الذين كانوا تحت أمرتها أن تعالج أمر خصومها واحداً بعد الآخر في الأوقات المناسبة لها . وأن تبني امبراطوريتها المترامية الأطراف .

بيد أن كون ايطاليا أبعد من بلاد الإغريق عن مراكز الحضارة القديمة في مصر وغيرها من بلدان الشرق جعلها أقل تعرضاً لتأثير تلك الحضارات . وتبعاً لذلك تأخر نموها الحضاري عن بلاد الإغريق ومنطقة بحر إيجة . غير أن اعتدال مناخ ايطاليا وخصوبة أرضها وجودة مراعيها ووفرة غاباتها الغنية بالأخشاب الصالحة لصناعة السفن وسهولة الوصول إليها بحراً وبراً على السواء شجعت على الهجرة إليها بالتدريج مما كان له أثره في تحضرها .

ونجاح روما في بناء امبراطوريتها أثار اعجاب ودهشة المفكرين والمؤرخين القدامى سواء أكانوا من الرومان أم من الإغريق . فأولوا هذا الأمر عنايتهم وحاولوا العثور على تفسير شاف له . وانطلاقاً من الأفكار السياسية والفلسفية السائدة في عصور الكتاب القدامى . وهي القائلة بأن مجد الدولة يستند على عاملين أساسيين هما رقي نظمها والصفات الخلقية التي يتحلى بها أبناؤها ،

عزا الكتّاب القدامى نجاح روما إلى كمال الدستور الروماني وفضائل المواطنين الرومان . بيد أن الأبحاث المستفيضة التي أجريت في أحوال الحياة في روما وفي ايطاليا وفي باقي عالم البحر المتوسط قد أثبتت أن رأي الكتّاب القدامى في الدستور الروماني وفي فضائل المواطنين الرومان رأي مبالغ فيه ، وأن هذا الرأي على كل حال لا يفسر تفسيراً شافياً نجاح روما في بناء امبراطوريتها وأن عوامل هذا النجاح كانت أكثر عمقاً وتعقيداً من العاملين اللذين أوردهما أولئك الكتّاب ، وأنه لا يمكن التعرف على هذه العوامل إلا بدراسة دقيقة للأوضاع التي كيفت مجرى الحوادث في روما وفي ايطاليا وفي باقي عالم البحر المتوسط ، على نحو ما سنتبينه في الفصول التالية .

الفصل الثاني

سكان ايطاليا الأوائل(1)

لما كان استخدام الكتابة في ايطاليا لم يأخذ في الانتشار قبل حوالي عام ٥٠٠ ق.م. ، وكانت الروايات المتناقلة من جيل إلى جيل قلما تتناول أحداثاً تسبق هذا التاريخ بوقت طويل ، فإن مصادر تاريخ ايطاليا في عصورها الأولى تكاد أن تكون مقصورة على نتائج أعمال الحفر والتنقيب ، وعلى النتائج المستمدة من دراسة بقايا لغات الأقوام التي كانت تسكن ايطاليا عند

---

(١) المراجع :

W. E. Heitland, op. cit., Vol. I, 3; M. A. Cury, History of Rome , Ch. II; A. E. R. Boak, op. cit., Ch. II; T. E. Peet, The Stone and Bronze Ages in Italy and Sicily ; L. Homo, Primitive Italy and the Beginnings of Roman Imperialism (Trans. 1926) : J. Whatmough, The Foundations of Roman Italy ; H. J. Rose, Primitive Culture in Italy, 1926, Chs. I and II; A. Grenier, Bologne villanovienne et étrusque; D. Rundall — Mac Iver, Villanovans and Early Etruscans, 1924; The Iron Age in Italy, 1927; Italy before the Romans, 1928; Oxford class. Dict., s.v. Dialects, Italic; C.D. Buck, Grammar of Oscan and Umbrian; L.B. Brea, Sicily Before the Greeks, 1957 ; H. H. Scullard, History of the Roman World From 753 To 146 B.C., 1969, Ch. I, 3.

بداية العصور التاريخية . ولسوء الحظ أن هذه النتائج جميعاً لا تُلقي على بداية تاريخ ايطاليا إلا أشعة متذبذبة غير باهرة لا يمكن أن نتبين يقينا في ضوئها سوى المعالم العامة للتطور الحضاري الباكر في ايطاليا وللهجرات الرئيسية إليها ، والتاريخ التقريبي لهذه الهجرات . وتبعاً لذلك لا بد من انتظار نتائج كشوف أثرية جديدة في المواقع البدائية الإيطالية للفصل في كثير من المشاكل المتعلقة بالتفاصيل وبتاريخ هذه الهجرات .

أولاً – العصر الحجري القديم

وقد كان شأن أيطاليا شأن شمال أفريقيا من حيث أن كلا منهما لم يعرف عصور الجليد (البلايستوسين) التي عرفتها أواسط أوربا وشمالها وغير ذلك من أصقاع العالم . ولما كانت ايطاليا معتدلة المناخ ، غنية بمواردها الطبيعية ، ولا تفصلها حواجز مانعة عن الأقاليم الأوربية المجاورة ، وكانت تتصل اتصالاً مباشراً بالقارة الافريقية إلى أن حدث في خلال عصر الجليد الرابع (الأخير) أن هبط مستوى سطح الأرض في حوض البحر المتوسط مما أدى إلى انفصالها عن افريقيا . فإنه لا يسعنا إلا أن نعجب من أنه لم يُعثر حتى الآن في ايطاليا على مخلفات تشهد باقامة الإنسان فيها قبل العصر الحجري القديم الأوسط ، وهو الذي يقابل في جهات أخرى بأوربا الفترة الواقعة بين عصري الجليد الثالث والرابع .

وفي خلال هذه الفترة كان المناخ حاراً رطباً وكانت تغشى الغابات والمراعي فرس الماء والفيل والكركدن وغير ذلك من الحيوانات المدارية جنباً إلى جنب الوعل والثور البري (Bison) والحصان وغير ذلك من الحيوانات الشمالية . وقد كشف في طبقة جيولوجية بعينها ، في كهوف الجبال وبين حصباء الأنهار بجهات كثيرة في ايطاليا عن أدوات وأسلحة صوانية ومعها

عظام حيوانات معاصرة لتلك الفترة الزمنية ، كما أنه كشف في هذه الطبقة الجيولوجية ذاتها عن بقايا هياكل بشرية من النوع المسمى إنسان النياندرتال (Neanderthal) . ولما كانت هذه الأدوات والأسلحة أقدم ما كشف عنه حتى الآن من مخلفات الإنسان في ايطاليا ، وكانت هذه الأدوات والأسلحة الصوانية مصنوعة بطريقة التشظية ، وهي التي يتسم بها العصر الحجري القديم الأوسط ، وكان إنسان النياندرتال ينتشر في أرجاء أوربا وحوض البحر المتوسط في خلال هذا العصر ، فإنه يمكن القول عن يقين بأن أول عهد الإنسان الاقامة في ايطاليا يرجع إلى ذلك العصر .

والعصر الحجري القديم الأعلى ، وهو الذي يقابل عصر الجليد الرابع أو الأخير ، يتميز بوجه خاص بأمرين : وأحدهما ، هو اختفاء الإنسان البدائي المسمى « إنسان النياندرتال » ليخلفه نوع الإنسان الحديث المسمى «الإنسان العاقل » (Homo Sapiens) ، وهو الذي وفد على أوربا من آسيا وافريقيا . والأمر الآخر هو ظهور فن الكهوف . وقد كشف في كهوف جريمالدي (Grimaldi) ، على شاطىء ليجوريا بالقرب من الحدود بين ايطاليا وفرنسا ، عن مدافن عديدة تنهض محتوياتها دليلاً على أن ايطاليا عرفت عندئذ نوعين جديدين من السكان أحدهما أقدم عهداً من الآخر . والنوع الأقدم يتسم بسمات متزنجة (negroid) ، والنوع الأحدث ينتمي إلى تلك الفئة من الناس التي أطلق عليها اسم كرومانيون (Cro-Magnon) وكانت تعيش في جنوب فرنسا في أواخر العصر الحجري القديم وتتمتع بقدرة فنية عالية في رسم الحيوانات وتصويرها على جدران الكهوف .

وفي كهوف جريمالدي كان الموتى يدفنون في خنادق غير عميقة ، إما ممدُدين وإما جالسين القرفصاء. وكانت الجثث تغطى بكميات كبيرة من أصداف البحر ، وبقلائد مصنوعة من هذه الأصداف ، وكذلك بأدوات

صوانية . وقد وجدت في المدافن كميات من بقايا المغرة (اللون الأحمر) لعل أنها كانت تستخدم في طلاء جثث الموتى . ويظن أن محتويات هذه المدافن توحي بأن أربابها كانوا يعتقدون في حياة ثانية يحتاجون فيها إلى الأشياء المادية التي كانوا يعتبرونها ثمينة في هذه الدنيا .

وفي خلال العصر الحجري القديم كان شأن سكان ايطاليا شأن سكان أقاليم أخرى في العالم من حيث أنهم كانوا قد عرفوا النار وصنع الأدوات والأسلحة من الخشب والصوان ولكنهم لم يكونوا قد عرفوا بعد استئناس الحيوان أو زراعة الأرض . وتبعاً لذلك كانوا يعيشون على ما يصيدونه من حيوان وأسماك وما يجمعونه من ثمار ونباتات صالحة للأكل ، ولا يستقرون في مكان واحد بل يتنقلون من جهة إلى أخرى سعياً وراء الرزق ، ويتخذون من الكهوف مساكنهم ومدافنهم .

ثانياً — العصر الحجري الحديث

والمرحلة الحضارية التالية هي مرحلة العصر الحجري الحديث ، وهي التي بدأت في ايطاليا حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م. عندما وفدت عليها أفواج متتابعة من مهاجرين جدد يبدو أن بعضهم قدموا من شمال افريقيا ودخلوا شبه الجزيرة الإيطالية وصقلية وسردينيا وقورسيقا من الجنوب ، والبعض الآخر قدموا من أسبانيا بالطريق الساحلي في جنوب فرنسا ووصلوا إلى ليجوريا في الشمال الغربي من ايطاليا ، والبعض الثالث جاءوا من أواسط أوربا ودخلوا وادي البو عن طريق ممرات الألب .

وتعزى بداية العصر الحجري الحديث في ايطاليا إلى استقرار هؤلاء المهاجرين الجدد فيها لأنهم استقدموا معهم حضارة جديدة تتميز بثلاث ظواهر رئيسية ظهرت تباعاً في ركاب أفواج هؤلاء المهاجرين الجدد الذين وفدوا

أفواجاً تاو أفواج . وهذه الظواهر هي : **أولاً** ، مهارة عالية في صنع الأدوات والأسلحة الحجرية أضافت طريقة جديدة هي طريقة الصقل أو السحق إلى طريقة التشظية القديمة وطورت الطريقة القديمة تطوراً كبيراً . وقد ترتب على ذلك كله ازدياد الانتاج وتبعاً لذلك ازدياد القدرة على سد حاجة الإنسان إلى متطلبات الحياة في ظروفها الجديدة . ومن أهم مخلفات هذا العصر التي وجدت في ايطاليا رءوس سهام حجرية، وهي التي تعتبر في كل مكان دلالة قاطعة على حضارة العصر الحجري الحديث . **وثانياً** ، صنع الآنية الفخارية ونسج الأقمشة ، وهما صناعتان لم يعرفهما الإنسان قبل هذا العصر . ومما يجدر بالملاحظة أن الآنية الفخارية كانت تصنع في هذا العصر باليد ثم توضع في أفران غير مسقوفة . وكانت هذه الآنية متعددة الأشكال والأحجام لتوائم متطلبات الإستعمال اليومي وكذلك متطلبات الدفن ، وكانت تزخرف عادة زخرفة بسيطة من الطراز المعروف بطراز الزخرفة الهندسية ، أي بخطوط ودوائر محفورة . **وثالثاً** ، الإنتقال من مرحلة جمع القوت والتقاطه إلى مرحلة إنتاج القوت عن طريق الزراعة واستئناس الحيوان وتربية أنواع مختلفة منه . وهذا الإنتقال بل الإنقلاب الإقتصادي يعتبر من أجل الخطوات التي خطاها الإنسان في شوط التقدم الحضاري . وقد ترتبت على ذلك نتيجتان هامتان : وإحداهما ، هي استقرار الإنسان في قرى تحيط بها الحقول والمراعي ؛ والأخرى ، هي نمو عدد السكان نمواً كبيراً بفضل إمكان توفير كميات كبيرة من الغذاء بانتظام .

ومن المسلم به حتى الآن أن هذا الانقلاب الاقتصادي الجليل الشأن ظهر أول ما ظهر في الشرق الأدنى ، حيث قامت أقدم الجماعات القروية المؤلفة من المزارعين والرعاة في فترة تمتد من حوالي عام ٧٠٠٠ إلى حوالي عام ٥٥٠٠ ق.م. ومن الشرق الأدنى نشرت جماعات من المهاجرين نظام انتاج القوت صوب الغرب في الأقاليم المطلة على البحر المتوسط وصوب الشمال

الغربي في مختلف أرجاء أوربا . وتبعاً لذلك يبدو أن المهاجرين الذين وفدوا من شمال افريقيا أدخلوا هذا النظام الاقتصادي الجديد إلى صقلية وسردينيا وقورسيقا وجنوب ايطاليا ، وأن المهاجرين الذين نزحوا من أواسط أوربا أدخلوه إلى شمال ايطاليا الشرقي . ومن المحتمل أن يكون هذا النظام الاقتصادي قد ظهر أول ما ظهر في هذه الأرجاء حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م . ثم أخذ ينتشر بالتدريج فلم يواف عام ٢٥٠٠ ق.م. حتى كان قد انتشر في كل شبه الجزيرة الايطالية ووادي البو وصقلية وسردينيا وقورسيقا . بيد أنه يجب أن نشير إلى أن الزراعة لم تبلغ من الأهمية مبلغ تربية الحيوان عند سكان ايطاليا في العصر الحجري حين كانت الثيران والأغنام والماعز والخنازير والحمير أهم أنواع حيوانتهم المستأنسة . ومع ذلك فإن سكان ايطاليا كانوا يزرعون عندئذ أنواعاً متعددة من الحبوب الغذائية وكذلك الكتان ، ولكنهم فيما يبدو لم يمارسوا بعد زراعة الفاكهة وان كانوا يأكلون البرية منها . وقد استمر كذلك الصيد والقنص مصدراً هاماً من مصادر توفير القوت .

وتدل المخلفات الأثرية على أنه في الشمال الغربي كان سكان ليجوريا لا يزالون يعيشون في الكهوف حيث كانوا أيضاً يدفنون موتاهم ، وعلى أنه في الجزء الشرقي من وادي البو ، جنوبي هذا النهر ، كان يوجد عدد كبير من القرى تنهض دليلاً عليها بقايا أكواخها . وكانت هذه الأكواخ بوجه عام إما مستديرة وإما بيضاوية الشكل . ولا يبعد أن جدران هذه الأكواخ وسقوفها كانت تتألف من قوائم خشبية تتشابك معها أغصان صغيرة أو أعواد من البوص أو حزم من القش ، وتغطي ذلك كله طبقة من الطين . وفي العادة كانت أرضيات هذه الأكواخ تحفر إلى عمق يبلغ حوالي المتر تحت مستوى الأرض المحيطة بها . وفي الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة الإيطالية وكذلك في صقلية توجد قرائن على أن أهالي هاتين المنطقتين كانوا في العصر الحجري الحديث يعيشون في كهوف وكذلك في أكواخ قروية .

ويتبين من المقابر الإيطالية الكثيرة التي ترجع إلى العصر الحجري الحديث أنه إذا كانت هناك فوارق محلية بين هذه المقابر ، فإن عادات الدفن في أنحاء ايطاليا جميعاً كانت متماثلة بوجه عام . ذلك أنه في كل الحالات تقريباً كان الموتى يدفنون في وضع يشابه وضع الجنين في بطن أمه ، وكان الدفن يتم إما في أرضيات الكهوف وإما في خنادق أو حفر أعدت خصيصاً لهذا الغرض ، وأحياناً كانت جوانب المقابر وفتحاتها تُغطي بألواح حجرية وأحياناً أخرى كانت المقابر تملأ بأكوام من الحجارة لحماية جثث الموتى . وفي العادة كان الموتى يدفنون بملبسهم وحليهم وإلى جانبهم أسلحتهم وكذلك آنية فخارية تحتوي طعاماً وشراباً . وإنه لمما يستوقف النظر العثور على هياكل عظمية مطلية بالمغرة . وقد أدلي في تفسير ذلك برأيين : وأحدهما هو أنه بعد الوفاة كان اللحم يُنزع والهيكل يُطلى ، والآخر — ولعله أدنى إلى القبول — هو أنه بعد تآكل اللحم كان الهيكل يُطلى ويُعاد دفنه .

ويدل ما كشف عنه حتى الآن من مخلفات العصر الحجري الحديث في ايطاليا على إنه كانت تعيش في أرجائها عند حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. عدة أقوام مختلفة لا نعرف عن مظاهرها الحضارية إلا ما تنم عنه هذه المخلفات . ومع ذلك فاننا قد لا نعدو الحقيقة إذا تصورنا أن هذه الأقوام كانت تنتظم في وحدات قروية منفصلة عن بعضها بعضاً ، وأنها لم تعرف باسم مشترك واحد . وإذا كانت لغات هذه الأقوام قد اختفت معها إلا حيثما بقيت ماثلة في أسماء أماكن احتفظ بها أولئك الذين خلفوا تلك الأقوام في سكنى ايطاليا ، فإن هذه البقايا توحي بأن لغات تلك الأقوام كانت مختلفة عن اللهجات الهندي— أوربية التي عرفتها ايطاليا فيما بعد . ويتبين من الهياكل التي وجدت في مقابر العصر الحجري الحديث أن أغلب الأقوام التي كانت تعيش في ايطاليا في هذا العصر كانت تنتمي إلى ذلك الجنس الذي كان يعيش منذ العصر الحجري الحديث في الأقاليم المطلة على البحر المتوسط وفي جزر هذا البحر . والخصائص

البشرية لهذا الجنس هي : قامة متوسطة وبشرة سمراء وشعر داكن وجمجمة تميل إلى الاستطالة مع فك مستقيم .

ثالثاً — العصر الحجري المعدني

والمرحلة الحضارية التالية في ايطاليا هي مرحلة العصر الذي يسمى العصر الحجري المعدني (Chalcolithic أو Aeneolithic) ، وذلك لأنه إذا كان الناس قد بدأوا عندئذ في استخدام النحاس في صنع أدواتهم ، فانهم لم يستغنوا في هذا العصر عن استخدام الحجر . ومرد ذلك من ناحية إلى أن كمية النحاس التي كانت في متناولهم لم تكن عندئذ بالوفرة الكافية لسد كل حاجاتهم ، ومن ناحية أخرى إلى أن النحاس كان أقل صلاحية من الحجر للوفاء ببعض الأغراض . وأهم ما عثر عليه من الأدوات المعدنية هي الخناجر والمقاطع المصنوعة من النحاس النقي . ولما كانت مناجم النحاس الإيطالية قد ظلت غير مستغلة إلى ما بعد هذا العصر بعدة قرون ، فلا بد من أن استخدام النحاس في ايطاليا قد كان نتيجة لعاملين : وأحدهما هو مجيء مهاجرين جدد نرجح أنهم كانوا من المنطقة الوسطى في وادي الدانوب ، فقد كانت هذه المنطقة غنية بالنحاس ، وكان أهل أواسط أوربا قد عرفوا طريقهم إلى شمال ايطاليا في المرحلة الحضارية السابقة . وقد يؤيد ما نذهب إليه أمران : وأحدهما هو مظاهر المرحلة الحضارية الجديدة التي نحن بصددها الآن . والآخر هو أننا سنرى في المرحلة الحضارية التالية مهاجرين جدد ذوي حضارة جديدة تتصل اتصالاً وثيقاً بحضارة حوض الدانوب . ومع ذلك لا بد من أن المهاجرين الجدد الذين وفدوا على ايطاليا في العصر الحجري المعدني كانوا محدودي العدد ، لأنه لا يوجد دليل على مجيء هجرات إلى ايطاليا على نطاق واسع في هذا العصر ، ولا سيما أن مظاهر الحضارة الإيطالية عندئذ — على نحو ما سنرى بعد قليل — لا يمكن أن توحي بذلك . والعامل الآخر هو اتصال سكان ايطاليا

من أهل العصر الحجري الحديث بمن كانوا قد سبقوهم إلى استخدام النحاس ولا سيما شعوب الشرق الأدنى وكانت أسبق شعوب الدنيا في السير قُدماً بركب الحضارة . وفي ضوء ما أوردناه لعل النحاس أن يكون قد أتى إلى ايطاليا في أول عهدها بهذا المعدن لا من الشرق فحسب بل أيضاً من وادي الدانوب . وإذا جاز أن شرق البحر المتوسط كان المصدر الأصلي والرئيسي لايطاليا من النحاس ، فإنه ازاء غنى أسبانيا والمنطقة الوسطى في وادي الدانوب بالنحاس وازاء قيام صلات بين ايطاليا وهاتين المنطقتين يرجح أن هاتين المنطقتين لم تلبثا أن أخذتا تسهمان في تزويد ايطاليا بحاجتها إلى النحاس .

وازاء ما مر بنا من تطور ايطاليا الحضاري فيما مضى لا يمكن ارجاع بداية العصر الحجري المعدني في ايطاليا إلى ما قبل حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. بفترة طويلة . ومظاهر حضارة ايطاليا في هذا العصر تنم عن تطور تدريجي بطيء من حضارة العصر السابق . وآية ذلك أنه أحياناً يكاد أن يتعذر على الباحث المدقق أن يفرق بين بقايا العصر الحجري الحديث وبقايا العصر الحجري المعدني ، وأنه كُشف عن نوعين من المقابر يبدو أنهما كانا وليدي نوعين من المقابر معروفين في العصر السابق ، إذ يبدو أن استخدام الكهوف الطبيعية أفضى إلى استخدام جوانب التلال والجبال لحفر مقابر متفاوتة في الاتساع ، وأن المقابر التي كانت على هيئة خنادق أو حفر تغطى أحياناً جوانبها وفتحاتها بألواح من الحجارة أفضت إلى مقابر حجرية فوق سطح الأرض اتخذ بعضها شكل حجرات يتألف كل جانب من جوانبها وكذلك السقف من كتلة حجرية واحدة . وأغلب هذا النوع من المقابر وكذلك المقابر المتسعة من النوع الأول كانت مقابر جماعية تستخدم للدفن أجيالاً عديدة . وقد وجدت أمثلة النوع الأول من المقابر في وسط ايطاليا وجنوبها ، وأمثلة النوع الثاني في جنوب ايطاليا وفي صقلية وسردينيا .

رابعاً ـ عصر البرونز

وقد كانت المرحلة الحضارية التالية في ايطاليا هي مرحلة عصر البرونز ، وهي المرحلة التي يحتمل أنها بدأت في المنطقة الغربية من وادي البو حوالي عام ١٨٠٠ ق.م. ، وفي المنطقتين الوسطى والشرقية من هذا الوادي حوالي عام ١٤٠٠ ق.م. ، وفي المنطقتين الشمالية والوسطى بشبه الجزيرة الإيطالية في وقت يصعب تحديده ولكنه من المرجح أنه يرجع إلى الشطر الأخير من عصر البرونز الإيطالي وهو الذي انتهى حوالي بداية الألف الأولى قبل الميلاد . ومن الجائز أن يكون عصر البرونز قد ظهر في صقلية وسردينيا قبل ظهوره في وادي البو بفضل العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين هاتين الجزيرتين وبين كريت وبلاد الإغريق منذ قبل عام ٢٠٠٠ ق.م. وينهض دليلاً على ذلك العثور على أسلحة برونزية من الطراز الكريتي وعلى آنية فخارية من الطراز الموقيني (Mycenae) في مقابر صقلية التي ترجع إلى عصر البرونز ، وبلوغ حضارة سردينيا العتيقة ذروتها في هذا العصر . وازاء ذلك لا يبعد أن تكون حضارة صقلية في عصر البرونز قد أثرت في حضارة المنطقة الجنوبية شبه الجزيرة الإيطالية ، وأن يكـ ن ظهور حضارة عصر البرونز في هذه المنطقة أسبق منه في المنطقتين الوسطى والشمالية بشبه الجزيرة .

وقد بدأ عصر البرونز الإيطالي في وادي البو عندما أخذت تفد عليه أفواج شعب جديد يلوح أنها أقامت أولى قراها على شواطىء بحيرة ماجيوري ، ثم أخذت تنتشر بعد ذلك في المنطقة الغربية من وادي البو حيث أقامت قراها على شواطىء بحيرات أخرى هناك . وهذه القرى كانت تتألف من نوع جديد من المساكن يسمى « مساكن الركائز » (Palafitte ومفردها Palafitta) ذلك أن هذه المساكن كانت تقام في المياه الضحلة عند حافة البحيرات على عوارض خشبية كانت ترفعها فوق مستوى سطح الماء ركائز غرست في

الأرض الرخوة . وعندما حدث فيما بعد أن ارتفع مستوى سطح الماء في البحيرات بحيث غمرت المياه هذه المساكن هجرها أصحابها ولم يتبق من المساكن إلا ركائزها ، وهي التي كُشف عنها في خلال القرن التاسع عشر عندما هبط مستوى سطح الماء في البحيرات . ولما كانت هذه المساكن شديدة الشبه بمساكن البحيرات في سويسرا ، فإن هذا يوحي بأن المهاجرين الجدد وفدوا من سويسرا على ايطاليا عبر ممرات الألب . وعلى الأرض الجافة بالقرب من « مساكن الركائز » وجدت مقابر بها آنية فخارية جنازية ومعها حلي وأشياء أخرى . وهذه الآنية تحتوي على رماد جثث الموتى مما يدل على أن المهاجرين الجدد لم يختلفوا عن سابقيهم من سكان وادي البو من حيث نوع المساكن فحسب بل أيضاً من حيث أنهم كانوا لا يدفنون موتاهم وإنما يحرقون جثثهم .

وكان سكان وادي البو الجدد يمارسون قنص الحيوان وصيد السمك وكذلك الزراعة ونسج الأقمشة وصناعة الآنية الفخارية باليد . وكانت هذه الآنية تزخرف بصفوف من الدوائر والخطوط المتعرجة التي حفرت في جوانبها . وإذا كان لم يعثر في إحدى قراهم الباكرة على أية مخلفات تنم عن استخدامهم أدوات معدنية ، فإنه عُثر في قرية أخرى أحدث عهداً من الأولى على أدوات برونزية كثيرة تنتمي إلى مرحلة متقدمة جداً من مراحل حضارة عصر البرونز الإيطالي ، وهي التي يبدو أنها عمرت في شمال ايطاليا حتى حوالي عام ١٠٠٠ ق.م.

وحوالي عام ١٤٠٠ ق.م. ظهرت في المنطقتين الوسطى والشرقية بوادي البو حضارة أخرى من حضارات عصر البرونز الإيطالي . ولما كانت أطلال القرى التي أقامها أصحاب هذه الحضارة تؤلف تربة خصبة سوداء ، وكان الإيطاليون المحدثون يدعون هذه التربة السوداء « تراماري » (Terramare) ،

فإن الباحثين درجوا على تسمية هذه الحضارة « حضارة تراماری » وتسمية أصحابها « تراماريقولي » (Terramaricoli) . وفي أعقاب الكشوف الأولى عن قرى أصحاب هذه الحضارة ومساكنهم ذهب الباحثون إلى : ١- أن هذه القرى كانت تخطط وفقاً لنسق قياسي واحد كان منحرف الشكل (Trapezoidal) وتمتد فيه شوارع تتقاطع مع بعضها بعضاً في زوايا قائمة ، ويحيط بالقرية جسر من التراب وخندق مملوء بالماء ؛ ٢- وأن هذا التخطيط كان النموذج الذي استمد منه تخطيط المعسكر الروماني في عصور متأخرة ؛ ٣- وأن مساكن هذه القرى كانت تقام على ركائز ، شأنها شأن « مساكن الركائز » التي كانت تقام على شواطىء البحيرات ، أي إنها كانت تطبيقاً لفكرة هذه المساكن على الأرض الجافة ومن المحتمل على أرض المستنقعات . بيد أنه في ضوء ما تمخضت عنه الكشوف المتتالية من معلومات أوفى مما كان متوافراً من قبل لا بد من أن نطرح جانباً كل هذه الآراء المبتسرة . فقد تبين أن قرى أهل « حضارة تراماری » لم تخطط وفقاً لنسق قياسي ، وأنه في بعض الحالات فقط كانت تحيط بهذه القرى جسور من التراب وأحياناً كان يصحب الجسر سياج من الخشب ، وأن المساكن في هذه القرى كانت أكواخاً مستديرة الشكل في أول الأمر ولكنها لم تلبث أن أصبحت مستطيلة ، وأنه لا يوجد أي دليل على اقامتها فوق ركائز إلا في حالات قليلة تنتمي إلى فترة متأخرة .

وعلى مقربة من هذه القرى وجدت مقابر أصحابها ، وكان مثلهم مثل أصحاب « مساكن الركائز » يحرقون جثث موتاهم ويضعون رمادها في آنية فخارية جنازية كانت في أول الأمر تكدس أعداد منها جنباً إلى جنب في مقبرة واحدة ، ولكنه في مرحلة تالية أصبح كل إناء يفصل عن الآخر بلوح صخري ، ثم في مرحلة أخرى أصبح كل إناء يوضع في مقبرة منفصلة كما أصبح مألوفاً أن يوضع مع الأناء الجنازي عدد من الآنية الأخرى والحلي فضلاً عن بعض الأسلحة والآلات الموسيقية المصنوعة من البرونز . وتدل

مخلفات « التراماريقولي » على أنهم كانوا أوفر ثراء وأسمى حضارة من أصحاب « مساكن الركائز » وعلى أن حضارتهم كانت وثيقة الصلة بحضارة عصر البرونز المعاصرة في حوض الدانوب عند المجر مما يوحي بأن « التراماريقولي » وفدوا أصلاً من هناك على ايطاليا . وكان هؤلاء الوافدون الجدد يمارسون قبل كل شيء الزراعة وتربية الحيوان ، بيد أنهم كانوا يمارسون أيضاً الصيد والقنص وينسجون الأقمشة وعلى قدر كبير من المهارة في صناعة الآنية الفخارية والأدوات والأسلحة البرونزية فضلاً عن أعمال الخشب .

وفي ضوء معلوماتنا الحالية يصعب تكوين فكرة واضحة عن أصحاب الحضارات التي قامت في شبه الجزيرة الإيطالية ذاتها في خلال عصر البرونز . ومع ذلك فإنه لا بد من أن تكون قد وفدت عليها في خلال هذا العصر أقوام جديدة في أعداد كبيرة بحيث استطاعت هذه الأقوام – ومعها مهاجرو المرحلة الحضارية التالية – أن تنشر في كثير من أرجاء شبه الجزيرة عدداً من اللهجات ما أن أهلّ العصر التاريخي حتى كانت قد خلفت اللغات القديمة المستخدمة في تلك الأرجاء . ولما كانت هذه اللهجات تنتمي إلى أسرة اللغات الهندي – أوربية ، وكانت تمثل الفرع الإيطالي لهذه اللغات ، فإن الباحثين يدعون هذه اللهجات « اللهجات الإيطالية » (Italic) وأصحابها « الأقوام الإيطالية » . وحيث أن هذه اللهجات شديدة القرب من اللغتين الإغريقية والقلتية (Celtic) ، فإنه ليس من الإسراف في الرأي الربط بين ظهور هذه اللهجات في شبه الجزيرة الإيطالية وبين الهجرات الكبرى التي قامت بها الأقوام الهندي – أوربية من أواسط آسيا صوب الغرب فيما بين عام ٢٠٠٠ وعام ١٠٠٠ ق.م. وإذا كان يمكن القول بأن أصحاب الحضارتين اللتين ظهرتا في وادي البو في عصر البرونز كانوا ينتسون إلى الأقوام الهندي – أوربية ، فإنه لا يوجد دليل على هجرات من وادي البو إلى شبه الجزيرة في خلال هذا العصر . وتبعاً لذلك لا بد من أن يكون قد أتى من الخارج بطريق أو آخر أولئك المهاجرون الجدد

الذين استقروا في شبه الجزيرة في عصر البرونز . وأغلب الظن أن يكونوا قد أتوا أفواجاً تلو أفواج واستقروا في أغلب أنحاء شبه الجزيرة وصقلية في أواخر عصر البرونز الإيطالي .

ويبدو أن ذلك كان أيضاً شأن الألّوريين (Illyrioi) الذين هاجروا من شبه جزيرة البلقان وجاءت بعض أفواجهم إلى ايطاليا بالسير حول الطرف الشمالي للبحر الأدرياتي ، على حين أن أفواجاً أخرى منهم أتت إليها مباشرة عبر هذا البحر . وقد استقر فريق من هؤلاء المهاجرين في المنطقة الشمالية الشرقية (فنتيا Venetia) وفريق آخر في المنطقة الوسطى الشرقية (بيقنوم Picenum) وفريق ثالث في المنطقة الجنوبية الشرقية (ابوليا Apulia وقالابريا Calabria) وفريق رابع في المنطقة الجنوبية الغربية (لوقانيا Lucania واقليم البروتيي Brutii) . ويقطع بالأصل الألّوري لهؤلاء المهاجرين ما كشف عنه من المخلفات الأثرية في هذه المناطق والأثر الألّوري الواضح في اللهجات المحلية الي كان سكان هذه المناطق يستخدمونها في العصور التاريخية.

خامساً — عصر الحديد

ويتسم تاريخ ايطاليا في الشطر الأول من الألف الأولى قبل الميلاد بظاهرتين. والظاهرة الأولى هي المرحلة الباكرة من عصر الحديد ، وهي التي بدأت عند أوائل الألف الأولى قبل الميلاد واستمرت حتى حوالي عام ٦٠٠ ق.م. وفي رأي بعض الباحثين[١] أن قيام حضارة عصر الحديد في ايطاليا « جاء في أعقاب هجرات أصحاب اللهجات الإيطالية نتيجة لاتصالهم بأهالي وادي الدانوب وشبه جزيرة البلقان » . بيد أن البعض الآخر من الباحثين[٢] يعزون

---

(١) A. E. R. Boak, op. Cit., p. 17.

(٢) M.A. Cary, op. cit., p. 13; J. C. Stobart, The Grandeur that was Rome, 1961, pp. 11 - 12; H. H. Scullard, op. cit., p. 7.

ذلك إلى هجرة هندي — أوربية جديدة أتت في أوائل الألف الأولى قبل الميلاد من وادي الدانوب حيث ازدهرت حوالي أواخر الألف الثانية قبل الميلاد صناعة الأدوات والأسلحة الحديدية . وتسمى هذه الحضارة « حضارة هالشتات » (Hallstat) نسبة إلى المدينة التي وجدت فيها كميات كبيرة من مخلفات هذه الحضارة ، وتقع هذه المدينة في وادي الدانوب بالقرب من سالزبورج. ونحن نميل إلى الأخذ بالرأي الثاني لأن كل مرحلة حضارية جديدة في ايطاليا جاءت في أعقاب هجرة جديدة من خارجها ، ولا سيما أنه في عصر البرونز كانت «حضارة الترامارى» وليدة هجرات من وادي الدانوب . وفضلاً عن ذلك فاننا رجحنا أن يكون أحد العاملين اللذين أديا إلى استخدام النحاس في ايطاليا هو قدوم مهاجرين من وادي الدانوب . وبوصول المهاجرين الجدد في المرحلة الباكرة من عصر الحديد تكون قد اكتملت العناصر الرئيسية التي نشأت منها تدريجاً الأقوام الأيطالية التي سنلقاها فيما بعد . وإذا كان يبدو أن أصحاب الحضارة الجديدة كانوا في أول الأمر يستقدمون الحديد من حوض الدانوب فانهم على مر الزمن أصبحوا يحصلون من جزيرة ألبا على حاجتهم من هذا المعدن .

وحضارة عصر الحديد الباكرة في ايطاليا تسمى بوجه عام « حضارة فيلانوفا » (Villanova) ، وهو اسم جبانة حديثة عند بولونيا (Bologna) في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الإيطالية ، حيث كُشف لأول مرة عن بقايا هذه الحضارة بين أطلال أكبر قرى عصر الحديد الباكر الإيطالي . وإذا كان فريق من هؤلاء المهاجرين الجدد قد انتشر في شمال ايطاليا حول بولونيا ، فإن فريقاً آخر اتجه جنوباً واستقر بعضه في أتروريا والبعض الآخر في لاتيوم . وكان أصحاب حضارة فيلانوفا يعيشون في أكواخ مستديرة الشكل تنتظم في قرى متناثرة غير محصنة ولا منتظمة في تخطيطها إذا جاز القول بأنه كان لها أي تخطيط . وعلى مقربة من كل قرية كانت توجد قبورها ،

أما على هيئة حفر غير منتظمة الشكل تغطي فتحاتها ألواح من الحجر ، وأما على هيئة حفر مستطيلة الشكل تغطي فتحاتها وكذلك جوانبها ألواح من الحجر . وكان هؤلاء القوم أيضاً يمارسون عادة حرق جثث الموتى ويضعون رمادها في آنية فخارية جنازية تغطى عادة باطباق فخارية أو بخوذات معدنية ، لكنه عُثر في لاتيوم على آنية جنازية برونزية تماثل في شكلها شكل الأكواخ التي كان الأحياء يعيشون فيها . ويمكن اعتبار هذه الآنية الجنازية البرونزية تطبيقاً للفكرة التي كانت متبعة في حالة الآنية الجنازية الفخارية السابق ذكرها ، فهي تبدو كأناء مستدير الشكل مسطح القاع تغطيه خوذة تبرز حوافها عن الجدار المستدير . فلا عجب إن كانت هذه الآنية الجنازية البرونزية أحدث عهداً من الآنية الجنازية الفخارية . ومع أن أصحاب هذه الحضارة كانوا يعرفون الحديد ويستخدمونه في صناعتهم ، إلا أنهم استمروا يستخدمون البرونز . والواقع أن صناعة البرونز الإيطالية بلغت في فيلانوفا في خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد أرقى درجات تطورها في العصور السابقة للتاريخ مما يسر صناعة الخوذات والدروع والزرد وكذلك الآنية والصناديق وغيرها من الأدوات المنزلية .

وأما الظاهرة الثانية فانها تتمثل في قدوم جماعتين جديدتين إلى ايطاليا ، وكانت أحداهما تتألف من الأتروسقيين ، وهم الذين جاءوا حوالي أوائل القرن الثامن قبل الميلاد واستقروا على الشاطىء الغربي شمالي التيبر . وكانت الجماعة الأخرى تتألف من الإغريق ، وهم الذين أخذوا يفدون تباعاً منذ حوالي منتصف القرن الثامن حتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد وينشئون لأنفسهم مستعمرات في الجزء الجنوبي بشبه الجزيرة من طرف البحر الأدرياتي حتى خليج نابولي وكذلك في صقلية .

سادساً ـ سكان ايطاليا عند القرن السادس قبل الميلاد

وإذا كانت ايطاليا قد شهدت في المرحلة الباكرة من عصر الحديد إنبثاق الجماعات الإنسانية المختلفة التي لعبت أدواراً رئيسية في تاريخها في خلال العصور التاريخية ، فإنه لا يمكن تتبع تاريخ أكثر هذه الجماعات ولو في إطاره العام قبل القرن السادس قبل الميلاد حين نستطيع تحديد أسماء هذه الجماعات ومواطنها . ولما كان الباحثون قد درجوا على أن يتخذوا من الجنس واللغة أساساً لتقسيم سكان ايطاليا في العصور التاريخية إلى قسمين يتألف أحدهما من « الأقوام الإيطالية » (Italic) ، والآخر من الأقوام « غير الإيطالية » (Non - Italic) ، فاننا سنعرض فيما يلي توزيع سكان ايطاليا عند القرن السادس قبل الميلاد وفقاً لهذا التقسيم : (انظر خريطة ايطاليا)

الإيطاليون

وكان الإيطاليون موزعين على النحو التالي :

١ — في أقليم لاتيوم — وهو يقع جنوبي نهر التيبر فيما بين الشاطىء الغربي والسلسلة الرئيسية لجبال الأبنين — كان يسكن اللاتين (Latini) ، وهم الذين كان في ضمير الدهر أن بعضاً منهم وهم الرومان سيصبحون بعد بضعة قرون سادة ايطاليا فالعالم المتحضر. ومن المحتمل أن اللاتين كانوا أساساً ثمرة امتزاج أربعة عناصر رئيسية : كان أحدها عنصر مهاجري العصر الحجري الحديث ، وكانوا قليلي العدد ويمارسون عادة دفن الموتى ؛ وكان الثاني عنصر مهاجري أواخر عصر البرونز من أصحاب اللغة الهندي — أوربية ، وكانوا أكثر رقياً وأوفر عدداً من العنصر السابق ويمارسون عادة حرق جثث الموتى ؛ وكان الثالث عنصر مهاجري أوائل عصر الحديد من أصحاب اللغة الهندي — أوربية ، وكانوا أقل عدداً وإنما أكثر تحضراً من سابقيهم وان كانوا مثلهم يتبعون عادة حرق جثث الموتى ؛ وكان الرابع عنصراً من المهاجرين قدموا كذلك في أوائل

عصر الحديد ، إنما من المناطق المجاورة في جبال الأبنين ، وكانوا أدنى من أهل العنصرين الثاني والثالث عدداً وحضارة ويتبعون عادة دفن الموتى . ومنذ أواخر القرن السابع قبل الميلاد أخذ الأتروسقيون يبسطون سيطرتهم على أقليم لاتيوم . وفي أعقاب ذلك انضمت إلى العناصر السابق ذكرها نسبة ضئيلة من الأتروسقيين .

وأما الجماعات الإيطالية التي أخذت منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد تنزح عن مواطنها في جبال الأبنين لتغير على جنوب لاتيوم ونجحت في الاستقرار هناك ، فإنها لم تندمج في اللاتين أو تعتبر في عدادهم .

وعلى مشارف لاتيوم كانت تنزل عدة قبائل صغيرة ، مثل الهرنيقي (Hernici) والفاليسقي (Falisci) . ولما كانت هذه القبائل تماثل اللاتين إلى حد كبير من حيث الجنس واللغة ، فإنه يمكن اعتبارها في عدادهم .

٢ — وفي وديان المنطقة الوسطى من جبال الأبنين كان يعيش عدد كبير من القبائل كثيراً ما تدعى القبائل الأومبرية — السابلية (Umbro-Sabelli) لأن أبرزها كانت قبائل الأومبري (Umbri) في الشمال والسابلّي (Sabelli) في الجنوب . ومما يجدر بالملاحظة أن الفرع الإيطالي للغات الهندي — أوربية كان يتسم بلهجات متعددة أهمها ثلاث ، وهي اللاتينية والأومبرية والأوسقية . وعلى حين كانت اللاتينية تختلف اختلافاً واضحاً عن اللهجتين الأخريين كان هناك وجه شبه كبير بين هاتين اللهجتين . وكانت مجموعة القبائل التي تستخدم اللهجة الأومبرية تدعى القبائل الأومبرية ، والمجموعة التي تستخدم اللهجة الأوسقية تدعى القبائل السابلية .

وكانت أهم هذه القبائل هي : الأومبري والسابيني (Sabini) والمارسي (Marsi) والبايلجني (Paeligni) والأيكوي (Aequi) والفولسقي (Volsci) والفستيني (Vestini) والهيربيني (Hirpini) والسمنيين (Samnites) . وكان

السمنيون أقوى القبائل السابلية وأشدها بأساً.ولعل هذا هو ما حدا بالمؤرخين القدماء إلى أن يدعوا السمنيين « سابلّي » .

ومنذ القرن السادس قبل الميلاد أخذت هذه القبائل في الانتشار على حساب جيرانها صوب الجنوب والجنوب الغربي . ومن المرجح أن هذه القبائل تكونت أساساً من امتزاج سلالة أهل العصر الحجري الحديث مع مهاجري أواخر عصر البرونز من أصحاب اللغة الهندي — أوربية .

غير الإيطاليين

وكان غير الإيطاليين موزعين على النحو التالي :

١ — في المنطقة الشمالية الغربية — وهي تشمل وادي البو من جبال الألب حتى نهر تيقينوس (Ticinus) شرقاً بما في ذلك المنطقة الساحلية حتى نهر الأرنوس جنوباً — كان يعيش الليجوريون (Ligures) ، وإذا كانوا بوجه عام من سلالة سكان هذه المنطقة في العصر الحجري الحديث ، فلا بد من أن يكونوا قد تأثروا بطريقة أو أخرى ببعض الهجرات التالية لأننا نجدهم في مطلع العصور التاريخية يستخدمون لغة هندي — أوربية .

٢ — في المنطقة الشمالية الشرقية — وهي تمتد من السفوح الجنوبية لجبال الألب إلى السفوح الشمالية الشرقية لجبال الأبنين ، ومن نهر تيقينوس غرباً إلى البحر الأدرياتي وشبه جزيرة إستريا (Istria) شرقاً — كان أهم السكانهم :

ا — الفنتي (Veneti) الإلّوريون في الطرف الشرقي شمالي نهر البو ، فيما بين بحيرة جاردا وشبه جزيرة إستريا ، وكانت لغتهم مثل لغة الإلّوريين بوجه عام من فصيلة اللغات الهندي — أوربية .

ب — عدد من القبائل كانت تنزل إلى الشمال والغرب من الفنتي حتى أقليم الليجوريين . وكانت أهم هذه القبائل هي قبائل الرايتي (Raeti) ، جيران الفنتي ، وكانت لغتها مزيجاً من عناصر الّورية وعناصر

لغات أواسط أوربا ، مما ينم عن أن هذه القبائل كانت تتألف من مهاجرين التوريين وممن سبقوهم إلى تلك الأرجاء من مهاجري أواسط أوربا . وفي خلال القرن السادس قبل الميلاد كانت أكثر هذه القبائل تخضع لسيطرة الأتروسقيين .

حـ – سلالة أصحاب حضارة فيلانوفا ، وكانوا ينزلون شمالي جبال الأبنين وشرقيها فيما بين نهر البو وأريمينوم (Ariminum) على شاطىء الأدرياتي وقد وقع هؤلاء أيضاً تحت سيطرة الأتروسقيين .

٣ – في المنطقة الوسطى ، شرقي القبائل الأومبرية – السابلية فيما بين أنقونا (Ancona) ونهر سانجرو (Sangro) ، كانت توجد مواطن البيقنس (Picenes) أو البيقنتس (Picentes) ، وكانوا من سلالة أهل العصر الحجري الحديث إلى أن امتزجت بهم عناصر التورية في أعقاب هجرة الألوريين إلى شبه الجزيرة الإيطالية في أواخر عصر البرونز .

٤ – في المنطقة الجنوبية الشرقية – وهي تشمل أبوليا وقالابريا القديمة – كان يعيش عدد من القبائل هي الداونيي (Daunii) والبيوقتيي (Peucetii) والمسابيي Mesapii ، ولكنه يطلق عليها جميعاً اسم اليابوجي (Iapygi) . والطابع السائد لهذه القبائل طابع التوري ، مما يدل على أن المهاجرين الإلوريين الذين استقروا في هذه المنطقة في أواخر عصر البرونز كانوا من الكثرة بحيث استوعبوا السكان الذين كانوا قد سبقوهم إليها .

٥ – في المنطقة الجنوبية الغربية – وهي تشمل لوقانيا وأقليم البروتيي – يبدو أنه في العصور التاريخية كانت تسكن قبائل تكونت من امتزاج سلالة أهل العصر الحجري الحديث الذين وفدوا من شمال افريقيا مع المهاجرين الألوريين الذين جاءوا في أواخر عصر البرونز . وكانت أهم القبائل في هذه المنطقة قبيلتا الأوينوتري (Oenotri) والخونس (Chones) . وأما قبيلة الأوسقي (Osci) فإن ذات اسمها يدل على أنه لم يكن لها وجود قبل غزوة السابلي

أصحاب اللهجة الأوسقية . وعلى كل حال فإن الإغريق كانوا أصحاب السيادة على أقليم البروتيي بأسره والجزء الساحلي في لوقانيا .

٦ — في الجزء الجنوبي ، على امتداد الشاطىء من طرف البحر الأدرياتي حتى خليج نابولي ، أنشأ الإغريق منذ حوالي نصف القرن الثامن حتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد مجموعة كبيرة من المستعمرات مما أكسب هذا الشاطىء اسم « بلاد الإغريق الكبرى » (Magna Graecia) .

٧ — في أقليم قمبانيا (Campania) — وهو يقع على الساحل الغربي فيما بين لاتيوم شمالا ولوقانيا جنوباً وجبال الأبنين شرقاً — كانت تنزل قبائل الأوسونس (Ausones) وهي من سلالة أهل العصر الحجري الحديث الذين وفدوا من شمال افريقيا . وكانت هذه القبائل تنفرد بهذا الأقليم إلى أن وفد عليه الإغريق عند منتصف القرن الثامن قبل الميلاد والأترسقيون في أوائل القرن السادس قبل الميلاد والسابلي في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد .

٨ — أقليم أترووريا ، وهو يشمل المنطقة الواقعة غربي السلسلة الرئيسية لجبال الأبنين فيما بين نهري الأرنوس والتيبر . ومن المحتمل أن أغلب سكان هذا الأقليم كان مثلهم مثل سكان أقليم لاتيوم مزيجاً من أربع سلالات هي : سلالة مهاجري العصر الحجري الحديث ، وسلالة مهاجري أواخر عصر البرونز ، وسلالتي عنصرين من المهاجرين أتيا في المرحلة الباكرة من عصر الحديد . ومع ذلك فإن هؤلاء السكان لا يعتبرون في عداد الأقوام الإيطالية ، لأنه عندما سيطر الأتروسقيون على هذا الأقليم منذ أوائل القرن الثامن قبل الميلاد فرضوا لغتهم على أهله ونشروا حضارتهم بينهم وأقاموا كثيراً من المدن الكبيرة في أرجاء هذا الأقليم . وقد كان من شأن ذلك كله أنه خلع على هذا الأقليم طابعاً أتروسقياً مميزاً إلى حد أن اسم هذا الأقليم استمد من اسم هؤلاء الغزاة الأجانب ، وهم الذين أخذوا يبسطون سلطانهم على الأجزاء

الوسطى والشرقية من وادي البو . وعلى بعض أجزاء لاتيوم وقمبانيا ، على نحو ما أشرنا فيما مضى وسنرى بعد قليل .

٩ ــ صقلية : إلى أن استولى الإغريق على الشاطئين الجنوبي والشرقي وعلى جزء من الشاطىء الشمالي وتوغلوا في الداخل ، دون أن يستطيعوا الإمتداد إلى الطرف الغربي لاستيلاء القرطجنيين عليه ؛ كان سكان صقلية ــ وهم الذين يدعون صيقولي (Siculi) أو صيقلس (Sicels) ــ يتألفون مثل جيرانهم سكان المنطقة الجنوبية الغربية بشبه الجزيرة الإيطالية من امتزاج سلالة أهل العصر الحجري الحديث مع المهاجرين الإلّوريين . ولكن مع اختلاف نسبة كل من العنصرين في هذا المزيج بحيث أن نسبة العنصر الأول إلى الثاني كانت في صقلية أكبر منها في شبه الجزيرة .

ويتبين من هذا العرض أنه عند نهاية القرن السادس قبل الميلاد كانت تعيش في مختلف مناطق ايطاليا عدة جماعات إنسانية متباينة في الجنس وفي الحضارة . وهذا يفسر ما سبقت الإشارة إليه من أنه جنباً إلى جنب العوائق المترتبة على طبيعة تكوين ايطاليا الجغرافي كانت هناك عوامل أجل خطراً تعترض سبيل الوحدة السياسية وتكوين أمة ايطالية واحدة . وقبل أن نمضي قُدماً في عرض ما كان من أمر هذه الجماعات . يجب أن نتناول في الفصل التالي الكلام عن الأتروسقيين والإغريق بسبب الأثر البالغ الأهمية الذي ترتب على مجيئهم إلى ايطاليا . ذلك أنه في أعقاب ذلك دُعم اتصال الأقوام الإيطالية ببعض الحضارات القديمة الباهرة في شرق البحر المتوسط . مما نتج عنه انتقال تلك الأقوام من حياة البداوة إلى الحياة المتحضرة بدرجات متفاوتة . وفضلاً عن ذلك فإن تلك الأقوام مثلت في صفحات المدونات التاريخية ؛ فنحن ندين إلى الإغريق بأقدم ما كتب عن ايطاليا وسكانها .

الأتروسقيون والإغريق

أولاً — الأتروسقيون[1]

كان الرومان يدعون جيرانهم إلى الشمال الغربي منهم الأتروسقي (Etrusci) أو التوسقي (Tusci) ، وهم الذين كان الإغريق يدعونهم التورسنوي (Tyrsenoi)

---

(١) المصادر :

Appian., IX, 66; Dionys. Hal., I, 26 - 30; Herod., I, 94; Justin., XX, 5; Plin., N. H., III, 50, 51; 112 ff; 133; Strab., V, 2, 1 - 2, 4; Tacit., Ann., IV, 55; XI, 14; Thucyd., IV, 109; Liv., V, 33; Corpus Inscriptio num Etruscurum, Leipzig.

المراجع :

Cambridge Ancient History, vol. IV, Chs. XII - XIII; Vol. VII, Ch. XII, 2; R. A. L. Fell, Etruria and Rome, 1924; D. Randall — Mac Iver, Villanovans and Early Etruseans, 1924; L. Homo, Primitive Italy, Ch. III; M. A. Johnstone, Etruria Past and Present, 1930; M. A. Cary, History of Rome, 1938, pp. 18 - 25; P. Ducati, Le Propblème étrusque, 1938; M. Pallottino, The Etruscans, 1955; A. E. R. Boak, op. cit., Ch. III, 1; F. Poulsen, Etruscan Tomb Paintings, 1922; F. Weege, Etruskische Malerie, 1921; J. D. Beazley, Etruscan Vase Painting, 1947; H. H. Scullard, op. cit., pp. 13 - 20.

أو التورنوي (Tyrrhenoi) . على حين أنهم كانوا يدعون أنفسهم الراسنا (Rasenna) ، وذلك وفقاً لرواية اغريقية . وذكرى بعض هذه الأسماء ما زالت باقية حتى يومنا هذا . ذلك أن الأقليم الذي كان هؤلاء القوم يسكنونه قديماً يدعى اليوم تسقانيا ، وطراز أعمدتهم وكذلك طراز معابدهم يدعيان الطراز التسقاني ، والبحر الذي يفصل الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية عن جزيرتي قورسيقا وسردينيا يدعى البحر التيراني .

١ — أصل الأتروسقيين :

ومشكلة أصل الأتروسقيين لا تزال مثار جدل منذ العصور القديمة حتى اليوم . وبيان ذلك أنه في رأي هرودوتوس — وهو الذي كتب عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد — أن الأتروسقيين وفدوا من ليديا في آسيا الصغرى . وأما المؤرخ الإغريقي ديونيسيوس الهاليقرناسي — وهو الذي كتب في خلال النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد — فإنه يبرز وجوه الخلاف بين اللغتين الأتروسقية والليدية في عصره وينتهي إلى ضرورة اعتبار الأتروسقيين من أصل ايطالي . وفي خلال القرن التاسع عشر آضاف الباحثون رأياً ثالثاً يتلخص في أن الأتروسقيين كانوا أما مهاجرين أتوا من أواسط أوربا وأما مزيجاً يتألف من هؤلاء المهاجرين ومن الأهالي الذين سبقوهم إلى سكنى أتروريا. وبعد ذلك ظهر رأي يرفض الرأيين الأول والثالث ويؤيد الرأي الثاني القائل بأن الأتروسقيين لا بد من أن يكونوا من أصل ايطالي .

وإذا كان أغلب الباحثين اليوم يرفضون الرأي القائل بمجيء الأتروسقيين من أواسط أوربا ، فانهم ما زالوا منقسمين فريقين رئيسيين يؤيد أحدهما الرأي القائل بأن الأتروسقيين من أصل ليدي . ويؤيد الفريق الآخر الرأي القائل بأنهم من أصل ايطالي . ويستند المؤيدون لأصل الأتروسقيين الإيطالي

على حجتين رئيسيتين : وأحداهما هي أن حضارة الأتروسقيين ليست إلا تطوراً طبيعياً لحضارة فيلانوفا . ذلك أن أغلب المدن الأتروسقية خلفت قرى فيلانوفية سابقة كانت تقوم على المواقع ذاتها أو بالقرب منها ، وأن الأنواع المتعاقبة لمقابر تلك المدن وكذلك خصائص أثاث تلك المقابر تنم عن تطور متتابع متصل الحلقات . والحجة الأخرى ، هي أنه ليس من العسير تفنيد الأسس التي بُني عليها القول بأصل الأتروسقيين الليدي وهي : ١ — خصائصهم البشرية . ٢ — الشكل المنتظم لتخطيط مدنهم . ٣ — طقوسهم الدينية . ٤ — العناصر الإغريقية التي في لغتهم وفي غير ذلك من مظاهر حضارتهم . ذلك أنه لم يثبت ثبوتاً قاطعاً أن خصائص الأتروسقيين البشرية كانت تختلف عن خصائص أصحاب حضارة فيلانوفا . وأنه يمكن تفسير سمات تخطيط مدنهم بأنها كانت المظاهر الطبيعية لحضارة متقدمة ، كما أنه يمكن تفسير العناصر الإغريقية التي في حضارة الأتروسقيين بأنها كانت نتيجة العلاقات التجارية الوثيقة التي قامت بين الإغريق والأتروسقيين .

ولا جدال في أن الحضارة الأتروسقية مزيج من عناصر حضارية ايطالية ومن عناصر حضارية غير ايطالية لا أدل على أصلها الأجنبي من آلاف النقوش التي وصلت إلينا باللغة الأتروسقية ويزيد عددها على تسعة آلاف نقش[1]. وإذا كان الباحثون قد توصلوا إلى معرفة قيمة الحروف الأبجدية الأتروسقية ، ومعنى الكثير من كلمات هذه اللغة ، وقدر محدود عن قواعدها ، فانهم لم يتوصلوا بعد إلى فك طلاسمها وترجمة عباراتها والقطع بحقيقة أصلها . ومع ذلك فإن هناك اجماعاً على أنها ليست من فصيلة اللغات الهندي — أوربية ، غير أن مجموعة أسماء الأعلام الأتروسقية وصيغ تصريف هذه الأسماء تتكشف

---

(١) راجع :

Corpus Inscriptionum Etruscarum, Leipzig, I, 1893 - 1902, II, fasc. i - iii, 1907 - 1936 .

عن وجوه شبه قريبة بينها وبين اللهجة الليدية وغيرها من لهجات آسيا الصغرى الأقدم عهداً من اللغات الهندي – أوربية . وإزاء ذلك فإنه من العسير إغفال الرأي القائل بأن هذه اللهجات وكذلك اللهجة الأتروسقية فروع لغة أصلية واحـدة .

وإذا كان لن يتيسر الفصل بشكل حاسم في مشكلة أصل الأتروسقيين قبل الكشف عن نص مكتوب بلغتين إحداهما الأتروسقية وعن طريق ذلك يمكن حل لغز هذه اللغة ، أو العثور على مخلفات أثرية تمدنا بالحلقات الأثرية المفقودة ، فإنه في ضوء معلوماتنا الحالية قد لا نعدو الحقيقة إذا أخذنا بما يذهب إليه كثيرون من الباحثين اليوم من أن الأتروسقيين وفدوا على ايطاليا من آسيا الصغرى ، وإن لم يكن بالضرورة من ليديا بالذات على حد ما قال به هرودوتوس .

٢ – تاريخ استقرارهم في ايطاليا :

ولا يقف الإشكال عند حد أصل الأتروسقيين ، إذ أن أولئك الباحثين أنفسهم الذين يتفقون على أن الأتروسقيين وفدوا على ايطاليا من آسيا الصغرى يختلفون حول تاريخ وصولهم إلى وطنهم الجديد . بيد أنه لم يعد اليوم ممكناً الذهاب إلى حد القول بأن الأتروسقيين وفدوا على ايطاليا في القرن الثالث عشر قبل الميلاد أو حوالي ذلك على أساس أنهم كانوا التورشا (**Turscha**) [(١)]. فقد كان هؤلاء القوم أحد شعوب البحر التي تحالفت مع الليبيين وحاولت غزو مصر في العام الخامس من عهد مرنبتاح (١٢٢٦/١٢٢٧ ق.م.) لكن هذا الفرعون رد الغزاة على أعقابهم . وفي ضوء معلوماتنا الحالية يبدو أنه ليس من الإسراف في الرأي القول بأنه في أعقاب وصول بعض التجار

---

(١) Cf. G.A. Wainwright, Anatolian Studies, 1957, pp. 197 ff.

الأتروسقيين إلى الأقليم الواقع بين نهري الأرنوس والتيبر وتعرفهم على خيرات هذا الأقليم وأحوال سكانه أخذت تفد تباعاً أفواج منهم في المرحلة الباكرة من عصر الحديد عند حوالي بداية القرن الثامن قبل الميلاد ، وبأن الأتروسقيين برغم قلة عددهم إستطاعوا السيطرة على وطنهم الجديد بفضل كونهم أرقى حضارة وأحسن تنظيماً وأمضى أسلحة من أهالي هذا الوطن .

٣ — المدن الأتروسقية :

وتشير القرائن إلى أن الأتروسقيين إستولوا أول الأمر على المواقع الإستراتيجية القريبة من الساحل الغربي ثم أخذوا يتوغلون في الداخل حتى سيطروا على أقليم أتروريا بأسره ، وكانوا يستقرون عادة على مواقع القرى القديمة المقامة فوق قمم التلال أو في أماكن يسهل الدفاع عنها . وعلى مر الزمن قام في أماكن استقرارهم نحو من ثماني عشرة مدينة حصينة وافرة الثراء . وكانت أقدم هذه المدن جميعاً تقع بالقرب من الساحل الغربي وهي : تاركوينيي (Tarquinii) وقايري (Caere) وفولقي (Vulci) وفتولونيا (Vetulonia) وبوبولونيا (Populonia) ، على حين أن المدن التي أنشئت في الداخل كانت أحدث عهداً ، ومثل ذلك فولسينيي (Volsinii) وبروجيا (Perugia) وارتزو (Arezzo) وفياي (Veii) . وكانت هذه المدينة الأخيرة أعظم المدن الأتروسقية جميعاً .

وكان لكل مدينة نوعان من التحصينات ، أحدهما مادي يتألف من جسر طيني ضخم كانت بعض أجزائه تغطى أحياناً بطبقة من الأحجار ، والآخر معنوي كان عبارة عن منطقة خلاء تحيط من الخارج بالجسر ولا يجوز شغلها أو زرعها ، على نحو يماثل ما سنراه في روما حيث كان هذا النوع من الأسوار يسمى بومريوم (Pomerium) . وأما الأسوار المبنية كلها من الأحجار وهي التي كان يُظن فيما مضى أنها أتروسقية من القرن السادس

قبل الميلاد ، فإن الباحثين يرون اليوم أن أقدم الموجود منها في أتروريا لا يمكن أن يكون تاريخه سابقاً لأواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، وأن الموجود منها خارج أتروريا يرجع إلى فترة لاحقة لزوال السيادة الأتروسقية عن تلك الجهات .

وكانت المدن الأتروسقية تقام وفقاً لتخطيط منتظم قوامه شارعان كبيران يتقاطعان مع بعضهما بعضاً . وكانت الشوارع الرئيسية ترصف بالأحجار وتزود بالمجاري لتصريف مياه الأمطار . وكان أثرياء الأتروسقيين يعيشون في منازل رحبة ذات طابق واحد أو طابقين مبنية من الخشب أو اللبن ، ويتوسط كل منزل فناء مكشوف به بهو أعمدة مربع الشكل من الطراز المعروف عند الإغريق (Peristylon) . وكان الفناء يؤدي إلى باقي قاعات المنزل ومنها قاعته الرئيسية (atrium) وهي التي كانت تتقدم الفناء وأخذها الرومان عن الأتروسقيين .

٤ – المعابد :

وكانت المعابد أهم المنشآت العامة في المدن الأتروسقية . وكان المعبد الأتروسقي النمطي يقف على قاعدة مرتفعة ويتألف من جزءين رئيسيين : اولهما قاعة العبادة (Cella) وبهو أعمدة أمامها . وكانت الجدران تبنى من اللبن فوق أساس من الحجارة ، وأما الأعمدة وعوارض السقف المؤلف من سطحين مائلين يلتقيان في زاوية حادة فانها كانت تصنع من الخشب وتكسى بطبقة من الفخار (terracotta) . ومن هذه المادة كانت تصنع أيضاً تماثيل توضع فوق السقف .

٥ – المقابر :

ويبدو أن أكثر الأتروسقيين كانوا يدفنون موتاهم ، ولكنه وجدت أدلة

كذلك على حرق جثث الموتى وبخاصة في شمال أتروريا وداخلها . وفي حالة الدفن كانت الجثث تودع في توابيت تزخرف بالنقوش ، وفي حالة الحرق كان رماد الجثث يحفظ في آنية جنازية فخارية مزخرفة بالألوان . وكانت مقابر الفقراء إما حفراً وإما خنادق ، على حين أنه في حالة الأثرياء كانت المقبرة إما غرفة بنيت فوق سطح الأرض وغطيت بكومة كبيرة من التراب (tumulus) ، وإما غرفة مستديرة الشكل مقببة السقف (tholos) بنيت عند سفح أحد التلال ، وإما عدداً كبيراً من الغرف حفرت في الصخر. ومن المرجح أن المقابر الكبرى التي من النوع الأخير كانت مقابر جماعية أسرية ، وكانت تزخرف أما بنقوش بارزة حفرت في الصخر وإما بصور رسمت بالألوان . وقد أمدتنا المقابر الأتروسقية بعدد كبير من أنصاب الموتى وكميات هائلة من الأثاث الجنازي .

وتعتبر المقابر الأتروسقية أهم مصادر معلوماتنا عن الأتروسقيين ، فأولاً نتبين من النقوش المدونة على أنصاب الموتى — وهذه النقوش تؤلف الغالبية العظمى من النقوش الأتروسقية التي وصلت إلينا — أن الأتروسقيين أخذوا عن الإغريق أبجديتهم . وفي رأي بعض الباحثين أن ذلك حدث قبل مجيئهم إلى ايطاليا . وفي رأي البعض الآخر أنه حدث بعد مجيئهم نتيجة لاتصالهم باغريق قوماي (Cumae) . وعلى كل حال فإن القرائن توحي بأن اللغة الأتروسقية ظلت حية حتى القرن الثاني للميلاد ، وبأن سكان ايطاليا جميعاً — باستثناء الإغريق وسكان الأقاليم التي تأثرت بحضارتهم — أخذوا أنماط كتاباتهم عن الأتروسقيين بطريق مباشر أو غير مباشر . وثانياً ، نستمد من زخارف مقابرهم الكثيرة جُلّ معلوماتنا عن مظهرهم وملبسهم وعاداتهم . وثالثاً ، تعطينا مقابرهم صورة واضحة عن حضارتهم بفضل زخارفها ومحتوياتها الكثيرة الفخمة من توابيت وآنية جنازية وغير جنازية وأدوات معدنية صنعت إما من البرونز كالمرايا وصناديق أدوات الزينة ، وأما من الذهب وأما من الفضة

كمختلف أنواع الحلى . ويستكمل هذه الصورة ما عُثر عليه من بقايا منشآتهم ، ومن أسلحتهم المعدنية . ومن التماثيل الكبيرة والصغيرة المصنوعة إما من البرونز وإما من الفخار . وينم ذلك كله عن أمرين : وأحدهما ، هو ثراء عريض وغرام كبير بالحياة المترفة وان لم يستتبع ذلك حتماً الأسراف في اشباع شهوات الجسد على نحو ما يذهب إليه بعض الكتاب الإغريق . والأمر الآخر الذي تنم عنه مخلفات الأتروسقيين هو نوعان متتابعان من المؤثرات الخارجية ، كان أقدمهما مؤثرات شرقية مردها إلى علاقاتهم التجارية الوثيقة مع الفينيقيين وربما أيضاً إلى أصلهم إذا صحأنهم وفدوا فعلاً من آسيا الصغرى. وكانت المؤثرات الخارجية الأحدث عهداً مؤثرات اغريقية أخذت تنمو باطراد منذ القرن السابع قبل الميلاد نتيجة لاتصالهم باغريق قوماي في خلال القرن السادس قبل الميلاد ، وكذلك فيما يبدو نتيجة لاستقرار بعض الفنانين الإغريق في أتروريا . وفي كنف المؤثرات الإغريقية نما الفن الأتروسقي وترعرع ، ولكن الفنانين الأتروسقيين لم يقلدوا النماذج الإغريقية تقليداً أعمى ، ذلك أنهم إذا كانوا قد حاكوها من حيث الشكل والموضوع والطراز ، فإن الأفكار التي أودعوها مبتكراتهم الفنية كانت مستمدة من أفكارهم الأساسية المتصلة بحياتهم اليومية أو بتاريخهم أو بديانتهم ، فقد عُنوا دائماً بالحفاظ على هذه الأفكار وبالتعبير عنها ، وبذلك نجحوا في خلق فن يتسم بطابعهم الخاص . ويتجلى ذلك على أوضح ما يكون في الزخارف المصورة بالألوان التي كانوا يزينون بها آنيتهم وجدران مقابرهم ، حيث يتجلى أيضاً ميلهم أمداً طويلاً إلى الألوان الفاقعة . وإذا كان فنهم — في مختلف مجالاته — يفتقر إلى ما يمتاز به الفن الإغريقي من مثالية وجمال واتساق واعتدال — وكلها صفات وليدة الخيال الخصب والفكر السامي والأحساس المرهف والذوق الرفيع — فإن الفن الأتروسقي يتميز بحيوية دافقة وواقعية طبيعية وكذلك بمهارة فائقة من حيث الصنعة . وإذا كانت قلة تماثيلهم المنحوتة تدل على ادراكهم عبث

مجاراة الإغريق في هذا المجال ، فإن تماثيلهم الفخارية التي تصور السمات الشخصية تصويراً طبيعياً دقيقاً تحتمل المقارنة مع أرقى ما وصل إليه فن النحت الإغريقي في القرن السادس قبل الميلاد . وجملة القول ان الأتروسقيين بلغوا درجة رفيعة من حيث المهارة في الصنعة ودرجة متقدمة من حيث القدرة الفنية لكنهم لم يبلغوا بوجه عام المستوى الذي بلغه الإغريق في أرقى مبتكراتهم الفنية المعاصرة .

٦ ـ الديانة :

وديانة الأتروسقيين كانت منظمة تنظيماً دقيقاً وتحتل مكاناً بارزاً في حياتهم . وقد كان الأتروسقيون يعبدون آلهة متعددة ويؤمنون بالأرواح الشريرة التي تسيطر على العالم الآخر . وقد قبل الأتروسقيون عن طيب خاطر في عداد آلهتهم بعض الآلهة الإغريقية، وفي ركابها دخل الأساطير الأتروسقية قدر كبير من أساطير الإغريق . وافساح المجال أمام عناصر غير أتروسقية في مجال الديانة ، الذي هو عادة أشد المجالات حفاظاً على التقاليد ، خير شاهد على أن الحضارة الأتروسقية التي نمت وازدهرت في ايطاليا لعدة قرون كانت مزيجاً من تراثهم ومما اكتسبوه من غيرهم . وكانت أهم آلهتهم هي تلك التي اتخذوا منها حماة لمدنهم ورعاة لحرفهم . ومن بينها ثالوث شُبّه فيما بعد بالثالوث الروماني المكون من يوبيتر (Jupiter) ويونو (Juno) ومينرفا(Minerva) . وكانت طقوسهم شديدة التعقيد بحيث تتطلب فئات من الأخصائيين لإقامتها والحفاظ على تقاليدها . ومن أجل التعرف على إرادة الآلهة واتقاء وقوع الأخطار وضع الأتروسقيون قواعد دقيقة لاستنباء رضاء الآلهة أو عدم رضائها عن طريق فحص أحشاء القرابين (وبخاصة الأكباد والحويصلات الصفراوية = المرارة) وتفسير ومضات البرق وغير ذلك من الظواهر والنذر . ولذلك فإنه في كل المناسبات الهامة كان خبراء مدربون (haruspices) يتولون إقامة

الطقوس الخاصة بذلك . ولعل أن ما اتسمت به الديانة الأتروسقية من طابع القسوة المخيفة كان أبرز ما يميزها عن المذاهب الدينية الإغريقية والإيطالية . ويتضح هذا الطابع في عدد كبير من المناظر المصورة بالألوان على جدران المقابر الأتروسقية ، فهذه المناظر تصور صروف العذاب التي يلقاها الموتى من الأرواح الشريرة في العالم الآخر . وكسباً لود هذه الأرواح وإرضاء لها وكذلك تكريماً للموتى وضماناً لاستمتاعهم في العالم الآخر بحياة راضية يخلدون فيها ، كان الأتروسقيون يقدمون ضحايا بشرية في مناسبات الوفاة . وكانت العادة الشائعة لقتل هؤلاء الضحايا هي إقامة مبارزات في هذه المناسبات يقتل فيها المتبارزون بعضهم بعضاً . وقد كانت هذه المبارزات الدموية هي النماذج التي أوحت إلى الرومان بمبارزات المجالدين (gladiatores) الجنازية .

٧ ـ مصادر الثروة :

وثروة الأتروسقيين ـ ومقابرهم خير شاهد عليها ـ إستمدت من ثلاثة مصادر ، كان أحدها زراعة الحبوب وغرس أشجار الكروم والزيتون على نطاق واسع . وبقايا مشروعات الري والصرف البارعة ـ مثل السدود وقنوات الصرف الكثيرة التي أقاموها في جنوب أترووريا لحجز المياه وتصريفها ـ تدل على قدرة فائقة في استصلاح الأرض والحفاظ على التربة من التآكل ، مما نتج عنه اتساع رقعة الأرض المنزرعة وتبعاً لذلك زيادة الإنتاج . وكان المصدر الثاني لثروة الأتروسقيين هو استغلال موارد الثروة المعدنية في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم إلى أقصى حد ممكن . وهذه الموارد هي خام النحاس في أترووريا وجزيرة قورسيقا ، وخام الحديد في أترووريا وجزيرة ألبا ، وخام الصفيح في أترووريا . وقد صاحب ذلك ازدهار صناعة المعادن الأتروسقية وبخاصة البرونزية منها وهي التي اكتسبت شهرة كبيرة حتى في أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد . وكان المصدر الثالث لثروة الأتروسقيين هو التجارة ،

فقد كانوا يمارسون التجارة البحرية من قبل استقرارهم في ايطاليا واستمروا يفعلون ذلك أمداً طويلاً . ذلك أنهم ما استقروا في ايطاليا حتى أنشأوا علاقات تجارية وثيقة مع القرطجنيين في شمال افريقيا ومع الفينيقيين في شرق البحر المتوسط . ولم يواف القرن السابع قبل الميلاد حتى أخذت تجارتهم تنشط مع المستعمرات الإغريقية في شبه الجزيرة الإيطالية ومع بلاد الإغريق ذاتها . وأدى ازدهار تجارتهم إلى استخدام العملة ، إذ انه حوالي نهاية القرن السادس قبل الميلاد ترك الأتروسقيون وسيلتهم القديمة في التعامل ، وكانت قطعاً من النحاس غير مهذبة ، وأقبلوا على استخدام العملة التي كانت تسكها المدن الإغريقية في أيونيا بآسيا الصغرى . ومنذ أوائل القرن الخامس قبل الميلاد أخذت بوبولونيا وغيرها من المدن الأتروسقية تسك عملة بعضها من الذهب وبعضها من الفضة وبعضها من النحاس ، مستخدمة في أول الأمر القاعدة التي كانت ليديا تتبعها ثم فيما بعد القاعدة النقدية الشائعة في يوبويا (Euboea) وقمبانيا .

٨ ـ النظامان الاجتماعي والسياسي :

وكان النظامانالاجتماعي والسياسي عند الأتروسقيين نظامين أرستقراطيين. ذلك أن الأتروسقيين لم يؤلفوا في أي وقت أكثر من أقلية صغيرة من سكان أتروريا، ومن هذه الأقلية كانت تتألف الطبقة العليا أو طبقة النبلاء (lucumones) وكان النبلاء أقطاب التجارة والصناعة ويملكون الجانب الأكبر من الأرض الزراعية . وكانت الطبقة الدنيا تتألف من الإيطاليين ، وكان بعضهم يملكون مساحات صغرى من الأرض ، والبعض يمارسون مختلف الحرف ، والبعض موالي يقومون على فلاحة أرض النبلاء . ولما كان الأتروسقيون يشنون حروباً كثيرة ويقع في أيديهم أسرى كثيرون ، وكان مصير أسرى الحروب قديماً أما الإعدام وأما البيع في أسواق النخاسة ، فإنه من المحتمل أن أسرى الحروب كانوا مصدراً آخر من مصادر تزويد الأتروسقيين باليد العاملة .

والمناظر التي زينت بها المقابر والآنية الأتروسقية ترينا أن الطبقة الأرستقراطية كانت تزاول حياة تشبه من قرب حياة الأرستقراطية المعاصرة في المدن الإغريقية وبخاصة في آسيا الصغرى وجنوب ايطاليا . فهذه المناظر تصور الأتروسقيين وهم يحاربون على صهوة جيادهم أو يمارسون مختلف أنواع الألعاب الرياضية المألوفة بين الإغريق – الجري ورمي القرص والرمح والملاكمة والمصارعة وسباق العربات والصيد والقنص – أو يقيمون المآدب الفاخرة والحفلات المتصلة بالطقوس الدينية . وكانت المرأة تحتل مكاناً بارزاً في المجتمع الأتروسقي بدليل أنها كانت تسهم في بعض ألوان النشاط التي ذكرناها ، وأنه في النقوش الجنازية غالباً ما كان يسجل اسم والدة المتوفى .

وفي بداية الأمر كان يحكم كل مدينة أتروسقية ملك يبدو أنه كان يساعده في مباشرة سلطته رؤساء الأسر النبيلة ، وأن الملك كان يُختار من بينهم بالإنتخاب . وفي خلال القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد خلف الملوك بوجه عام حكام ينتخبون سنوياً من النبلاء . وقد انتظمت ثنتا عشرة مدينة من أهم المدن الأتروسقية في عصبة مفككة الأواصر .

٩ – اتساع السيطرة الأتروسقية :

وعندما استتب الأمر للأتروسقيين في أتروريا بدأوا يتطلعون إلى خارجها ، حيث أخذوا يبسطون سيطرتهم تدريجاً أولاً صوب الجنوب وبعد ذلك صوب الشمال . وبيان ذلك أنهم عند أواخر القرن السابع قبل الميلاد عبروا نهر التيبر وتوجوا جهودهم بالإستيلاء على جزء كبير من أقليم لاتيوم وبإقامة ملكيات أتروسقية في عدد من مدن هذا الأقليم كانت روما من أهمها . وفي أوائل القرن السادس قبل الميلاد إمتد زحفهم جنوباً إلى أقليم قمبانيا الخصيب وجعلوا من قابوا (Capua) مركزهم الرئيسي هناك . وبرغم علاقاتهم التجارية الوثيقة مع الإغريق فانهم وقفوا حائلاً دون إنشاء مستعمرات إغريقية في شمال ايطاليا

وفي سردينيا ، بل انهم عندما رأوا اغريق فوقايا (Phocaea) الأيونيين يسيطرون على البحر التيراني منذ أنشأوا مستعمرة ألاليا (Alalia) في قورسيقا حوالي عام ٥٦٠ ق.م. تعاونوا مع القرطجنيين — وهم الذين كانوا أشد منافسي الإغريق في غرب البحر المتوسط — على القضاء على سيادة الفوقايين البحرية بهزيمتهم في معركة بحرية وتحطيم مستعمرتهم حوالي عام ٥٣٦ ق.م. وإذ غنم القرطجنيون سردينيا غنم الأتروسقيون قورسيقا وما فيها من نحاس وغابات شاسعة وكذلك ألبا وما فيها من مناجم الحديد . وعندما حاول الأتروسقيون متابعة الزحف جنوباً في قمبانيا والإستيلاء على المستعمرة الإغريقية الكبيرة قوماي حوالي عام ٥٢٤ ق.م. ردوا على أعقابهم . وحين وقفت قوماي والسمنيون أو السابليون حائلاً دون امتداد الزحف الأتروسقي جنوباً وجه الأتروسقيون نشاطهم الإستعماري صوب الشمال ، ففي أواخر القرن السادس قبل الميلاد عبروا جبال الأبنين وانقضوا على وادي البو ، حيث استولوا على كل المنطقة تقريباً الواقعة بين أقليم الليجوريين غرباً وأقليم الفنتي شرقاً .

ونتيجة لهذا النشاط كان الأتروسقيون في خلال القرن السادس قبل الميلاد يؤلفون أقوى مجموعة سياسية في ايطاليا . ومع ذلك فإن اغريق قمبانيا والسمنيين أو السابليين الإيطاليين نجحوا في الحيلولة بينهم وبين بسط سلطانهم على جانب كبير من ايطاليا . بيد أن الأخطر من ذلك شأناً والأبعد أثراً هو أن عجز الأتروسقيين عن إقامة نظام سياسي وطيد الدعائم أضعف مركزهم وجعله مزعزعاً . ذلك أن فتوحاتهم منذ أن وطأت أقدامهم أرض ايطاليا لم تكن ثمرة مجهود جماعي موحد وإنما ثمرة جهود جماعات صغيرة من المحاربين الأشداء كانت كل منها تعمل لحسابها الخاص دون أن يوجد بين هذه الجماعات إلا قدر طفيف من التعاون ، ففي أعقاب النجاح الأول الذي أصابته كل جماعة أسست لنفسها دولة مستقلة عن غيرها تمام الاستقلال . وإذا كانت غالبية الدول الأتروسقية قد انتظمت في عصبة ، فإنها لم تعترف بأية سلطة

مركزية ولم توجد بين الدول الأعضاء روابط وثيقة ، وإن كانت تتبادل المساعدة عادة في أوقات الشدة وتشارك بعضها بعضاً في إقامة الحفلات الدينية . وإزاء اختلاف الصوالح والأهداف لم تلبث العصبة أن انحلت بالتدريج . وفي الوقت نفسه ، لما كان الأتروسقيون يسرفون في استغلال رعاياهم ويرهقونهم بشتى التكاليف ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك ألا يشعر أولئك الرعايا نحو سادتهم بأي ولاء أو على أحسن تقدير ألا يبالوا بمصيرهم ، فإنه تبعاً لذلك كلما ازداد اتساع الأتروسقيين إزدادت أسباب زعزعة سيطرتهم ، فلا عجب أن النكبات توالت عليهم .

١٠ ـ انكماش السيادة الأتروسقية :

وقد كانت أولى هذه النكبات في لاتيوم ، حيث طردت روما ملكها الأتروسقي في حوالي عام ٥٠٩ ق.م. ، ونجحت بعض المدن الأخرى بمساعدة قوماي في هزيمة جيش أتروسقي عند أريقيا (Aricia) في عام ٥٠٤ ق.م. وعندما حاول الأتروسقيون بعد ذلك ببضع سنوات الإنتقام من عدوتهم اللدودة قوماي وشنوا عليها هجوماً برياً وبحرياً هب هيرون (Hieron) حاكم سراقوسة (Syracusae) إلى نجدة قوماي وحطم الأسطول الأتروسقي في عام ٤٧٤ ق.م. وقد ترتب على ذلك ضياع سيادة الأتروسقيين البحرية مما شجع سراقوسة على الإغارة على جزيرتي قورسيقا وألبا بل انها في عام ٤٥٣ ق.م. هاجمت شاطىء أتروريا ذاته . وينهض دليلاً على أنه لم تقم بعد ذلك للأسطول الأتروسقي قائمة أنه في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد كرر ديونيسيوس الأول حاكم سراقوسة هذه الإغارات ، وكذلك استولى على الموانىء الأتروسقية في البحر الأدرياتي . وكان من جراء اتساع السمنيين أو السابليين في أواسط شبه الجزيرة والإستيلاء على قابوا في عام ٤٣٨ ق.م. ووصول بعض القبائل القلتية إلى أواسط وادي البو عبر ممرات الألب حوالي عام ٤٠٠ ق.م.

واستيلائها على الممتلكات الأتروسقية شمالي الأبنين أن تقلصت السيادةالأتروسقية وأصبحت منذ ذلك الوقت مقصورة على أترووريا ذاتها ، بل ان روما لم تلبث أن نازعتهم هذه السيادة حتى استوعبتهم في حظيرة نفوذها على نحو ما سنرى فيما بعد .

ومع ذلك فإنه لم يترتب على انكماش الأتروسقيين وضعف قوتهم أن حضارتهم تدهورت بل انها استمرت تخطو قُدماً وبلغت أوجها في عهد السيادة الرومانية ، ثم أخذت تضمحل رويداً رويداً في النصف الثاني من عهد الجمهورية الرومانية إلى أن عصفت بأترووريا حضاريا واقتصادياً إضطرابات حروب روما الأهلية وانتشار الملاريا في المناطق الساحلية إبان القرن الأول قبل الميلاد . ومهما تكن مواطن ضعف الأتروسقيين من جشع مجحف برعاياهم إلى قسوة جامحة وأطماع متلاطمة وعجز عن التآلف وإقامة نظام سياسي وطيد الدعائم وافتقار إلى الأصالة وجنوح إلى الإقتباس ، فلا جدال في أنهم كانوا محاربين يتسمون بالنشاط الدافق والجرأة الجارفة . وأهم من ذلك كله أنهم كانوا عاملاً قوي الفعالية في تقدم ركب الحضارة الإيطالية الباكرة ، وتركوا آثاراً بعيدة المدى في مجالات تخطيط المدن والفنون المختلفة وأساليب الحرب والتنظيم السياسي والديانة بين ظهراني كل الأقوام الإيطالية التي اتصلوا بها ، وبوجه خاص في أواسط شبه الجزيرة الإيطالية وشمالها .

ثانياً — الإغريق[1]

إذا كانت أودسة هوميروس تمدنا بأول ما في الآداب الإغريقية من إشارات إلى ايطاليا وصقلية [2] ، فإن ما عُثر عليه في جنوب ايطاليا من سبج (حجر زجاجي أسود Obsidian) منطقة بحر ايجة ومن بقايا آنية مينوئية ، وما عثر عليه في صقلية من أسلحة مينوئية وآنية موقينية ينم عن وجود اتصال بين هذه المنطقة وجنوب ايطاليا وصقلية منذ حوالي ٢٠٠٠ ق.م. وإن كان لا يستتبع حتماً ما تذهب إليه بعض الأساطير الإغريقية من أن مهاجرين من كريت إستعمروا المنطقة الجنوبية الشرقية بشبه الجزيرة الإيطالية. وفي أعقاب انهيار الحضارتين المينوئية والموقينية بعد غزوة الدوريين حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. إنقطع الإتصال القديم بين منطقة بحر إيجة وجنوب ايطاليا وصقلية إلى أن أخذ الهلينيون — أو الإغريق وفقاً للاسم الذي أطلقه عليهم

---

(١) المصادر

Diod., IV - V; and fragments of VIII; Strabo, V - VI; Thucyd. VI, 1 - 5.

وعن الشذرات الباقية مما كتبه افوروس (Ephoros) وفيليستوس (Philistus) وتيمايوس (Timaeus) وسيودو سقومنوس (Pseudo-Scymonus) انظر :

F. Jacoby, Die Fragmente der Griechischen Historiker.

المراجع :

J. B. Bury, History of Greece, 3nd ed., 1951, Ch. II (Colonization); Hammond, History of Greece, 1967, Ch.2(Colonial Expansion); Cambridge Ancient History Vol. III, Ch. XXV; Vol. IV, Ch., XI ; Vol. V, Ch. VI; Vol. VII, Ch. X; D. Randell-Mac Iver, Greek Cities in Italy and Sicily, 1931; T. J. Dunbabin, The Western Greeks, 1948 ; D. J. Paige, Class. Rev., 1956, 95; A. E. R. Boak, op. cit., pp. 28 - 30.

(٢) عن اوديسيوس في ايطاليا ، انظر E. D. Phillips, J. H. S., 1953.

الرومان – يمارسون نشاطهم الإستعماري في غرب البحر المتوسط على مدى قرنين ، منذ حوالي نصف القرن الثامن حتى منتصف القرن السادس قبل الميلاد .

وفي خلال هذين القرنين أنشأ الإغريق في غرب البحر المتوسط عدداً كبيراً من المستعمرات تعنينا منها في هذا المقام مجموعتان ، كانت أحداهما تقع على الشاطئين الشرقي والجنوبي وجزء من الشاطىء الشمالي في جزيرة صقلية . وكانت المجموعة الأخرى تقع على الشاطئين الجنوبي والغربي في شبه الجزيرة الإيطالية ، من تارنتم في الجنوب – على الخليج المعروف باسمها – إلى قوماي في الغرب ، عند الطرف الشمالي لخليج نابولي . وقد مر بنا أن القرطجنيين حالوا دون امتداد الإغريق إلى الجزء الغربي من صقلية ، وأن الأتروسقيين برغم صلاتهم الوثيقة بالإغريق وتأثرهم بحضارتهم منعوا استقرارهم شمالي التيبر ، وأن القرطجنيين والأتروسقيين تعاونوا سوياً على إغلاق سردينيا في وجوه الإغريق وعلى اقصائهم عن قورسيقا وعلى القضاء على سيادتهم على البحر التيراني ، وأن إغريق قوماي أسهموا في وقف زحف الأتروسقيين جنوباً .

وفي خلال القرن الخامس قبل الميلاد بلغت المستعمرات الإغريقية في صقلية وايطاليا أوج مجدها وذروة رفاهيتها . وإذا كان مركز الإغريق في صقلية قد تهدده القرطجنيون بعد توغلهم في داخل الجزيرة وسيطرتهم على الصقليين ، فإن النصر الحاسم الذي أحرزه جلون (Gelon) ، حاكم سراقوسة ، على القرطجنيين في واقعة هيمرا (Himera) في عام ٤٨٠ ق.م دعم سيطرة إغريق صقلية على الجانب الأكبر من هذه الجزيرة ، وخلصهم من الخطر القرطجني لمدة تزيد على السبعين عاماً . ولم تلبث سراقوسة أن غدت أعظم المدن الإغريقية الغربية إلى حد أنها كانت تعتبر « أثينا الغرب » . وقد عرفنا أن هيرون – شقيق جلون وخليفته – حطم الأسطول الأتروسقي في عام

٤٧٤ ق.م. ، وأنه ترتب على ذلك تقويض دعائم سيادة الأتروسقيين البحرية وتخليص إغريق ايطاليا من عدوانهم .

وإذا كان الإغريق قد استعمروا أقليم البروتيي بأسره — وهو عبارة عن امتداد شبه الجزيرة الإيطالية صوب الجنوب الغربي على هيئة شبه جزيرة أخرى — فإنهم شمالي ذلك في لوقانيا حتى بوسدنيا Posedenia = فيما بعد بايستوم Paestum) وشرقي ذلك حتى تارنتم لم يستعمروا إلا المنطقة الساحلية . وبالمثل كذلك في قمبانيا لم تمتد أقاليم المدن التي أنشأوها في هذا الأقليم إلى ما وراء المنطقة الساحلية . ولا أدل على مدى استقرار الإغريق في جنوب ايطاليا وانتشار حضارتهم في هذه الأرجاء من الاسم الذي أطلقوه عليها وهو « بلاد الإغريق الكبرى » (Magna Graecia) .

وقد كان لاستقرار الإغريق في ايطاليا تأثيرات بعيدة المدى في تقدم حضارة الإيطاليين : بعضها مباشرة عن طريق اتصالهم بالإغريق ، وبعضها غير مباشرة عن طريق اتصالهم بالأتروسقيين ، وهم الذين عرفنا إلى أي مدى تأثروا بالإغريق . فإلى الإغريق يعزى إدخال غرس أشجار الكروم والزيتون بعد أن كانت تنمو برية حتى قدومهم ، وبذلك خطوا أولى الخطوات التي أفضت إلى تحويل ايطاليا إلى « بستان أوربا » . وقد كان من شأن ما نشره الإغريق بالتجارة مع الإيطاليين من آنية فخارية وبرونزية ، وما أقاموه في مدنهم من عمائر وتماثيل أنهم زودوا الإيطاليين بنماذج ما قلدوه في هذه المجالات . وصادفت آداب الإغريق وأساطيرهم ومذاهبهم الدينية ونظمهم السياسية إقبالاً كبيراً بين الإيطاليين ، وهم الذين لقنهم الإغريق كذلك أولى دروسهم في فنون القتال المتقدمة وفي تحصين المدن بالأسوار المبنية من الأحجار المستوية الجوانب . وهكذا أعطى الإغريق دفعة كبيرة لتقدم ركب الحضارة الإيطالية ، وقامت مدينة قوماي بدور كبير في هذا الصدد .

وأوضح معالم هذه التأثيرات الحضارية تتجلى في روما نفسها ، حيث كان

مقدراً لبذور الحضارة الرفيعة التي غرسها الإغريق هناك في وقت مبكر أن تنمو مع الزمن – على نحو ما سنرى فيما بعد – وأن تظل باقية حتى سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية . ولم يقتصر فضل الإغريق على ما أجملنا ذكره، ذلك أن أولى معلوماتنا عن الشعوب الإيطالية مستمدة من مؤلفات المؤرخين والجغرافيين الإغريق ، وكان لهم دور كبير في صياغة الأساطير الخاصة بنشأة روما وتاريخ ايطاليا الباكر .

وقد كان من الممكن أن تعمر المدن الإغريقية في ايطاليا وصقلية أكثر مما عمرت ، وأن يتوغل الإغريق في ايطاليا أكثر مما توغلوا ، وأن تكون تأثيراتهم الحضارية هناك أبعد مدى وأوسع نطاقاً ، لو لم ينكبوا في الغرب بمثل ما نكبوا به في بلادهم الأصلية من انفصالية وشقاق . ذلك أن كل مستعمرة كانت تؤلف على حدة دولة مستقلة ذات سيادة ، يقطع أوصال كل منها التناحر الحزبي ، وتفرق بين كل مستعمرة وأخرى الأحقاد والمنازعات . فكم أضاعت هذه المستعمرات من وقت وجهد ومال وفرص وأرواح دون أن تعرف الوحدة إلا لماماً في أوقات الأخطار القصوى . وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه الضروب المختلفة من الصراع بين الإغريق أنفسهم أنهم لم يضيعوا فحسب فرص التوسع إلى ما وراء مناطق استقرارهم الأصلية بل أنهم أيضاً مهدوا السبيل لوقوع مدنهم ، الواحدة بعد الأخرى ، في قبضة الإيطاليين « المتبربرين » (Barbaroi) على حد تعبيرهم ، على نحو ما سنرى فيما بعد .

القسم الثاني

تاريخ الرومان منذ قيام دولتهم
حتى سيطرتهم على شبه الجزيرة الإيطالية

لاتيوم وروما حتى أواخر القرن السادس قبل الميلاد

أولاً – لاتيوم[1]

كان أقليم لاتيوم عبارة عن المنطقة الواقعة بين التيبر ورافده الأنيو (Anio) شمالاً ورأس قيرقيوم (Circeum) جنوباً وساحل البحر غرباً وجبال الأبنين شرقاً ، وبذلك كانت هذه المنطقة تشمل السهل الساحلي والتلال المجاورة

(١) المصادر :

Corpus Inscriptionum Latinarum, Leipzig : Vol., I Inscriptiones Latinae antiquissimae ad Caesris mortem, Editio altero, 1893 - 1918; Vol. XIV, Inscriptiones Latii veteris 1887; H. Dessau, Inscriptiones Latinae Selectae, Berlin, Vol. I - III, 1892 - 1916; P. Zvetaieff, Italiae inferiores dialectiae, Moscow, 1886.

المراجـع :

D. Randall-Mac Iver, Villannovans and Early Etruscans, pp. 73. ff.; L. E. W. Adams, A Study in the Commerce of Latium, 1921; T. Frank, Economic History of Rome, 1927, Ch. I; L. Homo, Primitive Italy, Bk. I, Ch. II; Cambridge Ancient History, Vol. VII, Ch. XI; M. Cary, op. cit., pp. 29 - 31; A. E. R. Boak, op. cit., pp. 33 - 35; H. H. Scullard, op. cit., pp. 20 - 32, 33 - 38.

له ــ وأهمها تل البانوس (Albanus) في الوسط تقريباً وتل لبينوس (Lepinus) في الجنوب ــ وكذلك مستنقعات بومبتيناي (Pomptinae) إلى الجنوب الغربي. من التل الأخير .

وقد مر بنا أن تربة سهل لاتيوم تتألف من طبقة عليا رقيقة مكونة من مقذوفات البراكين تليها طبقات سفلى مكونة من الطين المسيك ، وأن الطبقة البركانية كانت وفيرة الخصب والنماء ، لكنه كان من شأن طبيعة الطبقات السفلى المسيكة وعجزها عن امتصاص مياه الأمطار أن الأراضي الواقعة في المناطق الواطئة كانت عرضة لأن تغمرها المياه وتحولها إلى مستنقعات . وفي صدر التاريخ الروماني أمكن الحفاظ على صلاحية هذه الأراضي للزراعة بإقامة مشروعات للصرف . وبفضل المشروعات التي أنشئت حديثاً أمكن استصلاح هذه الأراضي وزراعتها من جديد . وأما في القرون التي تخللت ذلك فإن هذه الأراضي تحولت إلى مستنقعات .

وفي بواكير التاريخ الروماني أشتهرت المناطق الجبلية في لاتيوم بوفرة أشجار الزان السامقة . وبرغم الاستمرار في عملية قطع الأشجار ، فإن هذه المناطق ما زالت تحتوي أجمات كثيرة من هذه الأشجار . وحين كان أقليم لاتيوم في حالة من البداوة ، كانت هذه المناطق أكثر مناطق هذا الأقليم ازدحاماً بالقرى . وكانت القرى الأخرى تقام عادة على النجاد المتناثرة في أرجاء السهول .

وإزاء موقع جبال الأبنين وارتفاعها وترابط سلسلتها شرقي لاتيوم ، كان لا يجتاز الأبنين ويربط بين لاتيوم والجزء الشرقي من إيطاليا إلا طريق رحب واحد يمضي على امتداد الحدود الشمالية للاتيوم ، مخترقاً وادي الأنيو وبحيرة فوقينوس (Fucinus) . وكانت مستنقعات بومبتيناي وجبل لبينوس تعوق الإتصال بين لاتيوم وقمبانيا بالطريق الساحلي . بيد أنه من ناحية أخرى

سهل الإتصال بين هذين الإقليمين وجود دربين يقعان بين تل البانوس وسفوح الأبنين ويؤديان إلى وادي نهر تريروس (Trerus) ووادي نهر ليريس . وكان التيبر يؤلف حداً طبيعياً قوياً بين لاتيوم وأتروريا . وقد كان مقدراً أنه على ضفاف هذا النهر ستقوم المدينة التي لن تغدو العاصمة السياسية لأقليم لاتيوم فحسب بل أيضاً لشبه الجزيرة الإيطالية قبل أن تغدو على مدى بضعة قرون عاصمة العالم المتحضر بأسره .

وفي بداية العصور التاريخية كان يسكن أقليم لاتيوم حتى تل البانوس قوم من الإيطاليين يدعون اللاتين . وتدل مخلفاتهم الأثرية على أن فريقاً منهم كانوا يمارسون عادة حرق جثث الموتى ، وعلى أن الأثاث الجنازي الذي وجد في المقابر اللاتينية الباكرة كان يشابه الأثاث الجنازي الذي وجد في مقابر فيلانوفا، وعلى أن فريقاً آخر من اللاتين كانوا يمارسون عادة دفن الموتى ، وهي العادة التي كانت شائعة في كل أرجاء ايطاليا حتى العصر الحجري الحديث. وتوحي القرائن بأن اللاتين كانوا مزيجاً من أربعة عناصر رئيسية : وهي ، عنصر مهاجري العصر الحجري الحديث ، وعنصر مهاجري أواخر عصر البرونز ، وعنصر مهاجري عصر الحديد الذين كانوا مثل العنصر الثاني يتبعون عادة حرق جثث الموتى ، وعنصر مهاجري عصر الحديد الذين قدموا من المناطق المجاورة في جبال الأبنين وكانوا مثل العنصر الأول يدفنون موتاهم . وأما إلى الجنوب من تل البانوس فإنه استقرت هنا وهناك أقوام سابلية وبوجه خاص الفولسقي (Volsci) ، وهم الذين احتلوا الجزء الجنوبي الساحلي من سهل لاتيوم منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد .

وحتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد ظل اللاتين يعيشون في مجتمعات قروية شغلها الشاغل زراعة الأرض ورعي الماشية والأغنام ، دون أن تدري شيئاً من أمر التطورات الحضارية الجارية في جهات أخرى بايطاليا . ذلك

أنهم حتى هذا الوقت كانوا يعيشون في عدد كبير من القرى المقامة في مواقع يسهل الدفاع عنها ، ويحيون حياة بدائية بسيطة ينهض دليلاً عليها أن أعرافهم الدينية كانت تتسم بطابع ريفي بحت ، وأن محتويات مقابرهم كانت تكاد أن تخلو تماماً من المصنوعات المستوردة من الخارج . وإذا كانت القلة القليلة من الآنية الفخارية والأدوات البرونزية الإغريقية التي عُثر عليها متناثرة في أرجاء لاتيوم تشير إلى بداية اتصال هذا الأقليم بالخارج ، فإنها تشير كذلك إلى أن هذا الاتصال كان محدوداً جداً .

وبمجيء الأتروسقيين إلى لاتيوم عند أواخر القرن السابع قبل الميلاد شهد هذا الأقليم بداية عصر جديد يدل عليه نوعان من المخلفات الأثرية كشف عنهما في لاتيوم . وقد كشف عن النوع الأول في مواقع لاتينية عديدة ، وكانت أهم أمثلة هذا النوع هي المقابر المنحوتة في الصخر التي عُثر عليها عند مدينة جبلية تسيطر على الطريق المؤدي إلى حوض نهر ليريس وتسمى برابنستى (Praeneste) . وهذه المقابر بأثاثها الجنازي الفخم الذي يضم أدوات وآنية من الذهب والفضة تنهض دليلاً على وجود طبقة أتروسقية حاكمة في برابنستى في خلال القرن السادس قبل الميلاد . ولما كان من المحتمل أنه لم يكن في وسع الأتروسقيين في أوائل الأمر عبور التيبر عند روما ، وكان يوجد معبر قديم للتيبر عند قرية فيدناي (Fidenae) الواقعة شمالي روما بحوالي خمسة عشر كيلو متراً ، وكان يأتي إلى هذا المعبر من مدينتي قايري وفياي في جنوب أترووريا طريق فرعي يؤدي بعد هذا المعبر إلى برابنستى ومنها إلى قمبانيا ، فإنه يبدو أن أول جماعة من الغزاة الأتروسقيين دخلت لاتيوم عن هذا الطريق ، وأن برابنستى كانت أقدم الممتلكات الأتروسقية في هذا الأقليم .

والنوع الثاني من المخلفات الأثرية هو السدود وقنوات الصرف التي عُثر

عليها في وادي التيبر وكذلك في السفوح الجنوبية لتل البانوس ، وهي تشبه عن قرب المنشآت الأتروسقية المماثلة في جنوب أتروريا . وإنشاء هذه السدود والقنوات في أقليم لاتيوم يوحي بازدياد عدد السكان ازدياداً كبيراً ترتب عليه ازدياد الطلب على الأرض الصالحة للزراعة . وتبعاً لذلك ضرورة الحفاظ على الأرض الزراعية الموجودة واستصلاح مساحات جديدة .

ويمكن أن يُعزى أيضاً إلى عهد السيادة الأتروسقية على لاتيوم إزدهار صناعة المعادن في برايِنسْتي وكذلك اقتباس اللاتين الحروف الأبجدية . ومن مظاهر التقدم الحضاري في هذا العهد تحول كثير من قرى لاتيوم إلى مدن حصينة تحيط بها أسوار من الطين وتزينها معابد بنيت وفقاً للطراز الأتروسقي . وإذا كان التقدم الحضاري الذي شهده أقليم لاتيوم في عهد السيادة الأتروسقية يُعزى أساساً إلى هؤلاء السادة ، فإنه لا يجوز اغفال أثر الإغريق بوجه خاص وكذلك أثر القرطجنيين ، فقد أخذ تجار هذين الفريقين يترددون عندئذ بكثرة على مدن لاتيوم الساحلية .

ولا يوجد دليل على أن اللاتين كانوا ينتظمون في وحدة سياسية تؤلف دولة موحدة ، فقد كانوا على العكس من ذلك ينقسمون إلى عدد كبير من الوحدات المستقلة عن بعضها بعضاً ، وكان كل منها يسمى شعباً (**populus** وجمعها **populi**) ، وكان كل شعب يشغل إقليماً (**Pagus**) محدداً كان مركزه مدينة حصينة (**Oppidum**) . ولما كانت الوحدات القوية تميل إلى استيعاب الوحدات الأضعف منها ، فإنه قبل القرن السادس قبل الميلاد كانت وحدات كثيرة من الوحدات الخمس والستين التي حفظت لنا المصادر القديمة أسماء مدنها الحصينة قد اندمجت في جاراتها الأقوى منها .

بيد أنه إذا لم تكن الوحدات اللاتينية تنتظم في دولة موحدة ، فإن هذه الوحدات كانت تنتظم في عدد من الرابطات الدينية ويشارك أهالي الوحدات

أعضاء كل رابطة في اقامة الشعائر الدينية الخاصة بأحد آلهة اللاتين . وكانت أشهر هذه الرابطات ثلاث : وهي ، الرابطة الخاصة بعبادة الإله يوبيتر لاتياريس (Jupiter Latiaris) على تل البانوس ، والرابطة الخاصة بعبادة الإلهة ديانا (Diana) عند بحيرة نمورنسيس (Lacus Nemorensis) ، والرابطة الخاصة بعبادة الإلهة فينوس في لافينيوم (Lavinium) . وإذا كنا لا نعرف عدد أعضاء كل رابطة في أي وقت بعينه. فإن ديونيسيوس الهاليقرناسي يحدثنا بأنه عند أواخر القرن السادس قبل الميلاد كانت سبع وأربعون وحدة تشارك في الحفل السنوي ليوبيتر لاتياريس . وتذكر الروايات القديمة أن مدينة البا لونجا(Alba Longa)الواقعة على الضفة الغربية لبحيرة البانوس (Lucus Albanus) وعلى مقربة من معبد يوبيتر لاتياريس كانت الزعيمة الباكرة لرابطة عبادة هذا الإله . وإذا كانت كل رابطة من هذه الرابطات الدينية تنطوي على أساس صالح لقيام عصبة أو وحدة سياسية ، فإنه لا يوجد أي دليل على اتخاذ أية رابطة من هذه الرابطات الدينية اللاتينية طابعاً سياسياً قبل أواخر القرن السادس قبل الميلاد عندما تطورت رابطة ديانا إلى عصبة سياسية دون أن تفقد صبغتها الدينية الأصلية بدليل أنها كانت تعقد اجتماعاتها في معبد ديانا القريب من بحيرة نمورنسيس . وفي أوائل القرن الخامس قبل الميلاد كانت هذه العصبة تتألف من ثماني مدن هي : اردیا (Ardea) وأريقيا (Aricia) وقورا (Cora) وبومتيا (Pometia) وتيبور (Tibur) وتوسقولوم (Tusculum) . ولعل أن سبب التطور الذي طرأ على رابطة ديانا كان رغبة أعضائها في التخلص من السيادة الأتروسقية وكذلك في الدفاع عن استقلالهم من توسع روما في لاتيوم .

ثانياً — روما

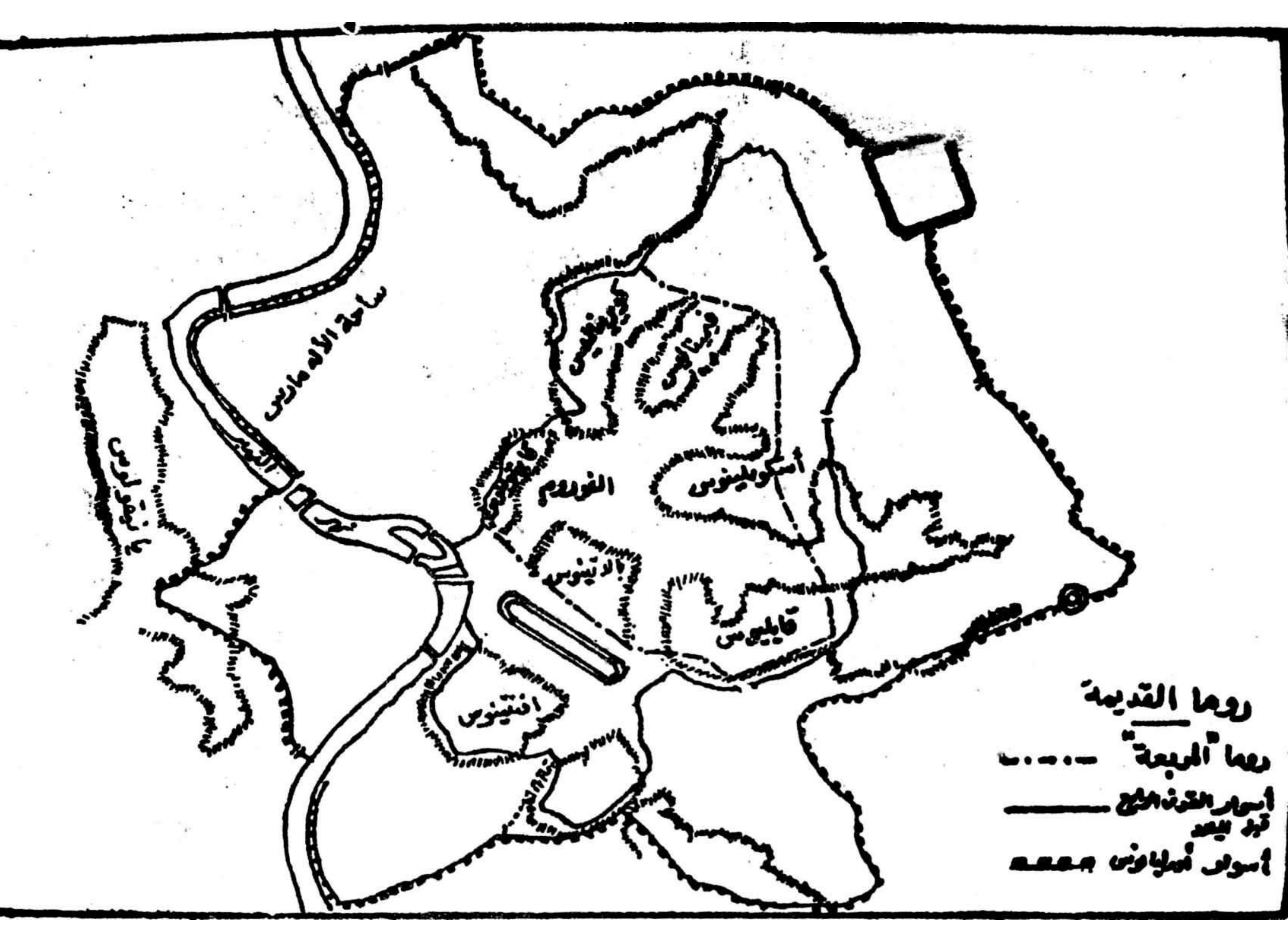
١ — موقعها الجغرافي :

عرفنا أن نهر التيبر كان حداً طبيعياً يفصل بين لاتيوم وأترووريا . وكانت روما تقع على مسافة أربعة وعشرين كيلو متراً تقريباً من مصب هذا النهر في منطقة يكون فيها مجرى التيبر ثنيتين تؤلفان شكلاً يقارب حرف السين (S) اللاتينية . وتحيط بروما مجموعة من التلال تقع على جانبي التيبر ويتراوح ارتفاعها عن مستوى سطح البحر بين ٦٠ و ٩٠ متراً ، ولا يزيد ارتفاعها عن مستوى السهل المجاور على ٣٠ متراً . ويقع على الضفة اليمنى أو الغربية للتيبر تلان هما : تل يانيقولوس (Janiculus) في الجنوب وتل فاتيقانوس (Vaticanus) في الشمال ، ويفصل هذين التلين عن النهر سهلان شماليهما أرحب من الآخر وهو يفصل كذلك هذين التلين عن بعضهما بعضاً ويعرف باسم سهل فاتيقانوس ، أما السهل الآخر فإنه يعرف باسم السهل الواقع عبر التيبر (Transtiberim) . وتقع على الضفة اليسرى أو الشرقية للتيبر سبعة تلال تقف منفصلة عن بعضها بعضاً في صفين شبه مقوسين ، أقربهما إلى النهر أقصر من الآخر وأكثر منه تقوساً ويقابل تقريباً الثنية السفلى للنهر ، وأبعدهما عن النهر أطول من الآخر وأكثر منه انفراجاً ويبدأ تجاه الثنية العليا للنهر ويمتد حتى منتصف الثنية السفلى . وهذه التلال السبعة — من الشمال إلى الجنوب — هي في الصف الأقرب إلى النهر : تلال قابيتوليناوس (Capitolinus) وبالاتينوس (Palatinus) وأفنتينوس (Aventinus) ، وفي الصف الآخر : تلال كويريناليس (Quirinalis) وفيميناليس (Viminalis) وأسكويلينوس (Esquilinus) وقايليوس (Caelius) . (انظر خريطة روما القديمة — ص ٧٥)

وكان يفصل تلال الصف الأول عن تلال الصف الثاني واد مستنقعي يعترضه جرف كان يعرف باسم فليا (Velia) ويمتد من تل بالاتينوس إلى تل أسكويلينوس . وكان هذا الوادي أضيق في نصفه الجنوبي منه في نصفه الشمالي بعد الجرف حيث كان يتسع رويداً رويداً حتى إذا ما بلغ النهاية الشمالية لصفي التلال انفرج إلى ساحة واسعة تحتضنها الثنية العليا للنهر . والنصف الشمالي لهذا الوادي هو الذي غدا الفوروم الروماني (Forum Romanum) ، والساحة المتسعة هي التي أصبحت ساحة التدريب العسكري ولذلك كانت تسمى « ساحة الإله مارس » (Campus Martius) .

ومما يجدر بالملاحظة هنا أمران : وأحدهما ، هو أنه إذا كانت روما تسمى عادة مدينة التلال السبعة ، فأنها لم تشمل التلال السبعة جميعاً الواقعة على الضفة الشرقية للنهر إلا في الشطر الأخير من عصر الجمهورية ، وكذلك في عصر الامبراطورية عندما امتدت عبر التيبر وشملت أيضاً تل يانيقولوس والسهلين المجاورين لهذا التل من الشمال ومن الشرق . والأمر الآخر ، هو أنه عند بداية الثنية السفلى للتيبر تجاه تلي قابيتولينوس وبالاتينوس كان عمق النهر يقل جداً وتتوسط مجراه جزيرة ، مما جعل هذه المنطقة أيسر مكان لعبور النهر فيما بين مصبه في البحر وإلى ما وراء روما لعدة كيلو مترات .

وبفضل موقع روما تمتعت هذه المدينة بمزايا طبيعية أسهمت في بناء مجدها . ذلك أن وقوعها في سهل لاتيوم هيأ لها أقليماً خصباً إذا عني بزراعته كان كفيلاً بسد حاجة عدد كبير من السكان يتناسب ومساحته . وبفضل تلالها كانت إلى حد ما في مأمن من غائلة الفيضانات التي كان وادي التيبر بصفة خاصة معرضاً لها . وبفضل موقعها على التيبر وفي مكان يسهل عبوره توفر لها الاتصال بالبحر وممارسة التجارة الخارجية دون التعرض لسطو القراصنة ، وكذلك السيطرة على الطريق الرئيسي للمواصلات


روما القديمة
روما المبكرة
أسوار القرن الرابع
أسوار أورليانوس
ساحة الإله مارس
يا نيقولوس
الفوروم
أسكويلينوس
بالاتينوس
كايليوس
أفنتينوس

في الشطر الغربي لإيطاليا . هذا إلى أن وقوع روما في وسط ايطاليا على بعد متساو تقريباً من أطارفها الشمالية والجنوبية جعلها المركز الطبيعي للمواصلات في ايطاليا .

٢ – نشأة مدينة روما [١]

يخيم الظلال كثيفاً حول نشأة روما لأنها أنشئت قبل عهد الإيطاليين بالكتابة،ولم تكن في الأصل ذات شأن يسترعي انتباه العالم الخارجي إليها . وعندما أخذت أهمية روما تتزايد باطراد تبارى القدماء على مر الزمن في استكمال معلوماتهم التاريخية المتوارثة عن نشأة هذه المدينة بابتكار سلسلة من الأساطير نسج خيال الرومان بعضها وخيال الإغريق بعضها الآخر ، إلى أن

---

(١) المصادر :

Liv., I, I — XV; Virg., Aeneid, VII - XII; App., I, 1 - 5; Dionys. Hal., I, 72-4; Festus, s.v. Roma; Cicero, De Repub. II, 3, 5-7, 10, 18; Plut., Romulus, 12; Velleius Paterculus, I, 8; Solinus I; Orosius, II, 1.

المراجع :

W. E. Heitland, op. cit., vol. I, ch. V; Pauly - Wissowa - Kroll, Realencycl. s.v. Rom; J.B. Carter, Amer. J. Arch., 1908, pp. 172 ff.; I. Scott, Memoirs of Amer. Acad. at Rome, VII, pp. 7 - 118; Whatmough, The Foundation of Roman Italy , 1937; S.B. Platner and T. Ashby, Tropographical Dictionary of Ancient Rome; M. Cary, op. cit., pp.31 - 40; Inez Scott Ryberg, An Archaelogical Record of Rome from the SeventhCentury to the Second Century B.C., London, 1940; E. Gjerstad, Early Rome , Vols. I - III, Lund, 1954 - 1960; J.B. Ward-Perkins, Harvard Stud. Class. Phil., 1959, pp. 14, 25; Pap. Brit. Sch Rome, 1959, 78;R. Bloch, The Origins of Rome, London, 1960; A.E.R. Boak, op. cit., pp. 35 - 39; H.H. Scullard, op. cit., pp. 23 - 27, 420 - 422.

انتهى الأمر بأن أقر الرومان أسطورة .كانت مزيجاً من خيال الرومان والإغريق معاً . وبيان ذلك في إيجاز أنه قبل نهاية القرن الرابع قبل الميلاد كانت قد تمخضت عن عدة أساطير رومانية أسطورة فحواها أن الإله مارس (Mars) – إله روما الحارس – أنجب سفاحاً من ابنة ملك البا لونجا توأمين يدعيان روملوس(Romulus) ورموس (Remus) ، وأن الطفلين ألقيا في التيبر ولكنه بفضل العناية الإلهية قذفت مياه النهر بالطفلين إلى الشاطىء ، فأخذت ترضعهما ذئبة إلى أن عثر عليهما راع يدعى فاوستولوس (Faustulus) فكلف بتربيتهما عند المكان الذي أنشئت عليه روما فيما بعد . وعندما شب روملوس أنشأ على تل بالاتينوس مستعمرة زود رجالها بزوجات أختطفهن من جماعة من السابيني كانت تنزل على تل كويرينياليس . وأما رموس فإنه حاول إنشاء مستعمرة على تل أفنتينوس لكنه لم يصب نجاحاً في محاولته . ولما كان قد أقيم في الفوروم الروماني في عام ٢٩٦ ق.م. تمثال من البرونز للذئبة ترضع توأمين من البشر ، وكان هذا المنظر قد صور على النقود الرومانية التي سكت في عام ٢٦٨ ق.م. فإن هذا يدل على أنه منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد كانت المعالم الرئيسية لهذه الأسطورة شائعة مقبولة في روما .

ولما كانت روما قد استرعت اهتمام الإغريق في خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وكان الإغريق معروفين بخيالهم الخصب ويسارعون إلى ابتكار مؤسس أسطوري لكل مدينة تفتقر إلى أسانيد صحيحة عن نشأتها ، فانهم لم يلبثوا أن أدلوا بدلوهم في الدلاء وربطوا نشأة روما بماضيهم الأسطوري، مما أفضى إلى أساطير مختلفة كان مؤسس روما فيها جميعاً أما أحد أبطال أساطيرهم وأما سليل واحد من هؤلاء الأبطال . وأهم هذه الأساطير هي الأسطورة التي تربط بين إنشاء روما وبين الأمير الطروادي إنياس (Aeneas) ابن الإلهة أفروديتي ، وتزعم أنه بعد سقوط طروادة إنتهى المطاف بأنياس

الى لاتيوم حيث أنشأ المدينة إمابنته روما وإما شخص يدعى روموس (Romus) كان وفقاً للبعض ابن إنياس ووفقاً للبعض الآخر حفيده .

وينهض دليلاً على أنه في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد كان الرومان يأخذون مأخذ الجد أسطورة مجيء الطرواديين إلى لاتيوم أنهم في عام ٢٦٣ ق.م. منحوا شروط تحالف سخية لمدينة سجستا (Segesta) الصقلية على أساس أنهم يشاركون أهل هذه المدينة الإنحدار من الطرواديين .

وعند أواخر القرن الثالث قبل الميلاد صاغ مؤرخو الرومان وشعراؤهم من عناصر الأساطير المحلية والإغريقية الأسطورة التقليدية لتأسيس روما ، وهي التي ظلت متوارثة جيلاً بعد جيل مع بعض الإضافات والتعديلات إلى أن أخذت شكلها النهائي في عصر أغسطس . وتتلخص هذه الأسطورة في أنه بعد مجيء إنياس إلى لاتيوم أسس مدينة لافينيوم ، وأن ابنه أسقانيوس (Ascanius) أسس مدينة ألبا لونجا ، وأنه بعد أن خلف أسقانيوس في حكم مدينته عدد من سلالته قام واحد من هذه السلالة كان يدعى رومولوس بتأسيس مدينة روما . وأهم نقطة إختلف فيها الكتاب الرومان الباكرون تتركز حول تاريخ إنشاء روما ، إذ أن الشاعر كوينتوس أنيوس (Quintus Ennius) أرجع هذا التاريخ إلى حوالي عام ٩٠٠ ق.م. على حين أن المؤرخ بيقتور فابيوس (Pictor Fabius) حدد هذا التاريخ بعام ٧٤٨ ق. م. وأن المؤرخ قينقيوس أليمنتوس (Cincius Alimentus) أخره إلى عام ٧٢٨ ق.م. وحوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد أيد قاتو (Cato) الروماني وبوليبيوس (Polybius) الإغريقي تاريخ فابيوس ، ولكنه نتيجة للبحوث التي قام بها الفقيه الروماني المبرز مارقوس ترنتيوس فارو (Marcus Terentius Varro) في خلال القرن الأول قبل الميلاد أصبح التاريخ الرسمي لتأسيس روما هو عام ٧٥٣ ق.م.[1]

---

(١) جاء عند شيشرون (De Oratore, II, 12, 52) أن هذا التاريخ هو ١٧ من ابريل عام ٧٥٣ ق.م.

كما أصبح هذا العام يعتبر نقطة البداية لاحتساب تواريخ الأحداث في التاريخ الروماني ، فكان يقال حدث كذا بعد كذا عام « من تأسيس المدينة » (ab urbe condita) ويرمز لذلك بالثلاث الحروف الأولى من هذه الكلمات (a. u. c.) .
ومع ذلك فإنه لا يسعنا إلا أن نقرر أنه ليس لهذا التاريخ أي سند صحيح يمكن التعويل عليه . وفي عصر أغسطس أعطى الشاعر فيرجيليوس (Virgilius) والمؤرخ ليفيوس (Livius) الصورة النهائية للنص المقبول رسمياً لأسطورة تأسيس روما . وهذا النص يتفق في جوهره مع ما أورده المؤرخ الإغريقي ديونيسيوس الهاليقرناسي . وإزاء ما عرضناه فإنه عند مطالعة ليفيوس وديونيسيوس يجب ألا يفوتنا أولاً ، أن القصة التي نطالعها لم تصل إلى هذين المؤرخين في شكلها الأصلي وإنما أدخلت عليها تعديلات وأضافات كثيرة أسهم فيها الإغريق والرومان إلى أن اتخذت شكلها الأخير الوارد عندهما . وثانياً ، إن أقدم ما كتبه الإغريق عن نشأة روما لا يسبق القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن اقدم ما كتبه الرومان في هذا الموضوع لا يعود إلى ما قبل أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

وإزاء الإفتقار إلى مدونات أصلية عن نشأة روما لا يسع الباحث المدقق إلا الإعتماد أساساً على المخلفات الأثرية التي كُشف عنها في موقع هذه المدينة. ولما كان شأن أقليم روما شأن غيره من الأقاليم المجاورة معرضاً لفعل براكين أترووريا ولاتيوم ، وكانت هذه البراكين لم تخمد قبل أواخر عصر البرونز ، فإننا لا نعجب من أن أقدم المخلفات الأثرية التي تدل على الإستقرار الدائم في أقليم روما لا تسبق المرحلة الباكرة من عصر الحديد الإيطالي . ذلك أنه في عام ١٩٤٨ كشف فوق تل بالاتينوس عن معالم أكواخ سُكنت من حوالي عام ٨٠٠ ق.م. إلى حوالي عام ٥٥٠ ق.م. ، وأنه في عام ١٩٥٤ كُشف على هذا التل على مقبرة من حوالي عام ٨٠٠ ق.م. وبها آنية لحفظ رماد الموتى ، وأنه في مطلع هذا القرن كشف عن مقابر أحدث عهداً ولكنها أيضاً

من المرحلة الباكرة لعصر الحديد فوق تلي أسكويلينوس وكويرينايس وكذلك في المنطقة المنخفضة التي مر بنا أنها أصبحت فيما بعد الفوروم الروماني المشهور . ويُستخلص من هذه الكشوف أنه كانت توجد أصلاً في المكان الذي قامت عليه روما ثلاث جماعات قروية على الأقل، وأن أقدم هذه الجماعات كانت الجماعة التي نزلت على تل بالاتينوس منذ حوالي عام ٨٠٠ ق.م.

ويتبين من المقابر التي وجدت تحت الفوروم : أولاً ، أن أقدمها لم تحتو إلا على آنية رماد الموتى ، على حين أن أحدثها كانت على نوعين ، أحدهما لحفظ آنية الرماد ، والآخر لاستقبال توابيت الدفن . وثانياً ، أن آنية الرماد كانت من النوع المألوف بجهات أخرى في لاتيوم ، أي أنها كانت تماثل في شكلها شكل الأكواخ . وأما التوابيت فكانت عبارة عن جزوع أشجار جوفت لإيداع الموتى فيها . وبالمثل أيضاً على تل أسكويلينوس كانت عادة دفن الموتى وكذلك حرق الجثث متبعتين جنباً إلى جنب . وأما على تل كويرينايس فإنه لم تتبع إلا عادة الدفن .

ووجود مقابر معاصرة بعضها لدفن الموتى وبعضها لدفن رماد الذين حرقت جثثهم ينم عن وجود نوعين على الأقل من الحضارة . وزيادة عدد مقابر النوع الثاني على عدد مقابر النوع الأول يشير إلى أن أكثر سكان روما الأوائل كانوا من سلالة الجنس الهندي — أوربي ، وهو الذي وفد أكثره في أواخر عصر البرونز وأقله في أوائل عصر الحديد . وإزاء وفرة عدد مقابر النوع الأول ووجود بعض العناصر السابينية في اللغة اللاتينية وكذلك بعض الآلهة السابينية في عداد الآلهة الرومانية ، يبدو أنه قد انضم إلى سلالة العصر الحجري الحديث مهاجرون من سكان المنطقة الوسطى بجبال الأبنين . ومعنى ذلك كله أن أكثرية سكان روما الأوائل كانوا من اللاتين سلالة مهاجري العنصر الهندي — أوربي ، وأن شأن أولئك السكان شأن باقي سكان لاتيوم

كانوا مزيجاً من عدة عناصر أبرزها بعد اللاتين العنصر السابيني . فلا عجب إن كانت روايات الرومان القديمة تؤكد أنهم كانوا خلطاء الأصل .

وفي بداية الأمر كانت كل جماعة من الجماعات القروية الثلاث التي كانت تسكن تلال بالاتينوس وأسكويلينوس وكويريناليس تعيش في عزلة عن الأخرى . بيد أنه على مر الزمن أخذ يحدث تقارب بين جماعتين من هذه الجماعات وأفضى ذلك إلى تكوين رابطة دينية بينهما للمشاركة سوياً في اقامة الشعائر الدينية . ويؤخذ دليلاً على ذلك حفل ظل الرومان يقيمونه أمداً طويلاً في خلال العصور التاريخية وكان يسمى « حفل التلال السبعة » (Septimontium) ووفقاً لما أورده فستوس (Festus) في القرن الثاني للميلاد نقلا عما كتبه فريوس فلاقوس (Verrius Flaccus) — وكان أفقه علماء عصر أغسطس — لم تكن هذه « التلال السبعة » إلا قمتين على تل بالاتينوس (بالاتينوس وقرمالوس (Cermalus) وثلاث قمم على تل أسكويلينوس (أوبيوس وقيسبيوس وفاجوتال (Fagutal)) ومنطقة منخفضة مجاورة تدعى سوبورا (Subura) وجرف فليا الذي مر بنا أنه كان يربط تلي بالاتينوس وأسكويلينوس . وأنه ليبدو أمراً معقولاً أن تكون الجماعتان اللتان اتخذتا الخطوة الأولى نحو الوحدة بتكوين رابطة دينية بينهما هما الجماعتان اللتان كانتا تسكنان بالقرب من بعضهما على تلي بالاتينوس وأسكويلينوس ومن اليسير اتصال أحداهما بالأخرى عن طريق جرف فليا .

وتوحي القرائن بأنه في خلال القرن السابع قبل الميلاد تكونت جماعتان قرويتان على تلي قايليوس وفيميناليس وبأن هاتين الجماعتين وكذلك الجماعة القروية القديمة التي كانت تسكن تل كويريناليس أنضمت إلى الرابطة الدينية ، وبأن الجماعات أعضاء هذه الرابطة لم تلبث أن اتحدت سويا ونشأ من اتحادها قيام مدينة روما في أقدم عصورها . وقد استتبع ذلك : أولا ، وقف الدفن في وادي

الفوروم وردم ما في هذا الوادي من مستنقعات تيسيرا للاتصال بين أحياء المدينة .
وثانيا ، تحصين تل قابيتولينوس ليكون قلعة المدينة . وثالثا ، اقامة سياجين حول
المدينة ، أحدهما مادي لم يبق منه شيء ولعله كان جسرا من الطين ، والآخر
معنوي مقدس (Pomerium) كان عبارة عن منطقة خلاء تحيط بالجسر من
الخارج ، على نحو ما رأينا في المدن الاتروسقية. ومما يجدر بالملاحظة أن تل
قابيتولينوس برغم أنه كان قلعة المدينة لم يكن داخل السياجين السابق ذكرهما .
ولما كانت المنطقة التي شملتها المدينة داخل السياجين تطابق منطقة أحياء القبائل
الأربع الحضرية في عهد الجمهورية فأن كتاب الرومان المتأخرين درجوا على
تسمية مدينة روما الباكرة « روما ذات الأحياء الأربعة » (Roma Quadrata) .

ولما كانت أحدث مقابر الفوروم ترجع إلى حوالي عام ٦٠٠ ق . م .
وكان مرد ذلك إلى وقف الدفن في هذه المنطقة ، وكان من المسلم به أن هذا
الإجراء يعتبر قرينة على قيام الوحدة وإنشاء روما عند هذا التاريخ ، وكان
الاتروسقيون قد دخلوا لاتيوم واستولوا على براينستي في أواخر القرن السابع قبل
الميلاد ، وكان التاريخ التقليدي لقيام أسرة اتروسقية حاكمة في روما يقرب من
تاريخ وقف الدفن في الفوروم ، فان بعض الباحثين يرجحون أن يكون غزاة
اتروسقيون هم الذين فرضوا الوحدة وأنشأوا مدينة روما ذات الأحياء الأربعة :
ويؤيدون رأيهم بأن اسم المدينة « روما » مستمد من كلمة اتروسقية معناها « نهر » ،
وبأن أسماء الملوك الرومان ونبلائهم مستمدة من أسماء اتروسقية ، وبأنه كشف
عن مقابر اتروسقية محفورة في صخور تل يقع إلى وراء تل يانيقولوس يدعى تل
ماريانوس (Mons Marianus) . بيد أنه يضعف من هذا الرأي عدة اعتبارات
وهي : أولا ، أن مسألة اشتقاق اسم المدينة وأسماء ملوكها ونبلائها من أسماء
اتروسقية مسألة افتراضية بحت ليس لها أي سند يدعمها . وثانيا ، أن الطقوس
الدينية الرومانية الباكرة تخلو تماما من أسماء الآلهة الاتروسقية . وثالثا ، أن مقابر
تل ماريانوس لا يمكن أن تنهض دليلا على سيطرة الاتروسقيين على روما ذاتها

لأن هذا التل يقع في أتروريا بل أن تل يانيقولوس، الذي هو أقرب إلى روما من هذا التل ، لم يصبح جزءا من مدينة روما إلا في عصر الأمبراطورية . ورابعا ، أنه لو صح أن الاتروسقيين هم الذين أنشأوا روما لتجاوبت أصداء ذلك في أسطورة انشاء هذه المدينة . ولكنه من ناحية أخرى يمكن القول بأنه كانت للاتروسقيين يد في إنشاء روما الباكرة ، بمعنى أن الخوف من عدوانهم هو الذي حدا بسكان الجماعات القروية على تلال بالاتينوس وأسكويلينوس وكويريناليس وفيميناليس وقايليوس إلى الاتحاد وتكوين مدينة حصينة . ذلك أن اقامة الوحدة وردم المستنقعات في منطقة الفوروم وتحصين تل قابيتولينوس وانشاء سياج حول أحياء المدينة أعمال ضخمة لا بد من أن تكون قد اقتضتها ضرورة ملحة مثل ضرورة اتخاذ العدة لدرء خطر داهم كخطر عدوان اتروسقي في أعقاب استيلاء الاتروسقيين على برايننستي . ومع ذلك كله فأنه لم تلبث أقلية من الغزاة الاتروسقيين أن بسطت سلطانها على مدينة روما وهي التي عرفنا أن غالبية سكانها كانوا من اللاتين .

وإذا قارنا الأساطير القديمة عن نشأة روما بالنتائج التي تمخض عنها البحث الحديث في هذا الصدد ، فانه يتبين لنا من ناحية أن ما تذهب اليه أساطير الأغريق من قدوم مهاجرين طرواديين إلى لاتيوم لا يقوم على أساس ، ومن ناحية أخرى أن الأساطير الرومانية لا تخلو من بعض الحقائق التاريخية وهي : أولا ، أن التواريخ التي اقترحها الكتاب الرومان لنشأة روما تنطوي على حقيقة هامة وهي أن روما لم تُنشأ في وقت موغل في القدم يسبق المرحلة الباكرة من عصر الحديد . وثانيا ، أن جعل تل بالاتينوس مقر المستعمرة التي أنشأها روملوس ، المؤسس الأسطوري للمدينة ، يتفق وما أثبتته المخلفات الأثرية من أنه على هذا التل كانت تنزل أول جماعة قروية في المنطقة التي قامت فيها روما. وثالثاً، أن جعل روملوس سليل ملوك ألبا لونجا ليس إلا صدى لحقيقتين تاريخيتين، وإحداهما هي الأهمية الباكرة التي تمتعت بها ألبا لونجا في لاتيوم، والحقيقة الأخرى هي أن أكثرية سكان لاتيوم من اللاتين . ورابعا ، أن قصة تزاوج مستعمرة روملوس مع السابيني من

سكان تل كويرينا ليس تشير إلى حقيقة تاريخية أخرى، وهي قدوم مهاجرين من المنطقة الوسطى بجبال الأبنين وتزاوجهم مع اللاتين. بيد أنه ازاء افتقار مبتكري الأساطير الرومانية إلى معلومات عن مراحل التطور التي أفضت إلى قيام روما، اضطروا إلى الاعتماد على ما نسجه الخيال الشعبي من قصص وما تفتقت عنه أذهان الفقهاء من ضروب الحدس والتخمين. ونتيجة لذلك كله كانت أسطورة الإنشاء الرومانية في أكمل صورة لها مزيجا من بعض الحقائق وكثير من الخيال والتخمين .

ثالثا – روما في عهد الملكية[1]

١ – الملوك

ولم يصل إلينا من مدونات عهد الملكية الا بقايا نقش واحد من القرن السادس قبل الميلاد سُجل على عامود من الحجر الأسود[2] (lapis niger) عُثر عليه تحت أرضية الفوروم المرصوفة . وهذا النقش عبارة عن جزء من قانون ديني ذكرت فيه بوضوح كلمة « ملك » (rex) . ولا يرقى الشك إلى أنه في الوقت الذي

---

(١) المصادر

Cic., De Rep. II, 1 — 30; Plut.,
Liv., [illegible] I; Dionys. Hal. II — V. 36; Dio Cassius, I — IV;
Romulus; Numa; Poplicola; App. I, 1 — 12; Florus, I, 1; 2; 4.
Zonaras, VII, 1 — 12; Eutropius, I, 1 — 11;

المراجع :

G.W. Botsford, The
W.E. Heitland, op. cit., vol. I, pp. 38 — 52; Cambridge Ancient History, Vol.
Roman Assemblies, Chs. I, II, V, IX; A.E.R. Boak,
VII, Chs, X, XI, XII; M. Cary, op. cit., pp. 49 — 63;
op. cit., pp. 39 — 44; H.H. Scullard, op. cit., pp. 28 — 48.

(٢) H. DESSAU, Inscriptiones Latinae Selectae, No. 4913; F. Leifer U.E.
Goldmann, Klio, suppl. volume No. 27.

أنشئت فيه روما كان نظام الملكية هو نظام الحكم السائد في كل الجماعات التي أنشأت مدنا سواء في أتروريا أم في لاتيوم. وينهض دليلا على وجود هذا النظام في روما ليس فقط ذكر كلمة ملك في النقش السالف الذكر ، بل أيضا بقاء هذا الاصطلاح في لقبين من ألقاب حكام عصر الجمهورية وهما لقب inter-rex وهو لقب الحاكم المؤقت الذي كان يُختار في حالة وفاة القنصلين أو مرضهما أو استقالتهما ليشرف على انتخاب خليفتيهما في خلال فترة محددة ، ولقب rex sacrorum (= ملك القرابين) وهو اللقب الذي كان يحمله أحد كبار الكهنة الرومان . وفضلا عن ذلك فأن كل الروايات المتواترة التي قبلها المؤرخون القدماء وحفظوها لنا تجمع على أنه منذ إنشاء روما حتى سقوط الملكية فيها حوالي عام ٥٠٩ ق.م. كان يحكمها ملوك، مثل ما تجمع على أسماء هؤلاء الملوك وكذلك على تتابعهم وفقا للنحو التالي : رومولوس ، نوما بومبليوس (Numa Pompilius) ، تولّوس هوستيليوس (Tullus Hostilius) ، أنقوس مارقيوس (Ancus Marcius) ، لوقيوس تاركوينيوس «بريسقوس» (Lucius Tarquinius Priscus) ، سرفيوس توليوس (Servius Tullius) ولوقيوس تاركوينيوس « سوبربوس » (Superbus) . واذا كانت بعض الروايات تشرك مع رومولوس زميلا سابينيا يدعى تيتوس تاتيوس (Titus Tatius) ، فأن أكثر الروايات تغفل هذا الزميل .

وفي ضوء ما سبق أن أوردناه يمكن إغفال رومولوس على أساس أنه شخصية أسطورية ابتُدعت تفسيرا لإنشاء المدينة واسمها . وكذلك يمكن غض النظر عن تيتوس تاتيوس على أساس أنه شخصية أسطورية أخرى ابتدعت تفسيرا لاسم إحدى القبائل الأصلية في روما وكانت تسمى قبيلة تيتيس (Tities) . وأما عن الملوك الستة الذين قيل إنهم خلفوا رومولوس فإن الرأي السائد بين الباحثين هو أنهم كانوا شخصيات تاريخية . وحتى اذا سلمنا بأن مدينة روما لم تنشأ عند أواخر القرن السابع قبل الميلاد وانما حوالي منتصف هذا القرن ، وأنه تبعا لذلك قام النظام الملكي فيها منذ ذلك الوقت حتى ألغي حوالي عام ٥٠٩ ق . م . ،

فإن النظام الملكي يكون قد استمر نحواً من قرن ونصف قرن ، وهي مدة من المعقول أنه يكفي لشغلها عهود الملوك الستة الذين يعتقد أنهم شخصيات تاريخية . ولأسماء هؤلاء الملوك دلالات هامة ، ذلك أن أسماء أربعة منهم ، وهي أسماء بومبيليوس وهوستيليوس ومارقيوس وتوليوس أسماء لاتينية تظهر من جديد بين أسماء قناصل روما في الخمسين عاما الأولى من عهد الجمهورية . وملكان آخران يحملان اسم تاركوينيوس وهو اسم تثبت نقوش المقابر في مدينتي فولقي وقايري الاتروسقيتين أنه اسم أسرة اتروسقية . هذا إلى أنه قد مر بنا أن مدينة تاركوينيي ، أي مدينة التاركوينيين ، كانت من أقدم المدن التي أنشأها الاتروسقيون في إتروريا . ومما يجدر بالملاحظة أيضا أن كلا من هذين الملكين دون باقي الملوك الآخرين يحمل اسما ثالثا له معنى يدل على أنه كان لقبا أكثر منه اسما ، إذ أن كلمة «بريسقوس» معناها العتيق وكلمة « سوبربوس » معناها « المتكبر » ، وهو اسم أو على الأصح لقب الملك الذي قُضي على الملكية في عهده . ولعلنا لا نسرف في الرأي اذا تصورنا أنه بعد أن حكم روما في بداية عهدها ثلاثة ملوك من أهلها اللاتين ، غزاها الاتروسقيون وحكمها واحد منهم هو ذلك الذي تدعوه الروايات القديمة لوقيوس تاركوينيوس بريسقوس أو العتيق ، ثم تمكن الرومان من القبض على زمام الأمور وتولى الحكم سرفيوس توليوس وهو الذي يدل اسمه على أنه كان رومانيا . وبعد هذا الملك استرد الاتروسقيون السلطة في روما وتولى الحكم لوقيوس تاركوينيوس سوبربوس أو المتكبر إلى أن اشتد ساعد الرومان وقضوا على الملكية في عام ٥٠٩ ق . م . على وجه التحديد وفقا للرومان ، وحوالي هذا العام وفقا للباحثين المحدثين .

ويؤيد الرأي الذي أبديناه أن روايات الرومان تجزم بأن الملكين تاركوينيوس « العتيق » وتاركوينيوس « المتكبر » كانا دون سائر ملوك روما القدماء اتروسقيين . ونحن نرجح أن هذه الروايات على صواب في قولها إن هذين الملكين وفدا من مدينة تاركوينيي ، وإن كان من الجائز أيضا أن يكون بعض رفاقهم قد وفدوا من قايري والبعض الآخر من فولقي . بيد أنه من العسير قبول ما تذهب اليه هذه

الروايات من أن أول الملكين الاتروسقيين ولي عرش روما بفضل ثروته وكفايته ، كما أنه يتعذر قبول الأحداث التي تزعم هذه الروايات أنها وقعت في كل عصر من عصور ملوك روما القدماء وكذلك التفاصيل الخيالية التي تزخر بها قصة طرد آخر هؤلاء الملوك ، وإن كانت الكراهية الشديدة التي استمر الرومان يستشعرونها عدة قرون للحكم الملكي تنهض دليلا واضحا على مدى فساد النظام الملكي وما انطوى عليه من عسف وجور ، مما أفضى إلى نشوب ثورة عارمة بقيادة النبلاء وعلى رأسهم زعيم يدعى لوقيوس يونُس (L. Iunus) وأطلق عليه فيما بعد لقب بروتُس (Brutus) .

ولعله لم يكن من باب الصدفة أنه في الوقت الذي ثارت فيه روما على ملكها الاتروسقي وأطاحت بالنظام الملكي الفاسد ، ثارت أيضا ثلاث من مدن لاتيوم اللاتينية (أنتيوم وأريقيا وتوسقولوم) ضد ملوكها الاتروسقيين . ومن ثم فأنه يمكن اعتبار طرد الملك الاتروسقي من روما إحدى الحلقات الرئيسية في انهيار السيادة الاتروسقية في لاتيوم .

وإزاء ما يعيب الروايات القديمة من شوائب تنتقص من قدر القيمة التاريخية لأكثر محتوياتها عن العصر الملكي لا نستطيع أن نستمد منها ونحن في مأمن من الزلل أكثر من الصورة العامة التالية لعهد هؤلاء الملوك ، استنادا على ما بقي في أزمنة تالية لزمانهم من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية التي ترجع أصولها إلى أولى المراحل في حياة الدولة الرومانية ، وعلى ما ألقته دراسة المخلفات الأثرية من ضوء على الحضارة الرومانية الباكرة .

٢ ـــ الحياة الاقتصادية :

كان المجتمع الروماني في العهد الملكي مجتمعا ريفيا قبل كل شيء ، قوام حياته الاقتصادية فلاحة الأرض ورعي الماشية والأغنام ، ويغلب على ملكية

أرض مراعيه طابع الملكية الجماعية ، على حين أن ملكية أرضه الزراعية تتسم فيما يرجح منذ بداية التاريخ الروماني بطابع الملكية الفردية . واذا كانت مساحة الاقليم الروماني قد اتسعت تدريجا في العهد الملكي فأنها لم تزد على حوالي خمسمائة (٥٠٠) كيلومتر مربع . ومعنى ذلك أن نطاق الأرض الزراعية والمراعي لم يكن كبيرا إلا أنه كان متناسبا مع عدد السكان عندئذ . ويتبين من أسماء الآلهة والأعياد الدينية أن جانبا كبيرا من دخل الرومان الأوائل كان مستمدا من تربية الماشية والأغنام ، ولكنه إزاء الإفتقار إلى مراع صيفية مناسبة لم يكن ميسورا قيام اقتصاد رعوي على نطاق واسع فبل امتداد فتوحات روما إلى منطقة الأبنين فيما بعد . وورود ذكر عيد للكروم بين أعياد الرومان الأوائل يدل على أنهم لم يغفلوا غرس الكروم كلية ، الا أن بساتين الكروم لم تكن قد أصبحت عندئذ شائعة في أواسط إيطاليا . ويحتمل كذلك أن غرس أشجار الزيتون لم يكن قد أدخل بعد في الأقليم الروماني . وكان الجانب الأكبر من الأرض الزراعية يغل حاصلات مختلفة كـــان أهمها محصول وفير من نوع خشن من الحبوب (far) كان أصلح لصنع السليقة (porridge) أكثر منه لصنع الخبز ، فلا عجب أن كانت السليقة غذاء الرومان الأساسي مع تناول اللحوم في المناسبات الهامة . وعلى كل حال يبدو أن إنتاج الأرض كان كافيا لسد حاجات عدد كبير نسبيا من السكان .

وإذا كان المجتمع الروماني في العهد الملكي مجتمعا ريفيا قبل كل شيء ، فإن القرائن توحي بأن هذا العهد شهد نشاطا ملموسا في مجالي الصناعة والتجارة . ذلك أنه في مجال الصناعة أحرزت صناعات الفخار والبرونز والحديد قدرا من التقدم . ومن المحتمل أنه يرجع إلى هذا العهد إنشاء نقابات للعمال الأحرار المشتغلين بصناعات الفخار والمعادن والجلود والأخشاب وصياغة الذهب ودباغة الجلود . وينهض دليلا على نمو تجارة روما الخارجية ما عثر عليه في روما من الآنية القورنثية والآتيقية المعاصرة . ومن المحتمل جدا أنه ترتبط بنمو تجارة روما

الخارجية إقامة مستعمرة جديدة على تل أفنتينوس وإنشاء سوق عند معبد ديانا على هذا التل ليلتقي هناك تجار اللاتين من مختلف مدن لاتيوم مع تجار العالم الخارجي . وازاء تقدم الاتروسقيين في مجال الصناعة وبخاصة صناعة المعادن ، ونشاطهم في مجال التجارة، لا يبعد أنه كان لهم أثر محسوس فيما أحرزته روما من تقدم مبكر في هذين المجالين .

٣ ـ المجتمع الروماني :

كانت الأمة الرومانية (Populus Romanus) تتألف من كافة مواطنيها الأحرار الصالحين لأداء الخدمة العسكرية في قواتها المحاربة والمشاركة في طقوسها الدينية العامة وحضور اجتماعات جمعيتها الشعبية . وأقدم اسم عُرف به هؤلاء المواطنون هو « كويريتس » (Quirites) ، وهو اســـم لا يعرف على وجه التحقيق أصله . وعلى كل حال فإنه لم يلبث أن خلفه اسم « رومان » (Romani) ، وهو اسم من الواضح أنه مستمد من اسم مدينتهم . ومع ذلك فان الاسم القديم لم يبطل استعماله وإن كان قد أصبح لا يعني الا المدنيين من المواطنين . وأبلغ مثل لذلك أنه في عام ٤٨ ق . م . عندما حدثت فتنة بين رجال فرقة يوليوس قيصر العاشرة قضى قيصر على الفتنة فورا بأن دعا رجال هذه الفرقة إلى الاجتماع وبإيجازه البليغ المعروف لم يزد حديثه اليهم على قوله : « أيها الكويريتس » ، أي أنه سرحهم ولم يعد يعتبرهم جنودا عاملين في الجيش .

وكانت الأسرة (familia) هي حجر الزاوية في بناء المجتمع الروماني . وكان رب الأسرة (pater familias) صاحب سلطة مطلقة على زوجتـــه وبناته غير المتزوجات وأبنائه وسلالتهم مهما تبلغ سنهم . فقد كان من حقه الذي لا يناقش فيه أو يحاسب عليه أن يضرب زوجته وأولاده أو أن يقتلهم أو أن يبيع الأولاد في سوق النخاسة . وقد عمرت سلطة « رب الأسرة » بكل صرامتها الأصلية في المجتمع الروماني أكثر مما عمرت في أي مجتمع آخر . واذا كان من

شأن نظام مجلس الأسرة (consilium familias) — وكان يعقد للفصل في أجل الأمور شأنا — وديانة الأسرة أنهما كانا يكفلان عدم استخدام رب الأسرة سلطته الواسعة بطريقة عسفية ، فإن رب الأسرة ظل قرونا عديدة يمارس سلطته المطلقة دون أن يحد منها القانون .

وكانت كل مجموعة من الأسر تنحدر من جد واحد مشترك تؤلف عشيرة (gens) . بيد أنه يجب أن يلاحظ هنا أمران : واحدهما . هو أن انتظام الأسر في عشائر لم يكن مألوفا في هذا العصر الا بين الطبقة العليا فقط . والأمر الآخر هو أن العشائر (gentes) كانت تنظيمات اجتماعية أكثر منها سياسية ، فهي لم تدخل في نطاق التنظيمات السياسية في الدولة . ومع ذلك فانه كان للعشائر قدر كبير من التأثير في حياة المجتمع السياسية .

ونتبين بوضوح أنه عند نهاية العصر الملكي كانت الأمة الرومانية (populus Romanus) تتألف من طبقتين اجتماعيتين وفي الوقت نفسه سياسيتين وهما طبقتا العامة (plebs) والبطارقة (patricii) . ومن المرجح أن هاتين الطبقتين نشأتا بالتدريج لا بسبب اختلاف في الجنس وانما بسبب العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي مر بها المجتمع الروماني منذ إنشاء الدولة بل منذ وقت سابق لإنشائها . وكانت طبقة العامة تتألف من متوسطي الحال من ملاك الأرض ومن التجار وأرباب الحرف المختلفة وكذلك من الأجراء ، وكان كثيرون منهم يشتغلون بفلاحة أرض الأثرياء . وبالرغم من أن هؤلاء المزارعين الأجراء كانوا مواطنين أحرارا شأنهم شأن باقي طبقة العامة ، فإنه كانت تربطهم بأولي نعمتهم صلة خاصة لم تكن اقتصادية فحسب بل كانت تتعدى ذلك إلى قيام الأثرياء برد أي ظلم أو عدوان يوقعه طرف ثالث بفلاحيهم . وتبعا لذلك أصبح كل مزارع أجير يعتبر تابعا (cliens) لولي نعمته وراعيه (patronus) . وفي مقابل ذلك كان على التابع ألا يفلح أرض راعيه فحسب بل أيضا أن يتبعه

إلى ميدان القتال ويقدم له أية مساعدة كلما اقتضى الأمر . وكانت هذه الصلة تسمى التبعية (clientela) من ناحية التابع ، والرعاية (patronatus) من ناحية الراعي . وليس معروفا على وجه اليقين كيف نشأ هذا اللون من التبعية ، بل يتعذر علينا أن نكون فكرة صحيحة عن وضع الأتباع في الدولة الرومانية الباكرة ، وإن كان يبدو أنه كان يماثل وضع الموالي ثم أخذ يتحسن بالتدريج في عهد الجمهورية . واستمرار نظام التبعية على مدى عدة قرون دون أي سند من القانون لضمان الوفاء بالتزامات الطرفين ينهض دليلا على استناد هذا النظام على المصالح المتبادلة ، مما جعل العلاقة بين الطرفين من أقوى العلاقات في المجتمع الروماني . ومما يجدر بالملاحظة أنه لم يوجد في هذا المجتمع في بداية الأمر الا قليل من العبيد كانوا عبارة عن مدينين عجزوا عن الوفاء بديونهم ، وتبعا لذلك فإن عبوديتهم لم تكن وراثية كما أنها لم تكن مستديمة الا إلى أن يفوا بديونهم .

وكانت طبقة البطارقة تتألف من كبار ملاك الأراضي ، وتتمتع بنفوذ واسع وامتيازات كبيرة في الدولة . ذلك أنه بفضل ثروة هذه الطبقة كان أفرادها أوفر عدة وأكثر إلماما بممارسة القتال ، وبفضل كثرة أتباعهم كانت عشائرهم أكثر قدرة على حشد أعداد كبيرة لخوض غمار الحروب . وبفضل عراقة أصلهم وثقافتهم وتوافر الفرص لهم كانوا أقدر من غيرهم على أن يكونوا مستشاري الملك في أمور الدين والدنيا على السواء . وتبعا لذلك تكونت منهم الهيئة السياسية العليا في الدولة ، وظلت عضوية الهيئات الدينية وقفا على هذه الطبقة إلى أن قضى العامة على هذا الاحتكار بعد كفاح مرير في عصر الجمهورية.

واذا كان نطاق الطبقة الارستقراطية الرومانية قد اتسع في عهد مبكر جدا ، حين كانت هذه الطبقة تسمح بأن تدخل في عدادها وتنضم إلى زمرة عشائرها الأعرق أصلا والأعظم شأنا (maiores gentes) عشائر أقل عراقة وشأنا (minores gentes) ولكنه كانت لديها مؤهلات مماثلة، فإن هذه الطبقة أصبحت

على مر الزمن طبقة مغلقة تحرص أشد الحرص على امتيازاتها وترفض التزاوج مع عناصر من غير عشائر البطارقة وتعتبر مثل هذا الزواج غير مشروع .

٤ ـ الديانة :

ولما كان المجتمع الروماني البدائي مجتمعا ريفيا قبل كل شيء ، فإن الطابع الريفي واضح في ديانته . ذلك أن كل أسرة كانت تعبد الأرواح أو القوى (numina مفردها numen) التي ترعى بيتها ومقر عملها . وأهم هذه الأرواح أو القوى : يانوس (Janus) حارس الباب . ولار فاميلياريس (Lar Familiaris) حامي البيت والأرض بوجه عام . وبناتس (Penates) حماة مخازن الحبوب ، وفستا (Vesta) راعية نار البيت . ومارس (Mars) باعث الحياة في النبات كل ربيع ، ويوبيتر (Jupiter) المسيطر على الشمس والأمطار. وذلك فضلا عن عدد كبير من « القوى » التي كانت تساعد أو تعوق الرعاة أو المزارعين في عملهم أو توجه أفراد الأسرة في المراحل الدقيقة التي يمرون بها في مختلف ظروف حياتهم من زواج أو ميلاد أو وفاة ، مثل يونو (Juno) راعية النساء في مضاجعهن وفي مخاضهن .

وكانت فكرة الرومان البدائيين عن معبوداتهم فكرة غامضة إلى حد أنهم كانوا يعجزون عن أن يتصوروا أشكالها أو أن يقطعوا بأنها كانت من الذكور أو الإناث في كل حالة . وهذا يفسر لماذا استمر الرومان مدة طويلة يعبدون آلهتهم دون أن يقيموا لها تماثيل أو معابد ، وذلك برغم اعتقادهم أنه كان لكل إله موئل معين يجب أن يعبد فيه . وكانت مظاهر العبادة لا تخرج عن الضراعة وسكب قدر من اللبن عادة أو من النبيذ نادرا ، وفقا لأصول نمت مع الزمن لتنظيم إقامة هذه الشعائر ضمانا لكسب رضاء الآلهة . وإذا استجاب المعبود إلى الضراعة كان لا بد من تقديم قربان على هيئة كعكة أو ضحية . وإذا لم يستجب كان لا بد من الاستمرار في إقامة الشعائر مع الحرص على حسن ادائها . وهكذا

كان قوام الديانة الرومانية أساسا إقامة عدد من الشعائر كان الشرط الأساسي فيها هو صحة أدائها ، وكان الباعث على إقامتها هو رهبة القدرة الإلهية .

وكانت ديانة الدولة تماثل إلى حد كبير ديانة الأسرة ، ذلك أن الدولة جعلت من التعبد إلى يانوس وفستا ولارس وبناتس وغيرها من حماة المساكن والمزارع وقطعان الماشية والأغنام عبادات عامة تقام لها شعائر تماثل في جوهرها الشعائر التي كانت الأسرة تقيمها لهذه المعبودات . وفضلا عن ذلك فإن الدولة جعلت من بعض المعبودات الريفية حماة للمجتمع بأسره في كل وجوه نشاطه ، ففي الديانة الرسمية أصبح يانوس حارس أبواب روما ، ومارس الإله الذي يحوّل تيار المعارك الحربية إلى صالح الدولة الرومانية . وكذلك أصبح يوبيتر الإله الأكبر الذي يسهر على صوالح الدولة الرومانية وتشد أزره في الاضطلاع بهذه المهام الالهتان يونو ومينرفا ، ومن هؤلاء الثلاثة تكون الثالوث الأكبر الروماني .

ومما يجدر بالملاحظة أن الجمع في العبادة بين هذه المعبودات الثلاثة ظهر أول ما ظهر في اتروزيا ، وأن مينرفا لم تكن الا المعبودة الاغريقية أثينا . ومعنى ذلك أنه في عهد الملكية خضعت الديانة الرومانية لتأثيرات اتروسقية وإغريقية. ففي هذا العهد أصبح في عداد المعبودات الرومانية عدد من الآلهة التي كان بعضها اتروسقياً دون شك ، وبعضها الآخر — وإن استخفت وراء أسماء اتروسقية أو لاتينية — كانت تنتمي إلى أقدم مجموعة من المعبودات الأغريقية مثل مينرفا (Minerva = أثينا) وقرس (Ceres = ديمتر Demeter) وليبر (Liber = ديونيسوس Dionysus) وليبرا (Libera = قوري Core) وهرقولس (Hercules = هرقلس Heracles) وديانا (Diana = أرتميس Artemis) ومرقوريوس (Mercurius, = هرمس Hermes) وأبولو ، وهو الذي احتفظ باسمه الأغريقي . والتأثيرات الاغريقية على الديانة الرومانية تعزى إلى حد كبير إلى نبوءات سيبولاي (Sibyllae) وهي التي حصلت عليها روما من المدينة الإغريقية قوماي في أواخر عهد الملكية .

وإلى جانب دخول بعض الآلهة الاتروسقية في عداد الآلهة الرومانية ، يتمثل التأثير الاتروسقي على الديانة الرومانية في مظهرين آخرين : كان أحدهما هو أنه منذ أواخر عهد الملكية بدأ الرومان يستبدلون بالمذابح أو الأضرحة القديمة التي كانوا يقيمونها لآلهتهم معابد وتماثيل من الطراز الاتروسقي . وخير شاهد على ذلك معبد ثالوث يوبيتر ويونو ومينرفا ، وهو الذي بُدِىء في إنشائه في عهد آخر ملك إتروسقي ولم يتم الا في بداية عهد الجمهورية . وكان المظهر الآخر هو اقتفاء العادة الاتروسقية بجعل استطلاع رغبات الآلهة (Auspicia) إجراء ضروريا أوليا يجب اتخاذه قبل الاقدام على عدة من الأمور العامة . ولم تلبث القواعد الخاصة بتفسير النذر (omina) أن بلغت من التعقيد الشديد ما اقتضى تشكيل هيئة من العراف (Augures) المتمرسين بأمور استطلاع رغبات الآلهة . وإذا كانت ملاحظة الطيور في حومانها والدجاج في التقاط أكله أهم الطرق التي اعتمد عليها العراف الرومان لاستطلاع الارادة الالهية ، وكان من الجائز أن هذه الطريقة كانت في أصلها ايطالية ، فإن العراف الرومان درجوا على الأقل فيما بعد على الاعتماد كذلك على فحص أحشاء القرابين وعلى تفسير الظواهر الطبيعية وغير ذلك من النذر [١] ، ومعنى ذلك أن العراف الرومان لم يلبثوا أن أخذوا كذلك بما عرفنا أنه كان مألوفا بين العراف الاتروسقيين . ولا جدال في أنه من بين سكان إيطاليا القدماء كان الاتروسقيون أول من جعل استطلاع رغبات الآلهة قبل الاقدام على أي عمل عام ذي شأن إجراء ضروريا . ولا في أن الرومان أخذوا ذلك عنهم . ووفقاً لما يحدثنا به المؤرخ الروماني ليفيوس كان الرومان يستخدمون خبراء اتروسقيين في العرافة (haruspices) منذ عهد الملك تاركوينيوس « المتكبر » . وعلى مر الزمن أصبح للعراف الاتروسقيين هيئة ازدادت أهميتها باطراد حتى أصبحت منافسا شديدا لهيئة العراف الرومان .

---

(١) انظر : Oxford Clacc. Dict. s.v. augures, auspicia, haruspices.

وعلى كل حال فإنه عند نهاية العصر الملكي كانت الديانة الرسمية الرومانية قد اتخذت سمات دائمة لم تستطع أن تمحو معالمها التأثيرات الأجنبية التي جاءتها من الخارج في خلال العصور التالية . وقد كانت أهم الهيئات الدينية الرومانية هي هيئة كبار الكهنة (pontifices) وهيئة حارقي القرابين (flamines) وهيئة العراف (augures) ، وهيئة الراقصين (Salii) وهم الذين كانوا يؤدون رقصات دينية وهم مسلحون استجداء لرضاء إله الحرب مارس ، وهيئة أخوة الذئب (luperci) وهم الذين كـــانوا يجرون حول السياج المقدس (pomerium) ليدفعوا الأرواح الشريرة عن المدينة ، والعقر عن نسائها وقطعانها .

٥ ـ النظم السياسية :

ومن أجل أن يؤدي المواطنون واجباتهم نحو الدولة ويمارسوا حقوقهم العامة على أفضل وجه ممكن كان جميع المواطنين أو بعبارة أخرى جميع سكان روما الأحرار باستثناء العبيد ينتظمون في قبائل (tribus) تنقسم إلى وحدات تسمى كور (curiae) . وكان عدد هذه القبائل في العهد الملكي ثلاثا وهي قبائل تيتيس (Tities) ورمنس (Ramnes) ولوقرس (Luceres) .وقد كان يظن أن هذه القبائل تمثل تقسيم المواطنين على أساس الجنس بمعنى أن أولاها كانت تتألف من السابيني وثانيتها من اللاتين وثالثتها من الاتروسقيين . ولكن الأرجح أنها كانت تمثل تقسيم المواطنين على أساس مناطقهم السكنية ، وأن ذلك كان شأن الكور أيضا .

وكان الهدف الأساسي من هذا التنظيم . فيما يبدو ، هو أن تؤدي كل قبيلة نصيبها مما تحتاج اليه الدولة من مال وجنود بناء على ما يأمر به الملك ويقوم بجمعه نقيب كل قبيلة ، وكان يدعى تريبونا (tribunus وجمعها tribuni) وهو الذي كان يقود القوات التي تقدمها قبيلته . ولا سبيل لدينا إلى أن نعرف

عن يقين عدد الكور في الأصل ، وإن كان من المحتمل أن عددها قد ازداد بالتدريج تبعا لازدياد عدد السكان واتساع نطاق المساحة المعمورة في المدينة إلى أن أصبحت توجد في العصور التاريخية ثلاثون كورة مقسمة بالتساوي على القبائل الثلاث . وكانت لكل كورة طقوسها الدينية الخاصة بها . وكذلك مكان لعقد اجتماعاتها كلما اقتضى الأمر إشهادا على الوصايا أو إقرارا لحالات التبني أو الفصل في شرعية البنوة . ومن ثم فان الكور هي التي كانت صاحبة الأمر أو النهي فيمن يدخل في زمرة هيئة المواطنين .

وكانت العضوية في إحدى الكور تكسب صاحبها حق حضور اجتماعات جمعية الكور (Comitia Curiata) ، وكانت أولى الجمعيات العامة الدستورية التي عرفها الشعب الروماني . بيد أنها لم تكن جمعية تشريعية . فقد كانت وظيفتها الرئيسية هي المصادقة على اختيار الملك الجديد ، وبمقتضى القانون (lex curiata de imperio) الذي كانت تصدره في هذه المناسبة كانت تلتزم بإطاعة أوامر هذا الملك . وكان انعقاد هذه الجمعية رهنا بمشيئة الملك كلما رأى أن هناك ما يدعو إلى ذلك ، مثل رغبته في أن يحصل منها على ابرام حكم صدر بإعدام أحد المواطنين، أو على شد أزره والوقوف إلى جانبه في أية حرب يخوض غمارها أو في أية أزمة سياسية أخرى تواجهه .

أما الهيئة التي كان لها وزن أكبر ونفوذ أوسع في الدولة ، فانها كانت مجلس السناتو (Senatus) . ويدل اسم هذا المجلس على أنه كان أصلا مجلس الشيوخ ، بيد أنه على غرار ما حدث في بلاد الأغريق أصبح مجلس البطارقة وأصبحت عضويته مقصورة على ممثلي هذه الطبقة . واذا كنا لا نعرف شيئا عن تفاصيل نظام هذا المجلس . فاننا نعرف أن أعضاءه كانوا يدعون الآباء (patres) ، وإزاء ذلك لا يبعد أنهم كانوا آباء أسرهم . وعلى كل حال فأنه لا جدال في أن هذا المجلس لم يكن أكثر من هيئة استشارية آراؤها غير ملزمة

للملك ، الا أنه إزاء مكانة أعضائه وتجاربهم أصبح على مر الزمن من العسير اغفال الرأي الذي يجمعون عليه . ولا أدل على مكانة هذا المجلس من أنه عند وفاة الملك كانت سلطته تنتقل إلى السناتو فيعين أحد أعضائه حاكما مؤقتا (interrex) إلى أن يختار المجلس الملك الجديد وتصادق جمعية الكور على اختياره .

وعلى قدر ما نعرف يبدو أن الملك كان لا يرتقي عرش روما بحق الإرث وحده ، إذ يبدو أنه إزاء ما كان يمارسه فعلا من مهام خطيرة دينية وقضائية وعسكرية ، كان لا يشترط فيه أن يكون أحد أفراد الأسرة المالكة فحسب ، بل أيضا أن تتوافر لديه من الصلاحيات لمباشرة مهامه ما كان يجعل مجلس السناتو ينتخبه دون غيره من أقاربه ، وجمعية الكور تصادق على انتخابه . ومع ذلك فإن سلطته (imperium) كانت مطلقة لم يحدّ منها الا العرف ورغبة الملك العملية في ألا يفقد عواطف المجتمع بإسرافه في استخدام سلطته . وكان الملك يرتدي ثيابا قرمزية ، ويجلس على كرسي من العاج (Sella curulis) ، ويحيط به أينما كان أو سار اثنا عشر تابعا يحمل كل منهم حزمة من العصي وبلطة (fasces) رمزاً لحق الملك في انزال عقوبتي الجلد والإعدام .

وكان أول واجبات الملك رعاية الشئون الدينية ليدوم الصفاء والوئام بين المجتمع وآلهته (pax deorum) . ولما كان يتعذر على الملك أن ينهض وحده بأعباء هذا الواجب المتعدد الجوانب ، فانه كان لا يقوم الا ببعض جوانبه ، مثل تحديد أيام الأعياد في كل عام وتقديم القرابين في المناسبات الهامة ، وينيب عنه مختلف الهيئات الدينية للقيام بجانب أو آخر من جوانب هذا الواجب . ذلك أنه كان يسند إلى هيئة كبـــار الكهنة (pontifices) أمر تفسير الشرائع الدينية والحفاظ على تقاليدهـــا ، وإلى هيئة حارقي القرابين (flamines) إقامة شعائر الطقوس الخاصة بعبادة كل من يوبيتر ومارس والإله السابيني الأصل كويرينوس (Quirinus) ، وإلى هيئة العراف أمر استطلاع رغبات الآلهة ،

وإلى الكاهنات العذارى (Virgones Vestae) السهر على بقاء النار المقدسة مشتعلة باستمرار (ignis inextinctus أو Sempiternus) في مقر العبادة الرومانية العامة للإلهة فستا (Vesta publica populi Romani Quiritium) .

وكانت كلمة الملك قانونا ، فهو الذي كان يصدر القوانين ويعلنها ويطبقها ، بيد أنه في واقع الأمر كان العرف أكثر من القانون هو الذي ينظم العلاقات بين الناس في الدولة الرومانية الباكرة . وكان يحد من نطاق اختصاص الملك القضائي سلطة رب الأسرة (pater familias) على أفراد أسرته . وكان تدخل الملك في حالات النزاع بين المواطنين مقصورا على تعيين محكمين (arbitri) يقومون ببحث النزاع وإصدار قرارهم فيه باسم الملك ويتركون تطبيق القرار لمن صدر في صالحه . بيد أن الملك بوصف كونه القيم على الأمن والنظام في الدولة كان يمارس سلطات جنائية واسعة كان يطبقها بوجه خاص على الذين يرتكبون ضد المجتمع نوعين رئيسيين من الجرائم وهما الخيانة والقتل دون مبرر . ويبدو أنه على الأقل في أواخر عهد الملكية كان الملك يعين هيئة قضائية خاصة للفصل في كل نوع من هذين النوعين الرئيسيين من الجرائم ، وأن القضاة كانوا يصدرون أحكاما إما بالغرامة وإما بالجلد وإما بالنفي وإما بالاعدام تبعا لظروف كل جريمة. وكان من حق الملك وبناء على مشيئته تخفيف الأحكام الشديدة وإن كان أحيانا يسمح بذلك لجمعية الكور .

وإلى جانب جباية الأموال من أجل شن الحروب أو اقامة المنشآت العامة ، لم يفرض الملك على الرومان أية التزامات مالية ذات قيمة . وكانت ايجارات الأرض العامة والمكوس وبيع حق استخراج الملح وبيعه والغرامات المفروضة على المجرمين هي مصادر دخل الدولة . وكان هذا الدخل يودع في الخزانة العامة (aerarium) وكانت عبارة عن غرفة حصينة في معبد ساتورنوس (Saturnus) المقام على ربوة منخفضة تؤلف جزءا من تل قابيتولينوس .

٦ ـ الجيش :

وكان الملك هو الذي يعقد المعاهدات ويقرر السلم والحرب . وكان هو الذي يمثل الدولة في علاقاتها الخارجية ويقود جيشها بنفسه . وأغلب الظن أنه في العصر الملكي كـــان الجيش يتألف من ٣٠٠٠ راجل (pedites) و ٣٠٠ فارس (celeres أو equites) يجندون من القبـــائل الثلاث على قدم المساواة ، بمعنى أن كل قبيلة كانت تسهم بألف راجل ومائة فارس ، الا أن هؤلاء المحاربين كانوا لا يؤخذون الا من البطارقة وأتباعهم وميسوري الحال من المزارعين الذين كان في وسعهم تزويد أنفسهم بالسلاح ، وكان يشتمل عادة على خوذة وزرد ودرع وحربة وسيف قصير . وكان سلاح الفرسان أهم قوة ضاربة في الجيش الروماني الباكر . وكان هذا السلاح لا يتألف الا من شباب البطارقة وأتباعهم . ولما كان البطارقة أكبر ثروة وأوفر عدة وأكثر تمرسا بالقتال فانهم كانوا يتحملون العبء الأكبر في تكوين الجيش الملكي بوجه عام . ومما يجدر بالملاحظة أن الفرسان كانوا يذهبون إلى القتال إما في عربات وإما على صهوات الجياد ، الا أنه حين تبدأ المعركة كانوا عادة يترجلون ويحاربون على اقدامهم مثل المشاة ولا يستخدمون العربات والجياد الا في أعمال المطاردة . ويتبين من المخلفات الأثرية والروايات الرومانية أن الجيش الروماني في عهد الملكية كان يماثل بوجه عام جيوش المدن الاتروسقية المجاورة وكذلك جيوش المدن الاغريقية الباكرة وهي التي نطالع وصفها في الأشعار الهومرية .

وفي ذلك العهد لم يعرف الجيش الروماني وبخاصة مشاته التدريب الصارم الذي عرفه فيما بعد . ولم يوجد في هذا الجيش من الضباط الا نقباء القوات التي أسهمت بها كل قبيلة من مشاة (tribuni militum) وفرسان (tribuni celerum) .

٧ ـ الفتوحات :

ومن الواضح أنه اذا كان مثل هذا الجيش قادرا على ردع أعمال العدوان

التي كانت تقع على الحدود من حين إلى آخر وكذلك على القيام ببعض الفتوحات ، فإنه لم يكن قادرا على الوفاء بمتطلبات سياسة تستهدف التوسع المطرد . وفضلا عن ذلك فإن الدولة الرومانية الباكرة كانت ترعى في علاقاتها الخارجية أحكام العرف الفطري السائد بين الأقوام الايطالية ، وهو الذي كان يقضي بعدم شن الحرب على الجيران دون مبرر ولو كان شكليا على الأقل أو دون إعلان مسبق ، مما حدا بالملوك إلى انشاء هيئة (fetiales) لتفسير أحكام هذا العرف والحفاظ عليها .

بيد أن الروايات الرومانية القديمة تحدثنا بأن أكثر ملوك روما شنوا حربا مظفرة تلو حرب . ذلك أن هذه الروايات تعزو إلى تولوس هوستيليوس تدمير « ألبا لونجا » ، وإلى أنقوس مارقيوس استعمار « أوستيا » ، وإلى تاركوينيوس « العتيق » بسط سيطرة روما على اترووريا بأجمعها ، وإلى تاركوينيوس « المتكبر » الاستيلاء على شاطىء لاتيوم كله حتى شطوط بومبتيناي . هذا وإن كان بقاء نص معاهدة قديمة حتى عصر أغسطس قد أرغم المؤرخين الرومان على الاعتراف بأن ملوك روما اضطروا إلى أن يقنعوا بعقد معاهدة تحالف على قدم المساواة مع مـــدينة جابي (Gabii) وهي التي كانت تسيطر على الوادي الأدنى لنهر الأنيو .

ومن المرجح أن كثيرا من الفتوحات المعزوة إلى الملوك لم تحرزها روما فعلا الا في عصر الجمهورية . ولعل الفتوحات التي يمكن أن نعزوها في اطمئنان إلى العصر الملكي هي تلك التي لم تتعد الاقليم الضيق الواقع في شمال لاتيوم . وينهض دليلا على استيلاء روما في العهد الملكي على « ألبا لونجا » — وهي التي مر بنا أنها كانت زعيمة رابطة دينية تألفت من عدد من الجماعات اللاتينية للمشاركة في عبادة يوبيتر لاتيارس — وتدمير هذه الزعيمة أمران : واحدهما ، هو أنه لم يعثر في مقابر ألبا لونجا على أية مخلفات أثرية تاريخها أحدث عهدا من القرن السادس قبل الميلاد . والأمر الآخر ، هو أنه منذ فجر الجمهورية كان الرومان

هم الذين يقيمون شعائر طقوس يوبيتر لاتياريس ، ومعنى ذلك أن روما كانت قد خلفت ألبا لونجا بوصف كونها زعيمة تلك الرابطة الدينية . ويبين أن استيلاء روما على ألبا لونجا كان أحد العاملين الرئيسيين اللذين أفضيا إلى انشاء العصبة اللاتينية حوالي أواخر القرن السادس قبل الميلاد بزعامة أريقيا (Aricia) ، وهذان العاملان هما الرغبة في وقف التوسع الروماني في لاتيوم ، وكذلك الرغبة في التخلص من السيادة الاتروسقية على هذا الاقليم . ويبدو معقولا كذلك أن يكون الملوك قد ضموا إلى دولتهم جيرانهم من الجماعات اللاتينية الصغيرة سواء في سهل لاتيوم فيما بين روما وألبا لونجا ،أم في وادي التيبر الأدنى ابتداء من مصبه، حيث أنشئت أوستيا فيما بعد، حتى فيدناي (Fidenae) ونومنتوم (Nomentum) .

ومجمل القول أنه اذا لم يكن ملوك روما قد قاموا بكل تلك الفتوحات التي تعزوها اليهم الروايات القديمة ، فانهم على الأقل قاموا ببعض الفتوحات وسيطروا على المناطق المجاورة لهم في لاتيوم ، مما جعل روما أهم مدينة في لاتيوم . وحوالي عام ٥٠٩ ق . م . طرد الرومان آخر ملوكهم وأقاموا النظام الجمهوري .

الفصل الخامس

مصادر التاريخ الروماني

في النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية [1]

إن تاريخ روما على مدى قرنين ونصف قرن منذ قيام الجمهورية الرومانية يستند على أسس أكثر صلابة من تاريخها في عصر الملوك : اذ أنه على مر الزمن ازداد عدد المدونات من سجلات ووثائق مختلفة الأنواع . كما أنه منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد أخذ أدباء الرومان ومؤرخوهم يوجهون اهتماما متزايدا باطراد إلى تاريخ روما القديم . ونتيجة لذلك توافر لكتاب الرومان في عصور متأخرة عدد كبير من المصادر يتعين علينا أن نتناولها لكي يتبين إلى أي مدى يمكن الاعتماد على مصادرنا في كتابة تاريخ صحيح للنصف الأول من لعهد الجمهورية ، ولماذا سنتوخى الايجاز عند الكلام عن الفترة الباكرة من عهد الجمهورية على حين أننا سنسهب نسبيا في الحديث كلما بعدنا عن تلك الفترة . ومصادر النصف الأول من عهد الجمهورية هي :

---

(١) M. Cary, op. cit., pp. 41-48; H.H. Scullard, op.cit., Appendix 1, pp. 405 ff.

وعن قيمة ما لدينا من مصادر تاريخ روما الباكر ، انظر :

P. Fraccaro, **J.R.S., 1957, pp. 59 ff.**

أولا — قوانين اللوحات الاثنتي عشرة : وهي القوانين التي صدرت في حوالي عام ٤٥٠ ق . م . واذا كانت اللوحات ذاتها لم تعمر طويلا ، فان قوانينها ظلت قائمة لعدة قرون ، وحفظت لنا مقتطفات الكتاب الرومان المتتابعين منذ عهد شيشرون أجزاء كبيرة من هذه القوانين ، وهي تلقي ضوءا ساطعا على مختلف جوانب الحياة في الجمهورية الرومانية في بواكير عهدها .

ثانيا — المعاهدات : وكانت المعاهدات التي تعقدها روما نوعين ، وبمقتضى أحدهما (foedus acquum) كان الطرفان المتعاقدان يعتبران ندين متكافئين ويلتزمان بمساعدة بعضهما بعضا في حروبهما . وبمقتضى النوع الآخر (indutiae أو foedus iniquum) كانت روما تُعتبر الحليف الأسمى (in foedere superior) ويلتزم الطرف الآخر بمساعدتها في الحروب الدفاعية والهجومية على السواء ، وكذلك باحترام هيبتها . وبديهي أنه كان من شأن عقد محالفات من النوع الثاني ضياع سيادة مثل هؤلاء الحلفاء وإنزالهم إلى مصاف أتباع روما . وقد أعقب تكرار خروج حلفاء روما عليها أنها استبدلت بمحالفات من النوع الأول محالفات من النوع الثاني ، فكانت النتيجة المنطقية لذلك اتساع نطاق سيادة روما تدريجا على نحو ما سنرى .

وكانت نصوص المعاهدات تحفر على لوحات من البرونز وتعلق على تل قابيتولينوس . وقد ظلت بعض هذه اللوحات سليمة أمدا طويلا ، وأورد الكتاب القدماء نصوص المعاهدات التي سجلت عليها مثل المعاهدة (foedus aequum) التي عقدها القنصل سبوريوس قاسيوس (Spurius Cassius) مع العصبة اللاتينية في عام ٤٩٣ ق . م . وهي أقدم معاهدة من نوعها معروفة حتى الآن ، ومثل المعاهدتين اللتين عقدتهما روما مع قرطجنة عند آخر القرن السادس وعند منتصف القرن الرابع قبل الميلاد .

ثالثا — القرارات (acta populi) التي كانت تصدرها الجمعيات الشعبية

الرومانية . وقد جرت العادة في النصف الثاني من عهد الجمهورية على حفر هذه القرارات على لوحات برونزية وإيداعها في معبد ساتورنوس ، وبذلك كان يؤدي ثلاث مهام : إحداها بوصف كونه دارا للعبادة ، والأخرى بوصف كونه الخزانة العامة ، والثالثة بوصف كونه دار المحفوظات العامة . والإلتجاء إلى العمل على صيانة القرارات الشعبية على هذا النحو يوحي بضياع جل إن لم يكن كل قرارات النصف الأول من عهد الجمهورية مما اقتضى العمل على تفادي ذلك مستقبلا .

ومع ذلك فإن شيشرون [١] يشكو من إهمال شأن الوثائق المودعة في دار المحفوظات العامة . وإزاء هذه القرائن جميعا لا يبعد أن يكون الكثير من الوثائق القديمة قد ضاع كلية أو شوه تشويها شديدا على مر الأيام . فلا عجب أن كان يساور الباحثين شك كبير في أن الرومان الذين كتبوا في الشطر الأخير من عهد الجمهورية كانت لديهم معلومات وثيقة عما يشيرون إليه من تشريعات النصف الأول من عهد الجمهورية . ويؤيد ذلك أنهم قلما يوردون نصوص هذه التشريعات ، وأنهم حين يفعلون ذلك لا يوردون منها الا مقتطفات قصيرة . وإن دل هذا على شيء فهو يدل على أنه حين شرع أولئك الرومان في كتابة تاريخ النصف الأول من العهد الجمهوري لم يكن قد تبقى من أكثر قوانين تلك الفترة الا أسماؤها وفي بعض الحالات مضمونها العام .

رابعا — قرارات السناتو (Senatus consulta) وكانت في خلال القرنين الأخيرين من عهد الجمهورية تودع في معبد ساتورنوس . ومن المحتمل أن يكون قد بدىء في اتباع ذلك قبل هذا الوقت بزمن طويل ، ولا سيما اذا صح ما يرويه لفيوس [٢] من أنه منذ عام ٤٤٩ ق . م . كانت نسخ من قرارات السناتو تسلم إلى الأيديلس لايداعها في معبد « قرس » على تل أفنتينوس . ذلك أن هذا

---

(١) Cicer., De Legibus, III, 66.

(٢) Liv, III, 55, 13.

المعبد ، وبخاصة في صدر العهد الجمهوري ، كان مركزا لنشاط العامة ، ومن غير المعقول أن يهتم السناتو ، معقل البطارقة ، بإيداع نسخ من قراراته في معبد « قرس » ولا يهتم بايداع نسخ أخرى في دار المحفوظات العامة بمعبد ساتورنوس . وعلى كل حال فانه ليس لدينا ما ينم عن أن مصادرنا الأدبية استخدمت القرارات التي أصدرها السناتو في صدر عهد الجمهورية ، مما يوحي بأن هذه القرارات لم تعمر طويلا مهما يكن المكان أو الأمكنة التي كانت تحفظ فيها .

خامسا — سجلات الحكام وكبار الكهنة الرومان ، وكانت تحفظ في مكاتب كل منهم أو في سجلات أسرهم . وهذه السجلات على ثلاثة أنواع :

١ — قوائم الأحصاء (Censorum tabulae) ، وهي تتضمن بيانات إحصائية عن عدد المواطنين الرومان وممتلكاتهم منذ عهد باكر وإن لم يكن منذ بداية العهد الجمهوري . وقد اعتمد الكتاب الرومان كثيرا على هذه القوائم ، ولكن الكثيرين من الباحثين ما زالوا يترددون في اعتبار قوائم الاحصاء السابقة لعام ٣٠٠ ق . م . قوائم أصلية يمكن الوثوق بها والاعتماد عليها .

٢ — القوائم السنوية للحكام (fasti magistratum) ، فقد كانت كل هيئة من هيئات الحكام الرومان تحتفظ لديها بقائمة تسجل فيها أسماء شاغلِيَ منصبَي أو شاغلي مناصب هذه الهيئة سنويا. وأهم هذه القوائم من الناحية التاريخية هي قوائم القناصل (fasti consulares) ، فقد درج الرومان ومؤرخوهم على استخدام سني تولي القناصل الحكم لتأريخ كافة الأحداث العامة والخاصة . وبفضل ما بقي من نصوص أدبية أمكن تجميع عدة مصنفات يحتوي كل منها قائمة كاملة للقناصل الرومان الذين تولوا الحكم منذ بداية الجمهورية . وفضلا عن ذلك فان لدينا أجزاء كبيرة من سجل بأسماء القناصل حُفر حوالي أواخر القرن الأول قبل الميلاد على جدران المقر الرسمي للكاهن الأكبر (Pontifex Maximus) وهو المعروف باسم رجيا (Regia) ، ولكن بما أن تاريخ

نقش هذا السجل يدل على أنه استمد من المصادر الأدبية فأنه ليست لبقاياه أهمية تاريخية ذاتية .

وتواريخ الفترة الباكرة من عهد الجمهورية طبقا لقوائم القناصل تتفق إلى حد كبير مع ما أورده المؤرخون الاغريق من تواريخ هذه الفترة ، ذلك أن الفارق لا يتعدى في أية حالة ثماني سنوات ولا يزيد في بعض الحالات على سنتين أو ثلاث . بيد أن كثرة التناقض بين المصنفات المختلفة لقوائم القناصل – فيما يخص أولئك الذين تولوا منصب القنصلية في خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد – يوحي بأن الكتاب الرومان الذين استمدت هذه المصنفات من مؤلفاتهم لم تكن لديهم سجلات رسمية دقيقة عن الفترة السابقة لعام ٣٠٠ ق . م .[١]

٣ – حوليات كبار الكهنة (Annales Maximi أو Tabulae Pontificum) .

عندما أنشئت الجمهورية أصبح كبير الكهنة هو الذي يحدد سنويا أيام الأعياد الدينية وكذلك أيام انعقاد المحاكم . ومنذ وقت لا يزال من العسير تحديده درج الكاهن الأكبر على إعداد حولية يسجل فيها إلى جانب الأيام السابق ذكرها الأحداث الهامة التي تقع في أثناء العام الذي يتولى فيه مهام منصبه ، ويردف ذلك في آخر الحولية بذكر أسماء حكام ذلك العام . وكانت العادة المألوفة هي عرض حوليات كبار الكهنة على الملأ . وحوالي عام ١٢٥ ق . م . عهد الكاهن الأكبر موقيوس سقايفولا (Mocius Scaevola) إلى مصنف بجمع الحوليات القديمة ونشرها على هيئة كتاب . وغالبية محتويات حوليات كبار الكهنة مقصورة على أحداث تتصل بطقوس دينية أقيمت بمناسبة هذه الأحداث ، مثل تكريس المعابد وإقامة مهرجانات القواد المنتصرين وحدوث مجاعة أو وقوع حدث من الأحداث التي كانت تعتبر من الغرائب مثل كسوف الشمس وخسوف القمر . ويتبين من دراسة ما ورد ذكره من هذه المحتويات في مصادرنا الأدبية أن الحوليات لم تسجل الأحداث المعاصرة لكل منها قبل القرن الثالث قبل الميلاد . وآية ذلك :

---

(١) انظر : T.R.S. Broughton, The Magistrates of the Roman Republic, I, New York, 1951.

أولا – أن الغرائب السنوية التي نقلها ليفيوس عن الحوليات لا تبدأ إلا من عام ٢٩٦ ق . م . وثانيا – أن شيشرون يحدثنا بأن أول كسوف للشمس ورد ذكره في حوليات كبار الكهنة كان ذلك الذي حدث في عام ٢٨٨ ق . م . وثالثا – أن قوائم مهرجانات النصر المستمدة من الحوليات تعتورها شوائب عديدة فيما يخص الفترة السابقة لعام ٣٠٠ ق . م . ورابعا – أنه برغم ما هو معروف من أن إشارات كبار الكهنة إلى الاحداث تتسم بالايجاز الشديد ، فانه عندما قرر سقايفولا نشر الحوليات الماضية أخرجها مصنفها في ثمانين جزءا . وازاء ذلك كله يبدو أن أكثر ما ورد في الحوليات خاصا بالقرون السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد لم يعتمد الا على ذاكرة الرواة أو خيال المصنف ، ومن ثم فانه لا يمكن اعتبار ذلك مصدراً أصلياً موثوقاً به .

وهكذا يتضح مما عرضناه أنه لم يتبق للمؤرخين القدامى من المدونات التاريخية الخاصة بالنصف الأول من عهد الجمهورية إلا بعض المعاهدات وقوائم الحكام، وأن قوانين اللوحات الاثنتي عشرة كانت أهم ما تبقى من قوانين القرن الخامس قبل الميلاد ، وأنه لم يتبق من أكثر تشريعات النصف الأول من العهد الجمهوري إلا أسماء هذه التشريعات وفي بعض الحالات مضمونها ، وأن حوليات كبار الكهنة لم تتضمن تسجيلات أكيدة معاصرة للأحداث الا منذ حوالي عام ٣٠٠ ق . م .

سادساً – الأساطير : وإزاء ذلك لم يتبق أمام مؤرخي الرومـــان لاستكمال معلوماتهم عن تاريخ روما قبل القرن الثالث قبل الميلاد إلا مصدران : وهما الأسطورة التقليدية لروما في صدر تاريخها ، وروايات الأسر الأرستقراطية. والمصدر الأول زاخر بأحداث تتسم جميعا بطابع لا يدع مجالا للشك في أنها مستمدة من القصص الشعبي ، ذلك أنه من الواضح أن بعضها ليست إلا وليدة الخيال وأن بعضها الآخر زود في سخاء بتفاصيل خرافية وأن بعضها لا يتسق إطلاقا مع مجرى التاريخ الروماني .

ولا جدال في أن روايات الارستقراطية الرومانية كانت أصلا تحتوي على معلومات كثيرة موثوق بها ، وكان من الممكن اعتبارها مصدرا قيما لمعلوماتنا عن تاريخ روما في صدر حياتها لو أنها وصلت الينا على حالها الأولى. ذلك أن الأسر الحاكمة في عهد الجمهورية كانت شديدة الحرص على الحفاظ على ما يثبت جدارتها بالتمتع بمكانتها الممتازة . ومن ثم فانه في قاعة الاستقبال بكل منزل من منازل البطارقة كـــان رب الأسرة يضع صور (imagines) آبائه وتحت كل منها نقش يتضمن تاريخ حياة المتوفى . وليس من الإسراف في الرأي القول بأن بيانات هذه التواريخ كانت إلى حد كبير صحيحة في أول الأمر لوجود معاصرين للمتوفين على قيد الحياة عندئذ . غير أنه بعد فترة من الوقت طغت على هذه البيانات الصحيحة خرافات اخترعت عمدا . عندما انضمت إلى الأسر الحاكمة العريقة أسر جديدة من الأثرياء وعمد هؤلاء النبلاء الجدد إلى الاختراع ليضفوا على ماضي أسرهم من الجلال الوهمي ما كان يفتقر اليه في واقع الأمر ، فلم تلبث غريزة حب البقاء أن دفعت الأسر القديمة أيضا إلى الاختراع . ووسط هذا السباق اختلطت الحقائق بالأوهام . ولما كان تنميق الروايات الارستقراطية أكثر براعة وأوفر دقة من تنميق الأساطير الشعبية ، فإن استخلاص الحقائق من الروايات الأرستقراطية غدا أصعب منالا من استخلاصها من الأساطير الشعبية .

سابعاً ـ الكتاب القدماء : حوالي عام ٢٠٠ ق . م . صاغ المؤرخان فابيوس بيقتور وقينقتيوس اليمنتوس والشاعران كوينتوس أنيوس (أبو الشعر الروماني) وجنايوس نايفيوس (Naevius Gnaeus) الروايات الشعبية والأرستقراطية في قالب أدبي. وأغلب الظن أن هؤلاء الكتاب لم يثبتوا في مؤلفاتهم الا ما بدا لهم أنه أقرب القصص إلى التصديق أو أكثره طرافة ومتعة ، دون أن يضيفوا إلى محتويات مصادرهم شيئا ابتكروه أو توصلوا إليه بالبحث. بيد أن العرض الذي قدمه فابيوس ومعاصروه لم يُرضِ الأجيال المتتابعة من كتاب القرنين الثاني والأول قبل الميلاد فأخذوا يضيفون

اليه تباعا حتى اكتمل النص الرسمي لتاريخ النصف الأول من عهد الجمهورية الرومانية . واذا كانت قلة من هؤلاء الكتاب بذلت بعض المحاولات لاستقصاء الحقائق وتمكنت أحيانا من الكشف عن وثيقة ذات قيمة كبرى ، فإن أغلبهم أطلقوا لخيالهم العنان ليكتبوا تاريخا موسعا . ولم يكن أيسر عليهم من أن يضاعفوا مرارا تفوق الحصر عدد الانتصارات التي أحرزتها روما في ميادين القتال ، ومن أن يضيفوا إلى مجد أجداد الأسر التي كانت تكلأهم برعايتها بطولات وأمجادا تتمثل في انتصارات خيالية على أعداد خيالية من الأعداء . وقد كان كذلك من السمات النمطية للكتاب الرومان المتأخرين ابتداع أحداث قديمة لتكون سوابق ومبررات لنظم وطقوس قائمة في زمانهم . وثمة سمة أخرى شائعة بين هؤلاء الكتاب وهي أنه حيث تكون الرواية القديمة مشوبة بالغموض أو التناقض حول تاريخ قيام حملة أو صدور قانون كانوا لا يرون بأسا في تكرار قيام الحملة أو صدور القانون مرتين . وحين لم يقنعوا بما لديهم من معلومات طفيفة عن الصراع الذي وقع بين البطارقة والعامة في خلال النصف الأول من العهد الجمهوري لم يروا غضاضة في أن يستعيروا لهذا الصراع حلقات من الصراع الذي نشب بين النبلاء أو « الأخيار » (Optimates) والشعبيين (Populares) في خلال القرن الأخير من عهد الجمهورية مع تعديلات طفيفة في الأسماء وفي الظروف .

وحوالي نهاية القرن الأول قبل الميلاد أعطى المؤرخ الروماني ليفيوس والمؤرخ الأغريقي ديونيسيوس الهاليقرناسي الرواية المقبولة رسميا لتاريخ الجمهورية الرومانية الباكر صورتها النهائية. واذا كان هذان المؤرخان قد ترفعا عن التزييف فانهما لم يخلصا هذه الرواية مما تجسد فيها من خرافات ، ذلك أن أولهما برغم تسليمه بأن تاريخ روما الباكر زاخر بالأساطير الخرافية لم يبذل إلا محاولة سطحية في فحص مصادره ، وأن ثانيهما برغم ما بذله من جهد ملموس في المقارنة بين مؤلفات من سبقوه لم يستطع نقد هذه المؤلفات نقداً مثمراً . وهكذا يصعب القول بأن هذين المؤرخين اللذين يعتبران المصدرين الأدبيين الرئيسيين لتاريخ

الجمهورية الرومانية الباكر وضعا أساس كتابة هذا التاريخ على أساس علمي .

وازاء هذه الشوائب جميعا التي تعتور مصادرنا على اختلاف أنواعها لا يسعنا إلا إغفال التفاصيل التي تزخر بها هذه المصادر والاقتصار على عرض مجمل لتاريخ الجمهورية الرومانية الخارجي والداخلي على مدى قرنين ونصف قرن تقريبا منذ قيامها . وبرغم ما بذل من جهد وعناية في تمحيص المصادر القديمة والمراجع الحديثة للفوز بهذا المجمل ، فانه لا يمكن الزعم بأن هذا المجمل يعطي أكثر من صورة تقريبية قابلة للتعديل في ضوء ما يكشف من وثائق ومخلفات أثرية وما قد تؤدي اليه نتائج الجهود المتواصلة التي يبذلها الباحثون .

حروب روما منذ أنشئت الجمهورية

حتى بسطت سيادتها على شبه الجزيرة في عام ٢٦٥ ق . م . (١)

لما كان تطور الأوضاع الداخلية في الدولة الرومانية قدتأثر تأثراً جوهرياً

(١) المصادر :

Livius, I, 50; II - X; Epit. XI - XV; Dionys. Hal., I, 74; II, 49; V - XI; XIII, 1 - 2; 6 - 10; XV - XX; Diod., XI, 40, 5; 53, 6; XII, 30, 6; 34, 5; 64; 80, 6 - 8; XIII, 42, 6; XIV, 11, 6; 16, 5; 43, 5; 93; 98, 5; 102, 4; 113 - 117; XVI, 15; 45, 8; 69, 1; XIX, 10, 1 - 2; 65, 7; 72, 3 - 9; 76; 101; XX, 26, 3 - 4; 35; 44, 8 - 9; 80; 90, 3 - 4; 101, 45; 104; Plut., Poplicola, 20 - 22; Coriolanus; Camillus; Pyrrhus; Dio Cassius, V; VII, 25, 35; VIII, 36, 8 - 24; 28 - 32; IX; X; Polyb., I, 6, 2 - 4; II, 14 - 18; III, 22, 25; App., (Ital.), 5 - 7; (Celt.), 1 - 9; (Samn.) 1 - 2; 4 - 6; 7 - 12; Zonaros, VII, 16 - 18; 20 - 21; 24; 26; VIII, 2 - 7; Flor., I, 7; 11 - 16; Just. (ep. Trog.) XVIII, 1 - 2; Oros., III, 7; Eutrop. II, 9 - 10; Velleius, I, 14, 3 - 8; Tacit., Hist., 3, 72; Cicer., Pro Balbo, 23, 53.

المراجع :

W.E. Heitland, op. cit., Vol. I, pp. 75 - 8, 101 - 113, 135 - 174; T. Frank, Roman Imperialism, 1914, Chs. I - IV; History of Rome, 1966, Ch. IV; L. Homo, Primitive Italy, Bk II, Chs. I - IV; Cambridge Ancient History, Vol. VII, Chs. II, XV, XVII, XVIII, XX; M. Cary, op. cit., pp. 64 - 70; 87 - 103; 126 - 130; T. G. E. Powell, The Celts, 1958; A.E.R. Boak, op. cit., pp. 45 - 64; H.H. Scullard, op. cit., pp. 33 - 38, 64 - 90, 108 - 132; R.S. Reid, The Municipalities of The Roman Empire, Chs. III - V; A.N. Sherman - White, The Roman Citizenship, 1939, Chs. I - IV.

بالحروب التي واجهتها روما منذ قيام الجمهورية فيها وبالنظم العسكرية التي استحدثتها للنهوض بأعباء هذه الحروب إلى حد يمكن معه القول بأنه لم يتأثر تاريخ أي شعب آخر على نحو ما تأثر تاريخ الشعب الروماني بحروبه ونظمه العسكرية . فإنه تيسيرا لفهم التاريخ الداخلي للجمهورية الرومانية سنبدأ كل مرحلة رئيسية من مراحل تاريخ هذه الجمهورية بتناول الحديث عن حروبها القدر الذي يكفي لإعطاء صورة وافية دون الخوض في التفاصيل التي يضل القارىء سبيله في بيدائها .

أولا – روما والاتروسقيون

أثار طرد ملك (Regifugium) روما الاتروسقي تاركوينيوس سوبربوس « المتكبر » ثائرة الاتروسقيين مما حدا بهم إلى الانتقام من روما ، فناصبتها مدينة فياي (Veii) عداء شديدا دون أن تنجح في إرجاع الملك الطريد ، وإن نجحت في الاستيلاء على فيدناي (Fidenac) وكانت تسيطر على معبر لنهر التيبر على بعد ثماني كيلومترات تقريبا إلى الشمال الشرقي من روما . واذا كان بورسنا (Porsenna) ملك قلوسيوم (Clusium) قد تمكن من هزيمة روما وإخضاعها لنفوذه فترة من الزمن فإنه لم يحتل روما أو يعيد الملك الطريد . وعلى كل حال فان سيطرة بورسنا على روما كانت قصيرة الأمد لأن العصبة اللاتينية هزمت الاتروسقيين عند أريقيا في عام ٥٠٥ ق . م . وأرغمتهم على الانسحاب من لاتيوم بأجمعها فيما عدا فيدناي .

ثانيا – تكوين حلف ثلاثي من روما والعصبة اللاتينية وعصبة الهرنيقي

وقد كانت النتيجة الطبيعية لهزيمة روما على يدي بورسنا أنها فقدت المكانة الممتازة التي كانت تتمتع بها من قبل في لاتيوم . وإزاء ما قامت به روما إبان

العصر الملكي من فتوحات في هذا الاقليم كان طبيعيا كذلك أنها استبعدت من عضوية العصبة اللاتينية . ولما لم يكن من شأن هذا الوضع صفاء الجو واستقرار العلاقات بين روما والعصبة اللاتينية ، فانه نشبت بين الفريقين سلسلة من الاشتباكات . ويبدو أن أهم هذه الاشتباكات وقع عند بحيرة رجيلوس (Lacus Regillus) بالقرب من توسقولوم في عام ٤٩٩ أو ٤٩٦ ق . م . ، ذلك أن الروايات الرومانية تفيض بما أبداه الرومان من ضروب الشجاعة في هذه الواقعة وتزعم أن الإلهين التوأمين قاستور وبولوكس (Castor et Pollux) قادا الفرسان الرومان في هذه الواقعة وكانا أول من حمل أنباء النصر إلى روما . وإذا كان من الجائز أن الرومان انتصروا في هذه الواقعة ، فإن استمرار الصراع بعد ذلك بين روما والعصبة اللاتينية ينم عن أن هذا النصر لم يكن حاسما ولا فاصلا .

وقد كان من شأن هذا الصراع إغراء القبائل التي كانت تسكن المناطق الجبلية الفقيرة المجاورة على الاغارة تباعا على اقليم لاتيوم الغني بموارده الزراعية . وازاء خطورة هذه الاغارات اضطرت روما والعصبة اللاتينية إلى تسوية ما بينهما من خلافات ، وفي حوالي عام ٤٩٣ ق . م . عقدت بين الطرفين معاهدة تحالف ظل نصها موجودا في الفوروم الروماني حتى أيام شيشرون ، وهي المعاهدة التي تدعوها الروايات الرومانية معاهدة قاسيوس (foedus Cassium) وتنسبها إلى القنصل الروماني سبوريوس قاسيوس (Spurius Cassius) .

وبمقتضى نصوص هذه المعاهدة كون الفريقان حلفا عسكريا هجوميا ودفاعيا يسهمان في تكوين قواته وكذلك في اقتسام الأسلاب على قدم المساواة . وأما قيادة القوات المتحالفة فانه وفقا لما جاء عند أحد الكتاب الرومان المتأخرين[1] كان يتولاها الفريقان بالتناوب سنة بعد أخرى . وفضلا عن ذلك فإن الفريقين اتفقا كذلك على تبادل حقوق المواطنة الخاصة ، بمعنى أنه كان يحق لأي مواطن

---

(١) Festus, p. 241 M.

روماني أن يمتلك عقارا وأن يعقد صفقات تجارية في أية مدينة لاتينية من المدن أعضاء الحلف وهو مطمئن إلى أن قانون هذه المدينة سيحمي ملكيته وصفقاته التجارية . ووفقا للرومان كان هذا الحق يسمى حق الاتجار (ius commercium) ولكنه كان يتضمن إلى جانب حق الاتجار حق الامتلاك الحر وحق التقاضي أمام المحاكم المحلية على قدم المساواة مع المواطنين المحليين . واذا تزوج مواطن روماني سيدة من إحدى مدن الحلف ، فإن هذا الزواج كان يعتبر في روما زواجا شرعيا صحيحا ، وكان يحق للأبناء الذين أنجبهم هذا المواطن من زواجه أن يرثوه وأن يصبحوا مثله مواطنين رومان. وكان هذا الحق يسمى حق التزاوج (ius conubium). وبالمثل كان مواطنو كل مدينة من المدن الأعضاء في الحلف يتمتعون بحقي الاتجار والتزاوج في روما وفي باقي مدن الحلف .

وبعد بضع سنين (حوالي عام ٤٨٦ ق . م .) اتسع نطاق الحلف الثنائي المكون من روما والعصبة اللاتينية ليصبح ثلاثيا عندما انضمت اليه قبائل الهرنيقي (Hernici) وكان موطنها عند وسط الحدود الشرقية لإقليم لاتيوم وتؤلف عصبة بزعامة مدينة أناجنيا (Anagnia) .

ثالثا – حروب الحلف

إن كل ما يمكن استخلاصه من بين ثنايا القصص التي تزخر بها الروايات الرومانية في حديثها عن صراع الحلف مع جيرانه سواء أكانوا من القبائل الجبلية (السابيني والأيكوي والفولسقي) أم من أصحاب المدينة الاتروسقية الكبيرة فياي ، هو أن حدة الصراع مع السابيني – وكان موطنهم إلى الشمال الشرقي من لاتيوم – استطاع الرومان إضعافها منذ البداية بكسب ود زعيم سابيني يدعى أتيوس قلاوسوس (Attius Clausus) أقطعوه مساحة من الأرض فيما بين التيبر والأنيو حيث استقر هو وعشيرته وأتباعه . ولم يكتف الرومان بمنح أتيوس ورفاقه حقوق المواطنة الرومانية، بل أنهم أدمجوه هو وعشيرته في عداد طبقة البطارقة،

فاتخذ أتيوس الاسم اللاتيني أبيوس قلاوديوس (Appius Claudius) . وبفضل هذه الدبلوماسية خفف الرومان الضغط عليهم من الناحية الشمالية الشرقية واكتسبوا عشيرة جديدة كان مقدرا لها أن تلعب دورا كبيرا في التاريخ الروماني. وإذا كانت إغارات السابيني لم تنقطع ، فانها بعد حوالي عام ٤٦٠ . ق . م . –عندما فشلت محاولة سابينية في الاستيلاء غدرا على روما– لم تعد أكثر من إغارات فاشلة على الحدود .

وأما إغارات الأيكوي (جيران السابيني من الجنوب) والفولسقي (جيران العصبة اللاتينية من الجنوب) فانها كانت أشد خطرا وأطول أمدا . ذلك أنه عند منتصف القرن الخامس قبل الميلاد كان الأيكوي قد استطاعوا التوغل إلى قلب لاتيوم حيث أقاموا على جبل الجيدوس (Algidus) قلعة اتخذوا منها مركزا لاغاراتهم . ومنذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد كان الفولسقي يحتلون الجزء الجنوبي الساحلي من سهل لاتيوم ويغيرون من حين إلى آخر على المدن الجنوبية أعضاء الحلف . وتحدثنا الروايات الرومانية بأنه بمساعدة خائن روماني حاول الفولسقي في صدر القرن الخامس قبل الميلاد التقدم حتى جبل ألبانوس . وعندما زيدت قوة الجيش الروماني في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد تمكنت القوات المتحالفة من وضع حد لهذه الأخطار بطرد الأيكوي من قلعة الجيدوس حوالي عام ٤٣٠ ق . م . ثم الفولسقي من السهل الساحلي بعد ذلك بقليل .

وإلى جانب هذه الحروب ، وهي التي كانت متعددة دون أن تكون متصلة الحلقات ، خاض الرومان بوجه خاص ،وحلفاؤهم بوجه عام،صراعا عنيفا مع المدينة الاتروسقية القوية فياي . وكانت هذه المدينة تقع على بعد حوالي عشرين كيلومترا شمالي روما وتسيطر على إقليم أكثر غنى واتساعا من إقليم روما . وتدل محتويات مقابرها على ثرائها العريض وعلاقاتها التجارية الخارجية الواسعة النطاق ، كما أن بقايا معبدها تدل على تأثيرات إغريقية واضحة .

وقد مر بنا أنه في أعقاب هزيمة الاتروسقيين عند أريقيا في عام ٥٠٥ ق . م . اضطروا إلى الانسحاب من لاتيوم فلم تبق في قبضتهم من هذا الإقليم إلا فيدناي حيث احتفظت فياي بحامية لها منذ استولت على هذه المدينة في أواخر القرن السادس قبل الميلاد . وحوالي عام ٤٨٠ ق . م . حاول الرومان — دون مساعدة حلفائهم فيما يبدو — تحرير هذه البقية الباقية من أراضي لاتيوم في قبضة الاتروسقيين ولكنهم نكبوا بهزيمة فادحة . وبعد هذه الكارثة بحوالي نصف قرن ، عندما كان الرومان قد زادوا عدد قواتهم وأصلحوا نظام جيشهم وطردوا الأيكوي من قلعة الجيدوس أحرزوا على فياي نصرا كبيرا وأجلوها عن فيدناي .

وعندما ذاق الرومان حلاوة النصر على غريمتهم العنيدة لم يعد يكفيهم طردها من لاتيوم بل أصبحوا يتطلعون إلى إخضاع هذه الغريمة . ويعتبر إقدامهم على ذلك الخطوة الأولى في مسيرتهم نحو فتح العالم القديم . وحوالي عام ٤٠٥ ق . م . امتشق الرومان الحسام ضد فياي وخاضوا معها حربا ضروسا صورتها الروايات الرومانية على هيئة حصار يحاكي من قرب حصار طروادة من حيث طوله لمدة عشر سنوات ومن حيث الالتجاء إلى الخديعة لدخول المدينة المحاصرة ، مما حدا بكثير من الباحثين إلى الاعتقاد بأن هذه الصورة ليست إلا ابتكارا استمده قدماء الرومان من أسطورة حصار طروادة . ونحن لا نستبعد أن تكون الروايات القديمة قد اتخذت من أسطورة حصار طروادة نموذجا صاغت على غراره قصة حصار فياي ، ومع ذلك لا جدال في أن القضاء على هذه المدينة لم يكن أمرا يسيرا ، ذلك أنه كانت لديها موارد وفيرة وقوات كبيرة ، وكان يزيد في مناعة موقعها الجبلي الوعر دعمه من ثلاث نواح بخندق كبير مملوء بالماء الجاري . وفضلا عن ذلك فانه قد هبت لنجدة فياي ثلاث مدن اتروسقية إلى جانب المتطوعين الذين جاءوا اليها من مدن اتروسقية أخرى .

ويبدو أن الرومان وحلفاءهم خاضوا مع فياي حربا دامت من حوالي عام

٤٠٥ حتى عام ٣٩٦ ق . م . ، وأنه في أثناء هذه الحرب حوصرت فياي حصارا شديدا انتهى بنجاح الرومان وحلفائهم في اقتحام هذه المدينة والاستيلاء عليها وازالتها من الوجود . وازاء ما اقتضاه عنف القتال مع فياي وطول مداه والحاجة الملحة إلى عدد كبير من الفرسان واضطرار المحاربين الرومان إلى الابتعاد عن أرضهم ، سمحوا للأثرياء أصحاب الثروة المنقولة (وتبعا لذلك كانوا غير مقيدين في وحدات الفرسان) بالتطوع للخدمة في الجيش على صهوات جيادهم الخاصة ، وأدخلوا لأول مرة نظام دفع مرتبات للمقاتلين في أثناء الحملات .

واذ أطلق الرومان وحلفاؤهم العنان لجنودهم في قتل أهالي فياي وبيع من تبقى منهم على قيد الحياة في سوق النخاسة ، وضعت يومئذ سابقة اتبعتها فيما بعد كل الجيوش الرومانية المنتصرة . وقد خرجت روما من هذا النصر بنصيب الأسد ، لأنها اذا كانت قد اقتسمت الأسلاب المنقولة مع حلفائها فانها هي التي ضمت إلى اقليمها كل الإقليم الغني الذي كانت فياي تسيطر عليه، وبذلك تضاعفت مساحة الإقليم الروماني .

رابعا — غزوات الغال

بعد فترة دامت نحوا من خمسة قرون تعرضت إيطاليا من جديد لغزوات من وراء جبال الألب . وكان الغزاة الجدد من القلت ، وهم الذين كانوا قد اتخذوا وطنا لهم في حوض الدانوب الأعلى ولكنهم تحت ضغط القبائل الجرمانية أخذ كثيرون منهم يولون وجوههم غربا . ولم يواف مطلع القرن الخامس قبل الميلاد حتى كان بعضهم قد وصل إلى بريطانيا ، والبعض الآخر إلى اسبانيا ، والبعض الثالث قد احتل الجزء الأكبر من فرنسا . وحوالي بداية القرن الرابع قبل الميلاد غيروا اتجاههم صوب الشرق ، فاتجه بعضهم من وادي الدانوب إلى شبه جزيرة البلقان ، على حين أن بعض القلت النازلين في فرنسا — وهم الذين أطلق الرومان عليهم اسم «الغال» — أخذوا يعبرون جبال الألب إلى ايطاليـــا أفواجا تلو أفواج.

فقد وصلت منهم إلى شمال ايطاليا ثماني قبائل كانت أشهرها قبيلة الإنسوبرس (Insubres) وهي التي استقرت في الجزء الشمالي الغربي من وادي البو وكانت عاصمتها مديولانيوم (Mediolanium) ، وقبيلة القنوماني (Cenomani) وهي التي استقرت شرقي القبيلة الأولى حول بحيرة جاردا . وقبيلة البويي (Boii) وهي التي عبرت نهر البو وحطت رحالها عند بونونيا (Bononia = بولونيا) . وقبيلة السنونس (Senones) وهي التي توغلت إلى ما وراء ذلك جنوبا بشرق وامتدت مواطنها حتى الأدرياتي .

وقد كان من جراء قدوم هذه الجحافل واستقرارها في وادي البو ثلاث نتائج وهي :

أولا — أنه قُضي بالتدريج على ما كان الاتروسقيون يتمتعون به حتى هذا الوقت من سيطرة في وادي البو .

وثانيا — أنه منذ ذلك الوقت أطلق الرومان على الاقليم الشمالي في إيطاليا اسم « غاليا قيس ألبينا » (Gallia Cisalpina) . أي بلاد الغال هذه الناحية من الألب . وهو الاسم الرسمي الذي ظل هذا الأقليم يُعرف به حتى نهاية عصر الجمهورية .

وثالثا — أن الاقليم الشمالي في إيطاليا أصبح مكمن خطر كبير على سلامة الإقليم الجنوبي وأمنه .

وقد كان هؤلاء الغزاة يحيون حياة خشنة في قرى بدائية ، ويعولون أنفسهم بتربية الماشية وممارسة نوع بدائي من الزراعة . وكانوا لا يعرفون من الصناعة إلا صناعة المعادن ولكنهم أظهروا فيها قدرا كبيرا من المهارة والكفاية الفنية . وكانوا يفرطون في حبهم للشراب والخصام والقتال . وكانوا محاربين أشداء يتسمون بالشجاعة الخارقة إلى حد التهور ، فقد كانوا ينقضون على خصومهم انقضاض الصاعقة ، ولا عجب أنهم كانوا يلقون الرعب في أشد خصومهم تمرسا بالقتال . بيد أنه كان ينقص من خطورة جيوشهم الافتقار إلى النظام ، والجشع في الاسلاب ، والعجز

عن بذل مجهود كبير متواصل لمدة طويلة . وعدم الخبرة بأساليب الحصار . وفضلا عن ذلك فإن سلاحهم الهجومي الرئيسي كان سيفا طويلا ذا حدين مصنوعا من الحديد اللين . ولذلك كثيرا ما كان ينثني ويفقد حدته بسهولة . وكان سلاحهم الدفاعي درعا مصنوعا من أعواد نباتية مجدولة . ومع ذلك فإنهم قبل أن يستقروا ويشغلوا أنفسهم باستغلال الموارد الزراعية الوفيرة في وادي البو . كانوا – بادىء ذي بدء – في خلال القرن الرابع قبل الميلاد مصدر متاعب خطيرة لشبه الجزيرة الايطالية بسبب كثرة ما كانوا يقومون به من اغارات عليها بحثا وراء الأسلاب والمغانم .

وبيان ذلك أنه ما كاد الرومان ينفضون أيديهم من فياي حتى أتاهم – على عجل ودون توقع – هذا الخطر الجديد الداهم . ذلك انه في حوالي عام ٣٩٠ ق . م . عبرت الأبنين جماعة من غزاة الغال بقيادة زعيم سنوني يدعى برنّوس (Brennus) وحاصرت مدينـــة قلوسيوم (Clusium) الاتروسقيـــة فناشدت الرومان المساعدة . وعندما أنفذ السناتو الرسل إلى الغزاة لاقناعهم برفع الحصار والانسحاب ، اعتبر الغال تدخل الرومان تحديا لهم ، واستدعوا نجدات اليهم ، وفي عام ٣٨٧ ق . م . زحفوا على روما نفسها . وعلى بعد ستة عشر كيلومترا من روما ، على ضفاف نهر أليّـــا (Allia) – أحد روافد التيبر – التقى الرومان وحلفاؤهم اللاتين مع الغال في معركة كانت نكبة على الحلفاء جميعا . ولما كانت خسائر القوات المتحالفة جسيمة ، وكان الذين نجوا من المعركة قد فروا إلى موقع فياي المهجور وحصنوا أنفسهم . فإن الطريق إلى روما أصبح مفتوحا أمام الغال ، ولو أنهم زحفوا فورا عليها لاستولوا عليها جميعا وعلى كل من بقي فيها وما ملكت أيديهم . ولا سيما أن أسوار روما كانت فيما يبدو قد أهملت وأنها على كل حال كانت تحتاج للدفاع عنها إلى قوات كبيرة لم يكن ميسورا توفيرها بعد المعركة . بيد أن تمهل الغال في مكان المعركة أتاح لفريق من مواطني روما الفرصة ليلوذوا بتل قابيتولينوس المنيع على حين أن أكثر المواطنين

نجوا بأنفسهم هربا إلى المدن المجاورة . وازاء ذلك دخل الغال روما دون مقاومة وخربوها تخريبا وحاصروا تل قابيتولينوس حصارا شديدا إلى أن أرغموا المحاصرين بعد سبعة شهور على التسليم . ولما كان هدف الغال هو السلب والنهب أكثر منه الفتح والسيطرة ، فانهم قبلوا فدية قدرها سبعة آلاف رطل من الذهب وانسحبوا من روما . وعندئذ عاد الرومان إلى مدينتهم واتخذوا خطوات هامة تفاديا لتكرار كارثة ألّيا وتخريب روما . ذلك أنهم أقاموا حول روما سورا من الحجر عُرف فيما بعد خطأ باسم « سور سرفيوس » نسبة إلى الملك سرفيوس توليوس ، ولم يقوموا فحسب بزيادة عدد مقاتليهم من فرسان ومشاة أصبحوا ينتظمون في فرقتين ، بل من المرجح أنهم قاموا أيضا عندئذ بادخال إصلاحات واسعة النطاق على نظام الجيش وطريقة تسليحه ، على نحو ما سيأتي الكلام فيما بعد .

وإذا كان الغال قد استمروا بعد ذلك يتابعون إغاراتهم على شبه الجزيرة الايطالية ، فانهم لم يظهروا ثانية في لاتيوم إلا حوالي عام ٣٦٠ ق . م . عندما أغاروا على منطقة جبل ألبانوس ، ولكن الرومان لم يشتبكوا معهم في هذه المرة مفضلين البقاء في حمى سور مدينتهم . بيد أنه عندما قدمت جحافل الغال في عام ٣٤٩ ق. م. تصدى لها الرومان وحلفاؤهم وسدوا الطريق في وجهها، فقفلت راجعة من حيث أتت مؤثرة السلامة والعافية . وعلى هذا النحو أصبحت روما الدرع الواقي للجماعات الايطالية من اغارات الغال . وفي عام ٣٣١ ق . م . عقدت قبيلة السنونس الغالية — وهي التي كانت تتزعم إغارات الغال الماضية على شبه الجزيرة — معاهدة صلح مع روما . ومن ثم بدأت بين الفريقين فترة من السلام دامت حتى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد .

خامسا — روما تسيطر على أواسط شبه الجزيرة الإيطالية

١ — روما والاتروسقيون :

إذا كانت نكبة ألّيا قد حفزت الرومان على الافادة من دروسها بالعمل

الجاد لكيلا تتكرر مآسيها ، فانها قد حفزت كذلك الاتروسقيين والأيكوي والفولسقي بل بعض اللاتين على تحدي الرومان ؛ غير أن الرومان عاجلوا خصومهم واحدا بعد الآخر بضربات قاصمة . ذلك أنه عندما حاولت المدينتان الاتروسقيتان فالريي (Falerii) وتاركوينيي (Tarquinii) الاستيلاء على إقليم حليفتهما السابقة فياي هزمهما الرومان ودعموا سيطرتهم على المنطقة الجنوبية في إتروريا، حيث وزعوا أراضي جزء من هذه المنطقة على فقراء مواطنيهم وكونوا من هؤلاء المواطنين أربع قبائل ريفية ، وأنشأوا في الجزء الباقي من هذه المنطقة مستعمرتين لاتينيتين وهما سوتريوم (Sutrium) في عام ٣٨٣ ق . م . ونبتي (Nepete) بعد ذلك بعشر سنوات . ومع ذلك فإن الاتروسقيين لم يكفوا عن مناوشة الرومان الا في عام ٣٥١ ق . م . عندما هُزموا هزيمة فادحة اضطرتهم إلى قبول الصلح لمدة أربعين عاما .

٢ – روما والأيكوي والفولسقي :

وعندما ناصب الأيكوي روما العداء وانتهز الهرنيقي – حلفاء روما السابقين– هذه الفرصة لتحدي روما ، تمكنت روما من اخضاع هذين الفريقين بسرعة خاطفة حوالي عام ٣٨٠ ق . م . على حين أن إغارات الفولسقي ومحاولاتهم المستميتة لاستعادة جنوب لاتيوم والحفاظ على استقلالهم اقتضت من الرومان سلسلة من الحملات . وبالرغم من أن الرومان أنزلوا بهم هزائم متعددة وضموا إلى الدولة الرومانية في عام ٣٥٨ ق . م . جزءا كبيرا من اقليمهم عمروه بمستعمرين رومان كونوا منهم قبيلتين ريفيتين أخريين ، فان الفولسقي لم يجنحوا إلى السلم ويقبلوا التحالف مع الرومان إلا بعد سقوط مدينتهم الرئيسية أنتيوم في عام ٣٣٨ ق . م .

٣ – روما ومدن لاتيوم وقمبانيا :

وقد واجهت روما كذلك خطرا أشد وأعتى من عداء الاتروسقيين والأيكوي

والفولسقي ، وهو الخطر الذي بدت نذره عندما نقض الهرنيقي تحالفهم مع روما . ذلك أنه قبل أن تفيق روما تماما من كبوتها أمام الغال أخذت بعض المدن اللاتينية حليفات روما تتنكر لمحالفتها وتناصبها العداء بمؤازرة الفولسقي والهرنيقي . وقد تصدت روما لهذا الخطر بشجاعة وكفاية ، فهزمت المدن اللاتينية التي عادتها وتمكنت في عام ٣٥٨ ق . م . من أن ترغم هذه المدن وكذلك باقي المدن اللاتينية على أن تجدد معها معاهدة قاسيوس .

واذا كانت أكثر المدن اللاتينية قد ظلت وفية لتحالفها مع روما في خلال الصراع الذي مر بنا ذكره ، فانه قد حدث في عام ٣٤٠ ق . م . أن كل المدن اللاتينية أعضاء الحلف قامت في وجه روما قومة رجل واحد لأنها رأت من الشواهد ما يشير إلى أن تحالفها مع روما سيؤدي حتما إلى سيطرة روما عليها . ومن ثم فانه لم يكن هناك مفر من الذود بالسلاح عن حياض استقلالها وحريتها . وهذه الشواهد هي : أولا ، أنه عندما جُددت معاهدة قاسيوس في عام ٣٥٨ ق . م . لم يعد هناك تناوب في قيادة القوات المتحالفة . بل تقرر أن تكون القيادة للرومان دون غيرهم . وثانيا ، أنه في العام نفسه عندما انتصر الرومان على الفولسقي وضموا جزءا من اقليمهم لم يحصل الحلفاء على أي نصيب من هذه الغنيمة . وثالثا ، أنه في عام ٣٥٤ ق . م . عقد الرومان محالفة مع السمنيين أصحاب الاقليم الواقع إلى الجنوب الشرقي من لاتيوم ، فأحس اللاتين بأنهم أصبحوا محاصرين من ناحية بالرومان ومن ناحية أخرى بحلفائهم السمنيين . ورابعا ، أنه في عام ٣٤٨ ق . م . [1] عقدت روما معاهدة مع قرطجنة تعهدت فيها المدينة الأولى بعدم الاعتداء على منطقة نفوذ المدينة الثانية في مقابل تعهد هذه المدينة بعدم الاعتداء على شواطىء لاتيوم . فكان ذلك دليلا قاطعا على أن روما أصبحت تعتبر نفسها صاحبة السيادة على لاتيوم .

وازاء ذلك كله تحالفت المدن اللاتينية مع مدن قمبانيا الشمالية وطلبت إلى

---

(١) Polyb., III, 24.

الرومان أن يعاملوها على قدم المساواة وفقا لنصوص معاهدة قاسيوس الأولى . وعندما رفض الرومان الاستجابة إلى ذلك اشتبك الفريقان فيما يسمى « بحرب اللاتين الكبرى » ، وهي التي دامت ثلاث سنوات وسحق فيها الرومان قوات المدن اللاتينية (٣٤٠ — ٣٣٨ ق . م .) . وعندئذ طبقت روما مبدأ « فرق تسد » (divide et impera) بحذافيره ، ذلك أنهـــا في عـــام ٣٣٨ ق . م . حلت العصبة اللاتينية وأرغمت كل عضو من أعضائها على أن يعقد معها على حدة معاهدة بالشروط التي أملتها . وبمقتضى هذه الشروط حُرمت خمس مدن استقلالها وأدمجت في الدولة الرومانية . وأما بقية المدن وكذلك المستعمرات اللاتينية فانها احتفظت باستقلالها الذاتي وأصبحت حليفات روما على أن تقدم لها قوات عسكرية كلما اقتضت الظروف ذلك ، وفقدت حقي الاتجار والتزاوج مع بعضها بعضا ولكنها احتفظت بهذين الحقين فيما بين كل منها وروما فقط . ولم يعد من حق أية مدينة لاتينية أن تؤلف مع غيرها أية عصبة أو رابطة من أي نوع . ولكي يقطع الرومان اتصال لاتيوم بالعالم الخارجي أنشأوا على شاطىء هذا الإقليم عدة مستعمرات لم يسمحوا بالاقامة فيها لأي مواطن من مواطني المدن اللاتينية . ومعنى ذلك كله أن السياسة الرومانية تجاه اللاتين أصبح قوامها عزل المدن اللاتينية عن بعضها بعضا وكذلك عن العالم الخارجي مع ربط كل مدينة من هذه المدن بروما نفسها .

ولما كان خوف مدن قمبانيا الشمالية من السمنيين هو الذي حدا بها إلى التحالف مع العصبة اللاتينية . فانه في خلال العام الأول من الحرب لم تجد روما صعوبة في اغراء هذه المدن على الانفصاض عن حليفاتها . ذلك أن روما تعهدت بالدفاع عن هذه المدن . وكانت من بينها المدينتان الكبيرتان قابوا وقوماي ، ومنحت مواطنيها حقوق المواطنة الرومانية الخاصة دون العامة (civitas sine suffragio) ، وسمحت لهذه المدن بالاحتفاظ باستقلالها المحلي ودساتيرها وقوانينها إلا إذا شاءت أن تستبدل بها النظم والقوانين الرومانية ، على أن يلتزم

مواطنوها دائما بالخدمة العسكرية في الجيوش الرومانية شأنهم شأن أي مواطن روماني . ومعنى ذلك أن هذه المدن جميعا أصبحت جزءا من الدولة الرومانية وأن هذه الدولة أصبحت تمتد حتى خليج نابولي . وفي أعقاب الحرب مع اللاتين دعم الرومان مواصلاتهم مع قمبانيا بطرد الفولسقي من وادي نهر ليريس وانشاء مستعمرتي قالس (Cales) وفرجلاي (Fregellae) في موقعين استراتيجيين ، أولاهما في عام ٣٣٤ ق . م . وثانيتهما في عام ٣٢٨ ق . م .

٤ – روما والسمنيون

في خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، حين كان الرومان يجدّون في دعم سيطرتهم على الجزء الجنوبي من إترووريا وعلى لاتيوم وعلى الجزء الشمالي من قمبانيا ، كان اكتظاظ المنطقة الوسطى من جبال الأبنين بالقبائل السابلية يدفع جماعات تلو جماعات منها إلى الهجرة صوب الأقاليم الواطئة المجاورة بحثا عن مواطن جديدة تستقر فيها . ذلك أنه في حوالي عام ٤٣٨ ق . م . استولت عصابات سابلية على مدينة قابوا وبعض المدن الصغرى المجاورة ، وفي حوالي عام ٤٢٨ ق. م. استولت عصابات سابلية أخرى على مدينة قوماي[1] . وحوالي هذا الوقت استقرت عصابات أخرى في لوقانيا وطردت البروتيي إلى الطرف الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة . ولم تقتصر هجرات السابليين على الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة الايطالية بل امتدت أيضا إلى الجنوب الشرقي حيث استقر بعضهم عند الطرف الشمالي لرأس جرجانوس (Garganus) ، لأن مواطني اقليم أبوليا ومدينة تارنتم الإغريقية استطاعوا صدهم والحفاظ على مواطنهم. ومجمل القول أنه لم يواف منتصف القرن الرابع قبل الميلاد حتى كان الجانب الأكبر من جنوب شبه الجزيرة قد وقع في قبضة السابليين .

واذا كان معيار نجاح الغزوات هو مقدار اتساع الرقعة التي يستولي عليها

(١) لم يلبث السابليون غزاة قابوا وقوماي أن تحضروا بحضارة أهل هاتين المدينتين وانخرطوا في عدادهم ، وهو ما يفسر خوف مدن قمبانيا الشمالية من خطر السمنيين على نحو ما مر بنا .

الغزاة ، فلا شك في أن غزوات السابليين في الجنوب كانت أكثر نجاحا من فتوحات الرومان في الوسط والشمال . بيد أنه من الناحية السياسية كانت فتوحات الرومان أهم بكثير من الاتساع السابلي لأن هذا الاتساع لم تحرزه جيوش نظامية توجهها حكومة موحدة لها أهداف معينة وإنما أحرزته عصابات مفككة من المغامرين . وتبعا لذلك لم يؤد اتساع السابليين وانتشارهم في أرجاء جنوب شبه الجزيرة الايطالية إلى قيام قوة كبيرة موحدة وإنما إلى قيام قوى صغيرة منفصلة لم توجد أية روابط بين بعضها بعضا ولا أية صلات بينها وبين مواطنها الأصلية في جبال الابنين حيث ظلت عدة قبائل شديدة البأس عزيزة الجانب تميزت عن باقي السابليين باسم السمنيين .

وازاء الخطر المشترك الذي كان يهدد سلامة شبه الجزيرة الايطالية بأجمعها من ناحية الغال ، عقد الرومان مع السمنيين في عام ٣٥٤ ق . م . تلك المحالفة التي سلفت الاشارة إليها . ولا يبعد أن قوات روما وحلفائها التي تصدت للغال في عام ٣٤٩ ق . م . كانت تضم قوات من السمنيين . ويبدو أنه عندما انحسرت موجة الخطر الغالي تفككت أواصر المحالفة بين الرومان والسمنيين .

ويحدثنا المؤرخ الروماني ليفيوس بأن الحرب السمنية الأولى وقعت في عام ٣٤٣ ق . م . ودامت حتى عام ٣٤١ ق . م . ويأخذ بذلك بعض الباحثين ، ولكنه لما كانت بعض التفاصيل التي يرويها ليفيوس عن هذه الحرب تتسم بخيال مريب ، وكان بعضها الآخر يطابق تماما أحداثا وقعت فيما يسميه بالحرب السمنية الثانية ، وكان من غير المعقول أن يجازف الرومان بالاشتباك مع السمنيين في الوقت الذي بدأت فيه نذر القلق والاضطراب بين اللاتين ، فإننا نميل إلى ما يذهب إليه بعض الباحثين من مجاراة ديودوروس الصقلي في إغفال ما يسميه ليفيوس الحرب السمنية الأولى ، ونعتقد أنه لم يحدث اشتباك مسلح بين الرومان والسمنيين إلا منذ عشرينات القرن الرابع قبل الميلاد . ذلك أنه عقب انحسار خطر الغال عند منتصف هذا القرن أخذ السمنيون يتابعون سياسة عدوانية في

جنوب شبه الجزيرة مما أفزع مدن شمال قمبانيا وحدا بها إلى قبول الاندماج في الدولة الرومانية اتقاء لشر السمنيين . ولعل السمنيين لم يردوا على هذا التصرف باتخاذ أي اجراء من جانبهم بسبب انهماكهم عندئذ في محاربة المدينة الاغريقية الكبيرة تارنتم (٣٣٤ — ٣٣١ ق . م .) وهي التي عقد الرومان معها معاهدة في عام ٣٣٤ ق . م . لم يلتزموا بمقتضاها الا بعدم تقديم أية مساعدة لحلفائهم السمنيين ، على حين أن الاسكندر ملك أبيروس (Epirus) شمر عن ساعد الجد في شد أزر تارنتم مما مكنها من صد السمنيين وانهاء الحرب . وعندما عقد السمنيون الصلح مع تارنتم وجهوا اهتمامهم إلى قمبانيا ، مما كان نذيرا بالاشتباك مع الرومان، وكانوا قد أثاروا نقمة السمنيين بثلاثة تصرفات مر بنا ذكرها وهي : أولا ، أن الرومان أدمجوا مدن قمبانيا الشمالية في دولتهم حوالي عام ٣٣٨ ق . م . وثانيا ، أن الرومان تحالفوا مع تارنتم في عام ٣٣٤ ق . م . حين كانت تحارب السمنيين . وثالثا ، أنه كان من شأن المستعمرتين اللتين أقام الرومان إحداهما في عام ٣٣٤ ق . م . عند قالس على حدود قمبانيا ، وأقاموا الأخرى في عام ٣٢٨ ق . م . عند فرجلاي في وادي نهر ليريس أن تقفا حجر عثرة في وجه زحف السمنيين على قمبانيا .

وفي عام ٣٢٧ ق . م . أفاد السمنيون من الصراع الحزبي الناشب في مدينة نيابوليس (Neapolis = نابولي) الإغريقية في قمبانيا وسارعوا إلى نجدة أحد الحزبين المتنازعين ووضعوا حامية لهم في المدينة . واذ أفزع ذلك مدينة قابوا ناشدت مساعدة الرومان ، فحاصروا نيابوليس وتمكنوا من طرد السمنيين منها وأصبحت حليفة لروما . وفضلا عن ذلك فان الرومان أتبعوا هذا النجاح بالاستيلاء على روفريوم (Rufrium) والّيفاي (Allifae) الواقعتين على حدود سامنيوم (Samnium) ، أي اقليم السمنيين . وهكذا لم يعد هناك مفر من وقوع صدام بين أكبر قوتين عسكريتين في شبه الجزيرة الإيطالية . وقد كان السمنيون شعبا محاربا مغوارا لا يقل عدده عن عدد الرومان ، واذا كانت نظمهم العسكرية

أصلح من النظم الرومانية للحروب في الجبال . فان نظم الرومان العسكرية كانت أنسب للقتال في السهول والوديان وتقتضي اطاعة الجنود لقوادهم طاعة عمياء . وفضلا عن ذلك فانه كانت لدى الرومان حكومة أكثر وحدة وتنظيما وأقدر على متابعة سياسة متواصلة في صراع طويل الأمد . ويمكن تقسيم حروب الرومان مع السمنيين مرحلتين وهما :

(ا) – المرحلة الأولى من عام ٣٢٦ إلى عام ٣٠٤ ق . م .

في السنين الأولى من هذه المرحلة أحرز الرومان بعض الانتصارات ونجحوا في تطويق السمنيين من الشمال بمحالفة المارسي (Marsi) والبايلجني (Paeligni) ومن الجنوب الشرقي بمحالفة أبوليا . بيد أنه عندما اعتزم الرومان مهاجمة السمنيين من الخلف عن طريق أبوليا . وأنفذوا في عام ٣٢١ ق . م . جيشا كبيرا منهم ومن حلفائهم . خرج من قابوا ليشق طريقا قصيرا إلى أبوليا عبر سامنيوم . كان السمنيون لهم بالمرصاد وأوقعوا الجيش في كمين نصبوه في واد ضيق يعرف باسم « شعاب قاوديوم » (Caudine Forks = Furculae Caudinae) وإن كان لا يعرف عن موقعه أكثر من أنه كان فيما بين مدينتي قابوا وبنفنتوم (Beneventum) [1] . وقد أرغم الجيش على التسليم ولم يفك أسره الا بعد أن عقدت روما مع السمنيين صلحا تعهدت فيه بالنزول لهم عن فرجلاي وغيرها من المواقع الرومانية الأمامية وبعدم معاودة قتالهم ثانية .

وإذا كانت نكبة ألّيا حفزت الرومان على اعادة تنظيم الجيش وزيادة قوته . فان نكبة « شعاب قاوديوم » حفزتهم على زيادة عدد المشاة الرومان فأصبحوا يؤلفون أربع فرق عدد كل منها ٤٢٠٠ مقاتل . وفرضوا على المدن

---

(١) Liv., IX, 2 - 6; E.T. Salmon, J.R.S., 1922, pp. 12 ff.; Oxford Class. Dict., s.v. Caudine Forks.

الحليفة الاسهام بعدد مماثل من المقاتلين . وتبعا لذلك أصبح عدد المقاتلين من رومان وحلفاء يتراوح بين ٣٥,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ .

وفي عام ٣١٥ ق . م . نقض الرومان صلح قاوديوم (Caudinum foedus) واستأنفوا محاولة الهجوم على السمنيين من الخلف عن طريق أبوليا ، ولكن السمنيين خيبوا على الرومان محاولتهم بأن أنفذوا من فرجلاي قوة ضاربة سريعة وصلت إلى شاطىء لاتيوم حيث استولت على تارّاقينا (Tarracina) وقطعت خطوط مواصلات الرومان مع قاعدتهم في قابوا . وعندما رد الرومان على ذلك بارسال قوة من احتياطيهم لاستعادة الطريق الساحلي هزمت هزيمة فادحة عند لاوتولاي (Lautulae) في جنوب لاتيوم بالقرب من تاراقينا . وقد هزت هذه الهزيمة ولاء مدن قمبانيا لروما إلى حد أن قابوا هجرت جانبها وانحازت إلى جانب خصومها . ولكنه قبل أن يتسع نطاق الفتنة تمكن الرومان في العام التالي (٣١٤) من طرد السمنيين من تاراقينا ، مما جعل قابوا تسارع بالاستسلام للرومان . وفي خلال العامين التاليين استعاد الرومان مواقعهم في وادي نهر ليريس ودعموها بانشاء مواقع أمامية جديدة ، بل إنهم ثبتوا أقدامهم في أبوليا بالاستيلاء على قلعة سمنية تدعى لوقريا (Luceria) وإقامة مستعمرة على موقعها . وفضلا عن ذلك فإنهم أنشأوا أشهر طرقهم العامة المرصوفة وهو طريق أبيوس (Via Appia) الذي كان يهيء لهم سبل الاتصال في كل فصول السنة فيما بين روما وتاراقينا وقابوا .

وحين ضيق الرومان الخناق على السمنيين استخدم السمنيون دهاءهم السياسي ليُضطر الرومان إلى تقسيم قواهم فيخف الضغط عليهم . ذلك أن الصلح الذي عقده الرومان مع مدينتي فالريي وتاركوينيي الاتروسقيتين لمدة أربعين عاما كان ينتهي في عام ٣١١ ق . م . ومن ثم فإن السمنيين بادروا في ذلك العام إلى تحريض هاتين المدينتين بل كل عصبة المدن الاتروسقية على مهاجمة الإقليم الروماني في جنوب إترוריا. وفي العام التالي حرضوا كذلك الهرنيقي والأيكوي والبايلنجي على فض تحالفهم مع الرومان والانقضاض عليهم . وقد كانت النتيجة

الطبيعية لازدياد أعباء الصراع على الرومان تخفيف ضغطهم على السمنيين . ولكن السمنيين لم يهنأوا بذلك طويلا . اذ أن الرومان عاجلوا الاتروسقيين في خلال ثلاث سنوات (٣١٠ — ٣٠٨) بضربات متلاحقة أرغمت مدينة بعد أخرى على عقد الصلح مع الرومان . كما أرغمت عصبة المدن الاتروسقية على عقد هدنة تتجدد سنويا لمدة عشرين عاما . وفي خلال ذلك نجح الرومان كذلك في إرغام الهرنيقي والأيكوى والبايلجني على التسليم لهم . وقد عاقب الرومان هذه الأقوام بضم أجزاء من أقاليمهم إلى الدولة الرومانية ، وأقاموا على جانب من الأرض التي ضموها مستعمرات عسكرية رومانية ووزعوا باقيها بين المواطنين الرومان الراغبين في الاستقرار هناك . حيث أنشأوا قبائل ريفية جديدة ، ولكنهم منحوا مواطني المدن الواقعة في الاجزاء التي ضموها الحقوق الرومانية الخاصة . وعندئذ ألقى الرومان بثقلهم كله ضد السمنيين . فما وافى عام ٣٠٤ ق . م . حتى اضطروا إلى طلب الصلح . وقد استجاب الرومان إلى طلب السمنيين وسمحوا لهم بالاحتفاظ باستقلالهم وبما يملكون فيما عدا بعض أقاليم الحدود . وسبب هذه الاستجابة دون فرض شروط قاسية يرجع إلى أن السمنيين . برغم تقليم أظافرهم ، كانوا لا يزالون قوة يتطلب القضاء عليها بذل مجهود كبير كان من المتعذر على الرومان بذله بعد أن دامت الحرب زهاء العشرين عاما وأبهظت كاهلهم . ولذلك كان الرومان في حاجة إلى فترة من الاستجمام يلتقطون فيها أنفاسهم . وهم واثقون من أنهم سيكيلون للسمنيين الصاع صاعين اذا بادروهم بالعدوان مرة أخرى . فقد دعم الرومان مركزهم ضد أعدائهم بما أحرزوه من مكاسب إقليمية في أبوليا وفي وسط شبه الجزيرة حيث أقاموا عددا من المستعمرات والاستحكامات العسكرية ، فضلا عن إنشاء مستعمرة عسكرية قوية تسمى فنوسيا (Venusia) على الحدود بين سامنيوم ولوقانيا ، وبما عقدوه من محالفات عسكرية مع أقوام محاربة مثل المارسي والمارّوقاني (Marrucani) والفرنتاني (Frentani) وغيرهم .

(ب) – المرحلة الثانية من عام ٢٩٨ إلى عام ٢٩٠ ق . م .

في خلال المرحلة الأولى من الحروب السمنية كانت تربط الرومان باللوقاني معاهدة صداقة، وتبعا لذلك لم يناصبوا الرومان العداء وإن كانوا لم يقدموا لهم أية مساعدات . وفي عام ٣٠٣ ق.م. تعاون الرومان مع اللوقاني في محاربة تارنتم، وهي التي كان قليونوموس (Cleonymus) ملك أسبرطة يشد أزرها عندئذ . وبعد ذلك حين انقسم اللوقاني فريقين يشايع أحدهما السمنيين ويشايع الآخر الرومان وأنفذ السمنيون قوة لدعم مشايعيهم ، ناشد الفريق الآخر مساعدة الرومان فأرسلت روما جيشا طرد السمنيين من لوقانيا في عام ٢٩٨ ق . م . وكان ذلك إيذانا ببداية المرحلة الثانية من الحروب السمنية .

واذا كان الرومان قد استكملوا على هذا النحو تطويق السمنيين . فان السمنيين بادروا إلى تكوين جبهة قوية تتألف منهم ومن السابيني ومن السنونس الغال ومن بعض المدن الاتروسقية . وفي البداية أحرزت هذه القوات المتحالفة بعض النجاح ولكنها عندمـــا التقت مع الرومان عند سنتينوم (Sentinum) في عام ٢٩٥ ق . م . هـُزمت هزيمة فادحة بددت شملها وتركت المدن الاتروسقية فريسة سهلة للرومان كما تركت سامنيوم ذاتها نهبا لانقضاض الرومان عليها تباعا . وما إن هزمت روما المدن الاتروسقية وأرغمتها على عقد الصلح معها حتى تفرغت لاستنزاف موارد السمنيين باغارات متكررة من عدة جهات فاضطروا إلى طلب الصلح . وقد استجاب الرومان إلى هذا الطلب على أن ينزل السمنيون لهم عن جزء من إقليمهم ويصبحوا حلفاءهم (عام ٢٩٠ ق. م.) . وعندئذ وجه الرومان اهتمامهم إلى السابيني وصفوا حسابهم معهم دون عناء وضموا إقليمهم ومنحوا مواطنيهم حقوق المواطنة الرومانية الخاصة .

بيد أن الغال استمروا لبضع سنوات يشكلون خطرا على روما . ذلك أن السنونس أغاروا على إترووريا وحاصروا مدينة أرتيوم (Arretium) في عـــام

٢٨٤ ق . م . وعندما أنفذ الرومان قوة لنجدة المدينة المحاصرة هُزمت هذه القوة هزيمة فادحة ، مما شجع عدة مدن اتروسقية على نقض معاهداتها مع روما . ولكنه لم يكن من شأن هذه الهزيمة الا أنها بعثت الرومان على شحذ هممهم وبذل مجهود كبير فغزوا أقليم السنونس ودحروهم وبعد أن خربوا اقليمهم وحولوه إلى صحراء بلقع ضموه إلى دولتهم ولكنه ظل يُعرف باسم اقليم الغال (Ager Gallicus) كما ظل لا يزرع لمدة خمسين عاما باستثناء شريط ساحلي أنشئت فيه مستعمرة « سنا الغالية » (Sena Gallica) . ومع ذلك فان ما فعله الرومان بالسنونس لم يفض إلى إنهاء صراعهم مع الغال ، ذلك أن البويي غزوا إتروريا في عام ٢٨٣ ق . م . وجمعوا حولهم قوات اتروسقية وزحفوا على روما ، غير أن الرومان خرجوا للقائهم على بعد حوالي ثمانين كيلومترا من مدينتهم وهزموهم . ولما لم تكن هذه الهزيمة فاصلة ، فان البويي عاودوا محاولتهم في العام التالي ، ولكن دون أن يصيبوا توفيقا أفضل مما أصابوه في العام السابق ، فطلبوا الصلح واستجاب الرومان إلى طلبهم بشروط لينة . وقد استمرت المدن الاتروسقية في متابعة صراعها مع الرومان إلى أن أعياها هذا الصراع واضطرت إلى التسليم في عام ٢٨٠ ق . م . ووافق الرومان على ذلك بشروط سخية ، لأنهم وقد أصبحوا القوة الرئيسية في أواسط شبه الجزيرة الايطالية وشمالها كان في وسعهم أن يكونوا أسخياء ولا سيما أنهم كانوا قد بدأوا يشتبكون في جبهة جديدة .

سادسا – روما تسيطر على جنوب شبه الجزيرة الايطالية

حين كانت روما لا تزال منهمكة في شمال شبه الجزيرة أدى تطور الأحداث في جنوبها إلى اشتباكها مع المدن الإغريقية في الجنوب ومع جيران هذه المدن من المسابي والبيوقتيي (من أهالي أبوليا) وكذلك مع اللوقاني والبروتيي . وبيان ذلك أنه بعد انهيار امبراطورية ديونيسيوس الأول طاغية سراقوسة في عام ٣٦٧ ق . م دأب اللوقاني والبروتيي والمسابي والبيوقتيي على الاعتداء على المدن الاغريقية في

جنوب شبه الجزيرة الايطالية ولم تفلح الا قلة من هذه المدن في الاحتفاظ باستقلالها . ولما كانت مدينة تارنتم أعظم هذه المدن جميعها وأشدها بأسا وتمتلك أكبر أسطول في المياه الايطالية ، فانها لم تلبث أن أخذت على عاتقها رد العدوان عن إغريق إيطاليا. وحين وجدت تارنتم أن العبء ضخم وأنه لا بد من أن يستنزف قواها اذا هي عكفت على مواجهته بمفردها استنجدت بأرخيداموس ملك إسبرطة لكنه خر صريعا في مقاتلة اللوقاني في عام ٣٣٨ ق. م. وعندما واجهت تارنتم عداء من السمنيين واللوقاني والبروتيي في عام ٣٣٤ ق. م. استنجدت بالاسكندر ملك أبيروس وتمكنت من صد العدوان . بيد أنه عندما أدركت تارنتم أن الاسكندر كان ينتوي إقامة أمبراطورية له في جنوب ايطاليا هجرت جانبه عندما جدد اللوقاني عدوانهم في عام ٣٣٠ ق . م . مما أدى إلى هزيمته وقتله . وعندما جدد اللوقاني عداءهم في عام ٣٠٣ ق . م . استنجدت تارنتم بقليونوموس ملك اسبرطة وأرغم اللوقاني على عقد الصلح . وحوالي عام ٢٩٨ ق . م . آزر أجاثوقلس طاغية سراقوسة اغريق ايطاليا ضد البروتيي وعقد مع المسابيي والبيوقتيي محالفة ، لكنه عندما توفي في عام ٢٨٩ ق . م . وتلاشت سطوة سراقوسة لم يعد لدى اغريق ايطاليا درع واق يحميهم من عدوان جيرانهم . ولذلك فانه عندما هاجم اللوقاني مدينة ثوريي (Thurii) طلبت محالفة الرومان وناشدتهم المساعدة باعتبار أنهم كانوا أقوى من تارنتم وأقل خطرا من ملوك بلاد الاغريق . ولما كان اللوقاني قد فضوا محالفتهم مع الرومان بعد موقعة سنتينوم (عام ٢٩٥ ق . م .) ، فان الرومان قبلوا طلب ثوريي وأرسلوا اليها في عام ٢٨٢ ق . م . نجدة برية وبحرية هزمت اللوقاني وحلفاءهم البروتيي ووضعوا حامية رومانية في المدينة . وفي أعقاب ذلك عندما طلبت مدينتان إغريقيتان أخريان في جنوب ايطاليا ، وهما رجيوم (Rhegium) ولوقري (Locri) ، محالفة الرومان وحمايتهم ، استجاب الرومان إلى طلب هاتين المدينتين ووضعوا في كل منهما حامية رومانية . ومن المحتمل أن ذلك كان أيضا شأن مدينة قروتون (Croton) .

وتفسيرا للأحداث التي أعقبت تدخل الرومان لحماية الاغريق ، تجدر

الاشارة إلى أنه منذ وصلت القوات الرومانية إلى أبوليا في خلال المرحلة الأولى للحروب السمنية أخذ القلق يساور تارنتم من عواقب ازدياد انتشار قوة روما صوب الجنوب . وينم عن هذا القلق ما قامت به تارنتم من محاولة فاشلة في حوالي عام ٣١٤ ق . م . للتوفيق بين الرومان والسمنيين . وزاد في هذا القلق أن الرومان رفضوا تدخل تارنتم وأقاموا مستعمرة فنوسيا على مسافة غير بعيدة عن تارنتم . ولذلك فإنه في عام ٢٨٢ ق . م . عندما ظهر في خليج تارنتم أسطول روماني صغير مؤلف من عشر سفن ، اعتبرت تارنتم ذلك خرقا لمعاهدة التحالف التي عُقدت في عام ٣٣٤ ق . م . وكانت تنص على عدم دخول القوات الرومانية هذا الخليج . وعلى الفور حشدت تارنتم جيشها وأسطولها وأغرقت بعض السفن الرومانية واستولت على البعض الآخر وبددت شمل الباقي وطردت الحامية الرومانية من ثوريي واحتلت هذه المدينة . ولما كانت أيدي الرومان لا تزال مغلولة في محاربة الغال والأتروسقيين ، وكانت تارنتم قد حصلت في أعقاب هذا الحادث على خدمات بورّوس (Pyrrhus) ملك أبيروس وجيشه وكانت لهما شهرة عسكرية كبيرة ، فان الرومان اكتفوا أول الأمر بطلب ترضية عما حدث . ولكن تارنتم وقد اشتد ساعدها بقدوم بوروس وجيشه فضلا عن وثوقها من تأييد المسابي والسمنيين واللوقاني والبروتيي في صراعها مع الرومان ، رفضت طلبهم بازدراء وأهانت سفراءهم اهانة بالغة لم يعد في وسع الرومان بعدها الا المخاطرة بمنازلة العدو . ولا أدل على جسامة هذه المخاطرة من أن بوروس كان على الأرجح أقدر القواد الاغريق في عصره [١] ، وأنه أحضر معه إلى ايطاليا جيشا مدربا ومسلحا وفقا لأحدث أساليب القتال ، وهي التي ابتدعها الاسكندر الأكبر وأصبحت سائدة في كافة جيوش العالم الهلينيسي . وكان جيش بوروس يتألف من ٢٠,٠٠٠ مقاتل ثقيلي العدة فضلا عن ٣٠٠٠ فارس و ٢٠٠٠ من رماة السهام إلى جانب عشرين فيلا ، وكانت هذه هي أول مرة تستخدم فيها الفيلة

---

(١) انظر : P. Lévêque, Pyrrhos, Paris, 1957.

في أية معركة حربية في ايطاليا . وقد كانت الواقعة الأولى في عام ٢٨٠ ق . م . عند هرقليا على شاطىء خليج تارنتم ، حيث كان النصر حليف بوروس ، ولكنه كان نصرا باهظ الثمن ولولا براعته في القيادة والذعر الذي نشرته الفيلة في الرومان لما استطاع أن يبدد شملهم بعد ما أنزلوه به من خسارة فادحة جعلت عبارة «نصر بوروسي» مضرب الأمثال حتى اليوم لكل نصر فادح الثمن باهظ التكاليف . وفي أعقاب هذا النصر ، اذا كان بوروس قد استطاع أن يزحف شمالا حتى لاتيوم ، فانه عاد فانسحب دون أن يحتل أي موقع له قيمة . وعندما عرض الصلح على روما بشرط أن تتخلى عن جنوب ايطاليا بأجمعه ، رفضت روما هذا العرض . وبعد أن أحرز بوروس في العام التالي بالقرب من أوسقولوم[١] (Ausculum) في أبوليـــا نصرا آخر غـــالي الثمن عرض الصلح ثانية على الرومـــان ، ولكنه في هـــذه المرة لم يشترط إلا تأمين حرية المدن الأغريقية ومن المحتمل أيضـــاً اعطاء تعويضات لحلفـــائه السمنيين والمسابيي واللوقاني والبروتيي . وحين سارت المفاوضات في طريق النجاح وبدا أن الصلح أصبح وشيكا ، خشيت قرطجنة أن يتيح هذا الصلح لبوروس الفرصة للتدخل في صقلية . ولذلك فان قرطجنة ، لكي تبقي بوروس منهمكا في جنوب ايطاليا وفي الوقت نفسه تشجع الرومان على متابعة الحرب معه ومع حلفائه ، أسرعت بانفاذ سفرائها إلى روما ليعرضوا عليها المساعدة بالأموال والسفن . وفي عام ٢٧٩ ق . م . رفضت روما مصالحة بوروس وعقدت مع قرطجنة معاهدة عسكرية[٢] اتفق فيها الطرفان على : أولا ، أن يتعاون الأسطول القرطجني فورا مع الرومان . وثانيا ، انه لا يحق للقرطجنيين اتخاذ قواعد دائمة في ايطاليا . وثالثا ، أنه في حالة إبرام أحد الطرفين معاهدة مع العدو المشترك يجب أن يحتفظ لنفسه في هذه المعاهدة بحق مساعدة الطرف الآخر اذا غزيت أراضيه .

---

(١) وهي غير أسقولوم Asculum عـــاصمة البقني التي استولى الرومان عليها فيما بعد (عام ٢٦٨ ، ق.م.) .

(٢) Polyb., III, 25, 1 - 5.

ومع ذلك فانه في عام ٢٧٨ ق . م . قرر بوروس أن يخف لنجدة إغريق صقلية لأنهم أصبحوا منذ وفاة أجاثوقلس طاغية سراقوسة في عام ٢٨٩ ق . م . هدفا لخطرين جسيمين ، كان أحدهما هو أن القرطجنيين انتهزوا هذه الفرصة ليجددوا هجماتهم على المدن الإغريقية في صقلية . وكان الخطر الآخر هو أن جنود أجاثوقلس القمبانيين المأجورين — وهم الذين كانوا يدعون أنفسهم مامرتيني (Mamertini) نسبةً إلى إله الحرب السابلي مامرس (Mamers) — تركوا خدمة سراقوسة بعد وفاة مولاهم واستولوا في حوالي عام ٢٨٨ ق.م. على مسانا (Messana = مسينيا) وجعلوها قاعدة لاغاراتهم على المدن الاغريقية في صقلية . وفي خلال السنوات الثلاث التي قضاها بوروس في صقلية وجه جل اهتمامه إلى محاربة القرطجنيين بوصف كونهم الخطر الأكبر الذي كان يتهدد اغريق هذه الجزيرة . وقد صادف بوروس نجاحا كبيرا في هذه الحرب ، فقد أرغم القرطجنيين على التخلي عن كل ممتلكاتهم فيما عدا ليلوبايوم (Lilybaeum) وأخذ يتأهب لنقل الصراع إلى أفريقيا . ولكنه ازاء الالتزامات الثقيلة التي فرضها على حلفائه الأغريق ، وإزاء خوفهم من أن يفرض سيطرته عليهم ، هجره هؤلاء الحلفاء وعقدوا الصلح مع القرطجنيين ، فلم يجد بوروس مندوحة من أن يبرح صقلية في عام ٢٧٥ ق . م . عائدا إلى حلفائه القدامى في جنوب إيطاليا .

وفي خلال السنوات الثلاث التي قضاها بوروس في صقلية تمكن الرومان من ارغام اللوقاني والبروتيي والمسابيي وجيرانهم على وقف القتال ، وكذلك ضيقوا الخناق على السمنيين . فما كان من بوروس عند عودته إلى ايطاليا إلا أنه أعاد تنظيم قواته وقرر أن ينقض على جيش روماني كان قد زحف على سامنيوم ووصل حتى بنفنتوم (Beneventum) ، ولكن خطة بوروس فشلت واضطر إلى الانسحاب إلى تارنتم . وعندما أدرك بوروس أن قهر الرومان لم يكن أمرا سهل المنال على حين أن الظروف الراهنة في بلاد الاغريق كانت تتيح له فرصة للاستيلاء على مقدونيا ، قرر العودة إلى بلاده تاركا حامية في تارنتم على أمل أن يعود إلى مغامرته الايطالية بعد فوزه بمقدونيا ، ولكنه خر صريعا في ميدان القتال

ببلاد الاغريق في عام ٢٧٢ ق . م . وقبيل وفاته كان قد أرسل في طلب حامية تارنتم ، ولكي تؤمن هذه الحامية سلامة انسحابها سلمت المدينة للرومان . فوضعوا فيها وفي سائر المدن الاغريقية في جنوب ايطاليا حاميات رومانية مستديمة . وفي العام نفسه أتم الرومان اخضاع اللوقاني والبروتيي والسمنيين وحلفائهم من القبائل السابلية واستولوا على جانب كبير من أقاليمهم وأقاموا فيها عددا من المستعمرات أهمها عند بايستوم (Paestum) على شاطىء لوقانيا ، وأيسرنيا (Aesernia) وبنفنتوم في قلب سامنيوم ، وأريمينوم على شاطىء الأدرياتي في الشمال . ولم يواف عام ٢٦٥ ق . م . حتى كانت شبه الجزيرة الايطالية بأجمعها تعترف بسيادة الرومان .

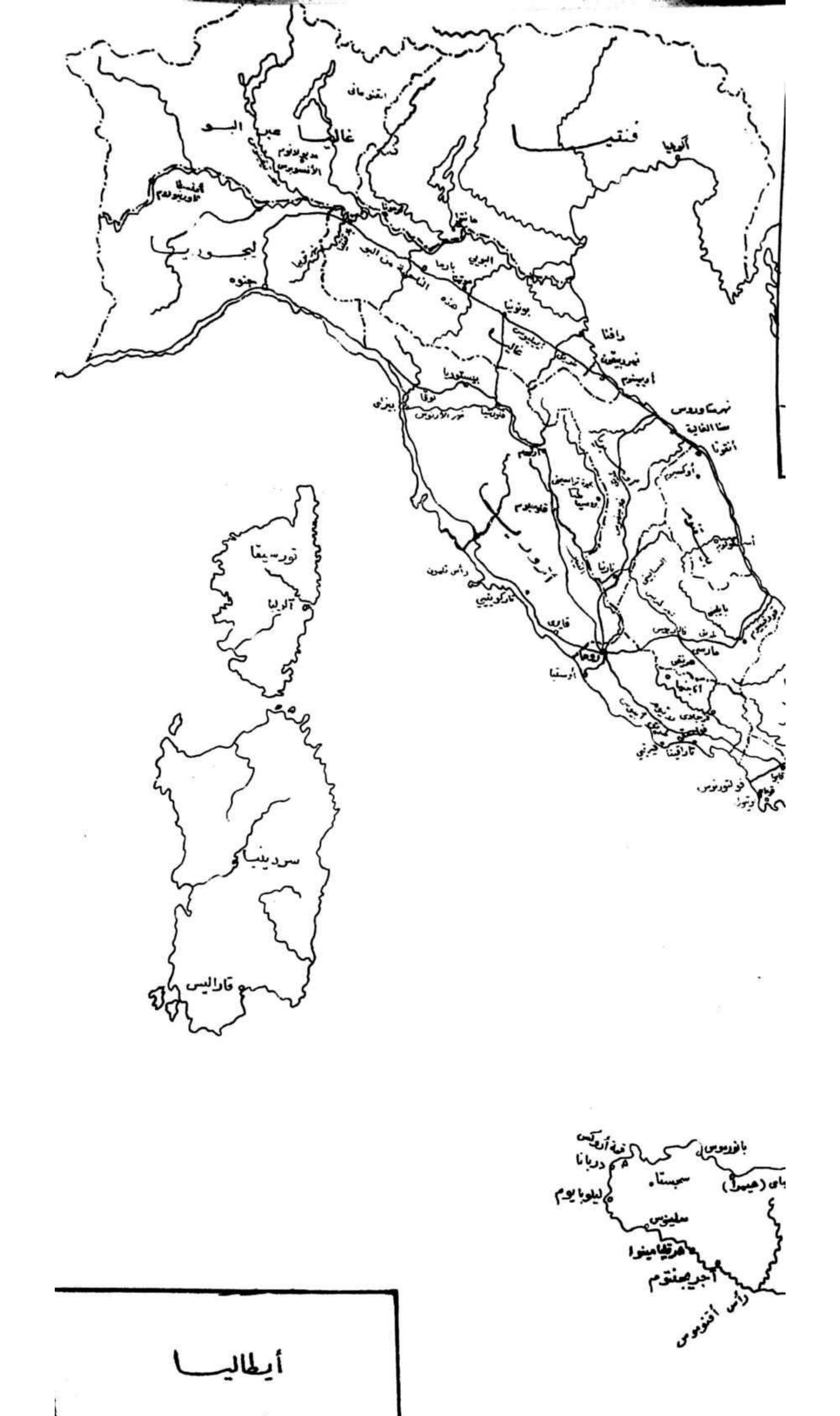
ومما له دلالته هنا أن بطليموس الثاني ملك مصر ، أعظم دولة هلينيسية في ذلك الوقت ، تبادل مع روما بعثات دبلوماسية في عام ٢٧٣ ق . م . [1] حقا إنه لم تترتب على ذلك نتائج سياسية ، ولكن احتفال هذا العاهل البطلمي بانشاء علاقات ودية مع روما يدل على أنه أصبح يعتبرها دولة ذات شأن من المحتمل أن تقوم في المستقبل بدور هام في عالم البحر المتوسط . ومع ذلك فإنه يأخذنا العجب من أنه لا هو ولا خلفاؤه ومنافسوهم قدروا مغزى الصراع بين روما وقرطجنة حق قدره ، فقد استمروا يتناحرون ويستنزفون قوى بعضهم بعضا حتى اذا ما صفت روما حسابها مع قرطجنة وأصبحت سيدة غرب البحر المتوسط وجدت شرقه لقمة سائغة .

سابعا – النظم التي وضعتها روما لفتوحاتها

لم تتمخض فتوحات روما في شبه الجزيرة الايطالية وما كسبته من سيادة عليها وما ضمته اليها من أراض عن قيام دولة موحدة وانما عن اتساع رقعة اقليم الدولة الرومانية (Ager Romanus) وتكوين اتحاد عسكري كانت الدولة الرومانية

---

(١) انظر إبراهيم نصحي ، مصر في عصر البطالمة ، الطبعة الرابعة، الجزء الثالث ص ٤٥ .



غاليا عبر البو
فنتيا
ليجوريا
جنوه
رافنا
أنقونا
كورسيقا
سردينيا
قاراليس
روما
سجستا
ليليبايوم
رأس أقنوموس
أيطاليا

سيدته وحلقة الاتصال الوحيدة بين أعضاء هذا الاتحاد . وتبعا لذلك أصبحت روما تسيطر على المنطقة الممتدة من أريمينوم في الشمال الشرقي وبيزا في الشمال الغربي إلى بروندیزيوم في الجنوب الشرقي وُرجيوم في الجنوب الغربي ، وهي منطقة كانت مساحتها تبلغ نحوا من ٨٣٠٠٠ كيلو متر مربع . وكانت هذه المنطقة تتألف من جزءين رئيسيين ، كان أحدهما اقليم الدولة الرومانية (Ager Romanus) وهو الذي اتسع من حوالي ٥٠٠ كيلومتر مربع في عام ٥٠٨ ق. م. إلى حوالي ١٦٠٠٠ كيلومتر مربع في عام ٢٦٥ ق . م . نتيجة للأراضي التي صادرتها روما في أنحاء متعددة من شبه الجزيرة الايطالية وضمتها إلى الاقليم الروماني ، وكذلك نتيجة لانضمام مدن ومجتمعات ايطالية كثيرة رأت سلامتها في دخول حظيرة الدولة الرومانية إما تلقائيا وإما لنجاح روما في اغرائها على ذلك . وكان الجزء الآخر يتألف من الأقاليم التي تبقت في حوزة المدن والمجتمعات الايطالية التي هزمها الرومان وعقدوا معها محالفات أصبحت بمقتضاها أعضاء في حلفهم العسكري ، وكانت مساحة هذه الأقاليم تبلغ نحوا من ٦٧٠٠٠ كيلومتر مربع. وفي القرن الثالث قبل الميلاد بلغ عدد سكان الاقليم الروماني حوالي المليون نسمة ، وبلغ عدد أهالي المجتمعات الحليفة التي لم تُدمج في الدولة الرومانية ولكنها كانت خاضعة لسيادة هذه الدولة نحوا من مليوني نسمة .

ولا أدل على نجاح النظم التي وضعها الرومان لفتوحاتهم الايطالية من أن هذه النظم ظلت قائمة على مدى قرنين إلى أن حصل سكان ايطاليا جميعا على حقوق المواطنة الرومانية كاملة عقب « حرب الحلفاء » في صدر القرن الأول قبل الميلاد . ويتضح مما مر بنا أن المبدأين اللذين توختهما السياسة الرومانية هما الضم والمحالفة . وكان أهل المجتمعات التي طبق عليها المبدأ الأول يمنحون حقوق المواطنة الرومانية كاملة أو منقوصة تبعا لظروف الضم ، وأما المجتمعات التي طبق عليها المبدأ الثاني فانها كانت تعتبر نظريا دولا مستقلة وكان أهلها يعتبرون من الناحية السياسية حلفاء (Socii) ومن الناحية القانونية غرباء أو أجانب (Peregrini) ولا

يلتزمون باداء أية ضرائب مباشرة وان التزموا بأداء المكوس الجمركية . بيد أن هذه المجتمعات جميعا . أي سواء منها ما طبق عليه المبدأ الأول أم المبدأ الثاني ، كانت تلتزم بأداء الخدمة العسكرية التي تتطلبها حاجات الدولة الرومانية .

وكان المواطنون الرومان ينقسمون فئتين . إحداهما أعلى مرتبة من الأخرى . وكانت الفئة العليا هي فئة المواطنين كاملي الأهلية (cives optimo iure) ، وهم الذين كانوا يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية كاملة ، الخاصة منها والعامة ، ويسجلون تبعا لمواطن استقرارهم إما في القبائل الأربع الحضرية وإما في القبائل الريفية وهي التي زيد عددها تباعا حتى أصبحت احدى وثلاثين قبيلة ريفية . وكان المواطنون الكاملو الأهلية يتألفون من ثلاثة عناصر . انبثق اثنان منها مباشرة من روما ذاتها . وانبثق الثالث من بعض المجتمعات التي ضمتها روما اليها . وبيان ذلك أن المواطنين الرومان الكاملي الأهلية كانوا يتألفون من :

أولا — أولئك المواطنين الذين كانوا يعيشون في روما ذاتها .

ثانيا — (أ) أولئك المواطنين الذين منحوا فرادى (viritim) اقطاعات تتراوح مساحتها بين ثلاثة وسبعة يوجرا (iugera مفردها iugerum وهو الفدان الروماني ومساحته حوالي ٢٧٢٠ مترا مربعا) من الأرض العامة (ager publicus) التي ضمت إلى اقليم الدولة الرومانية في أثناء فتح شبه الجزيرة الايطالية.

(ب) أولئك المواطنين الذين كونت منهم المستعمرات العسكرية الرومانية . وكانت كل مستعمرة تتألف عادة من حوالي ٣٠٠ مواطن وأسرهم. وكان المواطنون في كل مستعمرة يؤلفون حامية عسكرية تضطلع بواجب الدفاع عن المنطقة التي أقيمت فيها مستعمرتهم ، وتبعا لذلك كانوا يعفون من الخدمة في الحملات العسكرية . وقد أقيمت أقدم هذه المستعمرات على الشاطىء (أوستيا وأنتيوم في عام ٣٣٨ ق.م. وتاراقينا في عام ٣٢٩ ق.م. وميتتورناي Minturnae وسينوسّا Sinuessa في عام

٢٩٦ ق.م. وسنا الغالية وحصن البقني الجديد (Castrum novum Piceni) في حوالي عـــام ٢٩٠ ق . م . ومن المحتمل حصن الاتروسقيين الجديد Castrum novum Etrurii في عام ٢٦٩ ق . م .) . وقد كانت هذه المستعمرات قليلة العدد ولكنه مع الزمن ازداد عـــددها حتى أصبحت للرومان سبع وعشرون مستعمرة ولم تعد مقصورة على الشاطىء .

ثالثا ـ أولئك المواطنين الذين كانوا أصلا من اللاتين ولكنهم بسبب قرب جوارهم لروما ومماثلتهم للرومان في اللغة وفي الحضارة مُنحوا حقوق المواطنة الرومانية كاملة عندما ضمت مدنهم إلى الدولة الرومانية في أعقاب حل العصبة اللاتينية في عام ٣٣٨ ق . م . وكانت مدنهم تسمى بلديات (municipia) . وقد احتفظت هذه البلديات إلى حد كبير بنظمها القديمة لادارة شئونها المحلية تحت اشراف برايتور روما (praetor urbanus) .

أما الفئة الثانية من المواطنين الرومان فانها مع التزامها باداء كافة الواجبات التي يلتزم بها المواطنون الكاملو الأهلية كانت لا تتمتع إلا بحقوق المواطنة الخاصة، وتبعا لذلك كانت محرومة من حقي التصويت في الجمعيات الرومانية الدستورية وتولي المناصب العامة (cives sine suffragio et iure honorum) . وكان هؤلاء المواطنون لا يسجلون في أية قبيلة من القبائل الرومانية الخمس والثلاثين . وكانت هذه الفئة من المواطنين الرومان تتألف من مواطني اقليم السابيني وبعض المدن في إتروريا ولاتيوم وقمبانيا . وكانت مجتمعات هؤلاء المواطنين تُسمى أيضا بلديات (municipia) . وكانت هـــذه البلديات تماثل بلديات المواطنين الكاملي الأهلية من حيث أنها احتفظت إلى حد كبير بالنظم التي كانت تتمتع بها وهي مستقلة . ومعنى ذلك أن اصطلاح «بلديات» كان يطلق على نوعين من المدن . والواقع أن هذا الاصطلاح أصبح يطلق على كل مجتمع يتمتع باستقلال ذاتي فيما عدا المستعمرات (coloniae) .

واذا أخذنا في الاعتبار أن الدولة الرومانية لم تكن الا مدينة اتسعت اتساعا كبيرا عن النطاق الأصلي لمدينة روما . أدركنا مدى فائدة نظام البلديات الذي ابتدعه الرومان للمجتمعات التي كانت تغشى جانبا كبيرا من وسط شبه الجزيرة الايطالية وأخضعوها لسلطانهم ومنحوا مواطنيها حقوق المواطنة الرومانية الخاصة . فقد حل هذا النظام للرومان مشكلة الحكم المحلي وفي الوقت نفسه كان وسيلة مثلى تمهيدية لإدماج عدة مجتمعات في الدولة الرومانية دون إثارة عواطف مواطني هذه المجتمعات بتغيير حياتهم الاجتماعية وتقاليدهم وعاداتهم وثقافاتهم دفعة واحدة . ذلك أن وضع هذه البلديات لم يكن إلا مرحلة تمهيدية على طريق وصل بمجتمعات كانت في الماضي مستقلة إلى الاندماج اندماجا كاملا في الدولة الرومانية ، لأنه لم يواف منتصف القرن الثاني قبل الميلاد حتى كانت هذه المجتمعات قد حصلت على حقوق المواطنة الرومانية كاملة . وفي خلال المرحلة التمهيدية أفاد الرومان من هذا الوضع . ذلك أنه من ناحية جنى المواطنون الرومان أصحاب حقوق المواطنة المحدودة ثمار الاتجار مع روما ومباشرة مختلف وجوه نشاطهم في أمن من الاعتداء عليهم بفضل حماية الرومان لهم مع الاحتفاظ بقدر كبير من استقلالهم الذاتي في مقابل الالتزام بدفع الضرائب لروما واداء الخدمة العسكرية في الجيش الروماني شأنهم في ذلك كله شأن المواطنين الكاملي الأهلية . ومن ناحية أخرى زادت موارد روما المالية كما زاد عدد الجنود الذين كانت روما تستطيع حشدهم مما ساعدها على مواجهة أعبائها العسكرية المتزايدة . وفي الوقت نفسه تجنب المواطنون الرومان مؤنة اضطرارهم إلى أن يشركوا معهم أعدادا كبيرة من الأجانب المختلفي الأجناس واللغة والعادات في مباشرة سلطاتهم ومسئولياتهم .

أما حلفاء روما أعضاء حلفها العسكري (civitates foederatae) فانهم لم يكونوا مواطنين رومان وانما كانوا ، على نحو ما مر بنا ، حلفاء أجانب (peregrini et socii) تربط كلا منهم بروما محالفة خاصة (foedus) . ويمكن تقسيم هؤلاء الحلفاء

بوجه عام قسمين رئيسيين . كان أحدهما يتمتع بالحقوق اللاتينية (ius Latinum أو ius Latii) وكانت عبارة عن حقي الاتجـار والتزاوج مع المواطنين الرومان، وكذلك حق الحصول على الحقوق الرومانية كاملة اذا انتقل أحد مواطني تلك المجتمعات إلى روما للاقامة الدائمة فيها . ويُعرف الحلفاء المنتمون إلى هذا القسم بالحلفاء اللاتين (socii Latini) أو الأمة اللاتينية (nomen Latinum) . ومما تجدر ملاحظته هنا أن المجتمعات اللاتينية التي ضمت إلى الدولة الرومانية ومنح مواطنوها حقوق المواطنة الرومانية لا تدخل في عداد الحلفاء اللاتين وهم الذين كانوا يتكونون من :

أولا — المدينتين القديمتين تيبور (Tibur) وبراينستي ومدينة أو مدينتين أخريين لأن روما لم تضم هذه المدن اليها عقب انتصارها على العصبة اللاتينية في عام ٣٣٨ ق . م .

ثانيا — المستعمرات اللاتينية التسع التي كانت العصبة اللاتينية قد أنشأتها قبل حلها في عام ٣٣٨ ق . م .

ثالثا — المستعمرات اللاتينية الجديدة التي أنشأتها روما بعد عام ٣٣٨ ق . م . في مختلف أرجاء شبه الجزيرة الايطالية وبلغ عددها إحدى وعشرين مستعمرة. وقد تألف أغلب المستقرين في هذه المستعمرات من فقراء المواطنين الرومان واللاتين . كما أنه في بعض الحالات سُمح بالاستقرار في هذه المستعمرات لمواطنين من مدن حليفة أخرى مع تمتعهم بالحقوق نفسها التي كان يتمتع بها باقي المستعمرين الآخرين. وتبعا لذلك كله لم يعد وصف المستعمرة بأنها لاتينية دلالة على وجود هافي لاتيوم أو على تكوينها من مستعمرين لاتين. وكانت كل مستعمرة لاتينية تتمتع بكافة حقوق الحكم الذاتي — فقد كان لكل منها دستور على نمط الدستور الروماني وعدد من الحكام — وكذلك بحق سك العملة واجراء احصائها وضبطه . وكانت هذه المستعمرات تتمتع بالحقوق اللاتينية التي سبق ذكرها لكنه بعد عام ٢٦٦ ق . م . أصبح يشترط

على من يريد الحصول على حقوق المواطنة الرومانية بانتقاله للاقامة الدائمة في روما أن يترك وراءه في المستعمرة ابنا واحدا على الأقل . ويرجح أن مواطني المستعمرات الاثنتي عشرة التي أنشأتها روما فيما بين عام ٢٦٨ ق . م . وعام ١٨١ ق . م . أعفوا من هذا الشرط . وعلى كل حال فانه في القرن الثاني قبل الميلاد قُصر حق اللاتين في التمتع بحقوق المواطنة الرومانية على الذين سبق لهم تولي مناصب عامة في مجتمعاتهم .

ويُعرف القسم الثاني من حلفاء روما بالحلفاء الايطاليين (socii Italici) وكانوا يتألفون من المجتمعات الايطالية والاغريقية والألورية والاتروسقية . وكانت مجتمعات قبلية أو ريفية أو حضرية تربط كلا منها بروما معاهدة خاصة حددت نصوصها علاقاتها بروما تحديدا دقيقا . وكانت هذه المعاهدات جميعا تتفق من حيث الالتزام بتقديم مساعدات عسكرية لروما كلما طلبت ذلك وبالنزول لروما عن حق مباشرة العلاقات الخارجية . لكن روما لم تفرض ضرائب على أي حليف من هؤلاء الحلفاء . وسمحت لكل منهم باستقلاله الذاتي ، فقد احتفظ كل منهم بنظمه وقوانينه ولغته . وفضلا عن ذلك فان الحلفاء جنوا ثمار السلم الروماني الذي بسط جناحه على شبه الجزيرة الايطالية وخلف تلك الحروب والاغارات التي كانت تكاد ألا تنقطع .

وعلى عكس المواطنين الرومان ، سواء أكانوا يتمتعون بحقوق المواطنة كاملة أم بحقوق المواطنة الخاصة فقط ، لم ينخرط الحلفاء بقسميهم في الفرق الرومانية وانما كانوا يشكلون كتائب منفصلة من المشاة (cohortes) والفرســان (alae) تحت إمرة ضباط منهم . الا اذا شاركت وحدات أكثر من حليف واحد في تكوين كتيبة من الكتائب فانه في هذه الحالة كانت هذه الكتيبة توضع تحت إمرة ضابط روماني . وبطبيعة الحال كانت كتائب الحلفاء في جميع الأحوال تخضع لأوامر القائد العام الروماني . وكانت روما تساعد حلفاءها بتزويد كتائبهم

بالسلاح والعتاد ، وتسمح للقوات الحليفة بالمشاركة في أسلاب الحرب .وكانت المدن الاغريقية في جنوب ايطاليا معفاة من الخدمة براً ولكنها كانت ملزمة بتزويد الأسطول الروماني بالسفن الحربية وببحارة هذه السفن ولذلك كانت تسمى الحليفات البحرية (socii navales) . وكان الحلفاء الايطاليون جميعا يتمتعون بحق الاتجار مع روما دون غيرها لكن أكثرهم كانوا يتمتعون كذلك بحق التزاوج مع المواطنين الرومان .

ولما كان مجلس السناتو الروماني ، ممثل الأرستقراطية الرومانية ، هو الذي يوجه سياسة روما الخارجية ، وكانت الارستقراطيات المحلية تهيمن على شئون كثير من المجتمعات الايطالية وشديدة الرغبة في الحفاظ على صوالحها الخاصة وتبعا لذلك أميل من غيرها إلى استقرار الأمور واستتباب الأوضاع القائمة . فانه نشأت بين السناتو الروماني والارستقراطيات المحلية المختلفة رابطة قوية من التعاطف،عمل السناتو على تنميتها والافادة منها في دعم المعاهدات التي عقدتها روما مع حلفائها الايطاليين .

وقد أظهر الرومان براعة سياسية فائقة في تكوين حلفهم العسكري الذي لم يكن في واقع الأمر إلا إمبراطورية رومانية في ايطاليا . وتتضح هذه البراعة في ناحيتين : وإحداهما . هي أنهم لم يعاملوا الحلفاء جميعا طبقا لنسق موحد وانما طبقا لحظ كل حليف من الحضارة . والناحية الأخرى . هي أنهم بقدر عنادهم في متابعة حروبهم كانوا أسخياء متسامحين مع أعدائهم بعد هزيمتهم . وبيان ذلك أنه حيثما وجد الرومان حلفاءهم على درجة عالية من التحضر ، مثل ما كان الشأن في لاتيوم وقمبانيا والمدن الاغريقية وأومبريا وشمال أبوليا ، تركوا المدن قائمة بوصف كونها وحدات سياسية مستقلة استقلالا ذاتيا . وأما في المناطق الأدنى حضارة مثل أقليم البروتي ولوقانيا وجنوب أبوليا وسامنيوم وأقاليم أخرى في وسط إيطاليا ، فان الرومان اعترفوا بالمجتمعات القبلية وأفسحوا لها مكانا في

نظام محالفاتهم . وبالرغم من أن الرومان . بدافع من المقتضيات العسكرية والحاجة إلى مساحات من الارض لإنشاء المستعمرات ، كانوا يستولون على مساحات واسعة من أقاليم أعدائهم ، فانهم لم يسرفوا في ذلك . وفضلا عن ذلك فانهم عزفوا كلية عن التدخل في شئون حلفائهم الداخلية سواء من حيث اللغة أم الديانة أم القانون أم نظم الحكم .

وقد ظهرت ثمار هذه السياسة الحكيمة فيما أظهره الحلفاء بوجه عام من ولاء مقيم في أثناء حروب القرن التالي . وإذا كان لم يظهر بعد ما يمكن تسميته بالأمة الايطالية ، فإنه منذ هذا الوقت أصبح اسم ايطاليا يطلق على شبه الجزيرة بأجمعها، كما أصبح سكانها يسمون ايطاليين (Italici) . وقد بدأ الأجانب في اطلاق هذه التسمية ولم يلبث سكان شبه الجزيرة أنفسهم أن درجوا على ذلك أيضا .

ثامنا – تفسير نجاح روما في حروبها

ولا جدال في أن نجاح روما في بسط سيطرتها على شبه الجزيرة الايطالية حدث لا نظير له في التاريخ القديم ، ذلك أنه لم يحدث أن مدينة–دولة (city-state) نجحت في بسط سيادتها سواء على مثل هذا النطاق أم على مثل هذا الأساس المكين . حقا إن فتوحات روما لم تتمخض عن قيام دولة موحدة ، ولكنه كان من شأن الحلف العسكري الذي أنشأته ،وكان ينتظم شبه الجزيرة الايطالية بأجمعها ،أنه وفر لهذه المنطقة الكبيرة قدرا كبيرا من الترابط السياسي والاقتصادي والاجتماعي لم يعرف العالم القديم له مثيلا .

ويعزى هذا النجاح الفريد جزئيا إلى موقع روما الجغرافي الذي يسر لقواتها المقاتلة أن تعمل من خطوط داخلية ، وأن تفرق بين خصومها ، وأن تهزم كلا منهم على حدة . وقد شاهدنا أمثلة متعددة لذلك في خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . والحالات الوحيدة التي اضطرت فيها روما إلى محاربة خصومها

في جبهات متعددة في وقت واحد كانت في أثناء الحروب السمنية . بيد أنه في ذلك الوقت كانت موارد روما من الرجال قد ازدادت بحيث استطاعت أن تكون نداً لأي حلف معاد لها .

بيد أن نصيب العامل الجغرافي في نجاح روما كان أقل من نصيب صفات مواطنيها وكذلك من نصيب عوامل الضعف الكامنة في أعدائها . ذلك أنه على حين اتصف المواطنون الرومان بالصبر والصلابة والقدرة على تحمل المشاق وكذلك على اقامة حكومة نظامية وعلى الوحدة وتقديم المصلحة العامة فوق كل اعتبار حين تتهدد الوطن أزمة خارجية ، كان أكثر أعدائهم جرأة وأوفرهم عددا مثل الغال والسمنيين يفتقرون إلى النظام والتنظيم ، كما كان أرفع أولئك رقياً وتحضراً مثل الاغريق والاتروسقيين يفتقرون إلى الوحدة ونهبا للأحقاد والمنازعات التي مزقت أوصالهم شر تمزيق . وبفضل ذلك كله تفوق الرومان على خصومهم عسكريا وسياسيا .

حقا إن الجيش الروماني الذي سيطر على شبه الجزيرة الايطالية كان جيشا صغيرا نسبيا تتركز قوته الأساسية في مشاته ثقيلي العدة ، فقد كان فرسانه قليلي العدد وكانت مهمتهم مقصورة على أعمال الاستطلاع وحماية جناحي الجيش ، وكان مشاته خفيفي العدة لا يستطيعون القيام بتحركات مستقلة . وفضلا عن ذلك فانه لم تتوافر لدى قواده خبرة كافية لاستخدام فرق متعددة في القيام بعمليات مشتركة . وقد كشفت محاربة بورّوس ما كشفت عنه فيما بعد حلقات الصراع مع هانيبال أن الفرق (legiones) الرومانيـــة لم ترتق بعد إلى مستوى الجيوش المدربة وفقا لأرقى فنون الحرب الاغريقية . ومع ذلك فانه بالمقارنة بالجيوش الايطالية الأخرى ، كان الجيش الروماني يمتاز عليها في عدة نواح . ذلك أن روما لم تكن فحسب أكبر مدينة في ايطاليا بل أيضا كانت تتولى زمام أمورها حكومة منظمة وتوجه سياستها الخارجية هيئة عتيدة مستقرة هي مجلس السناتو ،

فلم تدخر روما وسعا في تجنيد أكبر عدد من مواطنيها فضلا عن أنها زادت قوة جيشها تدريجا بالخدمة العسكرية التي فرضتها على حلفائها . وإزاء ما اتسم به الرومان من صلابة القناة استطاعوا أن يفيقوا من كل كارثة نزلت بهم وأن يعاودوا المرة بعد الأخرى إنزال قوات جديدة لمواجهة أعدائهم . ولم تكن القوات الرومانية أكبر القوات الايطالية فحسب بل أيضا أفضلها لأن الرومان كانوا يعتبرون كل عملية حربية عملا جديا يقتضي عناية كبيرة في الاستعداد ودقة متناهية في التنفيذ ، ولذلك فرضوا على مجنديهم الالتزام بتدريب أشد صرامة وبنظام أكثر دقة مما كان خصومهم يتبعونه . ولعل أهم ما أسهم في بروز كفاية الرومان العسكرية كان عكوفهم بعد كل حرب على دراسة مجرياتها ونتائجها واستعدادهم للافادة من تجاريبهم وتجاريب خصومهم في حالتي النصر والهزيمة سواء بسواء .

وقد ظهرت ثمار هذه التجاريب المستمرة في اعادة تنظيم جيوشهم وكذلك في اتخاذ ثلاث خطوات أخرى اقتضاها اتساع نطاق الحرب إلى أقاليم نائية عن روما وأسهمت في احراز النصر النهائي . وهذه الخطوات هي : انشاء الطرق العسكرية ومعسكرات ميادين القتال والمستعمرات العسكرية . ذلك أن دواعي الحرب اقتضت إنشاء طريقين كانا الحلقة الأولى في شبكة الطرق التي امتدت على مر الزمن لتغطي ايطاليا كلها . وهذان الطريقان هما طريق أبيوس (Via Appia) وطريق اللاتين (Via Latina) اللذان أنشأهما الرومان ليبسرا لهم إرســال قوات على عجل إلى قمبانيا وحدود سامنيوم في أي فصل من فصول السنة . واذا كان انشاء هذين الطريقين ساعد الرومان استراتيجياً من حيث أنه جعلهم أقدر من ذي قبل على سرعة نقل جنودهم ، فان انشاء معسكرات لجيوشهم في ميادين القتال أفادهم تكتيكيا من حيث أنه جعلهم أكثر أمنا وسلامة . وخير مثل لذلك أن المعسكر الروماني الحصين الذي أقيم قبل معركة أوسقولوم هو الذي أنقذ فلول الجيش الروماني بعد الهزيمة في هذه المعركة من أن يقطعها إربا مطاردوهم من جيش بوروس . وأما المستعمرات العسكرية (colonine) ، فإنه كان من شأن

انشائها في المناطق التي فتحها الرومان الحفاظ على المكاسب الاقليمية الواسعة التي أحرزوها وكذلك الوثوب منها لاحراز مكاسب أوسع . وقد برهنت حروب الرومان مع السمنيين ومع بيروس على مدى أهمية المستعمرات العسكرية بوصف كونها قواعد لصد الهجمات المعـادية وكذلك للانقضاض منها على العـدو . ويتبين مما سبق ذكره أن بعض هذه المستعمرات كانت مستعمرات رومانية (coloniae Romanae) ولبعض الآخر مستعمرات لاتينية (coloniae Latinae) .

وإذا كانت المستعمرات العسكرية قد أنشئت في مواقع استراتيجية لخدمة أغراض عسكرية كحراسة معابر الأنهار (مثل فرجلاي على نهر ليريس وإنترأمنا Interamna على أحد روافد التيبر الشمالية) أو منافذ الممرات الجبلية (مثل ألبا فوقنتيا Alba Fucentia وأريمينوم) أو مفارق الطرق (مثل أيسرنيا وفنوسيا) أو المواقع الصالحة لرسو السفن على الشاطىء (مثل أنتيوم وتاراقينا وسنا الغالية) فإنها أسهمت كذلك في حل مشكلتين توأمين كان اقليم لاتيوم يعاني منهما ، وهما مشكلة ازدحام السكان ومشكلة الحاجة إلى أرض زراعية.

وبرغم قوة الجيش الروماني بالقياس إلى الجيوش الايطالية الأخرى ، فانه كان يتعذر على هذا الجيش قهر شبه الجزيرة الايطالية لولا افتقار أعداء روما إلى النظام والتنظيم ووحدة الهدف ولولا كذلك التعاون المستمر الذي كان الرومان يلقونه من حلفائهم . وإقبال الحلفاء على مثل هذا التعاون خير دليل على كفاية الرومان العسكرية ومهارتهم السياسية في تنظيم علاقاتهم مع حلفائهم .

ولأول وهلة قد يوحي توسع الرومان في شبه الجزيرة الايطالية بالتدريج حتى بسطوا سيادتهم عليها بأن ذلك كان ثمرة سياسة ثابتة مرسومة قام على تنفيذها جيل بعد آخر من ساسة الرومان . بيد أن استعراض الأحداث يدل على ان الرومان لم يدركوا المصير المحتوم الذي كان لا بد من أن تفضي اليه سياستهم الخارجية إلا قرب نهاية حروبهم في شبه الجزيرة . ويؤيد هذا أمران ، وأحدهما

هو أن كثيرا من الحروب التي خاض الرومان غمارها كانت حروبا دفاعية بحتا . وإذا كانت هذه الحروب قد أفضت إلى اتساع رقعة اقليمهم أو اتساع نطاق نفوذهم فان ذلك لم يكن هدفا في حد ذاته . وهذا ينطبق بوجه خاص على حروبهم السابقة على غزوة الغال في عام ٣٨٧ ق . م . والأمر الآخر ، هو أنه في الصيغة الرومانية القديمة لاعلان الحرب – وهي التي كان يتلوها ممثلو جماعة الكهنة المعروفة باسم فتيالس (Fetiales) وتختص بالاشـراف على العلاقات الخارجية بين روما والدول الأخرى – لا تظهر الحرب إلا بوصف كونها الوسيلة الأخيرة لحصول الرومان على ترضية عن الأضرار التي ألحقها بهم طرف آخر ، على نحو ما رأينا مثلا من أنه عندما اعتدت تارنتم على الأسطول الروماني لم تبادر روما باعلان الحرب وانما طلبت الترضية أولا . بيد أنه إذا كان لا جدال في أن موقف الرومان ازاء المشاكل الناجمة بينهم وبين غيرهم كان في وقت ما يتسم بالنزاهة والأمانة ، فانه لا مفر من التساؤل إلى متى ثابروا على نزاهتهم وأمانتهم ، وعما إذا لم تكن في بعض الأحيان الأضرار المشكو منها نتيجة لأعمال استفزازية ارتكبها الرومان أنفسهم . ويجب ألا يغرب عن البال أن محاولات القاء المسئولية الأدبية عن نشوب حرب من الحروب على عاتق الأعداء أمور شائعة في كل العصور وليست دائما مقنعة ولا شافية .

وعلى كل حال فانه اذا كان من العسير القول بأن الرومان اتبعوا قبل عام ٢٦٥ ق . م . سياسة استعمارية مبيتة ، فانه كان من شأن صفاتهم القومية ونظمهم العسكرية والسياسية أن تجعل سيطرتهم على شبه الجزيرة الايطالية أمرا محتوما . ذلك أن الرومان كانوا يفرضون على جنودهم نظاما عسكريا صارما ويخوضون حروبهم جميعا بصلابة لا تلين وبشدة لا هوادة فيها ، وقلما كانوا يعقدون صلحا مع عدو من أعدائهم الا بعد أن يهزموه . ودأب الرومان عادة على أن نصوص معاهدة الصلح تلزم العدو المنهزم بتقديم المعونة العسكرية لهم كلما اشتبكوا في حرب . وكان الرومان يعتبرون أن مثل هذه المعاهدات ملزمة إلى

الأبد ، وأن أية محاولة للاخلال بالعلاقة التي أنشأتها عمل عدائي موجه ضدهم .
ومن الجائز أن الرومان كانوا يرون في الحفاظ على معاهدات الصلح الوسيلة الوحيدة لضمان سلامتهم وتأمين حدودهم ، ولكنه لم يكن هناك مفر من أن يؤدي عقد هذه المعاهدات إلى ازدياد عدد حروب روما . ذلك أنه بحكم عقد معاهدة تلو أخرى واستيلاء روما على جانب كبير من أقاليم أعدائها المنهزمين ، أخذ يتسع تدريجا نطاق الحدود التي تدافع عنها روما ، وتبعا لذلك أخذ يزداد تدريجا عدد الأقوام الجديدة التي تحتك بهم روما وتشتبك معهم . وفضلا عن ذلك فانه لما كانت روما لا تسمح للأطراف الذين تحالفوا معها بعدم احترام نصوص تحالفهم ، وتعتبر هذا العمل مماثلا لإعلان الحرب عليها ، وتدأب على قمع ذلك دون هوادة ، فإن النتيجة الطبيعية لذلك كانت انه على مر الزمن تحول حلفاء روما المستقلون إلى حلفاء تابعين لها يأتمرون بأوامرها وينفذون مشيئتها .

وقد كانت روما في الحروب التي خاضتها ليس فقط في خلال القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد بل أيضا حتى عام ٢٦٥ ق . م . نصيرا وعضدا للأقوام المسالمة المستقرة ضد الأقوام العدوانية غير المستقرة وكذلك ضد الغال الأجانب . وفي رأي بعض الباحثين أنه منذ منتصف القرن الرابع قبل الميلاد عقدت روما العزم على الحيلولة دون قيام دولة قوية في شبه الجزيرة الايطالية ، وانه لتحقيق هذا الهدف كانت روما ترحب بتقديم مساعدتها وحمايتها لكل مجتمع أضعف من درأ عدوان جيرانه الأقوى منه ، مما كان يستتبع اشتباك روما مع هؤلاء المتحرشين . غير أنه لما كان الرومان لم يخوضوا منذ منتصف القرن الرابع قبل الميلاد الا الحروب التي فرضها عليهم تحرش الفولسقي بهم ، وانتقاض حلفائهم اللاتين عليهم ، واشتداد خطر السمنيين — بتكرار اعتداءاتهم على قمبانيا ثم بتحالفهم مرة مع الاتروسقيين والهرنيقي والأيكوي والبايلجني ومرة أخرى مع السابيني والغال والاتروسقيين — وانتصار الرومان لبعض المدن الاغريقية ضد اغارات جيرانهم السابليين ، واعتداء تارنتم على الأسطول الروماني ثم إهانتها

السفراء الرومان إهانة بالغة ، فانه يبدو لنا أن هذا الرأي يجافي الحقيقة . ولكنه يمكن أن يقال إن السياسة الخارجية التي اتبعتها روما بعد القضاء على العصبة اللاتينية في عام ٣٣٨ ق . م . قد أصبحت أكثر جرأة واندفاعا من ذي قبل بتأثير عاملين قويين ، كان أحدهما ضرورة الحصول على أراض جديدة لتخفيف الضائقة الاقتصادية التي أصابت لاتيوم من جراء اكتظاظها بالسكان . وكان العامل الآخر هو رغبة الطامعين من العناصر الجديدة في الهيئة الحاكمة الرومانية في الفوز بانتصارات باهرة .

ومما تجدر ملاحظته أنه بالرغم من الخسائر البشرية الجسيمة التي أصابت روما من جراء اشتباكها في حروب كثيرة استطاعت الحفاظ على قوة جيوشها وكذلك أنشأت عددا كبيرا من المستعمرات وبخاصة في الشطر الأخير من القرن الرابع وفي النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد . وكل هذا يدل على مدى اكتظاظ لاتيوم بالسكان مما أفضى إلى ضائقة اقتصادية شديدة .

وبطبيعة الحال جنت روما ثمارا عديدة من وراء فتوحاتها ، فقد غدت دولة كبرى لم تلبث أن حطمت امبراطورية قرطجنة وأصبحت أعظم قوة في حوض البحر المتوسط بأجمعه . وفضلا عن ذلك فقد رأينا كيف أن روما كانت تستولي عادة على جانب كبير من أقاليم أعدائها المقهورين وتخصص أجزاء من هذه الأرض المكتسبة لاقامة مستعمرات عليها وتضع الباقي تحت تصرف المواطنين الرومان على نحو ما سيجيء الكلام عنه فيما بعد . وفي العادة كان الجنود من الرومان والحلفاء يحصلون مباشرة على نصيب من الأسلاب المنقولة . ولا جدال في أن الحروب الطويلة الناجحة التي خاضها الرومان في شبه الجزيرة الايطالية بثت فيهم ثقة كبيرة في أنفسهم وروحا عسكرية عالية مما ساعد على احراز فتوحات أخرى بعد ذلك بقليل خارج ايطاليا وفي شمال ايطاليا .

التاريخ الداخلي للجمهورية الرومانية
منذ قيامها في حوالي عام ٥٠٩ حتى عام ٢٦٥ ق . م .[١]

أولا — أقدم نظم الحكم في الجمهورية الرومانية

١ — القنصلية

عندما ألغى الرومان النظام الملكي واستبدلوا به النظام الجمهوري لم يلغوا

---

(١) المصادر :

Liv., II — IV; V, 12, 7 - 13; VI, 11; 14 - 21; 34 - 42; VII, 1; 15, 13; 16, 1; 17, 6; 21, 5; 22, 6 - 10; 27, 3 - 4; 41; 42, 1 - 2; VIII, 12, 14 - 16; 15, 9; 23, 12, 28; IX, 20, 5; 29,5 - 11; 30, 1 - 4; 33 - 34; 42, 1 - 3; 46; X, 6 - 9; 22, 9; Epit. XI, XII; Dionys. Hal., V - XI; XIV, 12; Diod., XII, 24 - 26; XV, 61, 1; XX, 36; Dio Cass. IV - VI; VIII, 37, 2 - 4; Cicero, De Rep. II, 31 - 37; De Leg. III, 3, 8 -9; 7, 16 - 17; 8, 19; 10, 24; Tacit., Ann., XI, 22; Zonaras, VII, 13 - 20; VIII, 2; Plin., N.H., XVI, 10, 37; XVIII, 4; Festus, p. 246 M; C.G. Bruns, Fontes iuris Romani antiqui, 1909; P.F. Gorard, Textes de droit romain, 1925; G. Rotandi, Leges publicae populi Romani, 1912.

المراجع :

A.H. Greenidge, Roman Public Life, 1901; G.W. Botsford, Roman Assemblies, 1909, Chs. III - XIII; W.E. Heitland, op. cit., Vol. II, Chs. VIII - XIV, XX; T. Frank, Economic History, Chs. III - IV; Cambridge Ancient History, Vol. VII, Chs. XIV, XVI; M. Cary, op. cit., pp. 47, 76, 80 - 85, 108 - 123; A.E.R. Boak, op. cit., pp. 65 - 88; H.H. Scullard, op. cit., Chs. III, V; Pauly - =

سلطة الملك (imperium) وانما وضعوا من الضوابط ما اعتقدوا أنه كفيل بالحيلولة دون الاستبداد في استخدامها ، ذلك أنهم كانوا يسندونها سنويا بالانتخاب إلى شخصين كان كل منهما يتمتع بها كاملة طوال عام واحد فقط ، ويستطيع وقف ما لا يروق له من تصرفات زميله بحق الاعتراض (intercessio). ومثل الملك ، كان يجلس على كرسي من العاج (sella curulis) ويحيط به أينما وجد أتباع يحملون ذات شارات (fasces) السلطة العليا رمزا لحقه في انزال عقوبتي الجلد والاعدام . وقد عُرف هذان الحاكمان في أول الأمر باسم برايتورس (Praetores = الرئيسين) وبعد وقت ما باسم القنصلين (Consules = الزميلين) . وازاء طول العهد الذي اقترن فيه لقب قنصل بمنصب الحاكم الأول في الجمهورية الرومانية إلى حد أن هذا اللقب أصبح علما على هذا المنصب ، سنقتفي أثر ما جرت عليه عادة الباحثين من استخدام هذا اللقب منذ البداية ، ولا سيما أن ذلك يساعد على تجنب الخلط بين شاغلي هذا المنصب وشاغلي المنصب الذي أنشيء فيما بعد وكان أدنى شأنا من المنصب الأول ولكن شاغليه كانوا يدعون أيضا برايتورس على نحو ما سنرى .

وبانتقال سلطة الملك والشارات الدالة عليها والكرسي العاجي إلى القناصل ، أصبح هؤلاء الحكام هم الذين يرعون استتباب الأمن والنظام في الدولة مع السماح للمواطنين داخل روما (domi) باستئناف (provocare) الأحكام الشديدة الصادرة عليهم أمام جمعية الكور (Comita Curiata) . ومثل ما كان متبعا في عهد

Wissowa - Kroll, Realencyc. and Oxford Class. Dict. S.V. Comitia, etc...; E.S. Staveley, Historia, 1956, pp. 107 ff. L. Homo, Roman Political Institutions (Trans. ed. 1966), Chs. II - IV; F.E. Adcock, Roman Political Ideas and Practice, 1959; E. Badian, Foreign Clientelae (264 B.C. - 70 B.C.), 1958; T.R.S. Broughton, The Magistrates of the Roman Republic; A.N. Sherwin - White, The Roman Citizenship, 1939; L.R. Taylor, The Voting Districts of the Roman Republic, 1960.

الملكية ، كان القناصل ينيبون عنهم حكاما (arbitri) للفصل في المنازعات ، وهيئتين قضائيتين تفصل إحداهما في قضايا الخيـــانة (duoviri perduellionis) والأخرى في قضايا القتل دون مبرر (Quaestores parricidii) . وعلى غرار الملوك ، كان القناصل يتولون بأنفسهم قيادة الجيوش الرومانية ، وبطبيعة الحال ازدادت أعباؤهم العسكرية تبعا لاتساع نطاق الحروب التي خاضتها روما . وفي حالة خروج القنصلين الزميلين سويا إلى ميدان واحد للقتال كانا يتوليان القيادة العليـــا بالتعاقب يوما فيوما .

٢ ـ جماعات الكهنة :

ولم يرث القناصل من اختصاصات الملك الدينية الا حق استطلاع رغبات الآلهة (auspicia) لمعرفة رضائها أو سخطها قبل الاقدام على عمل عام. أما أغلب هذه الاختصاصات فان شطراً منها وهو الخاص بتقديم القرابين كـــان يتولاه كاهن يسمى ملك القرابين (Rex sacrorum) على حين أن الشطر الأكـــبر ، وهو الخاص بالعلاقات الرسمية بين المجتمع الروماني وآلهته التي تكلأه برعايتها ، كانت تتولاه جماعة (collegium) من الكهنة يقوم على رأسها الكاهن الأكبر (Pontifex Maximus) . وكانت هناك عدة جماعات (Collegia) من الكهنة تختص كل منها باقامة شعائر طقوس دينية بعينها على نحو ما رأينا في معرض الحديث عن الديانة في عهد الملكية . وكانت من أهم جماعات الكهنة في عهد الجمهورية جماعتان ، اختصت احداهمـــا بجمع نبوءات وحي سيبولاي (Sibyllae) والحفاظ على هذه النبوءات واستطلاعها كلما أمر السناتو بذلك عند نشوء أزمة خطيرة . وأما الجماعة الأخرى فهي جماعة العراف (augures) وهي التي كانت تشرف على استطلاع رغبات الآلهة ازاء الشئون العامة .

ومما يجدر بالملاحظة أن الكهنة الرومان لم يؤلفوا فئة خاصة من فئات المجتمع ،

وانهم كانوا جميعا في بداية عهد الجمهورية من البطارقة دون غيرهم . وبما أن الشخص الذي كان كاهنا كان في الوقت نفسه عضوا في السناتو ويتولى أحد المناصب ، فان الصوالح الطبقية والخاصة على السواء أخذت تطغى شيئا فشيئا على الديانة الرومانية الرسمية ، وتبعا لذلك أخذت هذه الديانة تتسم شيئا فشيئا بطابع شكلي بحت .

وفي بداية عهد الجمهورية كان الكهنة يمارسون نفوذا واسعا في الدولة . ذلك أنهم كانوا حراس القانون الديني وهو الذي كان يطبق في عقوبة جرائم كثيرة كانت تعتبر ذنوبا ضد الآلهة . وهم وحدهم الذين كانوا يلمون بالقانون ويعرفون الصيغ الصحيحة الواجب اتباعها في كافة أنواع التعاقد حتى يكون العقد سليما من الناحية القانونية . وكان كبير الكهنة هو الذي يحدد سنويا أيام كافة الأعياد العامة، دينية كانت أم غير دينية ، ويعلن في كل شهر الأيام التي يجوز فيها مباشرة الشئون العامة وكذلك تواريخ الأيام التي يكون ذلك محظورا فيها . ومن ثم فانه بالاتفاق مع جماعة العراف كان من الممكن تعطيل أي اجراء عام بالاعلان عن وقوع نذر سيئة في الموعد الذي كان محددا لاتخاذ هذا الاجراء . وازاء ما كان للكهنة من نفوذ واسع ومكانة رفيعة في الدولة ، وإزاء ما كان يتوافر للكهنة من فرص عملية لخدمة صوالح طبقتهم ، حرص البطارقة طويلا على أن يقصروا على أنفسهم عضوية الجماعات الدينية .

٣ — الدكتاتورية

وإذا كان الرومان ، بحكم ما استنوه في فجر عهد الجمهورية من قواعد لشغل وظيفة القنصلية ، قد ضمنوا عدم استبداد شخص واحد بالسلطة ووضعوا ثلاثة مبادىء أصبحت سمات مميزة لمناصب الحكام الرومان وهي : مبدأ الزمالة في ممارسة السلطة على قدم المساواة (par potestas) ، ومبدأ قصر تولي المنصب على عام واحد ، ومبدأ حق الاعتراض ، فانهم على مر الزمن أدركوا ميزة

تركيز السلطة في قبضة شخص واحد لمدة محددة . ولذلك فانه في أوقات الطوارىء كان القنصلان ، بناء على مشورة السناتو ، يعينان حاكما مطلقا يمارس سلطتهما بمفرده لمدة أقصاها ستة شهور . وكان هذا الحاكم المطلق يدعى في أول الأمر حاكم الشعب (Magister populi) ولكن لقبه لم يلبث أن أصبح الدكتاتور (Dictator) . وكان هذا الحاكم المطلق يتخذ مساعدا له شخصا يدعى قائد الفرسان (Magister equitum) . وإذا كان أكثر من نعرفهم ممن عينوا حكاما مطلقين في روما ينتمون إلى القرن الرابع قبل الميلاد ، فان القرائن توحي بأن أقدمهم عينوا في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، وإن كان بعض الباحثين يميلون إلى ارجاع ذلك إلى أوائل عهد الجمهورية .

٤ ــ السناتو :

ومما يجدر بالملاحظة أنه في صدر عهد الجمهورية لم يحتكر البطارقة عضوية الجماعات الدينية وتولي المناصب الكهنوتية فحسب بل أيضا تولي مناصب القنصلية والدكتاتورية وقيادة الفرسان . وقد كان ذلك أمرا طبيعيا لأن البطارقة هم الذين تزعموا الثورة التي أطاحت بالملكية ، ولأنه من صفوف البطارقة كان يتألف مجلس السناتو وهو الذي ازدادت سلطته زيادة كبيرة في أعقاب سقوط الملكية . واذا كنا نعرف أنه في القرن الثالث قبل الميلاد كان السناتو يتألف من ثلاثمائة عضو ، فانه لا يظن أن عدد أعضائه كانوا يمثل هذه الكثرة في بداية عهد الجمهورية . وإلى أن حدثت التطورات التي سنعرفها فيما بعد ، كان القناصل يلتزمون التزاما شديدا القاعدة المألوفة منذ العهد الملكي ، وهي قاعدة اختيار أعضاء السناتو من بين عشائر البطارقة . وكانت عضوية السناتو لمدى الحياة إلا إذا ارتكب العضو عملا مشينا (ad vitam aut culpam) في سلوكه العام أو الخاص. ويجب أن يكون مفهوما بجلاء أن مجلس السناتو لم يكن أصلا ــ أي في عهد الملكية وبداية عهد الجمهورية ــ أكثر من مجلس استشاري . بيد أنه لما كان

القناصل لا يتولون الحكم إلا لمدة عام واحد على حين أن السناتو كان هيئة مستديمة ذات تجارب طويلة وتضم بين أعضائها كثيرين ممن سبق لهم تولي القنصلية ، فان السناتو كان يمارس على القناصل نفوذا أوسع وتأثيرا أكبر مما كان يمارسه على الملوك . وإذا كان من العسير القول بأنه في أوائل عهد الجمهورية كان القناصل يخضعون دائما لمشيئة السناتو ، فإنه لا يخامرنا شك في أنه كان يعزعليهم أن يخالفوا مشورة هذا المجلس . ولم يلبث السناتو أن اكتسب حقا هاما وهو إبرام أو نقض قرارات الجمعية الشعبية بحيث أصبحت مصـــادقة السناتو (patrum auctoritas) على هذه القرارات شرطا أساسيا لتكتسب قوة القانون . وهكذا تحول السناتو تدريجا من هيئة استشارية إلى هيئة رقابة عليا .

وبحكم طبيعة تكوين السناتو والتمتع بعضويته لمدى الحياة ، كان هذا المجلس هيئة قوية محافظة ، تولى عنايتها واهتمامها إلى الحفاظ على التقاليد وعلى صوالح طبقة البطارقة الأرستقراطية ، مما أفضى إلى صراع طويل مرير بين هذه الطبقة والعامة على نحو ما سنرى .

٥ — الجمعية الشعبية :

وفي بداية عهد الجمهورية لم يعرف الرومان جمعية شعبية غير جمعية الكور (Comitia Curiata) وهي التي كانوا يعرفونها منذ عهد الملكية . وفي صدر العهد الجمهوري كانت هذه الجمعية هي التي تنتخب القنصلين سنويا ، وتمنحهما سلطتهما التنفيذية العليا (imperium) بمقتضى قانون خاص تصدره في كل حالة (Lex curiata de imperio) ، وتوافق على المقترحات التي يعرضها عليها القناصل أو ترفض الموافقة دون أن تحق لها مناقشة المعروض عليها أو تعديله أو اقتراح بديل عنه ، أي أن حقها كان مقصورا على ابداء الرأي فيما يعرض عليها . ويتبين مما سبق ذكره أنه كان يحد من السلطة الضيقة التي تتمتع بها هذه الجمعية ما

اكتسبه السناتو من حق ابرام أو نقض قراراتها . وقد ظلت جمعية الكور مدة طويلة تقوم بدور المحكمة التي كان المواطنون الرومان يستأنفون أمامها ما صدر عليهم من أحكام بالاعدام أو بالنفي أو بالجلد أو بدفع غرامة كبيرة . وإلى جانب ذلك احتفظت جمعية الكور حتى نهاية عهد الجمهورية بحق الإشهاد على الوصايا وحالات التبني وبحق الفصل في شرعية البنوة .

وكانت عملية التصويت في هذه الجمعية تجري علنا إما شفاهاً وإما برفع اليد . ولم يكن لكل كورة إلا صوت واحد يمثل رأي غالبيتها ، معبرا عن رأي الكورة بالرفض أو بالموافقة . وانه لمن اليسير أن نتصور مدى خضوع التصويت في الكور لتأثير البطارقة بسبب نفوذهم الشخصي والتزام اتباعهم بتأييد رغباتهم .

٦ ــ سيطرة البطارقة

ويتبين بجلاء ما أوردناه عن نظم الحكم الرومانية في أواخر القرن السادس وأوائل القرن الخامس قبل الميلاد أن البطارقة كانوا يسيطرون تماما على دفة الحكومة الرومانية . فقد عرفنا كيف أنهم كانوا يحتكرون تولي مناصب الحكام وعضوية الجماعات الدينية فضلا عن عضوية السناتو . وبفضل هذا الاحتكار كانوا يمارسون السلطة العليا ويوجهون سياسة الدولة ويتحكمون في تصريف العدالة وكذلك في قرارات الجمعية الشعبية عن طريق حق السناتو في إبرام هذه القرارات أو في نقضها اذا لم ينجحوا بتأييد أتباعهم في أخذ موافقة الجمعية الشعبية على وجهة نظرهم . ويتبين من دراسة أسماء عشائر البطارقة في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد أنها كانت تتألف عندئذ من حوالي ألف أسرة أو ٤٥٠٠ مواطن يُعتقد أنهم كانوا يمثلون ما يتراوح بين ٧ ٪ و ٨ ٪ من مجموع المواطنين الرومان . واذا كان لا يمكن الذهاب إلى أبعد من أن هذه الأرقام ليست إلا تقديرا تقريبيا معقولا ، فانه لا جدال في أن البطارقة لم يؤلفوا إلا أقلية ضئيلة بالنسبة إلى الغالبية

العظمى من المواطنين الرومان الذين كان البطارقة يهيمنون عليهم هيمنة تامة . فلا عجب أن هذه الغالبية المغلوبة على أمرها لم تلبث أن اصطدمت مع الأقلية الجائرة .

ثانيا – تطور النظم الرومانية

١ – زيادة عدد القبائل :

ترتب على زيادة عدد المواطنين الرومان واتساع رقعة الاقليم الروماني زيادة تدريجية في عدد القبائل التي كان المواطنون الرومان يسجلون فيها تبعا لمواطن سكنهم . ذلك أنه بعد أن كان عدد القبائل الرومانية ثلاثا في العهد الملكي . أخذ عددها في الازدياد تبعا لاتساع رقعة الاقليم الروماني وانتشار المواطنين الرومان في أرجائه إلى أن أصبحت توجد في عام ٢٦٥ ق . م . خمس وثلاثون قبيلة ، أختُص سكان روما منذ أوائل القرن الخامس بأربع من هذه القبائل والمواطنون الرومان النازلون في مختلف أرجاء الأقليم الروماني بالقبائل الإحدى والثلاث الباقية وكانت تسمى القبائل الريفية (tribus rusticae) ، على حين أن قبائل روما الأربع كانت تسمى القبائل الحضرية (tribus urbanae) . ولما كان تقسيم المواطنين الرومان إلى قبائل تقسيما إقليميا بحسب موقع مسكن كل منهم ، وكان يتعين على كل مواطن أن يسجل نفسه وما يملك في سجل قبيلته ، فان القبائل أصبحت الدعائم الأساسية التي يعتمد عليها نظام التجنيد ودفع ضرائب الملكية .

٢ – الإصلاحات العسكرية وانشاء جمعية المئينات :

يميل الباحثون إلى الاعتقاد بأن الروايات الرومانية لا تجنح عن جادة الصواب حين تحدثنا بأن الجيش الروماني في عهد الملوك كان يتألف من ٣٠٠٠ راجل و ٣٠٠ فارس يؤخذون بالتساوي من القبائل الثلاث القديمة ، بمعنى أن كل قبيلة كانت تقـدم قوة قوامها ١٠٠٠ راجل بقيادة ضابطهم (tribunus militum)

فضلا عن فصيلة تتألف من ١٠٠ فارس بقيادة ضابطهم (tribunus celerum) واذا صح ذلك فانه يوحي بأن كل كورة من الكور العشر التي كانت تتألف منها كل قبيلة كانت تسهم بمائة راجل وعشرة فرسان . ويبدو أنه في خلال الشطر الأول من القرن الخامس قبل الميلاد كان هذا النظام لا يزال متبعا في تكوين الجيش الروماني ، وان كان يبدو كذلك أن استخدام العربات قد أبطـــل ، وأن عدد الفرسان قد ضوعف ، بحيث أن الجيش أصبح يتألف من ٣٠٠٠ راجل أو ثلاثين مئينا (centuria ، أي ثلاثين وحدة عدد أفراد كل منهـــا مائة) و ٦٠٠ فارس أو ستة مئينات (centuriae) . وفي هذا الوقت كان تكوين وحدات الفرسان مقصورا على البطارقة كما كان أكثر المشاة منهم ومن أتباعهم ، لأنه في الدولة الرومانية الباكرة كان البطارقة أحسن تدريبا وأوفر مالا وأقدر من غيرهم على تزويد أنفسهم بالخيول والأسلحة اللازمة .

وتبعا لاتساع نطاق حروب روما وعجز البطارقة عن النهوض بأعباء الحرب المتزايدة تزايدا لا يتناسب وعددهم ، زيد باطراد عدد المواطنين الرومان الذين ألقي على عاتقهم عبء الخدمة العسكرية . ذلك أنه بسبب ازدياد خطر إغارات الأيكوي والفولسقي زيد عدد المشاة الكاملي العدة في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد إلى أربعين مئينا أي إلى ٤٠٠٠ مقاتل . وفي هذا الوقت أعيد تنظيم المشاة بحيث أصبحوا ينتظمون في صفوف متراصة تؤلف كتلة صلبة متلاحمة (phalanx) على غرار ما كان مألوفا في الجيوش الاغريقية .

وبسبب الحرب مع المدينة الأتروسقية فياي زيد عدد الجيش قبيل آخر القرن الخامس قبل الميلاد إلى ٦٠٠٠ مقاتل ممن تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والأربعين وكانوا يدعون الشبان (iuniores) ، وبذلك أصبح الجيش العامل يتكون من ٦٠ مئينا من المشاة الكاملي العدة إلى جانب ستة مئينـــات من الفرسان . وأما المواطنـــون الذين تتراوح سنهم بين السادسة والأربعين والستين

وكانوا يسمون الشيوخ (seniores) فانه كونت منهم ٦٠ مئينا أخرى ، وكان لا يعهد لهؤلاء المواطنين إلا بأعمال الحراسة فقط . ومن ثم فانه يمكن القول بأن الجيش العامل كان يتكون من ٦٦ مئينا والجيش المرابط من ٦٠ مئينـــا . ويبدو أنه في هذا الوقت أصبحت الدولة هي التي تزود الخيول للمسجلين في مئينات الفرسان طبقا لثروتهم العقارية لأنهم كانوا يسمون « الفرسان ذوي خيول الدولة » (equites equo publico) . وبالنظر إلى شدة الحاجة إلى عدد كبير من الفرسان في أثناء محاربة فياي سُمح للقادرين من أصحاب الثروة المنقولة بالتطوع للخدمة في الجيش على صهوة جيادهم الخاصة ولذلك كانوا يسمون « الفرسان ذوي الخيول الخاصة » (equites equo privato أو equites equo suo) .

وبسبب هزيمة الرومان الفادحة أمام الغال في واقعة ألّيا في عام ٣٨٧ ق . م . زيد عدد المشاة إلى ٨٤٠٠ راجل وعدد الفرسان إلى ١٨٠٠ فارس وبذلك أصبح الجيش العامل يتألف من ٨٤ مئينا من المشاة تنتظم في فرقتين ومن ثمانية عشر مئينا من الفرسان ، كما زيدت مئينات الجيش المرابط إلى ٨٤ مئينا . ومن المرجح أنه في هذا الوقت وليس في خلال الحروب السمنية أدخل الرومان اصلاحات واسعة النطاق على نظم الجيش وطريقة تسليحه ، لأن هزيمتهم أمام السمنيين في واقعة شعاب قاوديوم كانت ترجع إلى أسباب استراتيجية على حين أن هزيمتهم أمام الغال كانت ترجع إلى أسباب تكتيكية أي تنظيمية . ذلك أن معركة ألّيا أظهرت للرومان أنه متى نجحت قوة معادية سريعة الحركة مسلحة بسيوف طويلة في فتح ثغرات في قوة مؤلفة من عدة صفوف متراصة من المشاة المسلحين بالحراب ، أصبح من العسير على هذه القوة أن تصمد أمام عدوها . ولذلك قرر الرومان أن توضع أمام قوة المشاة الثقيلي العدة قوة من المشاة خفيفي العدة (velites) تتألف من أصحاب المقاليع ورماة الرماح ، وأن يسلح كل مقاتل في صفوف القسم الأمامي (principes) من المشاة الثقيلي العدة بحربتين وسيف، وأن يسلح كل مقاتل في صفوف القسمين الأوسط (hastati) والخلفي (triarii) بحربة

طويلة ، وإن كان قد حدث فيما بعد أن أصبح محاربو الصفوف الوسطى (hastati) يسلحون على غرار محاربي الصفوف الأماميـــة . وأهم من ذلك أن المئينات (centuriae) وهي التي كانت تتألف منها أقسام الجيش الثلاثة (الأمامي والأوسط والخلفي) استبدلت بها وحدات تكتيكية منفصلة (manipulus) تتألف كل وحدة منها من ٦٠ أو ١٢٠ مقاتلا ، وأن هذه الوحدات كانت تصف في ميدان القتال متباعدة عن بعضها بعضا ، بحيث أنه في أثناء المعركة كانت وحدات القسم الأوسط تستطيع أن تتقدم من خلال الثغرات لمساندة وحدات القسم الأمامي ، ووحدات القسم الخلفي تتقدم لشد أزر وحدات القسم الأوسط أو الأمامي بحسب الظروف . وفضلا عن ذلك فانه عندما تقرر في عام ٣٦٧ ق.م. السماح للعامة بتولي منصب القنصلية دون أي قيد أو شرط ، فُتح الباب على مصراعيه أمام ذوي الكفايات جميعا لتولي قيادة الجيش الجديد .

وقد صاحبت زيادة الأعباء العسكرية الملقاة على عاتق الدولة الرومانية زيادة أعبائها المالية لمواجهة نفقات شراء الخيول للفرسان اكتفاء بتجهيز أنفسهم بمعدات القتال ، وإعالة الجيش في أثناء الحملات وكذلك دفع مرتبات الجنود وقد أصبحوا ينقطعون عن أداء أعمالهم العادية وقتا طويلا . ولكي تستطيع الدولة معرفة مواردها من المال والرجال أنشأت في مستهل النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد إدارة خاصة لتسجيل المواطنين الرومان وممتلكاتهم ، وكان لا يؤخذ في الاعتبار في هذا الوقت إلا الأرض (ager privatus) والعبيد (servi) والماشية (iumenta) وكلفت بإجراء هذا التسجيل الإحصائي (census) هيئة جديدة من الحكام تتألف من شخصين يدعيان قنسورس (censores) سيأتي الكلام عنهما فيما بعد . وبذلك كانت تتوافر دائما لدى الدولة قوائم بالصالحين لأداء ضريبتي الدم والمال ، وكذلك بالصالحين لدفع الضريبة المالية وحدها اذا كانوا من المسنين أو القاصرين أو النساء . وعلى هذا النحو كانت الدولة تستطيع جباية ما يلزمها من أموال وحشد ما يلزمها من مقاتلين دون اضطراب أو تأخير كلما ظهرت في الأفق بوادر حرب .

ولما كانت الدولة الرومانية لا تمد جنودها بالأسلحة فانها على الأرجح في أواخر النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد قسمت مواطنيها على أساس ثروتهم العقارية وقدرتهم على تجهيز أنفسهم للقتـــال إلى ثلاث فئات (classes ومفردها classis) قسمت كل فئة منها إلى مئينات نصفها من الشبان ونصفها من الشيوخ على نحو ما مر بنا في معرض الحديث عن زيادة قوة الجيش بمناسبة الحرب مع فياي . وكانت الفئة الأولى تضم ٨٠ مئينا (٤٠ من الشبان و ٤٠ من الشيوخ) والفئة الثانية تضم ٢٠ مئينا (١٠ + ١٠) والفئة الثالثة تضم كذلك ٢٠ مئينا (١٠ + ١٠) . وبذلك كان يوجد ١٢٠ مئينا نصفها إللجيش المرابط ونصفها للجيش العامل ، وهو الذي كان يضاف إليه ستة مئينات من الفرسان فيكون المجموع الكلي ١٢٦ مئينا .

وفي أوائل القرن الرابع قبل الميلاد عندما زيدت قوة الجيش الروماني عقب نكبة ألّيا ، لم تترتب على ذلك زيادة عدد مئينات الفئات الثلاث التي كان المواطنون ينقسمون اليها وتتكون من مئينات شبانها تشكيلات المشاة الكاملي العدة وأنما أنشئت فئتان أخريان هما الفئة الرابعة والخامسة ليتألف من مئينات شبانها تشكيلات المشاة الخفيفي العدة . وعلى غرار مئينات الفئات الثلاث الأولى القديمة كان نصف عدد مئينات الفئتين الرابعة والخامسة من الشبان والنصف الآخر من الشيوخ . وكانت الفئة الرابعة تتألف من ٢٠ مئينا (١٠ من الشبان + ١٠ من الشيوخ) والفئة الخامسة تتألف من ٣٠ مئينا (١٥ + ١٥) . وأضيفت إلى هؤلاء جميعا خمس مئينات أخرى كان أحدها يتألف من أفقر المواطنين (proletarii) الذين لم يمتلكوا نصاب الفئة الخامسة (وكانوا يدعون للقتال في حالة الضرورة القصوى) وأربعة مئينات تتألف من العمال (fabri) والموسيقيين (cornicines) الذين كانوا يصحبون الجيش . وتبعا لذلك أصبح المواطنون الرومان يؤلفون ١٩٣ مئينا (= ١٨ مئينا من الفرسان وكانوا خارج الفئـــات الخمس جميعا + ٨٠ فئة أولى + ٢٠ فئة ثانية + ٢٠ فئة ثالثة + ٢٠ فئة رابعة + ٣٠ فئة خامسة + ٥) .

هذه هي على الأقل الصورة التي يمكن استخلاصها من وصف ليفيوس وديونيسيوس الهاليقرناسي للأوضاع الرومانية عند أواخر القرن الرابع قبل الميلاد .

وفي هذا الوقت ، عندما زيدت قوة الجيش عقب نكبة شعاب قاوديوم ، لم تترتب على ذلك زيادة عدد مئينات كل فئة وإنما زيادة عدد أفراد كل مئين. والواقع أن اصطلاح مئين بعد أن كان يعني أصلا وحدة عسكرية تتألف من مائة مقاتل ، فقد مدلوله الأصلي نتيجة لعاملين : واحدهما ، هو أنه بالتدريج أصبح عدد أفراد المئين يزيد على مائة في حالة مئينات الشبان ويقل عن مائة في حالة مئينات الشيوخ . والعامل الآخر هو أنه نتيجة للإصلاح العسكري الذي رجحنا أنه أدخل على تنظيم الجيش بعد نكبة ألّيا لم تعد المئينات تكوّن الوحدات الأساسية في الجيش بل خلفتهـا وحدات تكتيكية (manipulus) أخرى . وبرغم ما طرأ من تغيير على مدلول اصطلاح مئين ، فإن المواطنين الرومان ظلوا ينقسمون إلى الفئات التي ذكرناها كما أن كل فئة ظلت تتألف من ذات عدد المئينات ، لأن المئين أصبح يؤلف وحدة انتخابية في جمعية شعبية جديدة ، كما سيأتي بيانه .

وبعد إتمام عملية التسجيل كان المواطنون يصنفون مئينات وفئات ، وبذلك كان لا يتحدد مركزهم الضريبي فحسب بل مئين كل مواطن والوحدات التي تنتظم المئينات المختلفة . وبعد تصنيف المواطنين ، كانت المئينات تدعى للاجتماع في تشكيلاتها العسكرية بقيادة ضباطها وتحت ألويتها . وبما أن اجتماع هذه المئينات في تشكيلات عسكرية كان عبارة عن الأمة الرومانية مجتمعةعلى هيئة جيش (exercitus) ، ولما كان غير مسموح للجيش بالاجتماع داخل روما ، فان المئينات كانت لا تدعى للاجتماع إلا في ساحة التدريب العسكري المعروفة باسم ساحة اله الحرب مارس (Campus Martius) خارج سور روما المقدس (pomerium) :

وعندما أصبحت كل موارد الدولة الرومانية من رجال وأموال تحشد وتنظم على النحو الذي أوضحناه من أجل ضمان سلامتها والذود عن حياض شرفها ، أي عندما أصبح المواطنون ، بطارقة وعامة ، يدعون للخدمة العسكرية على أساس واحد أعني القدرتين البدنية والمالية ، كان طبيعيا أن يصبح لهم جميعا صوت مسموع في شئون الدولة ، وأن يترتب على التنظيم العسكري الجديد قيام جمعية شعبية جديدة . ولما كان بديهيا أن يكون لكل واجب حق يقابله ، فان كل فئة من الفئات التي ذكرناها مُنحت عددا من الأصوات يقابل عدد مئيناتها ، وأن عملية الإدلاء بالأصوات نُظمت تبعا لثروة المواطنين ، أو بعبارة أخرى تبعا لمقدار الأعباء التي كانت كل فئة منهم تتحملها ، فكانت الأولوية لمئينات الفرسان ثم تليها مئينات الفئة الأولى فمئينات الفئة الثانية وهكذا. وبما أنه في الجمعية الشعبية الجديدة كان كل مئين يدلي بصوته على حدة لتبين الرأي الذي يمثل رأي غالبيته ، فان هذه الجمعية سميت « جمعية المئينات »(Comitia Centuriata,) .

ولا جدال في أن تقسيم المواطنين الرومان إلى مئينات يماثل تقسيم جيشهم منذ العهد الملكي . واذا كان من الجائز أن الملك سرفيوس توليوس هو الذي ابتكر تقسيم الجيش على هذا النحو ، فان أكثر الباحثين يرفضون ما تذهب اليه الروايات القديمة ويأخذ به بعض الباحثين من أن انشاء جمعية المئينات يرجع إلى عهد الملك سرفيوس توليوس . ذلك أنه لا سبيل إلى الشك في أن جمعية المئينات لم تنشأ إلا نتيجة لزيادة عدد الجيش الروماني زيادة كبيرة . وتوحي القرائن بأنه في عهد سرفيوس توليوس لم تكن روما في حاجة إلى جيش كبير وكذلك بأنه لم يكن في وسعها بعدد مواطنيها المحدود عندئذ إنشاء مثل هذا الجيش . وقد سبق أن ذكرنا أن الروايات القديمة ذاتها تحدثنا بأن الجيش الروماني لم يتألف عندئذ إلا من ٣٠٠٠ راجل و ٣٠٠ فارس ، كما سبق أن أوضحنا كيف أن هذا الجيش أخذ يزداد تدريجا منذ القرن الخامس قبل الميلاد تبعا للظروف الخارجية التي واجهت روما . ولعل الأرجح أن جمعية المئينات لم تُنشأ إلا في

خلال هذا القرن نتيجة لاتساع نطاق حروب روما وما استتبعه ذلك من زيادة الأعباء العسكرية الملقاة على عاتق المواطنين الرومان وتبعا لذلك ما اقتضته زيادة هذه الأعباء من ضرورة إعطاء هؤلاء المواطنين حقوقا سياسية تقابل أعباءهم ، وأن جمعية المئينات نمت تدريجا منذ القرن الخامس حتى استكملت شكلها النهائي في القرن الرابع قبل الميلاد .

وحتى الربع الأخير من هذا القرن كان المواطنون الرومان يوزعون على مئينات الفرسان ومئينات الفئات الخمس وفقا لمقدار ما يملكونه من أرض وماشية وعبيد ، ولكنه عند أواخر هذا القرن ومن المحتمل في خلال قنسورية أبيوس قلاوديوس في عام ٣١٢ ق . م . أصبح التوزيع على أساس القيمة النقدية لثروة المواطنين ، وتبعا لذلك أصبح أصحاب الثروة المنقولة — وكانوا قليلي العدد حتى هذا الوقت — في عداد أعضاء جمعية المئينات شأنهم في ذلك شأن أصحاب الأراضي والماشية والعبيد . وكانت الأنصبة على النحو التالي : (١) مئينات الفرسان ممن تزيد ثروتهم على ١٠٠,٠٠٠ آس (as = رطل روماني من البرونز) ، (٢) الطبقة الأولى ممن لا تقل ثروتهم عن ١٠٠,٠٠٠ آس ، (٣) الطبقة الثانية ممن لا تقل ثروتهم عن ٧٥,٠٠٠ آس ، (٤) الطبقة الثالثة ممن لا تقل ثروتهم عن ٥٠,٠٠٠ آس ، (٥) الطبقة الرابعة ممن لا تقل ثروتهم عن ٢٥,٠٠٠ آس ، (٦) الطبقة الخامسة ممن لا تقل ثروتهم عن ١١,٠٠٠ آس .

ولم تلبث جمعية المئينات أن أصبحت هيئة سياسية أكثر منها تنظيما عسكريا ، ذلك أنها على مر الزمن أصبحت تضم كثيرين ممن لم يعودوا صالحين للقيام بأي عمل عسكري . وفضلا عن ذلك فانه في خلال القرن الرابع قبل الميلاد أخذت مئينات الفرسان تفقد طابعها العسكري ، كما أخذ اسم الفرسان يمتد ليشمل ليس فقط كبار ملاك الأراضي المسجلين في مئينات الفرسان بل أيضا أثرياء التجار الذين لم يكونوا مسجلين في هذه المئينات الممتازة وظلوا لا يسجلون فيها

بسبب ثروتهم المنقولة ولكنه كان لديهم نصاب الفرسان. وقد حدث هذان التطوران نتيجة لعاملين وهما :

أولا ، ما سبقت الاشارة اليه من أنه في أثناء محاربة فياي سمح لأثرياء التجار من المواطنين الرومان بالتطوع للخدمـــة في الجيش على صهوة خيولهم الخاصة .

وثانيا ، أنه منذ ألقت روما على عاتق حلفائهـــا عبء إمداد الجيش الروماني بالفرسان قل اعتمادها تدريجا على الفرسان الرومان .

وإذا كانت جمعية المئينات قد أصبحت هيئة سياسية أكثر منها تنظيما عسكريا ، فإنها مع ذلك احتفظت بطابع تكوينها الأصلي ليس فقط من حيث تقسيم المواطنين إلى فئات ومئينات ، بل أيضا من حيث أن انعقادها ظل أمدا طويلا على هيئة انتظام المواطنين في تشكيلاتهم العسكرية بقيادة ضباطهم وتحت ألويتهم ، وكذلك من حيث أنه في أثناء انعقادها كان يُرفع علم الحرب ويوضع حرس فوق تل قابيتولينوس ، وأخيرا من حيث أنها ظلت بانتظام لا تعقد اجتماعاتها إلا في ساحة الإله مارس ولا تجتمع إلا بناء على دعوة صادرة من حاكم يتمتع بالسلطة التنفيذية (imperium) ، لأن هـــذه السلطة كانت تتضمن سلطة عسكرية. ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة هو أنه كان لا يتمتع بالسلطة التنفيذية إلا الدكتاتور والقناصل والبرايتورس .

وعندما أنشئت جمعية المئينات آلت اليها بالتدريج أغلب اختصاصات جمعية الكور (Comitia Curiata) حتى أصبحت الجمعيـــة الرئيسية للشعب الروماني إلى أن أخذت تتضاءل مهمتها التشريعية منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد بسبب ازدياد أهمية جمعية شعبية أخرى هي جمعية القبائل (Comitia Tributa) التي سيأتي ذكرها في معرض الحديث عن الصراع بين البطارقة والعامة . ولعل أول ما آل إلى جمعية المئينات ، بحكم نشأتها وتكوينها ، كان

الحق في الموافقة على اعلان الحرب . وعلى كل حال فان هذه الجمعية هي التي أصبحت تنتخب كبار الحكام جميعا ، وتُعرض عليها كل التشريعات التي يتقدم بها الحكام المتمتعون بالسلطة التنفيذية (imperium) لاقرارها أو رفضها . وقبل عام ٣٥٠ ق . م . أصبحت هذه الجمعية هي التي يستأنف المواطنون أمامها الأحكام الشديدة الصادرة عليهم . بيد أنه كان من شأن تمسك السناتو لمدة طويلة بحق إبرام (patrum auctoritas) القرارات التي تصدرها جمعية المئينات قبل أن تكتسب سلطة القانون، الحد طوال هذه المدة من السلطة التشريعية التي كانت هذه الجمعية تتمتع بها . وقد خفت وطأة هذا القيد عندما أصدر الدكتاتور بوبليليوس في عام ٣٣٩ ق.م. القانون المعروف باسمه (Lex Publilia) فقد قضى هذا القانون بأن يقر السناتو أو يرفض الاقتراحات قبل عرضها على جمعية المئينات .

وعلى غرار ما كان متبعا في جمعية الكور لم يكن من حق جمعية المئينات اقتراح التشريعات أو مناقشة أو تعديل ما يعرضه عليها الحاكم الذي يدعوها للانعقاد ويرأس اجتماعها . وعلى نحو ما كان يحدث في جمعية الكور من حيث أن أفراد كل كورة كانوا يدلون بأصواتهم على حدة لتبين رأي غالبيتهم وهو الذي كان يعتبر صوتا واحدا يعبر عن رأي الكورة بأجمعها ، كان أفراد كل مئين كذلك يدلون بأصواتهم على حدة لتبين رأي غالبيتهم وهو الذي كان يعتبر كذلك صوتا واحدا يعبر عن رأي المئين بأجمعه . ومما يجدر بالذكر أنه كان يختار من بين مئينات الفرسان المئين الذي يكون له شرف البدء في الإدلاء بالأصوات (centuria praerogativa) ، على حين أن مئينات كل فئة كانت تدلي بأصواتها في وقت واحد عندما يأتي دور تلك الفئة ، ويسجل صوت كل مئين بمجرد وصوله إلى نتيجة . ومن مفارقات نظم جمعية المئينات أنه بالرغم من أن عدد أفراد مئينات الشيوخ كان أقل من عدد أفراد مئينات الشبان — لأنه في العادة يزيد عدد الذين تتراوح سنهم بين ١٨ و ٤٥ على عدد الذين تتراوح سنهم

بين ٤٦ و ٦٠ – فانه كان للشيوخ ٨٤ صوتا مثل ما كان للشبان تماما . بيد أنه لم يكن من شأن هذه المفارقة افادة أية فئة على حساب فئة أخرى من فئات المواطنين . وقد سبق أن ذكرنا أن مئينات الفرسان كانت تدلي بأصواتها أولا ثم تليها مئينات الفئة الأولى فمئينات الفئة الثانية وهكذا إلى أن تتكون غالبية مطلقة لصالح أو ضد المشروع المعروض أوالمرشحين لشغل المناصب العامة . وبمجرد الوصول إلى غالبية كانت تتوقف عملية التصويت ، وتبعا لذلك فانه في حالات كثيرة قلما كانت مئينات الفئات الدنيا تدعى للإدلاء بأصواتها ، ولا سيما حين كانت مئينات الفرسان ومئينات الفئة الأولى تجمع على رأي واحد ، فقد كان مجموع أصوات مئينات الفرسان وأصوات مئينات الفئة الأولى (٩٨ = ١٨ + ٨٠) يزيد على نصف المجموع الكلي للأصوات في جمعية المئينات (٩٦,٥ = ١٩٣ ÷ ٢) . واذا كان لا سبيل إلى التحقق من معدل المناسبات التي كان يتفق فيها رأي مئينات الفرسان ومئينات الفئة الأولى ، فانه من الجائز أن ذلك كان كثير الحدوث بحكم تقارب الفريقين في الثروة وفي التأثر بما يخدم صوالحهما أو يتعارض معه. ولا جدال في أنه قد ترتب على انشاء جمعية المئينات وكيفية تنظيمها من حيث التكوين ونظام الإدلاء بالأصوات إعطاء أكثر المواطنين ثراء هيمنة كاملة على التصويت في الانتخابات وفي التشريعات . وإذا كان تكوين الطبقة الارستقراطية قد أخذ يختلف عما كان عليه في الماضي ، وذلك منذ حوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، فانه كانت لا تزال توجد طبقة أرستقراطية ، وأن هذه الطبقة احتفظت بالسلطة العليا في الدولة على نحو ما سنرى .

وإزاء ازدياد أهمية جمعية المئينات فضلا عن انشاء جمعية شعبية جديدة هي جمعية القبائل ، فقدت جمعية الكور ما كان لها من أهمية . ذلك أن هذه الجمعية بعد أن فقدت حقها في التشريع وفي انتخاب القناصل وفي إعادة النظر في القضايا التي صدرت فيها أحكام صارمة على المواطنين ، لم يتبق لها من اختصاصات سوى :

أولا ، المصادقة على انتخاب القناصل والبرايتورس ومنحها

إياهم السلطة التنفيذية العليا (imperium) بمقتضى قانون كوري خاص بذلك (Lex curiata de imperio) . بيد أنه لما كانت موافقة السناتو (patrum auctoritas) على ذلك أمرا ضروريا ، وكان قد تقرر بمقتضى القانون الذي أصدره جايوس ماينيوس (Lex Maenia) في حوالي عام ٢٨٧ ق.م أن يوافق السناتو على المرشحين قبل انتخابهم ، فان القانون الكوري الخــاص بمصادقة جمعية الكور على انتخاب القناصل والبرايتورس ومنحها إياهم السلطة التنفيذية العليــا غدا إجراء شكليا . ولا أدل على أنه مع مر الزمن غدت اجتماعات هذه الجمعية اجتماعات صورية بحتاً من أنه في أواخر عهد الجمهورية لم يكن يؤم اجتماعاتهــا الا رئيسها (وكان عادة إما قنصلا وإما كبير الكهنة) وثلاثون من أتباع الحكام بوصف كونهم ممثلي الكور الثلاثين .

وثانيا ، الإشهاد على الوصايا وحالات التبني والفصل في شرعية البنوة .

٣ – انشاء وظائف جديدة للحكام الرومان

التراابنةالعسكريون ذوو السلطة القنصلية (Tribuni militum consulari potestate)

لم يترتب على اتساع نطاق حروب روما تلك الاصلاحات العسكرية التي مرت بنا وما جاء في أعقابها من إنشاء جمعية المئينات فحسب ، بل أيضا عدة تجاريب في كيفية ممارسة السلطة العليا مدنية وعسكرية في ظروف كثيرا ما كانت تقضي بوجود أكثر من شخصين (أي القنصلين) يستطيعان ممارسة هذه السلطة في عدة أماكن في وقت واحد . ذلك أنه فيما بين عامي ٤٤٤ و ٣٦٧ ق .م استبدل الرومان بالقنصلين مرارا عديدة في فترات غير منتظمة هيئة من الحكام كان عددهم يزداد باطراد ويدعون « الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية » . وبيان ذلك أنه فيما بين عامي ٤٤٤ و ٤٢٧ ق . م . انتخبت ست هيئات من هؤلاء الترابنة ، وكان عدد أعضاء كل هيئة عندئذ ثلاثة فقط . وفيما بين عامي ٤٢٦ و ٤٠٦ ق . م . انتخبت عشر هيئات مــن هؤلاء الترابنة كانت ثلاث

منها ثلاثية العدد وسبع منها رباعيته . وفيما بين عامي ٤٠٥ و ٣٦٧ ق . م . انتخبت ثلاث وثلاثون هيئة كانت عادة سداسية العدد وإن كان يتعذر التثبت من عدد أعضاء بعضها .

وقد مر بنا عند الكلام عن القبائل الرومانية في العهد الملكي أن التريبون كان نقيب القبيلة وقائد الجنود الذين تقدمهم قبيلته . وبما أن كل قبيلة كانت في الأصل تقدم ألف جندي ، فان لقب تريبون عسكري كان يطلق على قائد كل وحدة من الجنود يبلغ عددها ألفا . ولكنه يبدو أنه عندما أصبح نظام الجيش لا يقوم على أساس قبلي وانما على أساس الفئات التي قسم اليها المواطنون الرومان ، أصبح لقب تريبون عسكري يطلق على ضباط الوحدات الرئيسية في الجيش الروماني . ويبدو أن ذلك كان مدلول لقب تريبون عسكري في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد . وتبعا لذلك فإن الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية كانوا الضباط الرئيسيين للقوات الرومانية ويتمتعون بالسلطة التنفيذية (imperium) التي كان القناصل يتمتعون بها ، وكانت جمعية المئينات هي التي تنتخبهم .

وفي عام ٣٦٧ ق . م . تقرر العدول نهائيا عن تجربة انتخاب الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية والعودة إلى نظام القنصلية وانتخاب قنصلين سنويا لتولي السلطة العليا مدنية وعسكرية اعتبارا من العام التالي (٣٦٦ ق . م .) . ومنذ ذلك الوقت أصبحت القيادة العليا ، كما كانت في الماضي ، للقنصلين مع امكان اسنادها حين تقتضي الظروف إلى حاكم جديد تقرر اختياره لمساعدة القنصلين ، وأصبح الترابنة العسكريون ضباط وحدات في الجيش تحت إمرة القائد العام .

البرايتورس (Praetores)

وعندما أعيدت القنصلية إلى مكانتها السابقة تقرر أن تنتخب جمعية

المثينات سنويا حاكما جديدا يدعى برايتور (praetor) لمساعـــدة القنصلين في الاضطلاع بأعبائهما . ولذلك فانه كان يمنح السلطة التنفيذية العليا وتسند إليه مهمة تصريف العدالة بدلا من القنصلين لكي يتسنى لهما التفرغ إلى باقي مهامهم وبخاصة الشئون العسكرية . ولما كان البرايتور يعتبر مساعدا للقنصلين ويتمتع أيضا بالسلطة التنفيذية العليا ، فانه اذا اقتضى الأمر كان يستطيع تولي قيادة أحد الجيوش وكذلك دعوة السناتو أو احدى الجمعيات الشعبية للاجتماع ، وحتى عام ٣٣٧ ق . م . كان تولي البرايتورية مقصورا على البطارقة .

وعندما اتسع نطاق علاقات روما الخارجية تقرر في حوالي عام ٢٤٢ ق . م . أن ينتخب سنويا برايتور ثان ليشرف على الفصل في القضايا التي يكون أحد طرفيها أو كلاهما من الأجانب . وللتفرقة بين هذين الحاكمين كان أولهما يسمى برايتور المدينة (praetor urbanus) لأن مهمته الأولى كانت تصريف العدالة في مدينة روما ، وكان ثانيهما يسمى برايتور الأجانب (Praetor peregrinus) وهذا اختصار لعبارة البرايتـــور الذي يقضي في أمور الأجـــانب (praetor qui inter peregrinos ius dicit) .

وكان اختصاص البرايتور القضائي مقصورا على القضايا المدنية ، وكان يكتفي بسماع المرافعات المبدئية ثم يصدر تعليماتـــه إلى قاض (iudex) أو إلى هيئة تتألف من ثلاثة أو خمســـة محلفين (recuperatores) لفحص الأدلة وإصدار الحكم . وكان من أهم واجبات البرايتور أن يصدر بمجرد توليه منصبه قرارا يبين القواعد التي سيفصل بمقتضاها في القضايا المنطوية على نقاط لا تعطى فيها القوانين القائمة أو العرف السائد أحكاما قاطعة . وقد كان لقرارات (edicta) البرايتورس المتعاقبين دور كبير في تطور القانون الروماني .

وتبعا لاتساع نطاق فتوحات روما خارج شبه الجزيرة الايطالية وما ترتب على ذلك من ازدياد حاجتها إلى حكام يتولون أمر ممتلكات روما الخارجية وهي التي

كانت تسمى الولايات (provinciae) ، اتسع نطاق اختصاصات البرايتورس فلم يعد الفصل في القضايا اختصاصهم الأول بل أصبح يسند اليهم حكم بعض الولايات ولذلك زيد عددهم على نحو ما سنرى في النصف الثاني من عهد الجمهورية .

القنسورس (Censores)

وحوالي عام ٤٤٣ ق . م . أي حوالي الوقت الذي أنشئت فيه وظيفة التريبونية ذات السلطة القنصلية واتخذت ثروة المواطنين الرومان أساسا لتنظيم الخدمة العسكرية أنشئت وظيفة جديدة هي وظيفة القنسورية من أجل ضبط عملية احصاء (census) المواطنين الرومان وممتلكاتهم . وبما أن الاحصاء كان يُجرى في روما في الربيع كل خمس سنوات ، فانه في بداية كل فترة احصائية ، أي كل خمس سنوات ، كانت جمعية المئينات تنتخب قنسورين ليتوليا منصبيهما في الربيع لكنهما كانا لا يشغلانهما إلا لمدة ثمانية عشر شهرا فقط ولا يتمتعان بالسلطة التنفيذية العليا (imperium) . وكانت أهم مهام القنسورين بمجرد توليهما منصبيهما هي : أولا ، تسجيل كل المواطنين الرومان وممتلكاتهم تبعا لقبائلهم ، وتوزيعهم على الفئات والمئينات المختلفة . وكان يتعين الانتهاء من إعداد قوائم الاحصاء في خلال فترة تتراوح بين اثني عشر شهرا وخمسة عشر شهرا منذ تولي القنسورين منصبيهما . وثانيا ، فحص قوائم الاحصاء ومعاقبة الذين أعطوا بيانات غير صحيحة أفضت إلى تسجيلهم في فئة أدنى من الفئة التي تؤهلهم لها ثروتهم ، أو تأخروا عن تسجيل أنفسهم وممتلكاتهم ، بفرض غرامات عليهم . وكانوا كذلك يعاقبون الذين اتسموا بالجبن في ميدان القتال أو بددوا الأموال العامة أو أساءوا السلوك في حياتهم الخاصة بالحكم عليهم بسوء السمعة (infamis) وبتسجيلهم في فئة أدنى من الفئة التي تؤهلهم لها ثروتهم . وبالرغم من أن مثل هذا الحكم كان يفتقر إلى الصبغة القانونية الشكلية ، فان احترام الرأي العام له كان يكسبه قوة الحكم الصادر من هيئة قضائية . بيد أنه كان في وسع أي قنسور

يأتي بعد ذلك اعادة النظر فيمن سبقت ادانتهم ورد اعتبارهم باعادتهم إلى مكانتهم السابقة . وقد ظل القنسورس يمارسون هذه الرقابة الخلقية بدقة وعناية طالما تمسك المواطنون الرومان بوجه عام وكذلك القنسورس بمستوى خلقي رفيع . وقبل أواخر القرن الرابع قبل الميلاد اتسع نطاق رقابة القنسورس الخلقية لتشمل سلوك أعضاء السناتو في الشئون العامة والخاصة وأصبح من حق القنسورس في أثناء فحص قوائم الاحصاء مراجعة قائمة أعضاء السناتو لاستبعاد أسماء المجرحين من هؤلاء الأعضاء بوضع قرين اسم كل منهم العلامة الدالة على عدم الصلاحية لعضوية هذا المجلس (nota censoris) وإعداد قائمة جديدة بأسماء الصالحين لعضويته . وثالثا ، تقدير ضريبة الملكية (tributum) التي تجمع في وقت الحرب .

والحاجة الملحة إلى ضبط عملية احصاء المواطنين الرومان وممتلكاتهم تفسر تفسيرا شافيا انشاء وظيفة القنسورية . ذلك أنه لم يكن ميسورا سواء للقنصلين أم للترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية مباشرة هذه العملية إلى جانب الاضطلاع بمهامهم الأخرى . ويبدو أنه منذ وقت مبكر بل لعله منذ انشاء هذه الوظيفة كان من اختصاص القنسورس أيضا التعاقد باسم الدولة على استثمار ممتلكاتها واقامة منشآتها العامة .

وازاء المهام الواسعة الخطيرة التي كان يضطلع بها القنسورس كان لا يُنتخب لتولي وظيفة القنسورية إلا من سبق لهم تولي وظيفة القنصلية ، وكانوا يتحلون بخلق عظيم . وقد ظلت وظيفة القنسورية وقفا على البطارقة حتى عام ٣٥١ ق . م . ثم تأكد هذا الحق للعامة في عام ٣٣٩ ق . م . عند تقرر أنه لا بد من أن يكون أحد القنسورين على الأقل في كل مرة من العامة ، ولكنه لم يشغل هذه الوظيفة اثنان من العامة في وقت واحد قبل عام ١٣١ ق . م .

الكوايستورس (Quaestores)

برغم ما يقرره المؤرخ الروماني تاقيتوس (Tacitus) يسود الاعتقاد بأنه

لم يكن لوظيفة الكوايستورية وجود في عهد الملكية ، وبأنها لم تُنشأ إلا في بداية عهد الجمهورية عندما كان القنصلان يعينان سنويا كوايستورين لينوبا عنهما في الفصل في قضايا القتل بـــدون مبرر (Quaestores parricidii) . ولم يعتبر الكوايستوران في عداد الحكام الرومان إلا عندما تقرر في عام ٤٤٩ ق . م . أن تنتخب جمعية القبائل (Comitia Tributa) في كل عـــام كوايستورين من البطارقة . وعندما سُمح للعامة بتولي هذه الوظيفة في عام ٤٢١ ق. م. زيد عدد الكوايستورس إلى أربعة ، وأصبح اثنان منهم « أميني الخزانة العامة » (Quaestores urbani أو Quaestores aerarii) والاثنان الآخران يقومان بمساعدة القنصلين ويصحبانهما إلى ميدان الحرب حيث كانا يتوليان مهمة توفير مؤنة الجيش وصرف مرتبات الجنود . وفي عام ٢٦٧ ق. م. زيد عدد الكوايستورس إلى ثمانية وعهد إلى الأربعة الجدد بتوفير حاجة روما إلى المال والرجال من الأقاليم الايطالية التي ضمتها وكانوا يسمون «كوايستورس الايطاليين» (Quaestores Italici)

ومنذ أنشئت وظيفة البرايتورية في عام ٣٦٦ ق . م . أصبح اختصاص الكوايستورس في روما مقصورا على الشئون المالية دون القضائية ، وأصبح « أمينا الخزانة العامة » أهم الكوايستورس جميعا ، وأصبح باقيهم يصحبون القواد إلى ميادين القتال ، وفيما بعد يصحبون حكام الولايات إلى ولاياتهم حيث لم يكن اختصاص الكوايستورس مقصورا على الشئون المالية . وكانت وظيفة الكوايستورية تعتبر أدنى الوظائف في سلك الوظائف العامة الرومانية (cursus honorum) ، ولكن توليها كان يعتبر تجربة مفيدة وإعدادا ضروريا طيبا لتولي الوظائف التي تعلوها .

ترابنة العامة (Tribuni Plebis)

سيجيء الحديث عن ترابنة العامة في معرض الحديث عن الصراع بين العامة والبطارقة .

الأيديلس (Aediles)

نشأت وظيفة الأيديلية أصلا من حاجة نقباء أو ترابنة العامة (Tribuni plebis) إلى موظفين يساعدونهم في الاضطلاع بمهامهم . وكانت أهم اختصاصات الأيديلس عندئذ هي حفظ سجلات العامة في معبد قرس (Ceres) على تل أفنتينوس، وبعد عام ٤٤٩ ق.م. حفظ نسخ كذلك من قرارات السناتو في هذا المعبد . هذا فضلا عن القاء القبض على الذين يخالفون أوامر ترابنة العامة .

ولم تعتبر الايديلية وظيفة عامة من وظائف الدولة إلا عندما تقرر في عام ٣٦٧ ق . م . أن تنتخب جمعية القبائل سنويا أيديلين من البطارقة يدعيان أيديلس قورولس (aediles curules) إلى جانب الأيديلين اللذين كانت تنتخبهما سنويا من العامة ولذلك كانا يسميان أيديلس العامة (aediles plebii) وتبعا لذلك أصبحت وظيفة الأيديلية ذات شعبتين ، يتولى العامة منصبي إحداهما والبطارقة منصبي الشعبة الأخرى. ولكنه في العام التالي (٣٦٦ ق. م.) تقرر أن يتناوب العامة والبطارقة شغل منصبي شعبة البطارقة عاما فعاما .

وفي أول الأمر كان أيديلس العامة أدنى مرتبة من أيديلس البطارقة ، ولكنه مع مضي الزمن أصبح الفريقان متعادلين في المرتبة . وعلى كل حال فان تولي وظيفة الأيديلية لم يكن شرطا ضروريا لتولي وظيفة البرايتورية التي كانت تعلوها في المرتبة . ولم تلبث اختصاصات الأيديلس ، سواء أكانوا من العامة أم من البطارقة ، أن أصبحت متماثلة وتشمل صيانة شوارع روما ، وتطبيق قواعد المرور فيها ، وحفظ الأمن والنظام في الحفلات الدينية ، وتدبير إمداد روما بالمياه ، والإشراف على المعاملات التجارية في السوق وبخاصة رقابة الموازين والمكاييل ، ويسمى ذلك كله رعاية شئون المدينة (cura urbis) . وازاء هذه المهام كانت للأيديلس اختصاصات قضائية محددة تبيح لهم فرض الغرامات على مرتكبي المخالفات . وقد اتسع نطاق رعايتهم لشئون المدينة فشمل اختصاصين

آخرين كان أحدهما إمداد روما بالحبوب وتوزيعها (cura annonae) وكان الاختصاص الآخر الإشراف على حفلات الألعاب العامة (cura ludorum sollenium). وقد ازداد هذا الاختصاص أهمية تبعا لازدياد الثروة والمنافسة السياسية في النصف الثاني من عهد الجمهورية إلى أن أصبح الأيديلس يتحملون الجانب الأكبر من نفقات إقامة هذه الحفلات كسبا لمحبة الجماهير وأصواتهم في الانتخابات مما أكسب تولي وظيفة الأيديلية أهمية كبيرة في نظر الطامحين إلى شق طريقهم في سلك المناصب العامة على نحو ما سنرى .

٤ – إطالة مدة ممارسة السلطة التنفيذية العليا (prorogatio)

مر بنا أن القناصل كانوا ينتخبون لتولي الحكم عاما واحدا فقط . ونضيف هنا إلى ذلك أنه في حوالي عام ٣٣٠ ق . م . تقرر ألا يُعاد انتخاب أي مواطن لتولي المنصب نفسه قبل انقضاء فترة قدرها عشر سنوات على توليه المنصب من قبل . وقد كان لقصر تولي الحكم على عام واحد بعض العيوب ولا سيما في مباشرة عمليات حربية طويلة الأمد . ذلك أنه في حالة الحملات التي كانت تستغرق مدة أطول من عام واحد ، كان على القنصل الذي يقود الجيش أن يتخلى عن قيادته بمجرد انتهاء عام حكمه . وحين ظهرت للرومان عيوب ذلك في خلال الحروب السمنية [١] أخذوا بعادة الاحتفاظ بخدمات القناصل بعد انتهاء عام حكمهم إلى أن يفرغوا من المهام التي كانوا يضطلعون بأعبائها . ولم يفعل الرومان ذلك عن طريق استبقاء القناصل في مناصبهم ، وانما عن طريق اطالة (prorogatio) ممارستهم السلطة القنصلية (consulare imperium) . وبما أن القنصل السابق الذي أطيلت مدة ممارسته السلطة القنصلية كان يضطلع بمهمة هي من صميم اختصاص القنصل فانه كان يسمى عندئذ بروقنصل (pro consule، وجمعها pro consulibus) أي القائم بعمل القنصل ، وكانت سلطته تسمى

(١) Liv., VIII, 23.

السلطة البروقنصلية (pro consulare imperium) أي سلطة القائم بعمل القنصل . وفي أول الأمر كان يتعين أخذ موافقة جمعية المئينات على إطالة مدة ممارسة السلطة القنصلية أو بعبارة أخرى على منح السلطة البروقنصلية ، ولكن السناتو لم يلبث أن اغتصب هذا الحق [1] . وازاء اتساع نطاق الأمبراطورية الرومانية في خلال القرن الثاني قبل الميلاد ، أصبحت القاعدة منذ عام ١٤٦ ق . م . هي إطالة مدة ممارسة السلطة القنصلية وكذلك السلطة البرايتورية بعد انقضاء عام حكم القناصل والبرايتورس ليتولوا حكم ولايات الامبراطورية بوصف الواحد منهم قائما بعمل القنصل (pro consule) أو قائما بعمل البرايتور (pro praetore) . وكان السناتو هو الذي يقرر في كل عام أية ولاية يتولى حكمها بروقنصل وأية ولاية يتولى حكمها بروبرايتور .

* * *

ولم يواف القرن الرابع قبل الميلاد على نهايته حتى كان سلك وظائف الحكام الرومان قد اتخذ الشكل الذي ظل عليه حتى نهاية عهد الجمهورية . وبطبيعة الحال لم تكن هذه الوظائف متساوية في المرتبة بسبب تباين أهمية اختصاصات كل منها ، ولذلك كان يتعين شغلها طبقا لنظام اقتضاه العرف أولا ثم حدده قانون صدر في عام ٣٤٢ ق . م . وكان الإعداد الأساسي لتقلد هذه الوظائف يتخذ شكل قضاء فترة في الخدمة العسكرية كانت عادة تدوم لمدة عشرة أعوام من أول الثامنة عشرة حتى نهاية السابعة والعشرين من سن المواطن ، ويحصل في خلالها على مرتبة تريبون عسكري . وبعد اكتساب الخبرة العسكرية على هذا النحو، كانت القاعدة المألوفة هي تولي الوظائف العامة وفقا للترتيب التالي : الكوايستورية فالأيديلية أو التريبونية الشعبية فالبرايتورية فالقنصلية دون أن يكون تولي الأيديلية أو التريبونية الشعبية شرطا أساسيا لتولي البرايتورية . أما

---

(1) Polyb. VI, 13.

القنسورية والدكتاتورية فانه كان لا يتولاهما إلا القناصل السابقون .

وقد مر بنا أن كل وظيفة كان يتولاها عدد من الزملاء لمباشرة اختصاص محدد . وقد كان من أهم سمات الزمالة في شغل الوظائف العامة حق أي حاكم في الاعتراض (intercessio) على أعمال زميله ووقفها . ولكيـــلا تتأثر مصالح الدولة العليا بالإفراط في استخدام هذا الحق كان القنصلان يتناوبان شهرا فشهرا مباشرة أعمال الدولة حين يكونان سويا في رومـــا ، كما أنهمـــا كانا يتناوبان القيادة العليا يوما فيوماً حين يكونان سويا في ميدان واحد للقتال . وكان الحكام الأعلى مرتبة يتمتعون بنفوذ أعلى (maior potestas) ممن هم أدنى مرتبة ، ويحق لهم عادة وقف تصرفـــاتهم أو الغاؤها . وتبعـــا لذلك كان في وسع القنصلين أو الدكتاتور الإشراف على تصرفات جميع الحكام الآخرين . وهذا الترابط بين مناصب الحكام ، وهو الذي نشأ من مبدأ النفوذ الأعلى (maior potestas) ، قد ساعد على دعمه ازدياد نفوذ السناتو على الحكام تبعا للحد من اختصـــاصات القناصل وسلطتهم وانشاء وظائف جديدة .

واذا كان الحكام جميعا يتمتعون بقدر متفاوت من النفوذ (potestas) فان الدكتاتور والقناصل والبرايتورس فقط هم الذين كانوا يتمتعون بالسلطة التنفيذية (imperium) ، بدرجات متفاوتة ، وتبعا لذلك كان هـــؤلاء فقط هم الذين يحق لهم تولي القيادة العسكرية ، ودعوة السناتو والجمعيات الشعبية للاجتماع والفصل في القضايا . بيد أنه كان من حق الحكام جميعا اتخاذ ما يلزم من اجراء لإطاعة أوامرهم بالقـــاء القبض (coercitio) على من يرفضون اطاعتهـــا . وتمتع الحكام الرومان بقدر كبير من السلطة ومن حرية التصرف دون التعرض للمحاكمة في أثناء مدة توليهم مناصبهم يعتبر من أهم مظاهر الدستور الروماني ، كما أن احترام المواطنين الرومان للسلطة العامة يعتبر من أهم سمات المجتمع الروماني الباكر .

ثالثا – الصراع بين العامة والبطارقة

سبق أن أوضحنا أنه قد صاحب زوال نظام الحكم الملكي وإقامة النظام الجمهوري في روما أمران : واحدهما ، هو اشتباك روما في سلسلة من الحروب لم يكن في وسع البطارقة الانفراد بتحمل أعبائها مما أفضى إلى ازدياد مطرد في الأعباء التي ألقيت على كاهل العامة . والأمر الآخر ، هو احتكار البطارقة تولي الوظائف العامة وكذلك عضوية السناتو والجماعات الدينية ، وكان معنى ذلك احتكار أجهزة الحكم وتصريف العدالة بصرامة شديدة . وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذه الأوضاع نشوب صراع مرير بين البطارقة والعامة دام زهاء قرنين . فلا عجب أن يكون إنشاء وظائف عامة جديدة وانشاء جمعيتي المئينات والقبائل ونمو سلطات هاتين الجمعيتين قد صاحبت واتصلت اتصالا وثيقا بالجهود المثابرة التي بذلها العامة للفوز بالمساواة مع البطارقة في الحقوق والامتيازات التي كانت وقفا عليهم في بداية عهد الجمهورية .

وقد صادفت مطالب العامة معارضة قوية من البطارقة ، وهم الذين كانت تدعم مركزهم التقاليد وسيطرتهم المطلقة على أجهزة الحكم ومكانتهم الفردية والجماعية وتأييد أتباعهم الكثيرين . بيد أنه من ناحية أخرى قد ساعد العامة على تحقيق مطالبهم عاملان هامان : واحدهما ، هو أنه أخذ يزداد باطراد بين العامة عدد الذين كانت ثرواتهم تعادل ثروات البطارقة ويرفضون حرمانهم حقهم الطبيعي في تولي الوظائف العامة ، ولا سيما أنه برز من بين هؤلاء الأثرياء زعماء أكفاء تولوا قيادة العامة وتنظيم صراعهم مع البطارقة . وأما العامل الآخر ، وكان أفعل أثرا من العامل الأول ، فهو أنه إزاء اتساع نطاق حروب روما وما ترتب على ذلك من تزايد الأعباء الملقاة على عاتق المواطنين الرومان جميعا ، بحيث أصبح العامة يشاركون البطارقة مشاركة كاملة في تحمل هذه الأعباء ، لم يعد في الإمكان الاستمرار في حرمان العامة المساواة السياسية مع البطارقة دون تعريض

صوالح الدولة العليا للمخاطر . وقد كان أعضاء السناتو البطارقة على قدر كاف
من بعد النظر بحيث أنهم كانوا يستجيبون إلى مطالب العامة كلما أحسوا بأن
رفضها قد يؤدي إلى حرب أهلية أو إلى تنفيذ العامة تهديدهم بالهجرة من روما
والامتناع عن الخدمة العسكرية .

وقد رأينا كيف أن اتخاذ الثروة أساسا لتوزيع أعباء الخدمة العسكرية على
المواطنين قد أدى إلى إنشاء جمعية المئينات ، حيث نظم كذلك توزيع الأصوات
على الأساس نفسه . بيد أنه بحكم طريقة توزيع الأصوات ونظام التصويت في
هذه الجمعية وقصر حق اقتراح التشريعات على الحكام وخضوع قرارات هذه
الجمعية لموافقة السناتو قبل أن تكتسب قوة القانون ، لم يكن في وسع العامة تحقيق
مطالبهم عن طريق اشتراكهم في عضوية هذه الجمعية .

وقد زاد في شعور العامة بالإجحاف والظلم عاملان : واحدهما ، هو فوز
البطارقة عادة بنصيب الأسد من الأراضي التي كانت تضم إلى الدولة ، برغم أن
العامة شاركوا البطارقة في الحروب التي تمخض عنها ضم هذه الأراضي . والعامل
الآخر ، هو وضع المدينين من أرباب الأراضي ، ولا سيما أنه قد أسهم إلى
حد كبير في استدانة هؤلاء الأشخاص عبء الضريبة على الممتلكات (tributum)
وهي التي كانت تجبى لسد نفقات الحروب . وكان أهم من ذلك التغيب
عن الأرض لأداء الخدمة العسكرية . إذ يجب أن نتذكر أن القتال كان يقصر
عادة على أفضل فصول السنة ، فكان الجندي المزارع يضطر إلى ترك أرضه
لمن هم أقل منه قدرة على رعايتها ، وكانت العاقبة في أكثر الأحيان وخيمة ،
لأن بوار المحصول كان معناه أن تتهدد الجندي المزارع أشباح الفاقة فلا يجد
مناصا من الاستدانة . وقد كان وضع المدينين سيئا لأن فوائد الديون كانت
مرتفعة ، وعقوبة العاجزين عن سداد ديونهم صارمة . ذلك أنه كان يحق للدائن
الاستيلاء على أرض المدين، وإذا لم تكف للوفاء بالدين الاستيلاء على شخص المدين

واستعباده في خدمته أو بيعه في سوق النخاسة .

وقد أفاض المؤرخون الرومان المتأخرون في وصف الصراع بين العامة والبطارقة ونمقوا هذا الوصف بتفاصيل استعاروها من الصراع الذي وقع بين «الشعبيين» (Populares) و« الأخيار » (Optimates) في القرن الأخير من عهـــد الجمهورية ، وابتدعوا لهذه التفاصيل من التشريعات ما يؤيدها ويضفي عليها طابعا وهميا من الحقيقة . ولم تكن نتيجة الجهود الطائلة التي بذلها الباحثون المحدثون وتمخضت عنها وجهات نظر متعددة في كل جانب تقريبا من جوانب هذا الصراع حل المشاكل التي تكتنفه بل زادتها تعقيدا ، فلا عجب أن جوانب كثيرة من هذا الموضوع المتشعب ما زالت مثار جدل كبير . وإزاء ذلك كله لا يسعنا الا أن نكتفي بعرض المعالم الرئيسية لهذا الصراع ونتائجه على هدي ما نرى أنه أكثر الآراء التي أبديت في هذا الموضوع حتى اليوم حصافة وتمحيصا ، وبأن نشير إلى أن صراع العامة مع البطارقة كان صراعا منظما لم يستهدف تحقيق كل مطالب العامة دفعة واحدة ، وإلى أن تهديد العامة بالهجرة من روما والامتناع عن المشاركة في القتال كان من أهم ما ساعد على تحقيق مطالبهم ، وإلى أن هذه المطالب تحققت على مراحل متتابعة ، وإلى أن تحقيق هذه المطالب لم يؤد في الواقع إلى تحقيق المساواة بين العامة والارستقراطية .

١ — ترابنة العامة (Tribuni plebis) ، **مجلس العامة** (Concilium plebis) ، **جمعية القبائل** (Comitia Tributa) .

عندما طفحت كأس العامة بالتصرفات الجائرة والعقوبات الصارمة التي كانت تصدر عن البطارقة ، جمعوا صفوفهم في عام ٤٩٤ ق . م . وانتخبوا من بينهم نقيبين يسميان « تريبوني العامة» يكون لهما حق الاعتراض (intercessio) على أي إجـــراء أو تصرف يصـــدر عن أي حـــاكم في أثنـــاء ممارسته

سلطته وبسط حمايتهما على كل من ينشدها من العامة نجاة من إجراءات الحكام وتصرفاتهم . وقد استمد تريبونا العامة سلطتهما من اليمين التي أقسمها العامة باعتبار شخصيهمـــا مقدسين لا يجوز مسهمـــا (sacroscant) ، واعتبار كل من يغفل تدخل أي واحد من تريبوني العامة أو يعتدي عليه أنه قد حلت به لعنة الآلهة ويُباح سفك دمه . وبما أن البطارقة لم يتحدوا هذا الإجراء ، فإنه كان أول كسب فاز به العامة مما شجعهم في عام ٤٧١ ق . م . على اتخاذ خطوتين أخريين : كانت إحداهما ، هي تكوين مجلس عرف « بمجلس العامة » (Concilium plebis) . وفي هـــذا المجلس كـــانت الوحـــدة الانتخابية هي القبيلة وليست الكورة ولا المئين . وكانت الخطوة الأخرى ، هي زيادة عدد ترابنة العامة إلى أربعة ، وكان مجلس العامة هو الذي يقوم بانتخابهم سنويا . وينم اسم المجلس الذي كونه العامة وعدد الترابنة وكذلك قصر حق اعتراض الترابنة (intercessio) على نطـــاق لا يشمل إلا مدينة رومـــا واقليما لا يمتد أكثر من ميـــل واحد خـــارج سياج رومـــا المقدس (pomerium) على أن عضوية مجلس العامة كانت مقصورة على عامة القبائل الأربع التي اختُصت بها مدينة روما . ولما كان المجلس الذي شكله العامة لا يضم المواطنين الرومان جميعا ولا يحظى باعتراف البطارقة به رسميا ، فانه لم يعتبر في عداد الجمعيات الشعبية الرسمية (Comitia) ، ومن ثم كان ذلك الاسم المميز الذي عرف به .

وحوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد طرأ من التغير على الأوضاع التي كانت سائدة في روما ما ينم عن وقوع صراع داخلي اضطر البطارقة لحسمه إلى الاستجابة إلى بعض مطالب العامة . وبرغم أن الظروف المحيطة بهذه الأزمة لا تزال غير معروفة لنا ، فإنه من المستبعد أن تكون قد حدثت عندئذ كل التغيرات التي يعزو الكتاب المتأخرون حدوثها إلى هذا الوقت . ويبدو أن أهم ما حدث عندئذ كان يتصل بتريبونية العامة ومجلسهم وسن القوانين ونشرها .

أما عن التريبونية ، فإن عدد ترابنة العامة زيد إلى عشرة ، واعترف بهم

رسميا بوصف كونهم ممثلي العامة وبذلك أصبحوا في عداد أرباب الوظائف العامة الذين يتمتعون بنفوذ (potestas) دون أن تكون لهم سلطة تنفيذية (imperium) . ولم يعد في وسع أحد أن يتحدى تدخلهم دفاعا عن حياة العامة وممتلكاتهم وصوالحهم باستخدام حق الاعتراض على أعمال الحكام ، وعلى أعمال أي زميل من ترابنة العامة ، وعلى الانتخابات والقوانين وقرارات السناتو (senatus consulta) . بل على ما هو معروض أمام السناتو قبل أن يصبح قرارا ، وتنفيذ مشيئتهم بالقوة الجبرية إذا اقتضى الأمر . ولكي يتيسر لترابنة العامة الاعتراض على ما لا يروق لهم مما هو معروض على السناتو أصبح من حقهم حضور جلسات هذا المجلس لمتابعة ما يدور فيها من مناقشات . وحوالي عام ٣٠٠ ق . م . أصبح يحق لترابنة العامة تقديم أي حاكم سابق للمحاكمة أمام جمعية القبائل ، مما جعلهم الحراس على المصلحة العليا للدولة من حيث سوء استخدام الحكام سلطتهم في أثناء توليهم الحكم . ولم يواف عام ٢١٦ ق . م . حتى كان قد أصبح من حق ترابنة العامة دعوة السناتو إلى الاجتماع . وفي خلال القرن الثاني قبل الميلاد أصبح تولي تريبونية العامة مؤهلا كافيا للحصول على عضوية السناتو . ومما يجدر بالملاحظة أن تريبونية العامة التي أنشئت أصلا للدفاع عن صوالح العامة لم تلبث أن أصبحت سلاحا ذا حدين لا يستخدمه العامة فحسب بل خصومهم أيضا باكتساب جانب أحد ترابنة العامة وإغرائه على وقف أي تشريع لا يروق الخصوم بحجة إضراره بالصالح العام ، على نحو ما سنرى فيما بعد .

وأما عن مجلس العامة فإنه فيما يبدو تحول حوالي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد إلى جمعية شعبية رسمية جديدة تسمى جمعية القبائل (Comitia Tributa) كانت تتألف من مواطني القبائل الرومانية جميعا (وكان عدد القبائل الرومانية عندئذ عشرين ثم أخذ يتزايد حتى أصبح خمسا وثلاثين على نحو ما مر بنا) . وكانت الوحدة الانتخابية في هذه الجمعية هي القبيلة مثل

ما كانت في مجلس العامة . ولما لم تكن القبائل إلا وحدات إقليمية يتعين على المواطنين الرومان أن يسجلوا فيها تبعا لمواطن سكنهم أو مواقع ممتلكاتهم ، فلا سبيل إلى الشك في أن البطارقة كانوا أعضاء في جمعية القبائل . وأما ما يرقى اليه الشك فهو مدى وجدوى مشاركتهم في أعمال هذه الجمعية ، لأن عددهم كان ضئيلا جدا بالنسبة إلى عدد العامة ، ولأن صوت الغالبية في كل قبيلة هو الذي كان يعتبر ممثلا لها ، على نحو ما كانت عليه الحال في الكور وفي المئينات . ومع ذلك فإنه في رأي بعض الباحثين أنه كانت توجد في الواقع هيئتان الوحدة الأساسية للتصويت فيهما كانت القبيلة، وأن إحدى هاتين الهيئتين كانت تتألف من العامة فقط دون البطارقة ، ويرأس اجتماعاتها ترابنة العامة، وتعرف بالاسم القديم أي مجلس العامة ؛ وأن الهيئة الأخرى كانت تتألف من العامة والبطارقة على السواء ويرأس اجتماعاتها القناصل أو غيرهم من الحكام المتمتعين بالسلطة التنفيذية ، وتعرف باسم جمعية القبائل . بيد أننا لا نستطيع قبول هذا الرأي ، ذلك أنه من ناحية إزاء اعتبار القبيلة الوحدة الأساسية للتصويت في جمعية القبائل ، واعتبار رأي غالبية كل قبيلة معبرا عن صوتها ، وإزاء تفوق عدد العامة على عدد البطارقة في كل قبيلة تفوقا كاسحا إلى حد أن أكثر الباحثين يشكون في أن البطارقة كانوا يشاركون في أعمال هذه الجمعية ، وازاء حق الترابنة في الاعتراض على أعمال الحكام جميعا وعلى التشريعات كافة ، لم يكن هناك مبرر لوجود هيئة خاصة تقصر عضويتها على العامة دون البطارقة بعد إنشاء جمعية شعبية رسمية للقبائل . ومن ناحية أخرى لا يوجد من القرائن ما يبرر أن انعقاد القبائل برياسة ترابنة العامة وانعقادها برياسة حكام يتمتعون بالسلطة التنفيذية ينمان عن وجود هيئتين مختلفتين. واذا كان هذا الرأي يجد سنداً في فقرتين وردتا في المصادر القديمة ، فأغلب الظن أن هاتين الفقرتين تصوران تفسيرا قانونيا متأخرا أكثر مما تصوران حقيقة واقعية . وعلى كل حال لا جدال في أن اصطلاح « مجلس العامة » ظل مستعملا مدة طويلة في الإشارة إلى جمعية القبائل . ولعل أن يكون مرد ذلك إلى حقيقتين : إحداهما ، هي أن مجلس العامة كان الأصل الذي نمت منه

جمعية القبائل . والحقيقة الأخرى ، هي أن جمعية القبائل ، برغم أن البطارقة كانوا أعضاء فيها ، أصبحت أكبر نصير لحقوق العامة ومصدر أكثر التشريعات التي حققت مكاسبهم .

وفي الأصل كان ترابنة العامة هم الذين يدعون جمعية القبائل إلى الانعقاد ويتولون رياسة اجتماعاتها لانتخاب ترابنة العامة وأيديلس العامة ، وكذلك للتعرف على وجهات نظر العامة في المسائل التي تعنيهم . وهكذا اكتسبت جمعية القبائل اختصاصات تشريعية ، وكانت تصدر قرارات تعرف باسم « قرارات العامة » (plebiscita مـــن الكلمتين اللاتينيتين plebi scitum اللتين معناهما ما أقره العامة) تمييزاً لهذه القرارات عن القوانين (leges جمع lex) التي كانت تصدرها جمعية يرأس اجتماعها حـــاكم يتمتع بالسلطة التنفيذية . وكانت قرارات العامة لا تكتسب قوة القانون إلا اذا أبرمها السناتو بعد ذلك ، مثلها في ذلك مثل قرارات جمعية الكور (Comitia Curiata) وكذلك قرارات جمعية المئينات حتى عام ٣٣٩ ق. م. وبمقتضى قانون بوبليليوس (Lex Publilia) ، وهو الذي أصدرته جمعية المئينـــات في عام ٣٣٩ ق. م. ، تقرر تطبيق قرارات العامة على كافة المواطنين الرومان اذا أبرمها السناتو .

ويبدو أنه في أعقاب ذلك حين أدرك القناصل أنه كان أيسر لهم إصدار التشريعات في جمعية القبائل منه في جمعية المئينات لأن الجمعية الأولى كان يمكن عقدها داخل روما ذاتها على حين أن الجمعية الثانية كانت لا يمكن أن تنعقد إلا خارج سياج روما المقدس ، وفضلا عن ذلك فإن نظام التصويت في الأولى كان أقل تعقيدا منه في الثانية ، أخذ القناصل منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد يستخدمون جمعية القبائل لإصدار ما يتراءى لهم من تشريعات . وفي هذه الحالات كان القناصل هم الذين يرأسون اجتماعات جمعية القبائل . وبالرغم من أن القناصل كانوا يتمتعون بالسلطة التنفيذية ، وبالرغم من أن قرارات

جمعية القبائل كانت عندئذ تسمى قوانين ، فإن هذه القرارات كانت لا تصبح نافذة المفعول إلا إذا أبرمها السناتو ، أي أن شأنها كان شأن قرارات العامة . وقد ظلت الحال هكذا إلى أن ألغي هذا القيد بمقتضى قانون هورتنسيوس (Lex Hortensia) وهو الذي أصدره الدكتـــاتور كوينتوس هورتنسيوس في عام ٢٧٨ ق . م . وحرر القرارات والقوانين التي تصدرها جمعية القبائل من قيد موافقة السناتو عليها .

ومن أهم الاختصاصات التي اكتسبتها جمعية القبائل انها كانت تقوم بدور محكمة عليا في القضايا السياسية وتنتخب الكوايستورس وأيديلس البطارقة فضلا عن انتخاب ايديلس العامة وترابنتهم .

٢ — سن القوانين ونشرها

كان احتكار الطبقة الحاكمة تفسير القوانين وتطبيقها من أهم المظالم الشائعة في الدول القديمة التي كانت توجد فيها جنبا إلى جنب طبقتان إحداهما تتمتع بامتيازات واسعة والأخرى محرومة هذه الامتيازات . ذلك أن القوانين ، ومن بينها القوانين الرومانية ، لم تكن أصلا إلا عادات وتقاليد تتصل اتصالا وثيقا بالديانة وترجع إلى تاريخ قديم جدا بحيث أن فحوى الكثير منها ومغزاه أصبح غير معروف ولا مفهوم لدى سائر الناس . ولما كان البطارقة في بداية عهد الجمهورية لا يحتكرون الوظائف العامة فحسب بل أيضا عضوية الجماعات الدينية ، وتبعا لذلك يحتكرون الإحاطة بالقوانين الرومانية وتفسيرها وتطبيقها ، فإنهم كانوا في مركز ممتاز بالنسبة إلى العامة ، وهم الذين كان يتعذر عليهم معرفة القوانين وتفهمها والتحقق من صحة تفسيرها وتطبيقها . ولما كان المجال متسعا أمام حكام البطارقة لاستخدام سلطتهم القضائية على هواهم ، فإن الأغراض كانت تشوب أحكامهم ، بحيث أنهم كانوا يستحلون أو يستحرمون تارة ما استحرموه أو استحلوه تارة أخرى ما دام ذلك يتفق وصوالح أفراد من طبقتهم .

وإزاء ذلك كان طبيعيا أن يضج العامة ، وأن يكون في مقدمة مطالبهم أن تسن قوانين واضحة جلية ، وأن تنشر تلك القوانين لكي يتسنى للجميع الاطلاع عليها وفهمها وإرغام الحكام على مراعاتها. وبعد لأي لم يسع البطارقة إلا الاستجابة إلى مطلب العامة . ووفقا لما يرويه الكتاب الرومان المتأخرون انتُخب في عام ٤٥٤ ق . م . ثلاثة أشخاص وأوفدوا إلى أثينا لدراسة قوانين سولون ، وبعد غيبة دامت عامين عاد المبعوثون إلى روما وأوصوا بانتخاب لجنة مؤلفة من عشرة أشخاص (Decemviri) لتسن القوانين الرومانية ، وفي عام ٤٥١ ق . م . انتخبت هذه اللجنة لتتولى الحكم بدلا من القنصلين وتقوم بسن القوانين ونشرها ، ولما لم تنته اللجنة من عملها في خلال عام واحد انتخبت لجنة أخرى أتمت سن القوانين وقامت بنشرها .

ويعتقد الباحثون أن هذه الرواية لا تخلو من زخارف ابتدعها الكتاب الرومان المتأخرون . ولعل قصة البعثة التي أوفدت إلى أثينا ليست إلا تفسيرا لتأثر القوانين التي سُنت بالقوانين التي كانت مطبقة في المدن الإغريقية بايطاليا وكان الرومان على اتصال بها منذ أمد طويل . وأغلب الظن أيضا أن لجنة العشرة الأصلية استمرت في عملها إلى أن أتمته ، وأن هذه اللجنة لم تتألف إلا من البطارقة لأنهم هم وحدهم الذين كانوا يلمون بالقوانين الرومانية . وبعد الفراغ من سن القوانين حُفرت على اثنتي عشرة لوحة أقيمت في الفوروم ، ولهذا السبب عرفت باسم قوانين اللوحات الاثنتي عشرة .

ولم يتبق من هذه القوانين إلا مقتطفات متفرقة وإشارات متعددة اليها في كتب المؤرخين المتأخرين . وبفضل ذلك كله يمكن تكوين فكرة عامة عن محتويات هذه القوانين وطابعها . ومجمل هذه الفكرة أن المشرعين انتقوا من الأعراف القديمة المتوارثة بعضها ، وأحلوا مكان البعض الآخر أعرافا أحدث عهدا وأقل تعقيدا ، واستكملوا ما يسد حاجة مجتمعهم بإضافات استمدوها من القوانين

المعمول بها في المدن الإغريقية بإيطاليا ، ثم صاغوا ذلك كله صياغة دقيقة ورتبوه ترتيبا منطقيا ، وبذلك أعطوا روما مجموعة من القوانين المدنية والجنائية والنظم الاجتماعية والإجراءات القانونية . واذا كانت قوانين اللوحات الاثنتي عشرة تتسم بطابع بدائي في كثير من نواحيها ، فإنها تعتبر البذور التي نبت منها القانون المدني الروماني .

وقد كان من أهم ما نصت عليه هذه القوانين أنها أيدت حق المواطنين الرومان في أن يستأنفوا (provocare والاسم provocatio) إلى الجمعية الشعبية أي حكم يصدره أي حاكم أو أية محكمة ، وأنها جعلت الرأي النهائي في الأحكام بالإعدام أو بالنفي من حق أعلى جمعية (Comitiatus maximus) . واستنادا على ما جاء في إحدى مرافعات شيشرون [1] يرى بعض الباحثين أن المقصود بأعلى جمعية هو جمعية المئينات ، ولكنه يثير الشك في هذا التفسير أمران : واحدهما ، هو عدم ورود أي ذكر للمئينات في هذه القوانين ، والآخر هو أن القرائن لا توحي بأن جمعية المئينات كانت قد أنشئت في هذا الوقت . ولعل الأدنى إلى الصحة أن يكون المقصود بأعلى جمعية هو انعقاد جمعية الكور لا برياسة الكاهن الأكبر وإنما برياسة حاكم يتمتع بالسلطة التنفيذية . وعلى كل حال فإن ما اقتضته قوانين اللوحات الاثنتي عشرة في هذا الصدد كان أولى الخطوات التي قيدت سلطة الحكام المطلقة في إصدار الأحكام الشديدة وأمنت المواطنين الرومان على سلامة حياتهم وعلى حقوقهم الدستورية .

بيد أنه من ناحية أخرى استبقت قوانين اللوحات الاثنتي عشرة وضعا شائنا ظلت أشباحه تتهدد حرية المواطن الروماني على مدى قرنين تقريبا ، وذلك باعترافها بحق الدائن في القبض على مدينه وسجنه وبيعه في سوق النخاسة اذا لم يتيسر له الحصول على حقه بوسيلة أخرى .

---

(١) Cic., Pro Sestio, 65.

ومن نقائص هذه القوانين أيضا أنها أعطت سندا قانونيا لرفض البطارقة الاعتراف بشرعية الزواج الذي يعقد بين طرفين أحدهما من العامة والآخر من البطارقة . وحين ضاق العامة بذلك الأمر بسبب ما انطوى عليه من الاعتراف قانونا بأن مركز العامة الاجتماعي أدنى من مركز البطارقة ، أدرك البطارقة أيضا أن ذلك لم يكن في صالحهم ، نظرا إلى أن عددهم كان آخذا في التناقص باطراد بسبب خسائرهم في القتال فقد كانوا في بداية عهد الجمهورية يتحملون العبء الأكبر فيه ، وبسبب قصر زواجهم على طبقتهم وحظر التزاوج من العامة ، مما جعل ذلك ولا سيما في كنف هذه الظروف بمثابة عملية انتحارية . فمن أجل الحفاظ على طبقتهم من الانقراض سريعا كان من الخير لهم زواج أبنائهم وبناتهم من بنات وأبناء أثرياء العامة . وإزاء توافق صوالح العامة والبطارقة في هذا الصدد ، يحدثنا ليفيوس بأنه في عام ٤٤٥ ق . م . صدر قانون (Le Canuleia) يعترف بشرعية التزاوج بين العامة والبطارقة . واذا كان هناك شك حول هذا التاريخ وكذلك حول صدور ما يمكن اعتباره قانونا بأدق معنى الكلمة في هذه المسألة ، فإنه لا شك في أمرين : واحدهما ، هو أنه بطريقة أو بأخرى لم يمض وقت طويل على سن القوانين ونشرها حتى أصبح التزاوج بين العامة والبطارقة مباحا . والأمر الآخر ، هو أن إباحة هذا التزاوج لم يؤد إلى إزالة الحواجز كلية بين الطبقتين ، فقد ظلت طبقة البطارقة طبقة مغلقة إلى حد كبير ولم تسمح بهذا التزاوج إلا على نطاق ضيق .

وبرغم ما اعتور قوانين اللوحات الاثنتي عشرة من مثل هذه النقائص الرجعية ، فإن نشرها أفاد العامة كثيرا ، لأن معرفة القوانين أصبحت مباحة للجميع بعد أن كانت مقصورة على البطارقة . ولا أدل على ترحيب العامة بنشر القوانين من أنهم كانوا يجعلون الصبية يحفظونها ويترنمون بها . ومع ذلك فإن العامة لم يفيدوا الفائدة المرجوة من سن القوانين ونشرها بسبب ما سنبينه فيما بعد .

٣ – السماح للعامة بتولي الوظائف العامة الكبرى

ويتضح مما مر بنا أنه في خلال القرن الخامس قبل الميلاد كان لا يحق للعامة أن يتولوا سوى وظائف الأيديلية والكوايستورية وتريبونية العامة ، وكلها وظائف اذا كانت تكسب شاغليها نفوذا (potestas) فإنها كانت لا تكسبهم التمتع بالسلطة التنفيذية العليا (imperium) ، وبذلك ظل البطارقة يحتكرون الوظائف ذات السلطة التنفيذية العليا ، وتبعا لذلك ظلوا يحتكرون قيادة الجيوش وتصريف العدالة وتوجيه السياسة العامة للدولة . وبرغم استماتة البطارقة في الحفاظ على امتيازاتهم في هذا الصدد طوال القرن الخامس قبل الميلاد ، فإن ظروف الحرب مع فياي اضطرتهم إلى أن يسمحوا للعامة بتولي وظيفة التريبونية ذات السلطة القنصلية . واذا صح ما أوردته القوائم التقليدية ، فإنه يتبين من ذلك أن العامة كانوا يؤلفون غالبية شاغلي هذه الوظيفة الرفيعة في الأعوام ٤٠٠ و ٣٩٩ و ٣٩٦ ق . م . حين كانت هيئة الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية تتألف من ستة أشخاص . ويبدو أنه بعد الانتصار على فياي عاد البطارقة فاستأثروا بشغل هذه الوظيفة لأننا لا نلقى العامة بين شاغليها فيما بين عامي ٣٩٥ و ٣٦٧ ق . م . الا ثلاث مرات كان لهم في اثنتين منها ممثل واحد وفي حالة واحدة فقط (في عام ٣٧٩) ثلاثة ممثلين .

وعندما تقرر في عام ٣٦٧ ق . م . العدول نهائيا عن نظام التريبونية العسكرية ذات السلطة القنصلية والعودة إلى نظام القنصلية اعتبارا من العام التالي ، اعترف رسميا بحق العامة في تولي وظيفة القنصلية وكان أحد قنصلي عام ٣٦٦ ق . م . من العامة ويدعى لوقيوس سكستيوس (Lucius Sextius) . وقد كان هذا القنصل تريبونا للعامة في عام ٣٦٧ ق . م . وكان من بين زملائه في هذا العام تريبون يدعى جايوس ليقينيوس (Gaius Licinius) . وتعزو الروايات القديمة إلى هذين التريبونين استصدار مجموعة من القوانين تعرف باسميهما أي

القوانين الليقينية السكستية (leges Liciniae Sextiae) . وبمقتضى أحد هذه القوانين تقرر أن يكون أحد القنصلين في كل سنة من العامة . وقد احترم هذا القانون فيما بين عامي ٣٦٦ و ٣٥٥ ق . م . ولكنه حدث فيما بين عامي ٣٥٤ و ٣٤٢ ق . م . أن كان القنصلان من البطارقة سبع مرات . غير أنه يبدو أن ذلك لم يتكرر ثانية بعد عام ٣٤٢ ق . م . واذا كان من العسير قبول ما يذهب اليه بعض الباحثين من أنه في عام ٣٤٢ ق . م . صدر قانون يحظر أن يكون القنصلان من البطارقة لكنه يسمح بأن يكونا من العامة ، فإنه على كل حال لم يتول وظيفة القنصلية اثنان من العامة في السنة نفسها قبل عام ١٧٢ ق . م .

وبعد اكتساب العامة حق تولي القنصلية ، لم يعد في الإمكان ولا من المعقول الحيلولة بينهم وبين تولي باقي الوظائف العامة الأخرى ، فقد اكتسبوا حق تولي الدكتاتورية في عام ٣٥٦ ق . م . عندما أسندت هذه الوظيفة إلى محارب ممتاز من العامة يدعى جايوس مارقيوس روتيلوس (Gaius Marcius Rutilus) . وفي عام ٣٥١ ق . م . اكتسبوا حق تولي القنسورية عندما انتخب هذا الرجل نفسه قنسورا . وفي عام ٣٣٧ ق . م . اكتسبوا حق البرايتورية عندما انتخب برايتورا رجل آخر ممتاز من العامة يدعى كوينتوس بوبليليوس فيلو (Quintus Publilius Philo) وهو الذي كان قد تولى الدكتاتورية في عام ٣٣٩ ق. م. واستصدر في جمعية المئينات إبان توليه هذه الوظيفة عددا من القوانين الهامة المعروفة باسمه (leges Publiliae) . وقبل ذلك كان العامة قد اكتسبوا في عام ٣٦٦ ق. م . حق تولي الأيديلية القورولية على أن يتناوبوا مع البطارقة شغل هذه الوظيفة عاما فعاما على نحو ما مر بنا .

بيد أنه مما يجدر بالملاحظة هنا أمران : واحدهما ، هو أن اكتساب العامة حق تولي الوظائف العامة جميعها لم يؤد إلى اندفاع نحو شغلها برجال من العامة ،

فقد كان الناخبون يميلون إلى تفضيل المرشحين الذين لهم أو لأسرهم ماض ممتاز في الحياة العامة ، وذلك بحكم العادة وبسبب الإدراك العام بأن تولي الوظائف العامة يقتضي قدرا كبيرا من الخبرة والمعرفة مما كان لا يتوافر للمواطن العادي. هذا إلى أنه لما لم تكن هناك مرتبات للوظائف العامة ، وكانت مظاهر شغلها والدعاية الانتخابية للفوز بها تتكلف كثيراً ، فإنه كان لا يستطيع التطلع اليها إلا الأثرياء . وقد ساعد على قصر تولي الوظائف العامة على أشخاص ينتمون إلى عدد قليل من الأسر الكبرى أن هذه الأسر كانت بدورها تنتمي إلى عشائر كبرى وأنه كان لهذه الأسر والعشائر ، سواء من البطارقة أم من العامة ، أتباع كثيرون . غير أنه اذا كانت ابواب الوظائف العامة لم تفتح على مصاريعها أمام أي مرشح ، فإن ازالة الحواجز أدى إلى أن يتولاها عدد كبير من الأشخاص الأكفاء الذين كان يتعذر عليهم من قبل توليها . والأمر الآخر هو أن إزالة هذه الحواجز لم يؤد إلى أن يتولى الوظائف العامة أشخاص بارزون من عامة الرومان فحسب بل أيضاً أشخاص ينتمون إلى الأسر الحاكمة في المدن اللاتينية والإيطالية التي ضمت إلى الدولة الرومانية ومنح مواطنوها حقوق المواطنة الرومانية كاملة . وتبعاً لذلك أصبح شاغلو الوظائف العامة الرومانية عند أواسط عهد الجمهورية يمثلون أبرز الكفايات في الدولة الرومانية .

٤ — العامة وعضوية السناتو

وحتى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما آل إلى القنسورس حق اختيار أعضاء السناتو ، كان يمارس هذا الحق الحكام الذين يشغلون أرفع وظائف الدولة الرومانية ، وكانوا في الظروف العادية القناصل وفي المدة من عام ٤٤٤ إلى عام ٣٦٧ ق . م . الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية ، وفي الظروف غير العادية الدكتاتوريين وهيئة العشرة . وحتى عام ٤٠٠ ق . م . أي طوال المدة التي ظل فيها البطارقة يحتكرون تولي هذه الوظائف لم يكن اختيار أحد من العامة عضوا في السناتو الا استثناء نادرا على أحسن تقدير . ولما كان قد أصبح عرفا مقررا منذ عهد بعيد ادراج القناصل السابقين في قائمة أعضاء السناتو ، وكان

التربانة العسكريون ذوو السلطة القنصلية قد خلفوا القناصل لفترة امتدت زهاء ثلاثة أرباع قرن وأصبحوا يدرجون في عداد أعضاء السناتو ، وكان قد سمح للعامة بتولي وظيفة التريبونية ذات السلطة القنصلية منذ عام ٤٠٠ ق . م . فإن العامة أخذوا منذ ذلك الوقت يلجون أبواب السناتو . ومنذ اكتسبوا في عام ٣٦٧ ق . م . حق تولي القنصلية أخذ يزداد باطراد عدد العامة في السناتو ، ذلك أنه بين عامي ٣٦٦ و ٢٦٥ ق . م . تولى القنصلية من العامة تسعون شخصا أصبحوا بعد عام حكمهم أعضاء في السناتو . وقد ساعد على زيادة عدد أعضاء السناتو من العامة عاملان آخران : كان أحدهما هو اكتساب العامة حق تولي الوظائف العامة الأخرى. وكان العامل الآخر هو أنه فيما بين عامي ٣١٨ و ٣١٢ ق. م. استصدر تريبون العامة أوفينيوس (Ovinius) القانون المعروف باسمه [١] (Lex Ovinia) وهو الذي قضى بأن يختار القنسورس أعضاء السناتو من « أفضل المواطنين مهما تكن مرتبتهم » (optimum quemque ex omni ordine) . ويبدو من تطبيق هذا القانون أنه قصد به اختيار أعضاء السناتو من كافة الحكام السابقين ذوي السلوك الطيب ، اذ أن عضوية السناتو لم تعد مقصورة على البطارقة ولا على القنسورس والقناصل السابقين فحسب بل أخذت تمتد تدريجا حتى شملت في خلال الفترة التي نحن بصددها الآن من سبق لهم تولى البرايتورية ، ثم اتسعت في النصف الثاني من عهد الجمهورية لتشمل كذلك البرايتورس الحاليين ومن سبق لهم تولى الأيديلية أو تريبونية العامة أو الكوايستورية . وعلى حين كان أعضاء السناتو من البطارقة يسمون الآباء (patres) كان أعضاء السنـــاتو من العامة يسمون أحيانا المختارين » (adlecti) وعادة «المسجلين» (Conscripti) . وقد ظل هذا التمييز واضحاً في الصيغة التقليدية التي كان يخاطب بها أعضاء السناتو (Patres (et) Conscripti) .

ونتيجة لهذا المزج في السناتو بين البطارقة وأبرز رجال العامة وكذلك أبرز اللاتين والايطاليين أخذ يتغير تكوين الأرستقراطية الرومانية ، مما أدى على مر الزمن إلى تكوين أرستقراطية جديدة تختلف اختلافا كبيرا عن أرستقراطية البطارقة

(١) P. Willems, Le Sénat de la Républ que Romaine, I, pp. 157-168.

القديمة ، على نحو ما سنرى في صدد الحديث عن النصف الثاني لعهد الجمهورية الرومانية . وعلى كل حال فإنه كان من شأن فتح السناتو أبوابه لأبرز رجال العامة واللاتين والإيطاليين تغذيته بعناصر ممتازة ودعم مكانته وازدياد نفوذه . وهكذا لم يؤد الصراع بين البطارقة والعامة إلى إضعاف السناتو وإنما إلى تقويته .

ويتصل بموضوع دخول العامة السناتو ما يُعزى إلى رجل ممتاز من البطارقة يدعى أبيوس قلاوديوس (Appius Claudius) وكان أحد القنسورين اللذين توليا مهام القنسورية في ٣١٢ – ٣١١ ق . م . ويبدو أنه كان أقوى شخصية وأكثر همّة من زميله ، فقد خلد اسمه بعملين جليلين كان أحدهما إنشاء الطريق العام المعروف باسم « طريق أبيوس » (Via Appia) ، وكان الآخر إنشاء أول قناة اصطناعية للمياه [1] (Aqua Appia) . ولما كان قد أصبح من حق القنسورس اختيار أعضاء السناتو ، فإن أبيوس انتهز هذه الفرصة ليدخل السناتو عددا كبيرا من العامة كان من بينهم بعض أبناء « المعتقين » أي الذين كانوا عبيدا وحُرروا وأصبحوا مواطنين رومان ، غير أنه يقال إن القنصلين أغفلا القائمة التي أعدها أبيوس ولم يدعوا إلى اجتماع السناتو إلا الأعضاء الذين كانوا مدرجين في القائمة السابقة .

ويعزى إلى أبيوس قلاوديوس إجراء ديمقراطي آخر يدور الجدل حول صحته ، لكنه في الواقع يتفق واتجاه هذا الرجل المصلح . وبيان ذلك أن المواطنين الرومان كانوا موزعين تبعا لمواطن سكنهم على قبائل حضرية (tribus urbanae) وعلى قبائل ريفية (tribus rusticae) ، وبرغم زيادة عدد سكان روما زيادة كبيرة لم يزد عدد القبائل الحضرية التي كانوا يسجلون فيها على أربع ،

---

(١) لم تكن هذه القناة محمولة على عقود كالتي أنشئت فيما بعد وانما حفرت في باطن الأرض على غرار قنوات الصرف (cuniculi) . راجع
Oxford Class. Dict., S.V. Aqueducts, with Bibliography.

على حين أن عدد القبائل الريفية زيد تبعا لاتساع الإقليم الروماني حتى بلغ سبعا وعشرين في عام ٣١٨ ق . م . وإزاء ذلك كان هناك تفاوت كبير بين عدد المواطنين في كل قبيلة من القبائل الحضرية وعددهم في كل قبيلة من القبائل الريفية . فمن أجل إيجاد قدر من التوازن بين عدد مواطني القبائل المختلفة يعزى إلى أبيوس أنه سمح لسكان روما ممن لم يمتلكوا أرضا ، أي للتجار والعمال ، بأن يسجلوا أنفسهم في أية قبيلة . غير أنه يقال إن قنسوري عام ٣٠٤ ق . م . عادا فقصرا تسجيل عامة روما على قبائلها الحضرية . وبرغم ما مُني به أبيوس قلاوديوس من فشل فإنه استمر مدة طويلة من أبرز الشخصيات في الحياة العامة الرومانية . ومما يستوقف النظر أنه بعد أن تولى القنصلية مرتين في عامي ٣٠٧ و ٢٩٦ ق . م . لم ير غضاضة في تولي البرايتورية في عام ٢٩٥ ق . م .

٥ ـ العامة وعضوية الجماعات الدينية

كان آخر معقل للبطارقة هو عضوية الجماعات الدينية ، وهو المعقل الذي أخذ العامة يقتحمونه منذ حوالي عام ٣٦٨ ق . م . عندما تقرر زيادة عدد أعضاء الجماعة المختصة بجمع النبوءات المقدسة والحفاظ عليها وتفسيرها من اثنين (duoviri sacris faciundis) إلى عشرة (decemviri sacris faciundis) على أن يكون نصفهم من العامة . وفي عام ٣٠٠ ق . م . وصل العامة إلى أهم جماعتين دينيتين عندما قضى قانون أوجولنيوس (lex Ogulnia) بأن يزاد عدد أعضاء جماعة كبار الكهنة (Pontifices) من أربعة إلى ثمانية وعدد أعضاء جماعة العراف (Augures) من خمسة إلى عشرة على أن يكون نصف الأعضاء من العامة في كل من هاتين الجماعتين. وتبعا لذلك لم يعد في وسع البطارقة استغلال الوسائل الدينية في تعطيل نشاط العامة السياسي .

٦ ـ حق استئناف الأحكام الصارمة

كان من أبرز سمات الدستور الروماني الباكر ذلك الحق المخول للحكام

ذوي السلطة التنفيذية (imperium) في إرغام (coercitio) المواطنين الرومان على إطـاعتهم بإصدار أحكـام عليهم كان أشدهـا فرض غرامات كبيرة أو الحكم عليهم بالجلد أو بالنفي أو الإعدام . وقد مر بنا أن قوانين اللوحات الاثنتي عشرة أيدت حق المواطنين في استئناف ما يصدر عليهم من أحكام وجعلت الرأي النهائي في الأحكام بالإعدام أو بالنفي من حق الجمعية الشعبية العليا وهي التي رجحنا أنها كانت جمعية الكور حين انعقادها برياسة أحد الحكام ذوي السلطة التنفيذية ، وأن حق النظر في الاستئناف انتقل إلى جمعية المئينات قبل منتصف القرن الرابع قبل الميلاد . بيد أن الأرستقراطية عمدت فترة من الزمن إلى تعطيل نشاط جمعية المئينات في هذا الصدد بانتهاز أوقات الأزمات لإقناع القنصلين بتعيين دكتاتور مكانهما ، ومن ثم فإن اختصاصاتهما القضائية كانت تؤول إلى الدكتاتور ، وتبعا لذلك كانت الأرستقراطية تتذرع بأن ما جاء في قوانين اللوحات الاثنتي عشرة خاصا بحق استئناف أحكام الحكام لا ينطبق على الأحكام الصادرة من أي حاكم غير عادي مثل الدكتاتور . غير أن ماركوس فالريوس (M. Valerius) ، أحـد قنصلي عـام ٣٠٠ ق . م . ، قضى على هذا التحايل بالقانون الذي أصدره (Lex Valeria de provocatione) وأعطى المواطنين حق استئنـاف جميع الأحكـام التي يصدرها عليهم أي حاكم روماني ومنع أي حاكم روماني من إنزال عقوبة الجلد أو عقوبة الإعدام بأي مواطن قدم استئنافا من الحكم الذي صدر عليه . ولكنه يجب أن يلاحظ أن ممارسة حق الاستئناف كانت مقصورة على الأحكام الصادرة في المنطقة الواقعة داخل سياج روما المقدس (Pomerium) ومن المحتمل أيضـا حتى مسافة ميل واحد خارج هذا السياج ، أي أن ممارسة حق الاستئناف كانت مقصورة على الأحكام الصادرة في داخل منطقة تماثل المنطقة التي كان يحق فيها لترابنة العامة ممارسة حقهم في الاعتراض والتدخل لحماية أرواح المواطنين الرومان وممتلكاتهم . وأما خارج هذه المنطقة فإن سلطة الحكام التنفيذية كانت مطلقة ولا يجوز استئناف الأحكام التي كانوا يصدرونها بمقتضاها ولا اعتراض ترابنة العامة

عليها . ومما يجدر بالملاحظة أن الكتاب المتأخرين يزعمون أنه صدر في عامي ٥٠٩ و ٤٤٩ ق . م . قانونان للاستئناف يسميانهما أيضا قانوني فالريوس ، لكن الباحثين يتفقون على أنه ليس لهذا الزعم سند تاريخي يؤيده .

٧ ـ انتهاء الصراع بين العامة والبطارقة

ساعد على إنهاء الصراع في عام ٢٨٧ ق . م . وقوع أزمة اقتصادية حادة كانت لها نتائج سياسية بعيدة المدى . ذلك أن مشكلة الديون التي كان المزارعون الرومان يرزحون تحت عبئها أخذت تتفاقم في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد تبعا لازدياد تجنيد المزارعين وطول تغيبهم عن مزارعهم . وبلغت الأزمة ذروتها عندما تقرر في عام ٢٨٩ ق . م . ضرورة استخدام « العملة » في كافة أنواع التعامل بدلا من المقايضة وهي التي كانت شائعة مألوفة حتى هذا الوقت ، إذ أنه لم يترتب على استخدام « العملة » اضطراب شديد في التعامل فحسب ، بل أيضا تيسير عقد القروض واحتساب فوائد مرتفعة عليها . وعلى كل حال فإنه في أعقاب الحروب السمنية تعالت أصوات العامة مطالبة بتصحيح أوضاع المدينين ، ولكن السناتو بوصف كونه ممثلا وراعيا لصوالح الدائنين رفض مرارا الموافقة على التشريعات التي أقرتها جمعية القبائل لتحسين حال المدينين . وإزاء عناد السناتو أقدم العامة على خطوة جريئة في عام ٢٨٧ ق . م . بأنهم هاجروا إلى تل يانيقولوس عبر التيبر وهددوا بالانفصال عن الدولة الرومانية . ويبدو أن ما أقدم عليه العامة عندئذ هو الذي أوحى إلى الكتاب المتأخرين بالقول بأن العامة لجأوا إلى استخدام هذا السلاح مرتين قبل ذلك ، إحداهما في عام ٤٩٥ والأخرى في عام ٤٤٩ ق . م . بيد أن الباحثين يميلون إلى اعتبار ذلك مثلا آخر من الأمثلة التي اتخذ فيها الكتاب المتأخرون مما حدث في بعض المناسبات قياسا لافتراضهم وقوع أحداث مماثلة في مناسبات سابقة مماثلة . وعلى كل حال فإنه إزاء الأزمة التي نشأت من جراء ما هدد به العامة في عام

٢٨٧ ق . م . لم يجد السناتو مناصا من أن يلين فأقيم من العامة دكتاتور يدعى كوينتوس هورتنسيوس (Quintus Hortensius) لفض الأشكال . وقد نجح هورتنسيوس في تخفيف ضائقة المدينين وإن كنا لا نعرف على وجه اليقين كيفية حله هذه المشكلة . وبعد ذلك استصدر القانون المعروف باسمه (Lex Hortensia) وهو الذي قضى بأن تصبح منذ ذلك الوقت كل القرارات التي تصدرها جمعية القبائل قوانين سارية المفعول دون أن تسبقها أو تعقبها موافقة السناتو عليها .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لقانون هورتنسيوس الذي حرر جمعية القبائل من كل قيد على حرية حقها في التشريع أنها أصبحت تدريجا الجمعية التشريعية الرئيسية على حين أن جمعية المئينات اصبحت الجمعية الانتخابية العليا فهي التي كانت تنتخب أعلى الحكام مرتبة أي القناصل والقنسورس والبرايتورس ، وكان يتعين دائماً ألا يدعو جمعية المئينات إلى الانعقاد ويرأس اجتماعاتها إلا حاكم يتمتع بالسلطة التنفيذية . وأما جمعية القبائل فإنه من أجل إصدار التشريعات كان يستطيع دعوتها إلى الانعقاد إما حاكم يتمتع بالسلطة التنفيذية وإما أحد ترابنة العامة ، ولكنه من أجل انتخاب ترابنة وأيديلس العامة كان يتعين أن يدعوها إلى الانعقاد أحد ترابنة العامة ، على حين أنه من أجل انتخاب الكوايستورس والأيديلس قورولس ، وفيما بعد الترابنة العسكريين الأربعة والعشرين ، كان يجب أن يدعوها إلى الانعقاد حاكم يتمتع بالسلطة التنفيذية .

ويجب ألا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى أنه اذا كانت جمعيتا المئينات والقبائل تتألفان من جميع المواطنين الرومان ، فإنهما كانتا تختلفان إحداهما عن الأخرى من حيث توزيع المواطنين إلى وحدات انتخابية مما أدى إلى جعل جمعية المئينات تحت سيطرة أكثر فئات المواطنين ثراء وجمعية القبائل تحت سيطرة أكثر فئات المواطنين عددا ، وتبعا لذلك أكثر اتساماً بالديمقراطية .

* * *

وإذا استبعدنا من تاريخ هذا الصراع مبالغات الروايات التقليدية وتنميقات الكتاب المتأخرين . فإنه يبرز بجلاء من بين ثنايا هذا الصراع مدى اتزان الرومان الأوائل وحكمتهم في الشئون السياسية . ذلك أنه برغم ما تخلل هذا الصراع من خلافات شديدة في الرأي بل يبدو أنها لم تقف دائما عند حد المشادات الكلامية بل أفضت أحيانا إلى وقوع اضطرابات ، فإن الفريقين لم يترددا مرة بعد أخرى في دفن خلافاتهما وجمع شملهما والوقوف صفا واحدا في وجه عدو يتهدد سلامة الوطن . وكثيرا ما حدث أن امتنع الفريقان عن الاشتباك في حرب أهلية مفضلين على ذلك تسوية خلافاتهما بالوصول إلى حلول وسط . وإذا كان العامة قد أظهروا قدرا كبيرا من الصبر على المكاره ومن القدرة على التنظيم ، فإن البطارقة من ناحيتهم قبلوا أكثر مطالب العامة تدريجا بدافع من الميل إلى الروية والأناة والتطور وئيداً خطوة فخطوة . واذا ما قورن الصراع بين العامة والبطارقة بضروب الصراع المدمرة العنيفة التي وقعت بين العامة والأرستقراطية في المدن الإغريقية أو بالصراع الدموي الذي وقع في القرن الأخير من الجمهورية في روما ، بدا على الفور أن الصراع بين العامة والبطارقة كان نموذجا للوحدة الوطنية وحسن الكياسة والصبر على المكاره ، وأن انتصارات العامة أتت تباعا نتيجة لحلقات متتالية من الاتفاق بين العامة والبطارقة .

ويتبين من العرض السابق أنه قبل أن ينتهي عام ٢٨٧ ق . م . كان الصراع قد انتهى وكانت الخلافات قد سويت بسلسلة من التشريعات أفضت إلى إيجاد جهاز مزدوج لأنظمة الحكم في الدولة الرومانية . ذلك أن تريبونية العامة وجمعية القبائل ، وهما اللتان أنشئتا أصلا للدفاع عن صوالح العامة ثم منحتا سلطات هائلة ، أصبحتا جزءا من التنظيم الحكومي جنبا إلى جنب الوظائف العامة وجمعية الكور وجمعية المئينات ، وهي التي كانت جميعا منذ إنشائها أدوات لتصريف شئون المواطنين جميعا وتسيير دفة الحكم . وقد كان من شأن هذا الازدواج عدم استقرار نظام الحكم لو أن كلا من الفريقين عمل على

استخدام كافة السلطات المخولة له من أجل خدمة صوالح طبقته . وكذلك كان من شأن ما منح للعامة من حقوق ولترابنة العامة من سلطات ولجمعية القبائل من اختصاصات أن يتسم الدستور الروماني بطابع ديمقراطي .

وقد ساعد على استقرار نظام الحكم ما حدث من تآلف بين البطارقة وأبرز أسر العامة . ولما كان ترابنة العامة يُنتخبون عادة من بين صفوف هذه الأسر ، فإنهم لم يكونوا عادة لا هم ولا جمعية القبائل أدوات معوقة لأجهزة الحكم الأخرى أو أسلحة مسلطة على رقاب الأرستقراطية . ولا أدل على ذلك من أن ترابنة العامة كانوا عادة يستطلعون رأي السناتو قبل استخدام حقهم في الاعتراض ، أو حقهم في استصدار قوانين من جمعية القبائل ، أو حقهم في تقديم حاكم سابق للمحاكمة . وبفضل ما اتسم به الرومان الأوائل من حكمة واتزان ظلوا لمدة طويلة يغلبون المصلحة العامة عادة على أكثر الاعتبارات الأخرى . فلا عجب أن الرومان بعد تسوية خلافاتهم على نحو ما أسلفنا تمكنوا من أن يكرسوا جميعا جهودهم للأعباء العسكرية الضخمة التي واجهتهم بعد ذلك .

بقيت ملاحظة أخيرة ، وهي أنه قد ترتب على شدة ميل الرومان جميعا إلى الحفاظ على تقاليدهم قدر الطاقة أمران مهمان : واحدهما ، هو أنه برغم ما كسبه العامة من حقوق كفلت لهم المساواة قانونا مع البطارقة ، فإن هذه المساواة كانت شكلية أكثر منها حقيقية . ولا أدل على ذلك من أنه بعد اكتساب العامة حق تولي الوظائف العامة جميعا لم يحدث اندفاع نحو شغلها برجال من العامة ، بل ظل الناخبون يميلون إلى تفضيل المرشحين الذين لهم أو لأسرهم ماض ممتاز في الحياة العامة .

والأمر الآخر ، هو أنه برغم ما مُنح للعامة من حقوق وما اتسمت به تريبونية العامة وجمعية القبائل من طابع ديمقراطي لم يصبح نظام الحكم الروماني نظاما ديمقراطيا بمعنى الكلمة وإنما ظل في الواقع نظاما ارستقراطيا . وقد كان مرد ذلك

إلى عاملين رئيسيين : واحدهما ، هو ما حدث من تآلف بين البطارقة وأبرز أسر العامة مما يسر للطبقة الحاكمة الجديدة تنفيذ مشيئتها والحفاظ على مقاليد الأمور في قبضتها . والعامل الآخر ، هو أنه برغم كل التطورات التي حدثت في أثناء الصراع بين العامة والبطارقة احتفظ الرومان في كل جمعياتهم الشعبية بنظام الاقتراع وحدات لا أفرادا . فهذا النظام الذي بُدىء باتباعه في جمعية الكور ، حيث كان رأي غالبية كل كورة يعتبر صوتا واحدا ممثلا لرأي هذه الكورة ، احتفظ به في جمعية المئينات حيث كان رأي غالبية كل مئين يعتبر صوتا واحدا ممثلا لرأي هذا المئين ، كما احتفظ به كذلك في جمعية القبائل ، حيث كان رأي غالبية كل قبيلة يعتبر صوتا واحدا ممثلا لرأي هذه القبيلة وإزاء عدم التساوي سواء بين الكور أم بين القبائل أم حتى على مضي الزمن بين المئينات ليس فقط من حيث عدد أفراد كل وحدة من هذه الوحدات ، بل أيضا من حيث نسبة الموافقة أو عدم الموافقة في كل وحدة ، كان من الممكن أن يؤدي الاقتراع وفقا لهذا النظام ، على الأقل في بعض الأحيان ، إلى نتائج مختلفة عن النتائج التي يؤدي اليها الاقتراع لو أن أصوات الأفراد وليست أصوات الوحدات هي التي كانت تُحتسب . وتوضيحا لذلك نضرب مثلا بجمعية القبائل وهي التي كانت أكثر الجمعيات الرومانية اتساما بالديمقراطية . ونفترض في هذا المثل أن عدد أفراد كل قبيلة كانوا ألفا وأن عدد القبائل كان إحدى وعشرين ، وأن إحدى عشرة قبيلة وافقت على تشريع أو على انتخاب مرشح بالأغلبية المطلقة في كل منها ، أي بموافقة ٥٠١ × ١١ = ٥٥١١ ، ضد ٤٩٩ × ١١ = ٥٤٨٩ ، وأن عشر قبائل رفضت الموافقة على التشريع أو على انتخاب المرشح بأغلبية كاملة ، أي ١٠٠٠ × ١٠ = ١٠,٠٠٠ . واذا أضيفت إلى هذه الأصوات أصوات غير الموافقين (٥٤٨٩) من القبائل الأحدى عشرة التي وافقت يكون مجموع أصوات الأفراد غير الموافقين هو ١٥,٤٨٩ ومجموع أصوات الأفراد الموافقين هو ٥٥١١ ، ومع ذلك فإنه كانت تتم الموافقة على التشريع أو على انتخاب المرشح ، لأن أغلبية القبائل ذاتها وافقت . ولا شك في ان هذا مثل

متطرف من حيث عدد أصوات الموافقين وغير الموافقين ، ولكنه ليس من الإسراف في الرأي القول بأنه كان من الجائز جدا أن أصوات القبائل بوصف كونها وحدات انتخابية لا تعبر عن الغالبية الحقيقية لأصوات الأفراد ، ولا سيما عندما لم تعد متكافئة ليس فقط من حيث عدد أفراد كل منها بل أيضا من حيث عدد من كانوا يحضرون من كل قبيلة اجتماعات جمعية القبائل . وهذا ينطبق كذلك على جمعيتي الكور والمئينات . وفي كنف هذا النظام الخاص بالإقتراع لم يكن ميسورا أن يصبح نظام الحكم الروماني ديمقراطيا حتى اذا لم يحدث ما أشرنا اليه من تآلف بين البطارقة وأبرز أسر العامة . ومن المعروف أن نظام الاقتراع الفردي الذي كان متبعا في الجمعيات الشعبية الإغريقية قد ساعد على نمو الديمقراطية في المدن الإغريقية وبخاصة في أثينا .

وعلى كل حال يبدو أن العامة بعد أن تكلل كفاحهم بالنصر الذي أحرزوه في عام ٢٨٧ ق . م . وكفل لهم المساواة في الحقوق مع البطارقة لم يعودوا تلك القوة الدافعة في الحياة السياسية الرومانية، وإنما قنعوا بإقرار المساواة وتركوا شئون الحكم للأرستقراطية الجديدة التي نجمت عن تآلف البطارقة وأبرز أسر العامة . وسنرى كيف أن مجرى الحوادث قد أسهم في ذلك .

الفصل الثامن

المجتمع الروماني في النصف الأول من عهد الجمهورية[١]

أولا — الحياة الأقتصادية

١ — الزراعة

لم يصحب التطور المطرد في مكانة روما وأهميتها حتى غدت العاصمة السياسية لشبه الجزيرة الإيطالية تطور مقابل في حياتها الاقتصادية ، فقد ظل الرومان على مدى قرنين ونصف قرن منذ إنشاء الجمهورية شعبا زراعيا قبل كل

---

(١) المصادر :

راجع مصادر الفصل السابع

(٢) المراجع :

W.W. Fowler, Rome, Ch. III; W.E. Heitland, op. eit., Vol. I, Chs. VI and XX; and Agricola, A Study of Agriculture and Rustic Life in Graeco-Roman World from the Standpoint of Labour, 1921, Chs. XX, XXI; T. Frank, History of Rome, 1966, Chs. III-V; and Economic Survey of Ancient Rome, 1933, Vol. I, Introd. and Ch. I; J.G. Milne, The Development of Roman Coinage, 1937, pp. 1-10; H. Mattingly, The First Age of Roman Coinage, J.R.S., 1946; H.I. Marrou, History of Education in Antiquity (Trans.) 1958; J.B. Carter, The Religion of Numa, 1906;and Religious Life of Ancient Rome, 1911, Ch. I; W.W. Fowler, Roman Festivals, 1899; and Religious Experience of the Roman People, 1911, Chs. I-III; T.R. Halliday, Roman Religion, 1922; C. Bailey, Phases in the Religion of Ancient Rome, 1932, Chs. I-V; H. J. Rose, Primitive Culture, Chs. III-XI; Handbook of Latin Literature, ed. 2. 1950; E. Pulgram, The Tongues of Italy, 1958; J. Wight Duff, A Literary History of Rome from the Origins to the Close of the Golden Age, 1953, pp. 118 ff.; Cambridge =

شيء ، لأن انهماكهم في الحروب والفتوحات لم يدع لقدراتهم الكامنة فيهم فرص استغلالها في نواح أخرى . وقد أسهم في استمرار الزراعة قوام حياة الرومان الإقتصادية في خلال هذه الفترة ما سبق أن أوردناه في معرض الحديث عن حروبهم من أنه قد صاحب نجاحهم في هذه الحروب اتساع نطاق الإقليم الروماني (ager Romanus) وتبعا لذلك اتساع مساحة الأرض العامة (ager publicus) التي تملكها الدولة الرومانية .

وحتى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد كانت العادة المألوفة هي تأجير الأرض العامة ، وكان البطارقة بحكم نفوذهم وثرائهم وأنانيتهم يحتكرون ذلك اويعتبرون مـــا يستأجرونه في حيـــازتهم (Possessio) . واذ ضيقت الأزمـــة الاقتصادية الخناق على العامة بسبب ازدياد عددهم وطول استغلال إقليم لاتيوم إلى حد أنهك تربة أرضه وكذلك بسبب كثرة التغيب وطول الانقطاع عن رعاية الأرض لأداء الخدمة العسكرية ، وفي الوقت نفسه أفضت الحروب إلى اتساع رقعة الإقليم الروماني ، تقرر أمران : واحدهما ، هو أن تُقام في الأماكن الاستراتيجية مستعمرات عسكرية بعضها رومانية وبعضها لاتينية . وفي هذه المستعمرات كانت تقام حصون ويعهد إلى المواطنين الرومان أو اللاتين بالدفاع عن هذه المستعمرات وتخصص لهؤلاء المواطنين جملةً في كل مستعمرة مساحة كبيرة من الأرض العامة لاستغلالها . والأمر الآخر ، هو أن يوزع جانب من الأرض الصالحة للزراعة في مختلف أرجاء الإقليم الروماني على المواطنين الرومان وكذلك على اللاتين الراغبين في الاستقرار في تلك الجهات لتكوين مستعمرات

= Ancient History, Vol. VIII, Ch. XIV, §§1-7; M. Cary, op. cit., Chs. VIII, X, XI; A.E.R. Boak, Ch. VII; H.H. Scullard, op. cit., chs. XVI-XVIII. M. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Roman Empire, Ch. I; E. Strong, Art in Ancient Rome, 2 vols., 1929; and in Cambridge Ancient History, vol. IX, ch. XX.

مدنية هناك ، وأن تكون هذه الأرض ملكا حراً لأربابها فرادى . وتسمى طريقة التصرف في الأرض العامة على هذا النحو بطريقة التقسيم (divisio) . وقد تبع إنشاء المستعمرات المدنية والعسكرية زيادة عدد أرباب الأراضي ، ويقدر أنه فيما بين عامي ٣٤٣ و ٢٦٤ ق . م . وصل عددهم إلى ٦٠,٠٠٠ . وقد كان لإنشاء هذه المستعمرات جميعا ميزة أخرى من وجهة نظر البطارقة وهي إبعاد أكثر عناصر العامة ميلا إلى الشغب عن روما فيخلو لهم الجو للتمتع بالسلطة فيها .

وأما الفائض عن الحاجة من الأراضي الصالحة للزراعة – ويرجح أنه كان الجانب الأكبر من هذه الأراضي – وكذلك أراضي المراعي والغابات ، فإنها كانت تؤجر وكان البطارقة يفوزون بنصيب الأسد منها ويضعونها في حيازتهم مع احتفاظ الدولة بحق ملكية هذه الأراضي . وإذ هال العامة طغيان البطارقة في هذا المجال أيضا ، استصدر تريبونا العامة ليقينيوس وسكستوس في عام ٣٦٧ ق . م . قانونا يقضي بألا يكون في حيازة أي مواطن (possessor) مستقبلا ما يزيد على ٥٠٠ يوجرا ، وبألا يمتلك أكثر من ١٠٠ رأس من الماشية أو ٥٠٠ رأس من الأغنام . واذا جاز أن تكون الروايات القديمة قد بالغت في الأرقام التي عتبرها هذا القانون حداً أعلى لمساحة الأرض أو عدد الماشية والأغنام لعدم تناسب هذه الأرقام مع اتساع الأقليم الروماني وثروة الرأسماليين الزراعيين الرومان في عام ٣٦٧ ق . م . ، فإنه لا يوجد مبرر لما يذهب اليه بعض الباحثين من الشك في صدور مثل هذا القانون في هذا الوقت .

٢ – مشكلة الديون

وعلى كل حال فإنه فيما يخص الفترة التي نحن بصددها أدى إنشاء المستعمرات المدنية والعسكرية إلى تفريج كرب العامة تدريجا وكانت حال المزارعين بوجه عام لا بأس بها . وقد ساعد على ذلك المحاولات المتكررة التي بُذلت لمعالجة

مشكلة الديون ، وكانت أولى هذه المحاولات على الأرجح في عام ٣٦٧ ق . م . عندما استصدر ليقينوس وسكستوس أيضا قانونا يقضي بخصم الفوائد السابق سدادها مما تبقى على المدينين وبأنه اذا تبقى عليهم شيء بعد ذلك فإنه يتعين سداده في خلال ثلاث سنوات . والحجج التي أدلى بها بعض الباحثين لإثارة الشك في صدور هذا القانون أضعف من أن تحقق الهدف المنشود . وعلى كل حال فإن هذا القانون لم يكن إلا دواء مسكناً عالج أعراض الداء علاجا مؤقتا دون أن يعالج الداء نفسه وهو ارتفاع معدل الفائدة على القروض . ولا أدل على ذلك من أنه لتخفيف العبء على المدينين ووضع حد لجشع الدائنين تقرر في عام ٣٥٧ ق . م . تحديد معدل الفائدة بمقدار $\frac{1}{12}$ من الدين أي بنسبة $8\frac{1}{3}$٪ . واذا صح ما يرويه المؤرخ الروماني تاقيتوس [1] من أن قوانين اللوحات الاثنتي عشرة كانت تتضمن مثل هذا القانون ، فإن شطط المرابين وإغفالهم مراعاة أحكام هذا القانون أديا إلى إحيائه . وفي عام ٣٥٢ ق . م . أنشأ القنصلان هيئة خماسية خُول لها تقديم القروض من الأموال العامة لقاء رهونات مناسبة وتسوية ديون المعسرين بإشهار إفلاسهم . وفي عام ٣٤٧ ق . م . تقرر خفض سعر الفائدة إلى ٥٪ وأُمهل المدينون ثلاث سنوات لتسديد ديونهم . وإذا صح ما يُقال من أنه في عام ٣٤٢ ق . م . حُظر إعطاء قروض بفوائد ، فإنه فيما يبدو لم يُعمل بهذا الحظر طويلا . وعلى كل حال فإنه عندما قضى قانون بويتليوس (Lex Poetelia) في عام ٣٢٦ [2] أو ٣١٣ [3] ق . م. بضرورة قبول أية ممتلكات يقدمها المدين وفاء لدينه وبعدم جواز الاستيلاء على شخص المدين إلا بحكم صادر من محكمة قضائية ترتب على ذلك القضاء على عادة رهن شخص المدين واستعباد المواطنين . وعندما تجددت أزمة المدينين على نحو خطير في صدر القرن الثالث قبل الميلاد مما أفضى إلى إقامة كوينتوس هورتنسيوس

---

(١) Tacit., VI, 16, 3.

(٢) Liv., VIII, 28.

(٣) Varro, VII, 105.

دكتاتورا في عام ٢٨٧ ق . م . تولى معالجة هذه الأزمة ، لكننا لا نعرف كيفية معالجتها .

٣ ـ الحرف والتجارة

ويتبين مما عرضناه أنه بسبب انهماك المواطنين الرومان في خوض غمار الحروب وفي استثمار الأرض التي غنموها بالفتح كانت غالبيتهم العظمى مزارعين ورأسماليين زراعيين . وقد أسهم في ذلك إيمان الرومان بأن المشاركة في حروب الوطن كانت الواجب الأول على كل روماني نحو وطنه ، وبأن مزاولة التجارة أو الحرف المختلفة كانت لا يمكن أن تعد المواطن لتحمل وعثاء الحرب مثل ما تعده ممارسة الزراعة ، ولذلك فإن التجار وأرباب الحرف كانوا لا يستدعون للخدمة العسكرية إلا في أوقات الضرورة القصوى وإن جرت العادة باستخدامهم في السفن الحربية . ونستطيع أن نتصور أن الخدمة في البحر كانت في هذا الوقت محدودة لأن الأسطول الروماني كان لا يزال عندئذ صغيرا .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لما مر بنا هي أن الرومان كانوا يعتبرون مزاولة التجارة أو الحرف أدنى شرفا وأقل مواءمة للمواطن الروماني من مزاولة الزراعة . ولا أدل على ذلك من أن الكتاب الرومان المتأخرين كانوا يعتبرون نموذجا للمواطن الروماني الباكر كوينقتيوس قينقيناّتوس (Quincitius Cincinnatus) ، وهو الذي يقال إنه عندما حاصر الأيكوي جيشا رومانيـــا بقيادة القنصـــل مينوقيوس في عام ٤٥٨ ق . م . عند جبـــل الجيدوس ، استدعي من وراء محراثه ليتولى الدكتاتورية وينجد مينوقيوس ، وإنه ما ان هزم الأيكوي وأنقذ مينوقيوس حتى استقال من الدكتاتورية وعاد جذلا متهللا إلى مزرعته . فلا عجب إذن أنه من بين المواطنين الرومان جميعا لم يكن يمارس التجارة إلا بعض العامة فقط ، ولا يزاول الحرف المختلفة إلا أدنى فئات عامة مدينة روما . وكان يسهم في هذين

المجالين نزلاء هذه المدينة من اللاتين والإيطاليين والإغريق ، وهم الذين جذبتهم إلى روما أهمية مكانتها وكذلك تشجيع الحكومة من أجل سد حاجاتها الملحة . ويجب أن نأخذ هنا في الاعتبار مسألة لها أهميتها وهي أن الرومان كانوا لا يزالون يحيون حياة تتسم بالبساطة والتقشف وتبعا لذلك كانت مطالب حياتهم محدودة . ولم يكن من شأن ذلك كله أن يدفع قُدماً من كل تلك الصناعات التي بدأت تنمو في عهد الملكية إلا فيما يبدو المتصلة منها بمعدات القتال . ومع ذلك فإن القرائن توحي بأن الإنتاج الداخلي كان ضئيلا لا يفي بسد حاجة السوق المحلية . فقد كانت سفن الفينيقيين والإتروسقيين والإغريق تأتي إلى إيطاليا محملة بما يسد حاجاتها من الخارج .

ومما يجدر بالملاحظة أنه إذا كان ما فعله أبيوس قلاوديوس في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد — وهو : ١ — قيامه بمد قناة المياه التي أنشأها حتى حي العمال و ٢ — سماحه لعامة روما بتسجيل أنفسهم في أية قبيلة يشاءون بدلا من قصر تسجيلهم على القبائل الأربع الحضرية — يوحي بازدياد عدد الطبقة العاملة في خلال القرن الرابع قبل الميلاد ، فإن التوسع المطرد في إنشاء المستعمرات المدنية والسعكرية استوعب الكثيرين من فقراء الرومان ، مزارعين وعمالاً ، وهم الذين كان يمكن أن يمدوا الصناعة بالأيدي العاملة الزهيدة الأجر .

والواقع أنه كان من شأن ما حدث في خلال فترة بسط سيطرة روما على شبه الجزيرة الإيطالية أن تستمر فلاحة الأرض وتربية الحيوان قوام حياة الرومان الاقتصادية ليس في خلال هذه الفترة فحسب بل أيضا طوال العصور القديمة . ولعل أهم ما طرأ على الزراعة في خلال الفترة التي نحن بصددها كان إدخال نوع جديد من القمح (frumentum) استقدم من الخارج . ولما كان هذا النوع أفضل من النوع القديم (Far) وأصلح لصناعة الخبز ، فإن الرومان أقبلوا على زراعته تدريجا وأصبح المحصول الرئيسي إلى جانب أنواع أخرى من

الحبوب والبقول والخضروات مثل العدس والفاصوليا والبازلاء والبصل والثوم والكرات والكرنب والقرع العسلي . وفضلا عن ذلك فقد انتشر عندئذ غرس أشجار الكروم والتين والزيتون ومختلف أنواع النُّقل . وأما إدخال فلاحة أنواع متعددة من البقول والفاكهة المعروفة في جهات أخرى من العالم ، فإنه لم يأت إلا على مراحل بعد الفترة التي نحن بصددها الآن . وكانت أنواع الحيوان الرئيسية هي الثيران والأبقار والحمير والأغنام والماعز والخنازير وكذلك الدجاج والأوز . وبطبيعة الحال صاحب اتساع نطاق الإقليم الروماني وما شمله من مراع تنشيط تربية الحيوان وازدياد عدده . وكانت الأغنام تربى أساسا من أجل ألبانها وأصوافها . والأبقار من أجل ألبانها والإكثار منها ، والثيران والحمير لاستخدامها في الحرث والنقل . وكان لحم الخنزير يحتل مكانة كبيرة عند الرومان ، ولذلك فإنهم كانوا يقددونه لاستخدامه متى شاءوا . ولما كان عسل النحل يستخدم حيث نستخدم السكر اليوم ، فإنه لا يبعد أن يكون ازدياد عدد السكان وما ترتب على ذلك من ازدياد الحاجة إلى العسل قد استتبع إما ازدياد الإهتمام بتربية النحل وإما ازدياد استيراد العسل من الخارج .

وحين أخذت روما ترقى معارج المجد حتى أصبحت العاصمة السياسية لشبه الجزيرة الإيطالية تخلفت كثيرا من حيث الثروة وراء عدد من المدن التابعة لها . ذلك أن التقدم الإقتصادي الذي أحرزته ايطاليا في هذه الفترة يُعزى الفضل الأكبر فيه إلى إغريق جنوب شبه الجزيرة ، وإلى تلاميذهم النابهين من الإيطاليين النازلين في قمبانيا وأبوليا ، وكذلك إلى المدن الاتروسقية . فقد غدت قابوا مركزا رئيسيا للمصنوعات البرونزية ، وأخذ صناع الفخار في قمبانيا وأبوليا في خلال القرن الرابع قبل الميلاد يقلدون الآنية الأتيقية المصبوغة بالألوان ، واحتفظت المدن الاتروسقية ببراعتها في صناعتي المعادن والفخار وكانت مصنوعاتها تلقى سوقا رائجة في روما ، مما يؤكد شدة الحاجة إلى مثل هذه السلع وعدم كفاية الإنتاج المحلي . وأما في لاتيوم ذاتها ، فإن برانستي تقدمت تقدما محسوسا في صياغة

وزخرفة الأدوات الذهبية والفضية ، وينهض دليلا على ذلك ما عُثر عليه من صناديق الحلي والمرايا .

وفي مجال التجارة كانت تارنتم أهم مركز تجاري في شبه الجزيرة الإيطالية بأجمعها . وأما عن المدن الإغريقية التي كانت تزود روما باحتياجاتها من الخارج ، فإنه إذا كانت قوماي لم يعد لها شأن يذكر في هذا الصدد ، وكانت أهمية سراقوسة قد اضمحلت بعد منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، فإن ماسيليا دعمت علاقاتها مع روما ويحتمل أنها أصبحت أكبر مورد لها . وإن الآنية الأغريقية التي ترجع إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد وعثر عليها في المقابر الرومانية لتدل بقلتها القليلة على أن حياة التقشف — وهي التي فرضتها أعباء الحرب على الرومان وأملاها ميلهم إلى البساطة — اقتضت قصر الواردات على ضرورات الحياة مثل القمح في السنوات العجاف . ولعله يعزى إلى ذلك إدخال ذلك النوع الجديد من القمح الذي سبقت الإشارة إليه .

وخير دليل على عدم مبالاة الرومان بشئون التجارة الخارجية في النصف الأول من عهد الجمهورية المعاهدتان اللتان عقدتهما روما مع قرطجنة [1] وبمقتضاهما أمنت روما سلامة لاتيوم من الإحتلال الأجنبي ولكنها اعترفت لقرطجنة باحتكار التجارة في غرب البحر المتوسط . ذلك أنه بمقتضى شروط المعاهدة الأولى حظر على القرطجنيين الإضرار بمواطني لاتيوم والاستيلاء على أي جزء من هذا الإقليم وإقامة أي حصون فيه، ولكنه أبيح للتجار القرطجنيين دخول إقليم روما وأقاليم حلفائها اللاتين دون أي قيد أو شرط ، على حين أنه لم تعط حقوق مماثلة لتجار الرومان وحلفائهم في امبراطورية قرطجنة ، فقد كانت الموانىء القرطجنية الوحيدة التي يباح دخولها للرومان وحلفائهم وغيرهم من التجار هي موانىء صقلية ،

---

(١) A. Aymard, Les deux prémiers traités entre Rome et Carthage, Rev. Et. Anc., 1957, LIX, pp. 277-293; Etudes d'histoire ancienne, 1967, pp. 373 ff.

وحظر على الرومان وحلفائهم الإبحار غربا وراء نقطة معينة إلا إذا اضطرتهم إلى ذلك ظروف الطقس أو الحروب ، وفي هذه الأحوال كان يتعين عليهم ألا يبيعوا أو يشتروا شيئا إلا ما هو ضروري لإصلاح سفنهم وأداء الشعائر الدينية ، وألا تطول مدة اقامتهم أكثر من خمسة أيام . وأما فيما يخص ليبيا أو سردينيا فإنه كان محظورا عليهم ممارسة نشاطهم التجاري إلا تحت رقابة القرطجنيين .

وبمقتضى شروط المعاهدة الثانية احتفظ القرطجنيون بامتيازاتهم التجارية في روما وفي لاتيوم والرومان بأحكام المعاهدة السابقة فيما يخص سلامة لاتيوم وكذلك بحرية التجارة مع صقلية ، ولكنهم فقدوا حق الاتجار كلية مع سردينيا وقبلوا القيود المفروضة على حرية تجارتهم مع ليبيا .

ووفقا لبوليبيوس عقدت المعاهدة الأولى في العام الأول من عهد الجمهورية[1] ، أي في حوالي عام ٥٠٩ ق . م . والمعاهدة الثانية في عام ٣٤٨ ق . م .[2] ، على حين أن ليفيوس [3] وديودوروس [4] يقولان بأن أول معاهدة عقدت بين روما وقرطجنة كانت في عام ٣٤٨ ق . م . وثاني معاهدة في عام ٣٤٣ ق . م . وقد أثار هذا التناقض بين المصادر القديمة جدلا عنيفا بين الباحثين . ولما كان من الواضح أن المعاهدة الثانية لم تكن إلا تجديدا للمعاهدة الأولى مع تعديلات طفيفة ، وكان تجديد معاهدة مضى عليها حوالي قرن ونصف قرن أدنى إلى القبول من تجديد معاهدة لم تنقض عليها إلا خمس سنوات ، فإننا أميل إلى الأخذ برأي بوليبيوس ولا سيما أنه تدعمه اللغة العتيقة التي صيغت بها نصوص المعاهدة الأولى مما يُستبعد معه أن تكون هذه المعاهدة قد عُقدت حوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد .

---

(١) Polyb., III, 22,1.

(٢) Polyb., III, 24.

(٣) Liv., VII, 27,2; 38,1.

(٤) Diod., XVI, 69,1.

وعلى كل حال فإنه يتبين بجلاء من نصوص هاتين المعاهدتين أنه اذا كان الرومان يسهمون في التجارة الخارجية ، فإن الحكومة الرومانية لم تعن بأن تكفل لهم حرية التجارة في الأسواق الغربية . ولعل أن مرد ذلك كان من ناحية إلى الرغبة في تفادي الصدام مع قرطجنة حين لم يكن في وسع روما ذلك ، ومن ناحية أخرى إلى أن الحكومة الرومانية كانت من البطارقة وهم الذين كانوا يزدرون ممارسة التجارة وكذلك فيما يبدو يتوجسون شراً من عواقب ازدياد ثراء العامة من التجارة ، وهو الثراء الذي أخذ يزداد حتى أصبح لدى بعض العامة من الثروة ما كان يعادل ثروة البطارقة كبار ملاك الأراضي ، بدليل أنهم تطوعوا للخدمة في الجيش بخيولهم الخاصة في أثناء محاربة فياي ، وأنه منذ ذلك الوقت أصبح لديهم نصاب الفرسان الذي كان يمثل أعلى مستويات الثروة بين الرومان جميعا .

وينهض دليلا آخر على قلة العناية التي أولاها الرومان لضروب النشاط التجاري بطء إدراكهم ضرورة أن تكون لهم عملة نقدية خاصة بهم ؛ وكذلك البطء الذي صاحب تطور نظام عملتهم ، وذلك برغم اتصالاتهم المستمرة مع اغريق صقلية وجنوب شبه الجزيرة الإيطالية ، وهم الذين كان نظام النقود سائدا بينهم منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وكذلك مع الاتروسقيين وهم الذين أخذوا بنظام النقود منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

واذا لم يكن للرومان الأوائل أي نوع من العملة ، فإنه كانت لديهم قواعد موحدة تقدر على أساسها قيمة الأشياء في المعاملات العامة والخاصة . والكلمة (Pecunia وهي مستمدة من كلمة Pecus ومعناها قطيع) التي استخدمها الرومان للدلالة على النقود تشير إلى الوقت الذي كانت فيه قيم الأشياء تقدر بما تساويه من الماشية أو الأغنام على نحو ما كان مألوفا بين الإغريق وغيرهم من الشعوب الزراعية والرعوية حين كانت هذه الشعوب في مثل المستوى الحضاري الذي كان فيه الرومان الأوائل . وكان هذا النظام البدائي للمعاملات لا يزال

متبعا حتى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد . وإن كان قد أخذ يخلفه إلى حد كبير نظام أبسط « للعملة » بُدىء في اتباعه منذ عهد بعيد . وكانت هذه « العملة » عبارة عن كتـــل من البرونز (aes rude) غير مسكوكة . وزن كل منها رطل أو أثنتا عشرة أوقية . وبما أن هذه الكتل كانت لا تحمل طابع الدولة ضمانا لوزنها ونقائها ، فإنها كانت توزن عند التعامل بها . وإزاء عدم وفرة هذه « العملة » وتبعا لذلك تعذر توافرها لدى الناس جميعا ، فإنه تيسيرا للمعاملات ودفع الغرامات للدولة صدر في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد قانون تقرر بمقتضاه اعتبار قيمة الثور الواحد أو عشر أغنام معادلة لعشرة أرطال (asses) ومفردها (as) من البرونز .

وفي عام ٢٨٩ ق . م . قرر الرومـــان ضرورة استخـــدام العملـــة في التعامل وعينوا هيئة ثلاثية للاشراف على دار سك العمالـــة (triumviri monetales) . وكانت أول مهمة لهذه الهيئة هي إصدار سبـــائك متموغة (aes signatus) تزن كل منها حوالي ستة أرطال . واذا كانت هـــذه السبائك تعتبر « عملة » . فإنه لا يمكن اعتبارها نقودا بمعنى الكلمة . ولم تسك روما نقودا حقيقية لأول مرة إلا في عام ٢٦٨ ق . م . عندما أصدرت نوعين من النقود : أحدهما من الفضة على نسق إغريقي وكان من فئتين إحداهما من فئة الدراخمتين والأخرى من فئة الدراخمة الواحدة . وكان النوع الآخر من البرونز ويسمى الآس (as) ويتألف من فئات متعددة هي فئات الرطل وأضعافه وأجزائه . وكانت قطعة النقد الفضية من فئة الدراخمة الواحدة تعادل خمس قطع من النقود البرونزية من فئة الرطل الواحد . ويبدو أنه في خلال الفترة الواقعة بين عامي ٣٠٠ و ٢٧٠ ق . م . — أي قبل أن تسك روما نقودها الحقيقية — كان الرومان يستخدمون النقود الفضية والبرونزية التي كانت مدن قمبانيا تسكها ، وذلك من أجل سداد أثمان مشترواتهم الخارجية وكذلك لدفع مرتبات الجنود النازلين في جهات يسود فيها استخدام النقود .

وأهم تغيّر في النقد الروماني حدث على الأرجح في حوالي عام ١٨٧ ق . م . عندما سكت روما نقودا برونزية جديدة تسمى أيضا الآس وتزن أوقيتين رومانيتين . وبما أن أوقية من الفضة كانت تعادل في قيمتها ١٢٠ أوقية من البرونز ، فإنه سكت عملة فضية جديدة وزنها سدس أوقية لكي تكون مساوية في القيمة لعشر قطع من النقود البرونزية الجديدة ذات الأوقيتين ، وتبعا لذلك سميت النقود الفضية الجديدة « الدينار » (Denarius) . وتيسيرا للتعــامل سُكت نقود فضية يبلغ وزن كل قطعة منها رُبع وزن الدينار ، ومن ثم فإن قيمتها كانت قيمة قطعتين ونصف قطعة من العملة البرونزيــة (الآس) ، وسميت هذه النقود الفضية الصغيرة سسترتي (Sestertii جمع سسترتيوس Sestertius) ولم تلبث النقود الرومانية الجديدة ، البرونزية والفضية ، أن شاع استخدامها سريعا بين كل حلفاء روما في إيطاليا وأصبحت هي العملة القياسية في كل أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية .

ثانيا – الحياة الاجتماعية

١ – بناء المجتمع

ظلت الأسرة (familia) في عهد الجمهورية، مثل ما كانت في عهد الملكية، حجر الزاوية في بناء المجتمع الروماني . فقد كان هذا المجتمع عبارة عن مجموعة من الأسر ، وكانت مكانة الفرد في المجتمع وتبعا لذلك في الدولة تتوقف على مكانة الأسرة التي ينتمي إليها وعلى مركزه في هذه الأسرة ثم على ما يؤديه من خدمات في الحياة العامة . وكانت الأسرة تتألف من «أب الأسرة» (pater familias) والزوجة والبنات غير المتزوجات والأبناء (بالمولد أو بالتبني) وزوجاتهم وأبنائهم ، وعبيد الأسرة . وكان هؤلاء جميعا ، أحرارا وعبيدا ، يخضعون للسلطة المطلقة التي كان « أب الأسرة » يتمتع بها منذ غابر الزمن ، وكانت تسمى في حالة الأحرار من أعضاء الأسرة «سلطة الأب» (patria potestas) وفي حالة العبيد

منهم « السيادة » (dominium) ، وتبعا لذلك كان أعضـــاء الأسرة جميعـــا وكذلك ممتلكاتها (res familiaris) في قبضة (manus) أب الأسرة . وسلطة هذا الأب المطلقة على أفراد أسرته تذكرنا بسلطة القناصل في بداية عهد الجمهورية .

وفي مقابل هيمنة « أب الأسرة » هيمنة كاملة على أعضاء الأسرة جميعا . كان عليه الاضطلاع بكافة الواجبات نحوها ، ليس فقط من حيث الرعاية وسد حاجات المعيشة بل أيضا وقبل كل شيء من حيث تقديم القرابين المناسبة وإقامة الشعائر الدينية على نحو يكفل عطف الآلهة ورضاها . واذا كان أب الأسرة يعتبر بمثابة كاهنها ، فإن أفراد الأسرة جميعا كانوا يشاركون في إقامة الشعائر الخاصة بآلهة الأسرة .

وفي عهد الجمهورية نما نظام التبعيـــة (clientela) ، وهو الـــذي كان معروفا في عهد الملكية ، فكان لكل أسرة في العادة عدد من الأتبـــاع (clientes) الأحرار ، وكانوا عبيد الأسرة الذين عتقوا (liberti) ، ومستـــأجري أرضها ، وغيرهم ممن ناشدوا تلقائيا حماية أب الأسرة فأصبح تبعا لذلك راعيهم (patronus) . وكان عدد أتباع الأسرة يتوقف على ثرائها ومكانتها ونفوذها . ولم يكن أتباع الأسرة في عداد أعضائها وإن كان شأنهم شأن هؤلاء الأعضاء يستظلون برعاية « أب الأسرة » وحمايته وينفذون مشيئته ويأتمرون بأمره .

ولما لم يكن مقبولا أن يكون « أب الأسرة » امرأة ، فإن الحفاظ على كيان الأسرة وبقائها كان يقتضي وجود أبناء أو على الأقل ابن واحد . وعندما لم يكن للأب ابن لسبب أو لآخر كان في وسع الأب أن يعوض ذلك بالتبني . وهذا يفسر سر الاهتمام بمسألة التبني منذ عهد الملكية . وكان الابن المتبنى يحتل في الأسرة التي تبنته الوضع ذاته الذي كان يحتله لو أن أب الأسرة هو الذي أنجبه من صلبه ، فمنذ تبنيه كان لا يخضع إلا لسلطة متبنيه ولا يتعبد إلا إلى آلهة أسرته الجديدة ، وبذلك كان أهلا لأن يخلف أباه الجديد عند موته ويصبح

هو نفسه أب الأسرة . وعندما يكون لأب الأسرة أكثر من ابن وتأتيه الوفاة كان أبناؤه الراشدون يصبحون بدورهم آباء أسر ويقتسمون أملاك الأسرة الأصلية . وكانت الأم والبنات غير المتزوجات والأبناء القاصرون يصبحون تحت سلطة أحد هؤلاء الأبناء إلى أن يبلغ القاصرون سن الرشد وتتزوج البنات . واذا توفي هذا الابن قبل الأم أو قبل زواج البنات أو بلوغ القاصرين سن الرشد انتقل هؤلاء جميعا إلى سلطة أقرب أقارب « أب الأسرة » المتوفى .

وفي هذه الفترة كان الرومان يمارسون ثلاثة أنواع من الزواج ، كان الاتفاق يتم في النوعين الأول والثاني منها على انتقال الزوجة من عصمة « أب أسرتها » - سواء أكان أباها الحقيقي أم أخاها أم أقرب أقاربها - إلى عصمة (conventio in manus) زوجها اذا كان هو أب أسرته أو إلى عصمة أب أسرة الزوج اذا كان لا يزال على قيد الحياة . وفي النوع الأول من الزواج كان الزوج يكتسب سلطته على الزوجة بخلعها عليه (confarreatio) . وكان هذا النوع أقدم أنواع الزواج الرومانية وأكثرها شيوعا بين البطارقة ويقتضي إقامة حفل ديني وحضور عشرة شهود وأحد كبار الكهنة ليبارك الزواج بتلاوة عبارات مقدسة (Sollemnia verba) . وقد ساعد على استمرار هذا النوع من الزواج بين البطارقة ميلهم إلى الحفاظ على التقاليد وعلى العرف القائل بأن الأبناء ثمرة مثل هذا الزواج فقط هم الذين كانوا يصلحون لأداء مهام دينية معينة . وفي النوع الثاني من الزواج كان الزوج يكتسب سلطته على الزوجة بمقتضى صفقة بيع صورية (Coemptio) . وكان هذا النوع أيضا قديم العهد ولكنه كان أكثر شيوعا بين العامة ولا يقتضي إلا حضور خمسة شهود . وكان النوع الثالث أبسط أنواع الزواج الرومانية ولا يقتضي إلا اتفاق الزوجين على أن يعاشرا بعضهما بعضا معاشرة الأزواج مع تمتع كل منهما بسلطة متساوية ، ولكن الزوج كان يستطيع اكتساب السلطة كاملة على زوجته اذا عاشرته معاشرة زوجية متصلة (usus) لمدة عام كامل . وبمقتضى أحد

قوانين اللوحات الأثنتي عشرة كانت المعاشرة الزوجية لا تعتبر متصلة ، وتبعا لذلك كانت الزوجة تستطيع الإفلات من سيطرة زوجها ، اذا قضت الزوجة في العام الواحد ثلاث ليال خارج بيت الزوجية . ولعل أن يكون ذلك مما ساعد على أن هذا النوع من الزواج — وهو الذي لم يكن يمارسه أصلا إلا العامة — أخذ ينتشر إلى حد ما في خلال هذه الفترة ، لأنه في كنف هذا الزواج والقانون السالف الذكر كانت الزوجة تستطيع التمتع بحقوق متساوية مع الزوج ، ولا سيما أن قانونا آخر من قوانين اللوحات الأثنتي عشرة منح المرأة الرومانية حق الملكية . وكان الحد الأدنى لسن الزواج بالنسبة إلى الذكور هو الرابعة عشرة وبالنسبة إلى الإناث هو الثانية عشرة .

ويجب أن يلاحظ أن الزواج كان مسألة شخصية بحتاً لا تعني الدولة ولا يقتضي إتمامه صيغا قانونية خاصة ، وأن ما كان قد يصحبه من مراسم أو حفلات لم يكن لها أي طابع قانوني . ومثل ما كان الزواج مسألة شخصية ، كان الطلاق كذلك مسألة شخصية ومن اليسير الحصول عليه . ومع ذلك فإنه كان نادر الحصول في هذه الفترة ولا سيما في الأسر الكبيرة حيث كان الحرص شديدا على الحفاظ على كيان الأسرة .

ومهما يكن الوضع القانوني للمرأة الرومانية ، فإنها وبخاصة « أم الأسرة » (mater familias أو matrona) كانت تتمتع بمكـــانة بارزة في حياة الأسرة وتشارك زوجها مكانته الإجتماعية . ولم تكن حياة الرومانيات على غرار تلك الحياة المنعزلة الضيقة التي كانت الإغريقيات تحياها سواء في أثينا أم في غيرها من المدن الإغريقية . ذلك أن الرومانيات كن يشاركن في الحفلات الدينية وفي المآدب ، ولم يكن لهن جناح منعزل في البيوت ، فقد كانت السيدة الرومانية تشرف على شئون بيتها من قاعته الرئيسية (atrium) حيث كانت تغزل الصوف اللازم لنسج ملابس الأسرة منه ، وتربي أطفالها .

ولما كان لا بد من أن يكون على رأس الأسرة « أب » أي رجل ، وكان في وسع الأبناء تكوين أسر جديدة بعد وفاة آبائهم وبذلك يصبحون آباء أسرهم ، على حين أن البنات كن عاجزات عن ذلك لأنهن كن عادة في عصمة أب الأسرة التي ينتمين اليها ، فإنه كان طبيعيا ألا يدخل في احتساب الأنساب إلا التسلسل عن الذكور . وتبعا لذلك فإن أفراد سلالة الذكور في أية أسرة كانوا يعتبرون أقرباء قرابة عصب (Agnati) ، على حين أن أفراد سلالة النساء كانوا بالنسبة لهؤلاء أقرباء قرابة رحم (Cognati) .

وكانت كل مجموعة من الأسر تنحدر من جد واحد مشترك عن طريق الذكور تؤلف عشيرة (gens) لكل منها اسم (nomen) يجب أن يحمله كل فرد من أفرادها بعد اسمه الشخصي (praenomen) وقبل اسم أسرته (Cognomen) ، ما دام لم يصبح في عداد عشيرة أخرى إما بالتبني في حالة الرجال ، وإما بالزواج في حالة النساء . ومثل ذلك أن الأسماء الثلاثة التي حملها بوبليوس قورنليوس سقيبيو (Publius Cornelius Scipio) — وهو الذي هزم القرطجنيين في واقعة زاما — كانت عبارة عن اسمه الشخصي فاسم عشيرته فاسم أسرته . وقد كانت لكل عشيرة طقوسها الدينية الخاصة (sacra gentilica) وكانت شعائرها تقام إجلالا وتقربا إلى الآلهة التي ترعاها بعنايتها . وكذلك كان لكل عشيرة مجلس يتألف من آباء أسرها للفصل في شئون أهل العشيرة ، مثل الوصايا والميراث والتبني وعتق العبيد وإقامة الأوصياء على القاصرين والمسرفين والمعتوهين . وكان أتباع كل أسرة يعتبرون أتباع العشيرة التي تنتمي اليها هذه الأسرة ويتمتعون بحماية عشيرتها وتبعا لذلك تربطهم بها روابط وثيقة .

وفي عهد الملكية لم يكن انتظام الأسر في عشائر مألوفاً إلا بين البطارقة . ويبدو أنه في بداية عهد الجمهورية كانت أكثر عشائر البطارقة لا تزال موجودة . وحين أثرى العامة في النصف الأول من عهد الجمهورية ،

أخذ أكثر أسرهم ثراء يحتذون حذو البطارقة في تنظيم حياتهم الاجتماعية ، وبذلك تكونت عشائر من العامة أيضا ، وأصبحت هذه الأسر والعشائر تؤلف أرستقراطية العامة . ومن امتزاج أرستقراطية البطارقة وأرستقراطية العامة في السناتو أخذ يتخير تكوين الأرستقراطية الرومانية ، على نحو ما مر بنا .

وبرغم أن العشائر لم تكن منظمات سياسية وإنما منظمات اجتماعية ، فإنه بحكم الرابطة القوية – الاجتماعية والدينية – التي كانت لا تربط بين أفراد كل عشيرة فحسب بل أيضا بينهم وبين أتباعهم – لا يمكن تجاهل أثر العشائر في الحياة السياسية . وبطبيعة الحال كانت مكانة العشيرة تتوقف على مكانة الأسر التي تتألف منها ، مثل ما كانت مكانة الفرد تتوقف أساساً على مكانة أسرته ومركزه فيها ، ثم على مقدار ما يصيبه في الحياة العامة من توفيق أو فشل كان أثره لا يرتد عليه وحده فحسب بل أيضا على أسرته وعشيرته .

٢ – الحياة اليومية والتربية والتعليم

وكان النظام المألوف هو أن يرعى أب الأسرة شئون زراعتها وديانتها ، وأن يؤدي الواجبات التي فرضتها الدولة ، وأن تدير الأم شئون البيت ، وأن يقوم عبيد الأسرة على خدمة مطالبها . وإذا كان قد ترتب على فتوحات روما زيادة عدد العبيد ، فإنهم لم يصبحوا في هذه الفترة من الكثرة بحيث يشكلون عاملا اقتصاديا خطيرا مثل ما أدت إليه كثرتهم فيما بعد . ذلك أن أكثر هؤلاء العبيد كانوا أسرى حرب لم يحدث أن استبدل بهم أسرى رومان أو أن افتدتهم بلادهم ، وكانت الحكومة الرومانية تبيع عددا كبيرا من هؤلاء الأسرى « عبر التيبر » للاتروسقيين . بيد أن فرض ضريبة على عتق العبيد في عام ٣٥٧ ق . م . يدل على أن عدد العبيد كان قد ازداد في روما عندئذ بحيث أن عتقهم أصبح يعتبر مصدر دخل للدولة على جانب من الأهمية . وكان في وسع صاحب العبيد أن

يعتقهم بعد اتخاذ إجراءات معينة . وباستكمال هذه الإجراءات كان المُعْتَق وسلالته يصبحون مواطنين أحرارا ولكن دون أن يحق لهم تولي المناصب العامة . وأما أبناء المعتق الذين كانوا يولدون بعد العتق (ingenuui) فإنهم كانوا يصبحون مواطنين كاملي الأهلية . ومع ذلك فإن المُعْتَق وسلالته جميعا كانوا يظلون أتباع العاتق .

وكانت حياة الرومان في هذه الفترة تتسم بالبساطة بل التقشف . سواء من حيث المسكن أم المأكل أم الملبس . وسيأتي الكلام عن المساكن في معرض الحديث عن الفن على أساس أن المساكن جزء من فن المعمار . وكان الطعام بسيطا قوامه اللبن وسليقة القمح أو الخبز مع بعض البقول أو الخضروات وبعض الفاكهة . وأما اللحوم فإنها لم تكن عنصرا أساسيا في الغذاء اليومي ، ذلك أنها كانت لا تؤكل إلا في مناسبات الأعياد وتقديم القرابين . وكان النبيذ يمزج بالماء ويشرب ، ويمكن اعتباره الشراب القومي . ومن حين إلى آخر كان الأثرياء يقيمون مآدب تنشد فيها أغان تشيد بالأعمال الجليلة التي قام بها أسلافهم العظام [1] . وكانت الأسر الميسورة الحال تحاول بقدر ما يسعها أن يكون عندها اكتفاء ذاتي بأن تستمد من أراضيها ومراعيها ما يسد حاجاتها من طعام وشراب ، وبأن تحصل على ما ينقصها بالمقايضة في السوق ، وكانت تقام كل ثمانية أيام . وأما الأسر التي كانت تفتقر إلى مثل هذه الموارد ، فإنها كانت تحصل على حاجاتها من السوق .

وكان الملبس أيضا بسيطا ومادته الرئيسية هي الصوف . وكانت ربة البيت وبناتها يقمن بغزل الصوف ونسجه وصنع الملابس منه . ولعلهن كن لا يحتجن إلا إلى الشرائط القرمزية التي كانت توضع على حواف عباءة (Toga) الفتيان والحكام . وكانت العباءة هي الرداء الخارجي الذي يستخدمه أصلا النساء

(1) Cic., Brutus, XIX, 75.

والرجال على السواء . وإن كان قد أخذ يخلف العباءة في هذه الفترة بالنسبة للنساء ثوب طويل (Stola) . وكان الملبس الداخلي للنساء والرجال قميصا من الصوف (Tunica) . ولما كانت العباءة هي الرداء الصحيح الذي يجب أن يرتديه كل مواطن روماني خارج البيت ، فإن استعمال هذا الرداء شاع بين كل حلفاء روما الايطاليين . وكان الرجال والنساء يرتدون نعلا من الجلد . ولم يتزين الرجل عادة الا بخاتم من الحديد ، ولكنه اذا أوفد إلى الخارج في بعثة رسمية كان يتخذ خاتمه من الذهب . وأما النساء فإنهن كن يملن إلى استخدام حلي ذهبية . وكان الرجال يطلقون لحاهم وشعور رءوسهم . وبطبيعة الحال كانت النساء يمشطن شعورهن ويصففنها .

وفي النصف الأول من عهد الجمهورية ، كان بعض الرومان يحرقون جثث موتاهم والبعض الآخر يدفنونها . وكان الرومان يعتقدون أن أرواح الموتى تنزل إلى عالم الآلهة السفلى (di inferni) ثم تعود لزيـــارة الأرض في أوقـــات معينة من السنة كانت تعتبر مناسبات لإقامة حفلات جنازية إبقاء لذكرى الراحلين وكسباً لودهم ودفعاً لأي أذى يمكن أن يلحقوه بالأحياء من سلالتهم إذا هم أهملوا شأنهم .

وكان الموتى يشيعون إلى مثواهم الأخير في مواكب جنازية كبيرة أو صغيرة بحسب مكانة المتوفى ومكانة أسرته . وفي حالة عظام القوم كان الموكب يغص بالمشيعين ويمضي حتى الفوروم حيث يعتلي منصة الخطابة أحد أفراد الأسرة فيعدد مناقب الفقيد وجلائل أعماله . ولم يفت شيشرون ولا ليفيوس [1] الإشارة إلى ما كان الخطباء ينزلقون إليه من المبالغة والابتكار في الإشادة بمناقب أسلافهم .

ويبدو أنه في صدر عهد الجمهورية كان الرومان يمارسون في داخل روما ذاتها حرق الجثث ودفن الموتى ، وانهم كانوا يسرفون في مظاهر الاحتفاء بالموتى ،

(1) Cic., Brutus, XVI, 62; Liv., VIII, 40

وذلك لأن قوانين اللوحات الأثنتي عشرة حظرت حرق الجثث والدفن في المدينة كما حظرت الترف والإسراف في هذه المناسبات . واذا كانت القرائن توحي بمراعاة الحظر الأول ، فإنها توحي كذلك بعدم مراعاة الحظر الثاني طويلا ، لأن الأسر الكبيرة كانت تعتبر المواكب الجنازية مناسبات بالغة الأهمية . وعلى كل حال فإنه عندما أخذ د . يونيوس بروتس — وكان أحد أفراد أسرة من العامة آخذة في الظهور — بعادة كانت مألوفة في أترووريا وقمبانيا وأقام مباراة للمجالدين في جنازة والده في عام ٢٦٤ ق . م . شاعت هذه العادة بين الرومان .

ولم توجد في روما في هذه الفترة مدارس لتعليم النشء . والمعروف حتى الآن هو أنه في حوالي عام ٢٥٠ ق . م . أنشئت أول مدرسة في روما [١] . ومرد ذلك إلى أن التعليم كان يُعتبر من أخص شئون الأسرة ، حيث كانت الأم تربي صغارها وتعلم بناتها الغزل والنسيج وإدارة شئون البيت . وما أن يشب الأولاد حتى كان الأب يتولى تعليمهم القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والألعاب الرياضية : كالجري والسباحة والملاكمة والمصارعة واستخدام الأسلحة ، ويلقنهم قواعد النظافة وآداب السلوك وأساطير الأبطال وتاريخ الوطن . وبالتدريج كان الأب يصحب معه أولاده في غدواته وروحاته لأداء واجباته اليومية ، وبذلك كانوا يتدربون عمليا على الزراعة ، ويلمون عن كثب بأساليب الحياة العامة : مثل معرفة أصول تقديم القرابين وغير ذلك من الطقوس الدينية ، وأيام الأعياد الرسمية والأيام التي يمكن مباشرة الشئون العامة فيها ، والإجراءات التي تتبع في الجمعيات الشعبية عند الانتخابات أو إصدار التشريعات أو النظر في الأحكام المستأنفة ، واختصاصات الحكام على اختلاف درجاتهم ، وصور البيع والشراء وانتقال الملكية الخ ... . فما أن يبلغ الشباب السن التي يدخل فيها الحياة العامة حتى يكون قد اكتسب من المعرفة ما يؤهله للاضطلاع بمهام المواطن الصالح لممارسة واجباته وحقوقه الدستورية . وكان ذلك يبدأ مع بداية الثامنة عشرة من عمره

(١) H.I. Marrou, History of Education in Antiquity (trans), 1958, pp. 229 ff.

عندما يصبح صالحا للعضوية في الجمعيات الشعبية وكذلك للخدمة العسكرية حيث كان يقضي عشر سنوات قبل أن يتطلع إلى الحصول على أدنى الوظائف العامة .

وإن دلت القرائن على شيء فهي تدل على أن الثقافة لم تحظ عادة بنصيب يذكر من اهتمام الرومان الأوائل ، وعلى أن هدف التربية والتعليم عندهم كان تكوين خلق النشء وإعدادهم لكي يكونوا مواطنين صالحين يتسمون بالرجولة والجد والبساطة والصلابة والقناعة والطاعة والدأب على العمل والحفاظ على سنن الآباء وأداء الواجب نحو الآلهة والوطن وذوي القربى .

وبفضل ما تعود عليه الرومان في البيت وبعد ذلك في الجيش من إطاعة النظام واحترام الأوامر ، وكذلك بفضل ما انطوى عليه تصورهم للعلاقة بين الآلهة والبشر من إحساس بالفضل على نحو كان يستتبع التزام الدقة في إقامة الشعائر الدينية غُرست فيهم صفات حميدة كثيرة وبوجه خاص صفات الجد (gravitas) والميل إلى الحفاظ على سنن الآباء (mos maiorum) والشعور بالواجب (pietas) . ولعل أن يكون هذا الشعور أبرز ما اتسم به الخلق الروماني ، ذلك أن أرفع الصفات في نظر الرومان كانت أداء الواجب بمعنى الاضطلاع بكافة الالتزامات على خير وجه نحو الوطن والآلهة وذوي القربى . وكان الوفاء للوطن يأتي في المقام الأول . فمن أجله كانت تهون التضحية بالأصدقاء وبالأقربين وبالحياة . والروايات القديمة زاخرة بالأمثلة لمختلف مظاهر الوطنية التي أبداها كثيرون من القواد والحكام الذين عاشوا في الفترة التي نحن بصددها الآن واتسموا بشجاعة فائقة كانت تدفعهم إلى اقتحام صفوف العدو دون مبالاة ، أو بصرامة شديدة في الحفاظ على صوالح الوطن بحيث أنهم كانوا لا يترددون في إعدام من يخالفون الأوامر العسكرية أو يقدمون أية مساعدة للعدو حتى ولو كان المذنبون أبناءهم . واذا كان من المرجح أن هذه الروايات لا تخلو

في هذا المقام أيضا من التنميق والابتكار ، فإنها على كل حال تنم عن الصفات التي كان يجب توافرها في المواطن الروماني وتوقعها منه ، كما تنم عن المستوى الخلقي الرفيع الذي كان يجب الحفاظ عليه في ذلك الوقت .

بيد أن نظام التربية والتعليم الذي وصفناه إذا كان كافيا لبناء قوة روما على نحو مكن لها فتح إيطاليا ، فإن تاريخ القرنين التاليين لهذا الفتح سيرينا كيف أن هذا النظام لم يكن كافيا لتكوين رجال لديهم من القدرة ما يمكنهم من معالجة ضروب من الصراع أشد ضراوة وألوانا من المشاكل أكثر تعقيدا مما صادفته روما في النصف الأول من عهد الجمهورية . ذلك أنه سيبرز أمامنا عجز ساسة روما وقوادها عن فهم ما ينشأ أمامهم من ظروف جديدة وكذلك عن مواجهة ما سيصادفهم من صعاب جديدة . حقا إن القوة التي استطاعت روما بناءها حتى الآن سوف تمكنها من اجتياز أزمات خطيرة بعد تحمل تضحيات طائلة دون مبرر ، كما ستمكنها من بناء امبراطورية مترامية الأطراف ، ولكن روما سوف تثبت كذلك عجزها عن حكم هذه الأمبراطورية حكما سليما ، بل عن الحفاظ على النظام الجمهوري .

٣ ــ الديانة

وفي النصف الأول من عهد الجمهورية لم يطرأ على ديانة الأسرة أي تغير يذكر . والمؤثرات الاتروسقية والأغريقية التي بدأت تظهر في الديانة الرسمية منذ عهد الملكية استمرت نشطة في النصف الأول من عهد الجمهورية. فمن ناحية تابع الرومان عملية إقامة المعابد والهياكل والتماثيل للآلهة بدلا من المذابح أو الأضرحة ، مما سيأتي ذكره عند الكلام عن الفن . ومن ناحية أخرى دخل عدد آخر من الآلهة الإغريقية زمرة المعبودات الرومانية ، ذلك أن عبادة الإلهين التوأمين قـاستور وبـولوكس (Castor et Pollux = الديوسقوري (Dioscuri

دخلت روما في عام ٤٨٤ ق . م . اذا صح ما يرويه ليفيوس [١] من أن ذلك كان وفاء للعهد الذي قطعه على نفسه أولــوس بوستوميوس (Aulus Postumius) قبل خوضه غمار معركة رجيلوس (Regillus) مع العصبــة اللاتينية . ومع أنه كانت للرومان إلهة قديمة للشفاء تدعى ســالوس (Salus) ، فإنه بعد تفشي الطاعون في روما في عام ٢٩٣ ق.م. واستطلاع الكتب السيبولّية أدخلت عبادة إله الشفـــاء الإغريقي أسقلبيوس (Ascelepius) وهو الــذي دعــاه الرومــان ايسقولابيوس [٢] (Aesculapius) . ومن نــاحية ثالثة ازداد اهتمــام الرومان بالعرافة الاتروسقية وهو ما يتبين من أمرين : وأحدهما هو أنهم كانوا يوفدون أبناءهم إلى أترووريــا لدراسة التعــاليم الأتروسقية (disciplina Etrusca) الخاصة بذلك ، والآخر هو ازديــاد استخــدام خبراء في العرافــة الاتروسقية (haruspices) وأصبحت لهم جماعة ازدادت أهميتهــا على مر الزمن ، إلى حد أنها أصبحت منذ الحرب البونية الثانية منافسا شديدا لجماعة العراف الرومان (augures) ، إلا أنه كـــانت لكل جماعة أساليبهــا الخاصة في التعرف على الإرادة الآلهية .

ومما يجدر بالملاحظة أن الرومان ، سواء في عبادتهم الأسرية أم في عبادتهم الرسمية ، كانوا لا يتضرعون إلى الآلهة من أجل أن تمنحهم بركات روحية تطهر قلوبهم ونفوسهم ، وإنما من أجل أن تسبغ عليهم بركات مادية تكسبهم الصحة والثروة . وسيطرة الديانة على عقول الرومان كان مردها إلى ثلاثة عوامل : كان أحدها ، هو أن الديانة كانت رمزا للوحدة ، ذلك أن عبادة الأسرة كانت رمزا لوحدة الأسرة وأن العبادة الرسمية كانت رمزا لوحدة الدولة . وكان العامل الثاني ، هو الإيمان العميق بقدرة الآلهة على أن تفيض بالخير والبركة على من يكتسب رضاءها عن طريق إقامة شعائرها طبقا لأصولها الصحيحة ، وعلى أن تصب جام

(١) Liv., II, 20, 12; 42, 5.

(٢) Liv., X, 47; Epit. XI; Ovid., Metam., XV, 622-745; Fasti I, 284-294.

غضبها ونقمتها على من يغفل إقامة هذه الشعائر أو لا يتحرى الدقة في إقامتها . وكان العامل الثالث ، هو الجري على سنن الآباء . واذا كان احترام السلطة الأبوية هو الذي غرس هذا العامل ، فإن قوة التقاليد الدينية دعمته مثل ما دعمت الشعور بالواجب . ومعنى ذلك أنه اذا لم يكن للديانة الرومانية أثر خلقي رفيع من شأنه السمو بالنفس الإنسانية فوق مستوى الدنايا ، فإن هذه الديانة أسهمت في تنمية صفتين هامتين كانتا من أبرز ما اتسم به الخلق الروماني في هذه الفترة بوجه خاص ، وهما الشعور بالواجب والحفاظ على التقاليد .

ولما كان ما يصيبه الإنسان في حياته من خير أو شر متوقفاً ليس فقط على إقامة الشعائر الدينية للآلهة بل على إقامتها طبقاً لأصولها الصحيحة ، فإن إقامة هذه الشعائر على هذا النحو الصحيح كان يحتل أهمية كبيرة في الحياة العامة والخاصة على السواء ، لأن قدرة الآلهة كانت كفيلة بأن تكلأ المجتمع برعايتها مثل ما تكلأ الأفراد . ومن هذه الشعائر وأصول أدائها كان يتألف القانون الروماني المقدس وهو الذي اصبح جزءا هاما من القانون الروماني العام . ولما كان الكهنة هم حراس القانون المقدس ، فإن ذلك كان المصدر الذي استمد منه كبارهم ما تمتعوا به من مكانة ونفوذ عظيمين في الدولة الرومانية ، فقد كان كبار الكهنة يعنون بالحفاظ على التقاليد الدينية المتوارثة ، ويدأبون على تفسيرها وإضافة سوابق جديدة إليها ، ويباشرون بأنفسهم أو يشرفون على إقامة الشعائر الدينية في المناسبات العامة وبعض المناسبات الخاصة ، ويصفون للحكام الطقوس الدينية الواجب إقامتها عند الإقدام على أعمال عامة . وكان العراف يستمدون قوتهم من الاعتقاد بأن الآلهة كانت تصدر تحذيرات على هيئة ظواهر معينة كان يمكن عن طريق ملاحظتها تبين اتجاهات الآلهة إزاء أي عمل يعتزم الإنسان الإقدام عليه . ولذلك كان يتعين على كل حاكم قبل الإقدام على أي عمل عام استطلاع رغبات الآلهة ، وإذا أعلن العراف أنه قد وقع أي خطأ في ذلك أو أن أي نذر سيئة ظهرت في أثناء ذلك ، فإنهم كانوا يستطيعون منع الحاكم من الإقدام على ما ينتوي عمله أو

اعتبار هذا العمل باطلا اذا أغفل نصيحتهم . ويتبين من ذلك كله أن الكهنة الرومان لم يكونوا وسطاء بين الرومان وآلهتهم بقدر ما كانوا على الأصح الحراس الذين يرعون الحفاظ على التقاليد الدينية وعلى إقامة الشعائر الدينية طبقا لأصولها الصحيحة .

ثالثا – الأدب والقانون والفن

١ – الأدب الروماني الباكر

ولا جدال في أن الرومان تعلموا الكتابة من الأتروسقيين منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وكانوا يمارسونها في تدوين القوانين والمعاهدات وقرارات السناتو والجمعيات الشعبية والقوائم السنوية للحكام وحوليات كبار الكهنة والنقوش الجنازية التي كانت توضع تحت صور أو أقنعة الموتى ثم كذلك على التوابيت منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، مثل نقوش تابوتي لوقيوس قورنيليوس سقيبيو « بارباتوس » (Barbatus) وابنه المسمى باسمه ، وهمـــا اللذان تولى أولهما القنصلية في عام ٢٩٨ ق . م . وتوفي في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، وتولى ثانيهما القنصلية في عام ٢٥٩ والقنسورية في عام ٢٥٨ ق . م . وتوفي عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد . وتابوتا هذين الرجلين أقدم ما عثر عليه حتى الآن من توابيت رومانية عليها نقوش [١] .

ومع ذلك فإنه لا يمكن القول بأنه كان قد نما عند الرومان أدب بالمعنى الصحيح حين وحدّوا شبه الجزيرة الإيطالية تحت سيادتهم . وهكذا كان شأنهم في هذا المجال شأن أقرب جيرانهم من الأتروسقيين والإيطاليين . ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا اعتبرنا الأغاني التي كانت تنشد في مآدب الأثرياء وقوائم الحكام

(١) H. Dessau, Inscriptiones Latinae Selectae, 1892-1916, nos. 1-3.

وحوليات كبار الكهنة والنقوش الجنازية البذور الأولى للأدب الروماني القومي ، ذلك أن هذه الأغاني وهذه المدونات كانت نقاط البداية للشعر الحماسي وللتاريخ الروماني .

ويميل الباحثون إلى القول بأن الأصول الأولى للمسرح الروماني كانت عبارة عن أشعار شعبية متبذلة [1] كانت تنظم على هيئة حوار وتنشد في حفلات الزواج وأعياد الحصاد ومواكب النصر . وتسمى هذه الأشعار « الأشعار الفسقنّية (versus Fescennini) ، مما يوحي بأن الرومان تعلموا هذا اللون من الحوار الشعري من مدينة فسقنّيوم (Fescennium) الأتروسقية . ويحدثنا ليفيوس [2] بأنه في عام ٣٦٤ ق. م. عرضت في روما لأول مرة مشاهد من الرقص والموسيقى قدمها ممثلون أتروسقيون . ومنذ ذلك الوقت دأب الهواة على أن يضيفوا إلى حوار الأشعار الفسقنية تقليد الراقصين واداء حركات وإشارات تعبيرية .

وقبل أواخر القرن الرابع قبل الميلاد عرف الرومان نوعا من القصص المسرحي الساخر سخرية لاذعة خشنة اشتهرت به مدينة أتلاّ (Atella) في قمبانيا ، ولذلك أطلق الرومان على هذا اللون من المسرحيات اسم « مسرحيات أتلا » (fabulae Atellanae) . ويجب أن يلاحظ أنه في اللاتينية تنم كلمة (fabula) عن مسرحية فضلا عن قصة أو أسطورة . وكانت كل مسرحية من هذه المسرحيات لا تخلو من أربع شخصيات وهي : ماقّوس (Maccus) « المهرج » ، وبابّوس (Pappus) « الرجل العجوز » ، وبوقّو (Bucco) « البدين الصغير » ، ودوسّنوس (Dossenus) « الأحدب الذكي » . وكان يصور هذه الشخصيات ممثلون يرتدون أقنعة مناسبة لها ، ولا يكتفون بالنص الأصلي بل يزيدون عليه بما يبتدهونه في أثناء التمثيل .

---

(١) Cf. A. Momigliano, J.R.S., 1957, pp. 104 ff.

(٢) Liv., VII, 2.

وأول مؤلّف روماني له صبغة أدبية كان كتاب الأمثـــال (Sententiae) وهو الذي وضعـــه القنسور أبيوس قلاوديوس ، ويرجـــح أنه استمد مادته من مصادر إغريقية . وقد كان طبيعيا أن يؤدي ازدياد أهمية الجمعيات الشعبية إلى نمو فن الخطابة ، وكان أبيوس أبرز خطباء عصره . ولا أدل على ذلك من أن الخطاب الذي القاه في مجلس السناتو في عام ٢٧٩ ق . م . وأقنع به هذا المجلس لرفض عروض الصلح التي تقدم بها بورّوس كانت لا تزال تجد إقبالا على قراءتها بعد ذلك بحوالي قرنين .

٢ ـ القانون

وفي خلال النصف الأول من عهد الجمهورية ظلت قوانين اللوحات الاثنتي عشرة القوانين الأساسية للدولة مع تعديلات ترتبت على التفسيرات التي صاحبت تطبيق هذه القوانين وكذلك على التشريعات التي صدرت في خلال هذه الفترة . وبرغم ما اتسمت به قوانين اللوحات الاثنتي عشرة من طابع بدائي في نواح كثيرة منها ، فإنها تنم عن تطور الرومان تطورا محسوسا في مجال القانون الخاص . ذلك أن هذه القوانين فصلت على نحو يكاد أن يكون تاما بين الديانة والقانون واستبدلت بحق الثأر التعويضات التي كان يجب على الجاني أن يؤديها للمجني عليه اذا قبل ذلك هو وذووه .

وقد كان من شأن التشريعات التي صدرت في خلال الفترة التي نحن بصددها الآن استمرار ذلك التطور القانوني الذي ظهرت معالمه في قوانين اللوحات الاثنتي عشرة . وقد أفضى بعض هذه التشريعات إلى دعم ما جاء في هذه القوانين دعما لا يدع سبيلا إلى التحايل عليه ، ومثل ذلك التشريع الذي صدر في عام ٣٠٠ ق . م . وأعطى المواطنين حق استئناف جميع الأحكام التي يصدرها عليهم أي حاكم روماني ومنع أي حاكم روماني من إنزال عقوبة الجلد أو عقوبة الإعدام

بأي مواطن قدم استئنافا من الحكم الذي صدر عليه . وقد أفضى البعض الآخر من هذه التشريعات إلى تعديل ما قضت به قوانين اللوحات الاثنتي عشرة ، ومثل ذلك التشريع الذي صدر في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد واعترف بشرعية التزاوج بين العامة والبطارقة ، والتشريع الذي صدر في عام ٣٢٦ أو ٣١٣ ق . م . وترتب عليه القضاء على عادة رهن شخص المدين واستعباد المواطنين الرومان العاجزين عن الوفاء بديونهم .

واذا كان يُعزى إلى قوانين اللوحات الاثنتي عشرة الفضل في وضع قواعد محددة للإجراءات القانونية (legis actiones) الواجب اتباعها عند رفع القضايا ، فإن هذه القواعد كانت شديدة التعقيد بحيث أنه كان يتعذر على غير الاخصائيين فهمها واتباعها واستخدام الصيغ القانونية الضرورية . ولما كان كبار الكهنة هم حراس التقاليد القانونية وهم وحدهم الذين يعرفون الأيام الرسمية لنظر القضايا ويلمون بالإجراءات والصيغ القانونية ، وكان هذا بوجه خاص أمراً بالغ الأهمية لأن عدم تحري الدقة في اتباع هذه الإجراءات أو حتى في استخدام هذه الصيغ كان كفيلا بخسارة الدعوى ، فإن كبار الكهنة ظلوا أمداً طويلا يحتكرون تفسير القانون وإعطاء الاستشارات القانونية . ولما كانت عضوية جماعة كبار الكهنة قد ظلت مقصورة على البطارقة حتى عام ٣٠٠ ق . م ، فإن العامة لم يفيدوا الفائدة المرجوة كلها من سن القوانين ونشرها طالما بقيت الأوضاع على هذا النحو .

ولم يتغلب على العيب الذي اعتور الإجراءات القانونية التي نصت عليها قوانين اللوحات الاثنتي عشرة تشريع جديد ، وإنما عمل جليل قام به أحد أتباع المصلح الكبير أبيوس قلاوديوس ، وكان يدعى جنايوس فلافيوس (Gnneus Flavius) . ذلك أن فلافيوس قبل أن يتولى أي منصب عام أصدر كتابا[1]

---

(1) Liv., IX, 46.

(Ius civile Flavianum) شرح فيـــه بلغة سهلة القـــانون المـــدني والإجراءات القانونية الواجب اتباعها عند إقامة الدعوى أو الرد عليها ، كما أورد الصيغ الصحيحة الواجب استخدامها في كل حالة . وعندما تولى وظيفة الأيديلية القورولية في عام ٣٠٤ ق . م . علق في الفوروم قائمة بالأيام الرسمية التي يمكن نظر القضايا فيها، ويقال إن أبيوس قلاوديوس هو الذي أوحى إلى فلافيوس بكل ما قام به ، وان فلافيوس تمكن من جمع المعلومات التي نشرها بمتابعة جلسات المحاكم ومناقشة كبار الكهنة المتفقهين في القانون ، مما يوحي بأن كتابه كان ثمرة جهود متصلة لا بد أن تكون قد استغرقت عدة سنوات . وبالرغم من أن كبار الكهنة استمروا أساطين القانون ، فإن كتاب فلافيوس فتح الطريق أمام قيام فئة جديدة من المتفقهين في القانون سنعرف ما كان من أمرها فيما بعد . ولا جدال في أن فلافيوس أسدى إلى مواطنيه خدمة جليلة كافأوه عليها بانتخابه تريبونا للعامة ثم أيديليس قورليس برغم أصله الوضيع ، فقد كان ابن عبد مُعْتَق (libertus) من العبيد الذين عتقهم أبيوس قلاوديوس .

٣ — الفن

كانت مساكن الرومان في النصف الأول من عهد الجمهورية تتألف من نوعين رئيسيين ، كان أحدهما مساكن الميسوري الحال ، والآخر مساكن الفقراء . وكان النوع الأول ، حتى في روما ذاتها ، لا يتألف إلا من طابق واحد وكانت جدران هذه المساكن تبنى بقوالب من اللبن (Lateres) وتغطى بسقوف من الخشب . وكانت أهم عناصر هذه المساكن قاعة كبرى (atrium) تتوسطه وتؤدي إلى عدد من الحجرات الصغرى . وكانت القاعة الكبرى تستخدم للأكل والجلوس واستقبال الضيوف ، وتوضع فيها تماثيل الآلهة التي ترعى الأسرة وكذلك مدفأة كبيرة . وفي بيوت الأسر التي تولى أحد أفرادها وظيفة من الوظائف العامة الرفيعة وتسمى الوظائف القورولية وبذلك اكتسب حق عمل صورة له

عند وفاته (ius imaginum) ، كانت صور (imagines) مثل هؤلاء الموتى تحفظ في القاعات الكبرى في بيوتهم . ولما كانت هذه الصـور على هيئة أقنعة تطابق ملامح الوجه وتصنع عند الوفاة ، فإن الباحثين درجوا على تسميتها « أقنعة الموت » (death masks) أو « صور الشمـع » (wax images) لأنها كانت تصنع عادة من الشمع . وعند وفاة شخص كبير المقام من أفراد الأسرة ، كانت هذه الأسرة تستأجر ممثلين ليضعوا على وجوههم أقنعة موتاهم ويشتركوا مع المشيعين في الموكب الجنازي الذي يقام في هذه المناسبة .

وأما مساكن الفقراء فكان بعضها ، وبخاصة في الريف ، عبارة عن أكواخ بسيطة تقام من ضفائر أعواد البوص أو الأغصان الرفيعة وتغطى بطبقة من الطين . وكان البعض الآخر من هذه المساكن ، وبخاصة في روما ، عبارة عن غرفة واحدة أو غرفتين إحداهما إما خلف الأخرى وإما فوقها . وإذا كان صاحب البيت صانعا أو تاجرا فإنه كان يتخذ من الغرفة الأمامية أو الغرفة السفلى حانوتا لمباشرة عمله . وكانت هذه المساكن تبنى من اللبن والخشب .

وأما عن المعابد ، فإنه في بداية عهد الجمهورية استكمل بناء المعبد الكبير لثالوث يوبيتر ويونو وميترفا ، وهو المعبد الذي بدىء في إنشائه في أواخر عهد الملكية . وفي خلال القرن الخامس قبل الميلاد أنشئت أربعة معابد : أحدها للإله مرقوريوس (Mercurius) في عام ٤٩٥ ق . م . ، والثـاني للثالوث المكون مـن قرس وليبر وليبرا (Ceres, Liber, Libera) في عـام ٤٩٣ ق . م . ، والثـالث للإلهين التوأمين قـاستور وبولوكس (Castor et Pollux) في عـام ٤٨٤ ق . م . ، والرابع للإله أبولو في عام ٤٣١ ق . م . ولا نعرف شيئا حتى الآن عن إقامة معابد في خلال القرن الرابع قبل الميلاد إلا قرب نهايته عندما أقيم معبد للإلهة سالوس (Salus) في عـام ٣٠٢ ق . م . وبعد ذلك ببضع سنين أقيم معبـد لـلإله أيسقولابيوس (Aesculapius) في عـام ٢٩١ ق . م .

وإلى جانب هذا العدد القليل من المعابد الكبرى شهدت روما في النصف الأول من عهد الجمهورية إنشاء الكثير من الهياكل الصغرى . ومن المرجح أنه في خلال هذه الفترة لم يكن يبنى من المعابد بالأحجار إلا قواعدها ، على حين أن باقي مبانيها كانت من اللبن والخشب . ولما كان الرومان قد أخذوا عن الأتروسقيين بناء المعابد وطرازها وكذلك إقامة التماثيل للآلهة ، فإنهم استخدموا معماريين وفنانين أتروسقيين في بناء وزخرفة أقدم معابدهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن اعتمدوا في ذلك على الإغريق فخلعوا على الطراز الأتروسقي للمعابد الرومانية مسحة إغريقية ، ومع ذلك فإن المعابد الرومانية ظلت تختلف عن المعابد الإغريقية إختلافا واضحا تبرزه على الفور عدة خصائص نذكر منها ارتفاع قاعدة المعابد الرومانية ، وبروز هذه القاعدة عن البهو الذي يتقدم قاعة العبادة (cella) ، وطرز أعمدتها ، وافتقارها عادة إلى بهو أعمدة يحيط بالمعبد .

وأما عن المنشآت العامة الأخرى التي أقيمت في خلال النصف الأول من عهد الجمهورية ، فإنها كانت قليلة ولا تتعدى : أولا ، بناء سور ضخم من الأحجار حول روما عقب غزوة الغال في أوائل القرن الرابع قبل الميلاد . وثانيا ، إنشاء طريقين عامين ، كان أحدهما هو طريق لاتيوم (Via Latina) ، وهو الذي لا يعرف تاريخ إنشائه ، وإن كان من المرجح إنه مُدّ إلى قالس (Cales) على حدود قمبانيا عقب إنشاء مستعمرة لاتينية هناك في عام ٣٣٤ ق . م . وكان الطريق الآخر هو طريق أبيوس (Via Appia) وهو الذي أنشأه أبيوس قلاوديوس عندما كان قنسورا في عام ٣١٢ ق . م . وكان يمتد أصلا بين روما وقابوا ، ولكنه لم يلبث أن مُد في خلال القرن الثالث قبل الميلاد حتى أصبح يصل إلى بروندیزيوم ماراً بثلاثة مواقع هامة وهي بنفنتوم وفنوسيا وتارنتم . وثالثا ، إنشاء قناتين لتوفير حاجة روما إلى المياه الصالحة للشرب وهما القناة التي أنشأها القنسور أبيوس قلاوديوس (Aqua Appia) والقناة التي أنشئت في عام ٢٧٢ ق . م . وتعرف باسم نهر الانيو الذي كانت تستمد منه مياهها فهي تدعى الأنيو القديم (Anio vetus) . ومما يجدر بالملاحظة

أن القناة الأولى جميعها والجانب الأكبر من القناة الثانية كانا على هيئة نفقين محفورين في باطن الأرض ولم يكونا على غرار القنوات المرتفعة المحمولة على عقود ، فهذا النوع لم يقمه الرومان إلا منذ حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد . ورابعا ، يرجح أنه في خلال الفترة التي نحن بصددها أعيد بناء المنصة (rostra) التي كانت مقامة في الفوروم ليتحدث من فوقها الحكام إلى الشعب . وخامسا ، رصف شوارع روما الرئيسية بالأحجار وإنشاء مجار فيها لتصريف الفضلات ومياه الأمطار وفيضانات التيبر .

ومما يجدر بالملاحظة أن الجمعيات الشعبية كانت تعقد اجتماعاتها في الهواء الطلق ، ذلك أن جمعية المئينات كانت تنعقد في ساحة التدريب العسكري المعروفة بساحة الإله مارس خارج أسوار روما ، وكانت جمعيتا الكور والقبائل تعقدان اجتماعاتهما في جزء من الفوروم يدعى مكان الاجتمـــاع (Comitium) ويقع شمالي منصة الخطابة سالفة الذكر . وكذلك كانت المحاكم تعقد جلساتها في الخلاء بالفوروم ، لأنه لم تكن قد بنيت بعد الدور التي عرفت باسم باسيليقاي (Basilicae) وكان من بين مهامها إيواء المحـــاكم . وقد كـــان مجلس السناتو فقط هو الذي ينعقد في دار خاصة به تسمى قوريـــا (Curia) ، وكانت تقع في الفوروم شمالي مكان الاجتماعات ، ويعزى إنشاؤها إلى الملك تولوس هوستيليوس .

ويتضح بجلاء من هذا العرض أن مدينة روما لم تكن قد ارتدت بعد ذلك الثوب القشيب الذي ارتدته فيما بعد ، وأن الرومان في النصف الأول من عهد الجمهورية كان شأنهم في الحياة العامة كشأنهم في الحياة الخاصة أكثر اهتماما بالضروريات منهم بالكماليات . ومرد ذلك إلى عاملين رئيسيين : واحدهما ، هو ميلهم الفطري إلى البساطة ، والعامل الآخر هو انشغالهم في هذه الفترة ليس بصراع داخلي مرير فحسب بل أيضا بسلسلة من الحروب الخارجية استنفدت مواردهم واضطرتهم إلى أن يكونوا أكثر احتفاء بإنشاء معابد لآلهتهم ، وأسوار لمدينتهم ، ورصف شوارعها ، وحفر قناتين لتوفرا لهم المياه الصالحة

للشرب ، وتعبيد طريقين يسهلان انتقال الجيوش ، وإنشاء مستعمرات تخدم المجهود الحربي وتخفف الضائقة الاقتصادية ، من احتفائهم بإنشاء مبان عامة أنيقة تزدان بها روما وتخلع عليها حلة من الرونق والبهاء .

وفي مجال فن النحت يبدو أنه في أوائل عهد الجمهورية كانت التماثيل مقصورة على ما يقام منها في المعابد لأربابها ، وكانت هذه التماثيل تصنع إما من الصلصال إذا كان مبدعوها من الأتروسقيين وإما من الحجر اذا كانوا من الإغريق . ومنذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد بدىء في إقامة تماثيل في الفوروم لأولئك الرجال الذين أدوا خدمات جليلة مثل التمثالين اللذين أقيما لقنصلي عام ٣٣٨ ق . م . وهما لوقيوس فوريوس قاميلّوس (L. Furius Camillus) وجايوس ماينيوس (G. Maenius) جزاء نجاحهما في هزيمة قوات العصبة اللاتينية . وعلى مقربة من هذين التمثالين أقيم في عام ٢٩٦ ق . م . تمثال من البرونز لذئبة ترضع توأمين من البشر . وقد سبق القول بأن إقامة هذا التمثال وتصوير هذا المنظر نفسه على العملة التي سكت في عام ٢٦٨ ق . م . يدلان على أن المعالم الرئيسية للأسطورة التي كانت شائعة قديما حول نشأة روما كانت قد أصبحت مقبولة منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد .

بيد أن هذه التماثيل ، شأنها شأن تماثيل المعابد ، لا يمكن اعتبارها فنا رومانيا ، وذلك لأن مبدعيها لم يكونوا فنانين رومان ، بل كانوا في أول الأمر من الأتروسقيين ثم أخذ يخلفهم فنانون إغريق ، فلم يأت القرن الثالث قبل الميلاد حتى كان الطابع العام إغريقيا . وباستثناء ناحية واحدة من نواحي فن النحت وهي ناحية التماثيل التي كانت تصور تصويرا واقعيا سمات الأشخاص الذين أقيمت لهم ، ولذلك تسمى صورا (portaits) ، لم يكن لفن النحت الروماني وجود قبل القرن الأخير من عهد الجمهورية .

والرأي السائد هو أن الأصل الحقيقي لهذه الصور المنحوتة — وهي التي تعتبر علما على فن النحت الروماني — كان العادة التي أخذها البطارقة عن الأتروسقيين ، وهي عادة عمل أقنعة لموتاهم للاحتفاظ بأشكال أسلافهم .

ولذلك لا يستبعد أن هذه الأقنعة كانت النماذج التي استمد منها المثالون الرومان ما اتسموا به من قدرة خاصة على التصوير الواقعي . ولما كان طبيعيا أن يتأثر الفنانون الرومان بأعمال الفنانين الإغريق ، فإن المثالية الإغريقية خففت إلى حد من الواقعية الرومانية . واذا كان تأريخ أولى الصور الرومانية المنحوتة لا يزال مثار الجدل بين الباحثين ، فإنه لا يستبعد أن تكون هذه الصور قد بدأت في الظهور منذ أوائل القرن الثالث قبل الميلاد .

وأما عن التصوير بالألوان ، فإن ما عثر عليه حتى الآن في روما ويرجع إلى أوائل عهد الجمهورية لا يزيد على بعض مناظر حربية تقليدية صورت دون عناية كبيرة على جدران مقبرة نحتت في صخور تل اسكويلينوس في خلال القرن الرابع قبل الميلاد . بيد أن المصادر القديمة تحدثنا بأن جدران معبد سالوس ، وهو الذي مر بنا أنه أقيم في عام ٣٠٢ ق . م . ، زينت بمجموعة من الصور الملونة عزتها الأجيال التالية إلى رجل من البطارقة كان يدعى فابيوس مما أكسبه لقب بيقتور (Pictor = المصور) بل إن هذا اللقب أصبح وراثيا في أسرته وهي التي أنجبت أول مؤرخ روماني . وتحدثنا المصادر القديمة كذلك عن مجموعتين أخريين من الصور الملونة ترجعان على التعاقب إلى عامي ٢٧٢ و ٢٦٣ ق . م . تخليدا لذكرى انتصارين أحرز الرومان أولهما في خلال الحرب مع بورّوس ، وأحرزوا ثانيهما في خلال الحرب البونية الأولى . وهذا يذكرنا بالنقوش التصويرية التذكارية المألوفة في الفن الروماني في القرنين الأول والثاني للميلاد .

ولا أدل على مستوى الفن الروماني في النصف الأول من عهد الجمهورية بالقياس إلى الفن الإغريقي أو الفن القرطجني المعاصر من أن طراز الصور التي نقشت على أولى النقود الرومانية — وهي التي عرفنا أنها سكت في عام ٢٦٨ ق . م . — يهبط كثيرا دون مستوى طرز نماذجها الإغريقية والقرطجنية ، وكذلك دون مستوى طرز النقود الرومانية التي سكت فيما بعد .

القسم الثالث

روما تبسط سيادتها على البحر الابيض المتوسط منذ عام ٢٦٤ حتى عام ١٣٣ ق٠م

المرحلة الأولى[1] : من عام ٢٦٤ حتى عام ٢٠١ ق . م .

أولا — المصادر القديمة

وعلى نقيض الحال فيما يخص التاريخ الروماني في خلال الفترة السابقة لعام ٢٦٤ ق . م . لدينا للفترة التي أحرزت فيها روما أكثر فتوحاتها الخارجية ، وهي الفترة الممتدة من عام ٢٦٤ حتى عام ١٣٣ ق . م . ، مصادر ليست

(١) المصادر :

الحرب البونية الأولى حتى الاستيلاء على قورسيقا وسردينيا .

Polyb., I, 5-88; III, 10; Liv., Epit., XVI-XX; Appian., Sicil., I, 1-2; 3; Lib., I,1-4;, Dio Cass., XI; Diod., XX11-XXIV; Eutrop., II, 18-28; Florus, I,18; Oros., IV, 7-11; Zonaras, VIII, 8-18.

روما و الغال

Polyb., II, 17-35; Liv., Epit., XX; Dio Cass., XII, 50; Flor., I,19;20; Zon., VIII, 18;20.

القراصنة الالوريون

Polyb., II, 2-12; III, 16; 18; 19; Liv.; Epit. XX; Appian., Illyr., 2,7-8; Dio Cass., XII, 49; 53; Flor, I, 21; Zon., VIII, 19-20.

نشاط قرطجنة في اسبانيا وأسباب الحرب البونية الثانية .

Polyb., II, 1; 13; 36; III, 10-15; 17; 20-30; 33; Liv., XXI, 1-3; Appian., Iber, 1-2; Dio Cass., XII, 48; Diod., XXV, 9; Justin., XLIV; Zon., VIII, 19.

هانيبال في ايطاليا

Polyb., III, 33-94; 100-118; VII, 1; VIII, 26-36; IX, 3-8; 22-26; 44, X, 1, 32; 33; XI, 1-3; Liv., XXI, 1-59; 61; 62; XXII, 1-18; 23-61; XXIII, 1-25; =

مفصلة فحسب بل يمكن الاعتماد عليها بوجه عام . ذلك أنه منذ بدأ الرومان يهتمون بكتابة تاريخهم حوالي نهاية القرن الثالث قبل الميلاد أخذ إنتاجهم يزداد باطراد تبعا لنضج الذوق الأدبي ونمو العناية بالتاريخ بين الطبقات المتعلمة .

40; XXVII, 1-16; 20-29; 33-50; XXVIII, 9-12; 38-46; XXIX, 5-11; 13-23; = 30-39; 42-49; XXIV, 1-3; 7-20; 43-49; XXV, 1-22; 40; XXVI, 1-16; 21-24; 26-
36-38; XXX, 1-2; 18-24; 26-28; 38-45; Appian., Hann., I-IX,61; Dio Cass.,
XIII-XVII; Eutrop., III, 7-23; Flor., I, 22; Nepos, Hann.; Oros., IV, 15ff.;
Zon., VIII, 21-IX, 6; 8; 9; Plut., Fab.; Marcell.

نشاط روما في اسبانيا

Polyb., III, 76; 95; 96; IX, 11; X, 2;20; 34-40; XI-20-23; Liv.; XXI, 60; 61;
XXII, 19-22; XXIII, 26-29; XXIV, 41, 42; XXV, 32-39; XXVI, 17-20; 41-51;
XXVII, 17-20; XXVIII, 1-4; 12-38; XXIX, 1;2; Appian. Iber., 3-7; Dio Cass,
XVI; Eutrop., III, 15; Zon., IX, 4; 7-10.

الحرب المقدونية الأولى

Polyb., VII, 2-8; VIII, 5-9; 37; IX, 10;27; Liv., XXIV, 40; XXVI, 24-6;
XXVII, 29-33; XXVIII, 5-8; XXIX, 12; Zon., IX, 3.

مارقلوس في صقلية

Polyb., VII, 2-8; VIII, 5-9; 37; IX, 10; 27; Liv., XXIV, 4-7; 21-39; XXV,
23-31; 40; XXVI, 40; Appian., Sic., III-V; Zon., IX, 4;5.

روما تغزو أفريقيا

Polyb., XIV, 1-10; XV, 1-19; Liv., XXIX, 3;4; 23-36; XXX, 3-17; 24; 29-38;
Appian., Lib., II, 7-IX,66; Dio Cass., XVII; Eutrop., III, 20-23; Zon., IX,
12-14.

المراجع :

T·Mommsen, History of Rome (trans. Dickson) Bk.III,chs.I-VI; A.Piganiol,
La Conquête romaine, ed. 4, 1939; Histoire de Rome, ed. 3,1949; W.E. Heit-
land, op. cit., Vol. I, Chs. XXI-XXVI; T. Frank, History of Rome, Chs.
VI-VII; L. Homo, Primitive Italy, Bk. III; Cambridge Ancient History, Vol.
VII, Chs. XXI, XXIV-XXVI; Vol. VIII, Chs. I-IV; H.H. Scullard, Scipio
Africanus in the Second Punic War, 1930; Roman World, Chs. VII-X; R.M.
Hay wood, Studies on Scipio Africanus, 1933; J.H. Thiel, Studies in the History
of Roman Sea-Power in Republican Times, 1946, Ch. II; B.H. Liddell-Hart,
A Greater than Napoleon, Scipio Africanus, 1927, Chs. I-XII; AHistory of Ro-
man Sea-Power before the Second Punic War, 1954; H.T. Wallinga, The Boar-
ding Bridge of the Romans, 1956; B.H. Warnington, Carthage, 1960; G. Ch.
Picard, Le Monde de Carthage, 1956; G.Ch. and C. Picard, Daily Life in Car-
thage at the Time of Hannibal, 1960; M. Cary, op. cit., chs. XII-XIII; A.E.R
Boak, op. cit., Ch. VIII.

واذا كان أوائل المؤرخين الرومان قد قنعوا بسرد أساطير العصر الملكي وتوخوا الإيجاز في تناول تاريخ القرنين الأولين من عهد الجمهورية لقلة ما لديهم من مصادر يمكن الاعتماد عليها . فإنهم أفاضوا في كتابة تاريخهم المعاصر باستخدام ما لديهم من معلومات وفيرة موثوق بها . وقد كان أوائل المؤرخين الرومان أعضاء في مجلس الشيوخ وقناصل وتبعا لذلك بوايتورس سابقين . ومعنى ذلك أنهم كانوا رجالا تولوا شئون القضاء وتصريف شئون الإدارة والسياسة وعرفوا أهمية النصوص والوثائق . وإنه لمن العسير أن نتصور أن يكون مثل هؤلاء الرجال قد فقدوا كل قدرة لهم على التمييز بين الغث والسمين عندما شرعوا في كتابة التاريخ . واذا كان من الجائز اتهامهم بالتحيز لوطنهم فإنه يمكن اعتبار كتاباتهم جديرة بالوثوق بها إلى حد كبير . وفضلا عن ذلك فإن المؤرخين الإغريق المعاصرين وجهوا عناية كبيرة إلى التاريخ الروماني ، ولا سيما فيما يخص علاقة الرومان بالعالم الإغريقي .

ولسوء الحظ من ناحية أن مؤلفات أكثر مؤرخي هذه الفترة قد ضاعت ، ولكنه لحسن الحظ من ناحية أخرى أن جوهر هذه المؤلفات قد حفظه لنا مؤرخو أجيال تالية . والمؤرخ الإغريقي بوليبيوس ، وكان أبرز مؤرخي عصره ، هو الوحيد من بين قدامى المؤرخين الذين أرخوا لروما ووصل الينا جانب كبير من مؤلفه في حالته الأصلية.وكان بوليبيوس أحد الزعماء السياسيين الإغريق الذين أثاروا شكوك روما في نواياهم نحوها إبان حروبها في بلاد الإغريق ولذلك قررت في عام ١٦٧ ق . م . نقلهم اليها ، حيث اكتسب بوليبيوس صداقة عدد من أعظم الرومان شأنا وبخاصة سكيبيو أيميليانوس (S. Aemilianus) ، وكان أبرز قائد روماني يومئـــذ . وبفضل معيشة بوليبيوس في روما واتصـــالاته بقادة الرأي فيها ، استطاع الوقوف على دخائل أساليب الرومان السياسية والعسكرية مما أقنعه بأن الأمبراطورية الرومانية الناشئة سوف تعمر طويلا . ومن أجل إقناع مواطنيه بهذه الحقيقة المريرة وفي الوقت نفسه لا يرقى الشك اليها ، كتب تاريخا

سياسيا عاما لأقاليم البحر المتوسط منذ عام ٢٦٤ ق . م . حتى عام ١٤٥ ق . م .
وهذا الكتاب يتألف من أربعين جزءا ويشرح كيفية وقوع هذه الأقاليم تحت
سيطرة روما . ويعتبر بوليبيوس مؤرخا أمينا يتوخى الصدق وعرض الحقائق بأسلوب
بسيط ، مستخدما قدرة المؤرخ المدرب على النقد والتحليل وحكمة السياسي
الخبير بشئون الدنيا [١] . ولم يصل الينا كاملا من كتاب بوليبيوس الا الأجزاء
الخمسة الأولى ، ووصلتنا من الأجزاء الخمسة والثلاثين الأخرى فصلات متفرقة ،
ولكنه قبل أن تضيع بقية هذه الأجزاء اعتمد عليها ليفيوس وديودوروس الصقلي
وبلوتارخوس وأبيانوس الإسكندري .

ولما كانت الأجزاء الخمسة الأولى من كتاب بوليبيوس تقف عند أحداث
عام ٢١٦ ق . م . فإننا مضطرون إلى الاعتماد على أولئك المؤرخين الثلاثة
الذين اعتمدوا على كتاب بوليبيوس الكامل وكتبوا بعده بفترة طويلة . وأهم
هؤلاء الثلاثة هو المؤرخ الروماني ليفيوس (٥٩ ق . م . — ١٧ م .) الذي
يعتبر أعظم المؤرخين الرومان جميعا. وتعزى مكانة ليفيوس إلى عاملين : واحدهما ،
هو قدرته الفائقة على الكتابة والوصف . والعامل الآخر ، هو إسهامه مع الامبراطور
أغسطس في محاولة بعث الفضائل الرومانية القديمة . وخير دليل على ذلك أن
كتابه ليس إلا موكبا متصل الحلقات للأمجاد الرومانية . وأما قيمة كتابه
التاريخية [٢] ، فإنها تتفاوت بتفاوت المصادر التي اعتمد عليها . ذلك أنه حيث

---

(١) عن قيمة كتاب بوليبيوس انظر :
J. Bayet, Polybe, Edition Budé, 1947 etc. ; F.W. Walbank, Historical Commentary of Polybius.

(٢) انظر :
P.G. Walsh, Livy: His Historical Aims and Methods, 1960.
وعن المؤرخين الأغريق والرومان ، انظر :
A.H. Macdonald, Fifty Years of Classical Scholarship, 1954; and Fifty Years of Republican History, J.R.S., 1960, pp. 135 ff.
وعن الشذرات الباقية من المؤلفات الضائعة ، انظر :
H. Peter, Historicorum Romanorum Fragmenta, 1906-1914.

اعتمد على بوليبيوس أو المؤرخين القدامى يمكن الوثوق به ، وأما حيث اعتمد على مصادر أحدث عهدا وأقل احتفالا بالصدق وتوخي الحقيقة ، فإنه يصعب الأخذ بما أورده ، ولا سيما أن أخطر ما يعيبه هو اكتفاؤه بالمراجع المنشورة دون الرجوع إلى الوثائق الأصلية . وقد كتب ليفيوس تاريخ روما منذ وصول أينياس المزعوم إلى إيطاليا حتى عام ٩ ق . م . في ١٤٢ جزءا لم تصل الينا منها إلا الأجزاء العشرة الأولى ، وهي التي تتناول تاريخ روما منذ البداية حتى عام ٢٩٣ ق.م. ، وكذلك الأجزاء (٢١—٤٥) التي تتناول الفترة من عام ٢١٨ ق. م. حتى عام ١٦٧ ق. م. ، فضلا عن ملخصات (periochae أو epitomae) الأجزاء جميعا فيما عدا ملخص الجزءين ١٣٦ و ١٣٧ ، وبعض الشذرات التي تضمنتها بردية عثر عليها في أوكسيرينخوس (Oxyrhynchus = البهنسة في مصر العليا) .

ونستمد معلومات قيمة مما تبقى من تاريخ العالم الذي كتبه ديودوروس الصقلي عند منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، ومن تاريخ الفتوحات الرومانية الذي كتبه أبيانوس الإسكندري في القرن الثاني للميلاد ، ومن تواريخ حياة الزعماء السياسيين والقادة العسكريين التي كتبها بلوتارخوس حوالي أواخر القرن الأول للميلاد . وأما تاريخ مشاهير الرجال الذي كتبه في خلال القرن الأول قبل الميلاد قورنليوس نبوس (Cornelius Nepos) ، صديق شيشرون الحميم، فإن قيمته التاريخية طفيفة . ولا يخلو من الفائدة الرجوع إلى التواريخ الموجزة التي ألفها الكتاب الرومان المتأخرون مثل يوستينوس وفلوروس ويوتروبيوس وأوروسيوس .

ثانيا — قرطجنة

في غمرة انهماك روما بتوحيد شبه الجزيرة الإيطالية تحت سيطرتها لم تول

= وكذلك :

F. Jacoby, Die Fragmente der griechischen Historiker, Vol. VIII C, 1958.
حيث توجد بقايا المؤلفات الإغريقية التي تتناول تاريخ روما وايطاليا .

اهتماما كبيرا إلى التجارة الخارجية أو تلق بالا على الإطلاق إلى الأحداث الجارية خارج إيطاليا، ولكنها عندما أصبحت سيدة شبه الجزيرة الإيطالية، وبذلك غدت إحدى القوى الكبرى في البحر المتوسط، أخذت تنظر إلى الأمور نظرة جديدة كان مبعثها الانتصارات التي أحرزتها والمكانة الكبيرة التي احتلتها والكفاية العسكرية التي أظهرتها، فضلا عن الأطماع الجديدة التي أخذت تراودها. وإزاء ذلك كله كان طبيعيا أن تنزل روما إلى معترك السياسة الدولية.

وفي ذلك الوقت كانت القوى العظمى هي مصر وسوريا ومقدونيا في شرق البحر المتوسط، وقرطجنة في غرب هذا البحر. ولما كان العامل الحاسم في الاتجاه الذي اتخذته سياسة روما الخارجية طوال البقية الباقية من القرن الثالث قبل الميلاد هو سيطرة قرطجنة على غرب البحر المتوسط ابتداء من صقلية حتى مضيق جبل طارق مما أفضى إلى صراع عنيف بين هذين العملاقين، فإننا وقد أحطنا علما بشئون روما يجمل بنا الآن أن نستعرض في إيجاز مكامن قوة قرطجنة ومواطن ضعفها لكي يسهل علينا تفهم النتيجة التي انتهى إليها الصراع في غرب البحر المتوسط.

١ - امبراطورية قرطجنة

كانت قرطجنة تقع على شاطىء أفريقيا الشمالي قرب مدينة تونس الحالية تجاه الطرف الغربي لجزيرة صقلية. وقد أسس قرطجنة مستعمرون فينيقيون من مدينة صور عند أواخر القرن التاسع قبل الميلاد حوالي عام ٨٢٥ أو ٨١٤ ق. م. وبذلك كانت إحدى المستعمرات التي أنشأها الفينيقيون في غرب البحر المتوسط، بيد أن قرطجنة أخذت تنمو سريعا حتى غدت أعظم المستعمرات الفينيقية في الغرب. وفي هذه الأثناء كانت فينيقيا ذاتها آخذة في الاضمحلال أمام توسع الأشوريين ووقوعها في قبضتهم، مما حدا بالمستعمرات الفينيقية في الغرب إلى

قطع صلاتها السياسية بالمدن أمهاتها وإلى الاعتماد على جهودها الذاتية في الصمود أمام منافسة التجار والمستعمرين الإغريق .

وقد انتهزت قرطجنة هذه الفرصة لتنصب نفسها حامية لذمار المستعمرات الفينيقية في غرب البحر المتوسط ، ثم أخذت منذ القرن السادس قبل الميلاد تبسط سيطرتها تدريجا على هذه المستعمرات الحليفة ، وعلى عدد من الجزر الواقعة في غرب البحر المتوسط ، وتحول أهم المراكز التجارية الفينيقية المؤقتة إلى مستعمرات دائمة تابعة لهـا مثل لبـدة (Leptis Magna) وصبراته (Sabratha) وأويا (Oea) في ليبيا . وفضلا عن ذلك فإن قرطجنة عملت على بسط سيطرتها على الليبيين المقيمين في المناطق المجاورة لها ، شرقا وغربا ، وكذلك على نشر نفوذها على كثير من القبائل النازلة في جنوب اسبانيا وشرقها . وتبعا لذلك كانت امبراطورية قرطجنة في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد لا تشمل شاطئ إفريقيا الشمالي ابتداء من خليج سرت إلى ما وراء جبل طارق فحسب بل أيضا بعض أجزاء من شاطئ إسبانيا الجنوبي وجزر البليار وقورسيقا وسردينيا وكذلك جانبا كبيرا من جزيرة صقلية .

وقد كانت امبراطورية قرطجنة في ذروة مجدها تتألف من : أولا ، قرطجنة ذاتها ، وكانت مدينة كبيرة يقال إن عدد سكانها بلغ ٧٠٠,٠٠٠ نسمة قبل تدميرها في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد . وهذا الرقم يبدو معقولا اذا كان يشمل كل فئات السكان ، فقد قدر عدد مواطنيها بما يتراوح بين ٢٠٠,٠٠٠ و ٣٠٠,٠٠٠ مواطن . وثانيا ، المستعمرات الفينيقية ، القديمة منها والحديثة ، وهي التي كانت حليفات تابعة لقرطجنة مع تمتعها بالحكم الذاتي . وثالثا ، المدن والأقاليم التي كان يسكنها جنس خليط يسمى الليبيين الفينيقيين . وكانوا رعايا يتمتعون بمركز خاص وبالتزاوج مع القرطجنيين وبامتلاك الأرض . ورابعا ، الرعايا الليبيين النازلين في المناطق المجاورة لقرطجنة والخاضعين لحكمها مباشرة .

وخامسا ، القبائل الليبية المقيمة خارج هذه المناطق ، ولكن قرطجنة عملت على بسط نفوذها على هذه القبائل عن طريق العلاقات التي أنشأتها مع زعمائها ، وكذلك عن طريق الروابط التجارية الوثيقة بين قرطجنة وحليفاتها وبين هذه القبائل ، فهي التي كانت وسيلة تبادل السلع بين الثغور والدواخل . وسادسا ، القبائل الإسبانية التي سيطرت قرطجنة عليها وعلى مناجم النحاس والفضة المجاورة لها . وسابعا ، جزر البليار وقورسيقا و سردينيا وجانب من صقلية حيث أعطت قرطجنة رعاياها من الحرية أكثر مما أعطته لرعاياها الآخرين .

وقد أعفت قرطجنة حليفاتها الفينيقية التابعة لها من أعباء الدفاع عن نفسها ولكنها فرضت عليها وكذلك على رعاياها الليبيين والإسبانيين الخاضعين لسيادتها تزويدها بالمؤنة والجنود أو السفن في زمن الحرب ، فضلا عن أداء جزية سنوية مرتفعة نضرب مثلا لها ما يحدثنا به ليفيوس من أن قرطجنة فرضت على لبدة أن تؤدي لها يوميا جزية قدرها تالنت (= حوالي ٢٣٠ جنيها استرلينيا) وهو ما كان يعادل أجر ٢٥٠٠ عامل في اليوم . وحتى اذا صح — وهذا أمر غير مستبعد — أن لبدة كانت عاصمة إقليم المدن الثلاث (طرابلس) ، وأن هذه المدن كانت تسهم في أداء هذه الجزية ، فلا شك في أن هذه الجزية كانت مرتفعة وكفيلة بأن تعرقل نمو المدن الثلاث ، فما بالنا اذا كانت لبدة وحدها هي التي تؤدي هذه الجزية المرتفعة ، وكان على المدينتين الأخريين (أويا وسبراطة) أن تؤدي لقرطجنة جزية ثقيلة مماثلة ، ولا سيما اذا أخذنا في الاعتبار أن قرطجنة احتكرت لنفسها التجارة الخارجية ؟

ويظهر على الفور مقدار حرص قرطجنة على مناطق نفوذها من إغلاقها موانىء إمبراطوريتها في وجه جميع التجار الأجانب ومن إصرارها على ضرورة أن تمر بها التجارة الخارجية جميعها وحتى لو كانت المدن الفينيقية مصدرها ، وهو ما يتضح من نصوص المعاهدتين اللتين عقدتهما مع روما ومر بنا ذكرهما . ويبدو أن الأسلوب نفسه ، أسلوب السيطرة على أقاليم داخلية لم تقهر

عن طريق السيطرة على الشواطىء لم تتبعه قرطجنة في ليبيا فحسب بل اتبعته أيضا في سردينيا وقورسيقا وجزر البليار . ويبدو أن قرطجنة اتبعت الأسلوب نفسه في إسبانيا كذلك بعد قضائها على مدينتي تارتسوس (Tartessus) ومايناقي (Maenace) في الجنوب حوالي آخر القرن السادس قبل الميلاد ، لأن قرطجنة بسيطرتها على الشاطىء الجنوبي وجزء من الشاطىء الشرقي بسطت سيطرتها على عدد كبير من القبائل الإسبانية والمناجم المجاورة لها . ذلك أن المخلفات الأثرية تدل على انتشار تأثيرات فينيقية منذ حوالي عام ٥٠٠ ق . م . في مناطق إسبانية تمتد إلى ما وراء الأندلس شمالا حتى سلسلة جبال مورنا (Sierra Morena) . بيد أنه حوالي عام ٤٠٠ ق . م . تعاون إغريق ماسيليا — منافسو القرطجنيين الأشداء منذ عهد بعيد — مع القبائل الإسبانية في القضاء على هذه الإمبراطورية الإسبانية الباكرة . فلم يبق لقرطجنة هناك إلا بعض أجزاء من الشاطىء الجنوبي إلى أن أعادت بناء قوتها في إسبانيا بعد الحرب البونية الأولى على نحو ما سنرى . وأما في صقلية ، فإنه بسبب كثرة الإغريق وقوتهم هناك لم يكن مركز قرطجنة قويا الا في غرب هذه الجزيرة ، ومن مراكزها الحصينة في هذه المنطقة حاولت بسط سلطانها في صقلية قدر الاستطاعة مع حرصها في الوقت نفسه على أن تمنح رعاياها هناك قدرا من الحرية أكبر مما منحته رعاياها في جهات أخرى ، وأن تكون كذلك أكثر رحمة بحلفائها هناك منها بحلفائها الآخرين .

ولا جدال في أن درجات الخضوع لقرطجنة وأشكال سيطرتها وأبعاد نفوذها كانت تتباين تباينا كبيرا تبعا للظروف المحلية ، وإن كان يبدو أن رعاياها بوجه عام كانوا أوفياء لها إلى الحد الذي ينتظر من شعوب خاضعة لدولة تستغلها لصوالحها الخاصة . ولعل أهم مكمن للخطر على قرطجنة كان في المناطق المجاورة لها بالذات ، حيث كان نيرها أثقل منه في أي مكان آخر ، ولذلك فإنه لم يكن عسيرا على عدو غازٍ أن يشعل لهيب الثورة بين الليبيين أو الليبيين الفينيقيين ، وأن

يغري جحافل العبيد على الانقضاض على ضياع الأثرياء .

٢ — دستور قرطجنة

وليست لدينا إلا معلومات طفيفة عن دستور قرطجنة [١] ، فنحن لا نعرف إلا معالمه الرئيسية وهي التي نتبين منها أن قرطجنة كانت جمهورية نظام حكمها أوليجاركيا ، فقد كانت مقاليد الأمور في قبضة نفر قليل من أثرياء التجار الذين ينتمون إلى الأسر العريقة ، مما يذكرنا بالأوضاع في البندقية في العصور الوسطى . وقد كان على رأس الدولة حاكمان (سوفتس Suffetes) ينتخبان سنويا مثل ما كانت عليه الحال في روما . وكانت السلطة السياسية تتركز في مجلس الشيوخ المؤلف من ثلاثمائة عضو ، بيد أن لجنة الثلاثين المؤلفة من أكثر أعضاء هذا المجلس نفوذا — ومن المرجح أن السوفتس كانا من بين أعضائها — هي التي كانت في قبضتها السلطة الفعلية ، فقد كانت تجتمع بانتظام وكانت في الواقع أداة الحكم الرئيسية . وأما باقي أعضاء مجلس الشيوخ ، فإنهم فيما يبدو كانوا لا يدعون إلا في مناسبات خاصة . وقد كانت توجد جمعية شعبية تتألف من كل المواطنين الذين تتوافر لديهم مؤهلات السن والثروة . وكانت هذه الجمعية هي التي تنتخب سنويا السوفتس والقواد ، وتنظر في الشئون التي تعرض عليها ويبدي أعضاؤها آراءهم بحرية كاملة . ولكنه كان يحد من سلطة الجمعية الشعبية أن مجلس الشيوخ هو الذي كان يعرض عليها أسماء المرشحين للانتخاب — وكانوا بطبيعة الحال من طبقته — وكذلك ما يتراءى له من الشئون العامة . ولعل أفعل العوامل أثرا في شل العنصر الديمقراطي في الدستور كان الرشوة الصريحة المعترف بها وهي ما يدعوها أرسطو شراء المناصب ، ولا سيما أنه كان يُسمح بإعادة الانتخاب للمنصب نفسه بل بتولي أكثر من منصب واحد في وقت واحد . واذا كانت الجمعية الشعبية قد ازدادت قوة في وقت الحروب

---

(١) Arist., Politics, II, 11, and excursus IV, ed. Susemihl and Hicks, pp. 340-350

البونية بفضل زعامة أسرة بارقا (Barca) الشهيرة — وهي التي أنجبت هاميلقار وهانيبال — فإن ذلك لم يؤد إلى القضاء على حكم الأقلية وقيام نظام ديمقراطي .

وفي خلال القرن الخامس قبل الميلاد أنشئت محكمة عليا تتألف من ١٠٤ من القضاة . ويقال إن هذه المحكمة أنشئت لتضع حدا لنفوذ أسرة ماجو (Mago) وكانت أوسع الأسر نفوذا عندئذ وتميل إلى الاستئثار بالسلطة . وكان أعضاء هذه المحكمة يختارون من بين أعضاء مجلس الشيوخ ، وكان يقوم باختيارهم جماعة من الحكام يدعوهم أرسطو الهيئات الخماسية (Pentarchies) . ولما كان اختصاص المحكمة العليا هو محاسبة الحكام على أعمالهم ، وكان المحاسبون والمحاسَبون جميعا ينتمون إلى الطبقة الأوليجاركية ، وكانت الرشوة فاشية ، فإن الدولة أصبحت في قبضة قضاة وحكام فاسدين إلى أن طهر هانيبال أداة الحكم من هذا الفساد في أواخر أيام قرطجنة .

ولكي يتيسر لنا أن نتبين كيف استطاعت فئة قليلة أن تسيطر على الحكم في قرطجنة أمدا طويلا برغم ما كان بين هذه الأقلية من تنافس شديد على تولي الوظائف العامة وعضوية لجنة الثلاثين وعضوية المحكمة العليا ، يجب ألا يفوتنا أنه على الرغم من أن أثرياء القرطجنيين — أو على حد تعبير الرومان « البونيين » Poeni أي الفينيقيين — كانوا يزهون بضياعهم (وكانت تقع في وادي باجراداس Bagradas الخصيب وتقوم أعداد كبيرة من العبيد على فلاحتها وفقا لأحدث الأساليب) ، فإن الزراعة لم تستهو القرطجنيين بوجه عام ولذلك تركوا أمرها لليبيين . واذا كان بعض القرطجنيين يزاولون الزراعة والبعض الآخر يمارسون عددا من الصناعات مثل النسيج والصباغة وصنع الآنية المعدنية والفخارية ، فإن الغالبية العظمى منهم كانت تشتغل بالتجارة . وتبعا لذلك كانت توجد صوالح تجارية واقتصادية مشتركة بين الأقلية الحاكمة والغالبية المحكومة. ولعل هذه الصوالح المشتركة كانت من أهم العوامل التي حافظت على استقرار الأوضاع

القائمة . ولا سيما أن أكثر عامة المواطنين كانوا دائبي الحركة في ممارسة نشاطهم التجاري . ذلك أننا إذا أخذنا في الاعتبار نشاط القرطجنيين التجاري المحموم ، وعدد أولئك الذين كانوا في رحلات تجارية في أي وقت ، وعدد العائدين من رحلاتهم وفي شغل بالاستعداد لرحلات أخرى ، وعدد المبحرين في رحلات جديدة ، اتضح لنا أن نسبة كبيرة من المواطنين القرطجنيين كانت بحكم طبيعة عملها وانكبابها على ممارسته لا تعير الشئون السياسية أكثر من اهتمام ثانوي . وفي مثل هذه الظروف كانت الرشوة تجد مرتعا خصبا ، ولا سيما أن قوة المال كانت أفعل العوامل أثرا وأمضى سلاحا في قرطجنة .

٣ – موارد قرطجنة وقواتها البرية والبحرية

ومن أجل الحفاظ على نظام الحكم وعلى الامبراطورية كانت قرطجنة في حاجة إلى موارد طائلة وقوات ضخمة وكانت موارد الدولة هي الجزية والمكوس الجمركية ، ومن ثم فإن ثراءها كان يتوقف على الاحتفاظ بامبراطوريتها وباحتكار التجارة في غرب البحر المتوسط ، مما كان يقتضي أن تكون لديها قوات كبيرة برية وبحرية . وكانت القوات البرية تتألف في أول الأمر من المواطنين القرطجنيين ومن الرعايا والحلفاء ، ومن الجنود المرتزقة . غير أنه لم يواف القرن الثالث قبل الميلاد حتى أصبح المواطنون القرطجنيون لا يخدمون في جيش وطنهم إلا ضباطاً أو في الحروب التي كانت قرطجنة تخوض غمارها في إفريقيا ذاتها . وتبعا لذلك لم يعد لقرطجنة جيش قومي نظامي مثل الجيش الروماني ، لأن قواتها أصبحت تتألف من حلفائها ورعاياها ومن جنود مرتزقة كانت تشتري خدماتهم على نطاق واسع من الشعوب المحبة للحرب مثل الغال والاسبان والليبيين والإغريق . وعندما وجد الرعايا الإفريقيون أنهم لم يعودوا يحاربون جنبا إلى جنب المواطنين القرطجنيين وإنما مع الحلفاء والمرتزقة ، ازداد شعورهم بأهميتهم . وكان ازدياد هذا الشعور ملحوظا بوجه خاص بين النوميديين تبعا لازدياد اعتماد قرطجنة على فرسانهم .

وبرغم ما اتصف به المرتزقة من شجاعة ومهارة في القتال ، فأن شأنهم شان الجنود المرتزقة كافة كانوا عرضة لخوار العزيمة والفتنة اذا ما تعاقبت عليهم الهزائم أو تأخرت رواتبهم أو لم تكن الأسلاب كافية لسد نهمهم . وإزاء ذلك كله وتكوين الجيش من عناصر متباينة . تفتقر إلى الوازع الوطني وتميل إلى الخروج على النظام ، كان الجيش دائما مصدر خطر كبير على قرطجنة . بيد أنه كان يتولى قيادة هذه القوات ضباط قرطجنيون احترفوا الخدمة العسكرية وبذلك توافر لهم من الخبرة ما لم يتوافر للقناصل الرومان وهم الذين كانوا عادة يتغيرون في كل عام . وحين كان يتولى القيادة العامة قائد بارع يستطيع الإمساك بزمام هذه القوات وتنظيمها ، كان يجعل منها أداة محاربة ممتازة . ولما لم تكن قيادة مثل هذه القوات أمرا يسيرا ، فإن القواد كانوا يتمتعون بسلطات واسعة تمكنهم من السيطرة على قواتهم . وإذا كان القواد لا يحاسبون على الخسائر في الأرواح ، فإنهم كانوا يحاسبون حسابا عسيرا على الفشل في تحقيق الأهداف المنشودة ، فكم قضت المحكمة العليا بإعدام القواد الفاشلين . واذا جاز لنا أن نصدق الروايات المعادية للقرطجنيين ، فإنه يبدو أنه كان من الحكمة أن يخفي القائد المنتصر في البر أو في البحر مدى انتصاره لأنه كان من الخطر البين إثارة غيرة أولئك الذين كانت بأيديهم مقاليد الأمور في قرطجنة ، فقد كان حرصهم على الحفاظ للطبقة الحاكمة بسلطتها يدفعهم إلى مناهضة القواد النابهين خشية أن تحدثهم أنفسهم بإقامة دكتاتورية عسكرية .

وتشهد الروايات القديمة كافة بمهارة قوات قرطجنة البحرية وكفايتها . ويؤيد ذلك أن قرطجنة اغتصبت سيادة البحار الغربية من إغريق سراقوسة وتارنتم ، بيد أنه عندما أخذ الرومان عن القرطجنيين طراز سفنهم وكونوا لأنفسهم أسطولا لم يلبثوا أن اكتسبوا تدريجا سيادة البحار . ولعل إطراء الكتاب الرومان للأسطول القرطجني كان الباعث عليه من ناحية إعجابا حقيقيا ، ومن ناحية أخرى رغبة الإغراق في الإشادة بما أحرزه مواطنوهم من انتصارات على مثل هذا الأسطول .

ولسوء الحظ أننا لا نعرف ممن كان يتكون رجال الأسطول القرطجني . وإن كنا نعرف أن عدد سفن هذا الأسطول وصل إلى حوالي ٢٥٠ سفينة حربية في خلال الحرب البونية الأولى ، وأن كل سفينة حربية [١] في القرن الثالث قبل الميلاد كانت تحتاج عادة إلى ٣٠٠ مجدف [٢] فضلا عن ١٢٠ مقاتلاً . ومعنى ذلك أن الأسطول القرطجني كان يضم عندئذ حوالي ٧٥,٠٠٠ مجدف وحوالي ٣٦,٠٠٠ مقاتل . واذا كان من المرجح أن المجدفين كانوا من العبيد والمأجورين ، فإنه لا يمكن الجزم اذا كان المقاتلون من المرتزقة أم من المواطنين . وعلى كل حال فإنه ، وفقا لما يرويه بوليبيوس وتؤكده نتائج الحروب البونية ، لم يكن هؤلاء المقاتلون أندادا للرومان . وأما عن ضباط الأسطول فإنه لا جدال في أنهم كانوا مثل ضباط الجيش من المواطنين المحترفين وعلى درجة عالية من الكفاية.

٤ – سياسة قرطجنة الخارجية

وقد كان هدف السياسة الخارجية التي اتبعتها قرطجنة هو الحفاظ على صوالحها التجارية بضمان سيطرتها على غرب البحر المتوسط . ولم تكن قرطجنة تخوض غمار أية حرب دون أن يكون لها هدف محدد يعود عليها بنوع ما من المكاسب . ومع استعداد قرطجنة للدفاع عن صوالحها بالقوة المسلحة اذا اقتضى الأمر – وهو ما يتضح مما مر بنا من صراعها مع الإغريق – فإنها كانت تفضل اجتناب الحرب إذا أمكن تحقيق بغيتها بالوسائل السلمية . وقد عرفنا كيف أنها عقدت أواصر الود والصداقة مع مدن اتروريا الساحلية في خلال القرن السادس قبل الميلاد وتعاونت معها في القضاء على ما كان للفوقايين من سيادة على البحر

---

(١) يسمى هذا النوع من السفن الحربية « كوينكريم » (quinquereme) أي الخماسية . ويرجح الآن أن سبب هذه التسمية يرجع إلى أنه كان يدير كل مجداف في السفينة خمسة رجال ، وأن عدد المجاديف في كل سفينة كان حوالي ستين مجدافا . انظر :
W.W. Tarn, Hellenistic Military and Naval Developments, pp. 129 ff.

(٢) Polyb., I, 26.

التيراني . وعرفنا كذلك أن قرطجنة عقدت مع روما معاهدتين تجاريتين في صدر عهد الجمهورية وعند منتصف القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم معاهدة عسكرية في عام ٢٧٩ ق . م . على أمل أن يظل بورّوس منهمكا في القتال مع روما فلا يولي اهتمامه إلى مساعدة إغريق صقلية ضدها .

ومما يجدر بالملاحظة : أولا ، أنه قد نُص في هذه المعاهدات الثلاث على ألا تكون لقرطجنة قواعد دائمة في ايطاليا . وثانيا ، أنه فيما بين عامي ٣٥٠ و ٢٧٠ ق . م . أنشأت روما على الساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية ، إبتداء من اترووريا حتى قمبانيا ، سلسلة من المستعمرات العسكرية الرومانية البحت . وثالثا ، أنه في عام ٣١١ ق.م. أنشأ الرومان هيئة ثنائية بحرية[١] (Duoviri Navales) لتتولى أمر حراسة الشواطىء الإيطالية بأسطول صغير . ذلك أنه وفقـا لما جاء عند ليفيوس [٢] لم يكن تحت إمـرة كل عضو من عضوي هذه الهيئة سوى عشر سفن حربية .

وإن دل ذلك كله على شيء ، فإنه يدل على أنه برغم الصلات الودية التي كانت قائمة بين روما وقرطجنة ، فإنه منذ زمن بعيد كانت الشكوك تساور الرومان من ناحية قرطجنة ويخشون أن تسيطر على شواطىء إيطاليا مثل ما سيطرت على شواطىء أفريقيا وإسبانيا . ومع ازدياد قوة روما وامتداد سيطرتها حتى مشارف امبراطورية قرطجنة لم يكن هناك مفر من وقوع صدام بين هاتين القوتين .

ثالثا – مشكلة مسانا (مسينيا) تعجل بوقوع الصدام

عرفنا أنه في أعقاب وفاة أجاثوقلس طاغية سراقوسة ترك المرتزقة القمبانيون « الماميرتيني » خدمة سراقوسة واستولوا في حوالي عام ٢٨٨ ق . م . على مسانا

(١) Liv., IX, 30, 4.

(٢) Liv., XL, 18, 7-8.

وجعلوها قاعدة لإغاراتهم على أقاليم المدن الإغريقية في صقلية . ولما كان المامرتيني يشكلون خطرا شديدا على جارتهم سراقوسة ، فإنه بعد أن آلت مقاليد الحكم فيها إلى هيرو (Hiero) — وهو الذي اتخذ لقب ملك في عـام ٢٦٥ ق . م . — حاصر مسانا في عام ٢٦٤ ق . م . حصارا شديدا وأصبح سقوطها في قبضته أمرا يكاد أن يكون مؤكداً . وإزاء ذلك ناشد المامرتيني المساعدة من أسطول قرطجني يبدو أنه كان قريبا من مسرح الأحداث الجارية هناك توقعاً لمثل هذا الاحتمال ، فقد كانت قرطجنة شديدة الحرص على الحيلولة دون اتساع سيطرة سراقوسة . وعندما نجح الأسطول القرطجني في رفع الحصار ولكنه ظل راسيا في مسانا ، خشي المامرتيني أن تفرض قرطجنة سيطرتها عليهم . ولذلك رأوا أنه لا مخرج لهم من هذه الورطة إلا بأن يطلبوا إلى روما إدخالهم في زمرة رعاياها .

وإذ أدرك السناتو أنه كان من شأن استيلاء قرطجنة على مسانا تهديد سلامة جنوب إيطاليا وحرية سفن روما وسفن حلفائها في استخدام مضيق مسانا ، أدرك كذلك أن الاستجابة إلى طلب المامرتيني قد يؤدي إلى الاشتباك مع قرطجنة في حرب بحرية ، وأن الرومان لم تكن لهم خبرة بمثل هذه الحرب ولا أسطول يضارع من قرب أو بعد أسطول قرطجنة . وإزاء هذه الاعتبارات نستطيع أن نفهم سر انقسام الآراء في السناتو بصدد هذه المشكلة وإحالته إياها دون توجيه محدد إلى جمعية المئينات ، فيما يرجح . ولما كان المواطنون الرومان يستشعرون الحاجة إلى الراحة بعد المجهود المضني الذي بذلوه في السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية وبخاصة في أثناء الصراع مع بوروس ، فإنه ملك الجمعية الشعبية أيضا التردد والحيرة إلى أن أقنعها القنصلان بالموافقة على التحالف مع المامرتيني لما ينطوي عليه إرسال حملة إلى صقلية من « مكاسب » طائلة ، أي المجد العسكري وأسلاب الحرب . بيد أن الجمعية لم تذهب إلى أبعد من الموافقة على المحالفة وإرسال نجدة فورا إلى مسانا ، حيث حققت النجدة هدفها دون إراقة أي دماء لأنه عند ظهور الرومان على غير توقع انسحب الأسطول القرطجني بسلام .

غير أنه لما لم يكن في نية حكومة قرطجنة التفريط في هذه الغنيمة بمثل هذه السهولة ، فإنها على الفور أرسلت حملة لاستعادتها وحرضت هيرو على الانضمام إلى جانبها لطرد الدخلاء الرومان من صقلية وقام الفريقان بمحاصرة مسانا ، مما حدا بالسناتو إلى حشد فرقتين وإرسالهما بقيادة القنصل أبيوس قلاوديوس لتعزيز النجدة . وعندما نجحت التعزيزات في عبور البحر والوصول إلى مسانا ، تمكن الرومان من رفع الحصار عنها بهزيمة القوتين المتحالفتين . وعلى هذا النحو أنقذت روما مسانا ، ولكنها في الوقت نفسه أشعلت فتيل الحرب بينها وبين قرطجنة وسراقوسة .

رابعا : الحرب البونية الأولى : ٢٦٣ – ٢٤١ ق . م .

ويمكن تقسيم هذه الحرب إلى ثلاث مراحل على النحو التالي :

١ – المرحلة الأولى : ٢٦٣ – ٢٥٦ ق . م .

وفي عام ٢٦٣ ق . م . أنفذ الرومان إلى صقلية جيشا كبيرا من مواطنيها وحلفائها (حوالي ٤٠,٠٠٠ فيما يرجح) بقيادة القنصل مانيوس فالريوس (Manius Valerius) لمعاقبة هيرو على انضمـــامه إلى القرطجنيين . وقد اجتاحت القوات الرومانية كل شيء أمامها إلى أن واجهت سراقوسة باستحكاماتها المنيعة ، وهي التي طالما تحطمت عليها غزوات القرطجنيين ، فقام فالريوس بمحاصرة سراقوسة وعرض الصلح على هيرو لقاء دفع غرامة حربية قدرها مائة تالنت (حوالي ٢٥٠٠٠ جنيه أسترليني) والاحتفاظ بإقليم خصب ضيق حول سراقوسة وعقد محالفة مع روما على قدم المساواة لمدة خمسة عشر عاما . وإذ أدرك هيرو أنه من العبث الصراع مع دولة لم يكن ندا لها وأن شروط الصلح معقولة ، قبل ما عرضه عليه فالريوس وعقد معاهدة التحالف مع روما [1] ، وبذلك هجر جانب قرطجنة .

(١) في نهاية هذه المدة ، أي في عام ٢٤٨ ق . م . جددت هذه المعاهدة على أن تكون أبدية . وعلى كل حال فإنها ظلت قائمة حتى وفاة هيرو في عام ٢١٥ ق . م .

ولم تقف قرطجنة مكتوفة الأيدي إزاء ذلك بل أرسلت إلى صقلية جيشا كبيرا قوامه ٥٠,٠٠٠ مقاتل ليحاول محو آثار ما أصابها من فشل ودعم مركزها في هذه الجزيرة . وقد اتخذ هذا الجيش قاعدة له مدينة أجريجنتوم (Agrigentum) ، وكانت مدينة إغريقية تقع عند وسط الشاطىء الجنوبي لصقلية وتربطها بقرطجنة صلات تجارية وثيقة جعلتها تنحاز إلى جانبها . وللقضاء على هذا الخطر في مهده ، زحف الرومان على أجريجنتوم في عام ٢٦٢ ق . م . وحاصروها ، وبعد معركة عنيفة اقتحموا المدينة ودمروها تدميرا وباعوا أهلها في سوق النخاسة .

ولما كان استيلاء الرومان على أجريجنتوم قد أظهر تفوقهم العسكري على عدوهم وأقنعهم بقدرتهم على طرده من صقلية بأجمعها ومن ثم أخذوا يعملون على تحقيق هذا الهدف ، فإن معركة أجريجنتوم تعتبر نقطة تحول في سياسة الرومان الخارجية ، ذلك أنهم منذ هذه المعركة اتجهوا إلى تحقيق أهداف لم تكن قبلتهم في الماضي . ومعنى ذلك أن الأطماع العسكرية هي التي أصبحت توجه سياسة الرومان الخارجية .

وعندما أدرك الرومان أنهم لكي يستطيعوا فتح صقلية وفي الوقت نفسه حماية شواطىء إيطاليا من إغارات الأسطول القرطجني . وكان في ذلك الوقت يتألف من ١٢٠ سفينة حربية ، على حين أنه لم يكن لديهم إلا عدد قليل من السفن الحربية ، وأن الوحدات البحرية التي كان يمكنهم الحصول عليها من المدن البحرية التابعة لهم لم تكن وافية بالغرض . قرروا إنشاء أسطول يزيد عدد سفنه قليلا على عدد سفن الأسطول القرطجني (١) . وهذا يوحي بأن الرومان أصبحوا لا يتطلعون فقط إلى طرد القرطجنيين من صقلية بل أيضا إلى القضاء على سيادتهم البحرية . ومن سخرية القدر أن الرومان اتخذوا من سفينة حربية

(١) عن عدد سفن الفريقين في خلال الحرب البونية الأولى انظر :
W.W. Tarn, J.H.S., 1907, pp. 48 ff.

قرطجنية قديمة هجرها أربابها نموذجا لبناء سفن أسطولهم . ويرجح أن يكون قد ساعدهم على بناء هذا الأسطول حلفاؤهم السراقوسيون ، وكانوا يتمتعون بمهارة فائقة في بناء السفن .

وعندما اكتمل بناء الأسطول في عام ٢٦٠ ق . م . ، اجترأ القنصل جايوس دويليوس (Duilius) على الاشتباك مع الأسطول القرطجني في معركة بحرية تجاه مولاي (Mylae) على الشاطىء الشمالي لصقلية قرب طرفه الشرقي . وبالرغم من أن البحارة القرطجنيين كانوا أمهر من البحارة الرومان وأكثر منهم كفاية وسرعة في المناورة ، فإن الرومان عوضوا ذلك بتفوقهم في القتال وباستخدامهم وسيلة كانت شائعة في وقت ما بين الإغريق ، وكان من شأن هذه الوسيلة تحويل المعارك البحرية إلى اشتباكات على ظهر السفن تماثل الاشتباكات البرية . ذلك أن الرومان زودوا كل سفينة من سفنهم الحربية بما يشبه رافعة عريضة تنتهي بمخطاف وثبتت هذه الرافعة فوق السفينة على نحو يمكن من تحريكها في أي اتجاه ، وعند اقتراب أية سفينة معادية كانت الرافعة تصوب اليها فتشدها إلى السفينة الرومانية وينقض المقاتلون على أعدائهم (١) . وقد أحرز الرومان في هذه المعركة انتصارا باهرا شجعهم على القيام بعدة هجمات على مستعمرات قرطجنة في سردينيا (عام ٢٥٩ ق . م .) وفي قورسيقا (عام ٢٥٨ ق . م .) ، ولكنهم لم يفوزوا بنتيجة حاسمة هناك . وفي الوقت نفسه وحتى عام ٢٥٦ ق . م . تابع الرومان فتح صقلية واستولوا على كل المدن الواقعة في وسط صقلية ، ولكن قرطجنة ظلت محتفظة بمراكزها الرئيسية الواقعة في غرب الجزيرة وهي : ثرماي (٢) (Thermae) وبانورموس (Panormus = بالرمو) ودربانا (Drepana) وليلوبايوم (Lilybaeum)

(١) Polyb., III, 22; W.W. Tarn, Hellenistic Military and Naval Developments, p. 146; J.H. Thiel, Studies on the History of Roman Sea-Power, pp. 432 ff.; H.T. Wallinga, The Boarding-bridge of the Romans; H.H. Scullard, op. cit.; pp. 148-149.

(٢) كانت هذه المدينة تسمى أصلا هيمرا (Himera) إلى أن استولى القرطجنيون عليها ودمروها في عام ٤٠٨ ق . م .

وسلينوس (Selinus) وهرقليامينوا (Heraclea Minoa) . وفي هذه الأثناء أدرك الرومان أنه لن يحسم الصراع إلا إذا كالوا لقرطجنة ضربة قاصمة ، ولما كان مركزهم في صقلية أصبح يتيح لهم الفرصة للانقضاض على قرطجنة ذاتها ، فإنهم عقدوا العزم على غزو أفريقيا وشرعوا في تقوية أسطولهم حتى أصبح يتألف من ٢٥٠ سفينة حربية فضلا عن ٨٠ سفينة للنقل . وبطبيعة الحال لم تغب أنباء هذه الاستعدادات عن قرطجنة فأعدت أسطولا يرجح أنه كان أصغر قليلا من الأسطول الروماني .

٢ – المرحلة الثانية : ٢٥٦ – ٢٥٥ ق . م .

وفي عام ٢٥٦ ق . م . أبحر الأسطول الروماني قاصدا غزو إفريقيا ، وتجاه رأس أقنوموس (Ecnomus) على الشاطىء الجنوبي لصقلية اشتبك معه الأسطول القرطجني في معركة أحرز فيها الأسطول الروماني نصرا أخلى الطريق أمامه بحيث استطاع أن ينزل على الشاطىء الأفريقي دون أية مقاومة حملة الغزاة بقيادة القنصل ماركوس أتيليوس رجولوس (M. Atilius Regulus) . وقد أنزل رجولوس بالقرطجنيين عدة هزائم متتابعة كان من شأنها أنها شجعته على التقدم وإقامة معسكره لقضاء الشتاء على مسيرة يوم واحد من قرطجنة، ودفعت العدو إلى طلب الصلح. غير أن رجولوس عرض شروطا قاسية حفزت القرطجنيين على رفضها مفضلين استئناف القتال بعد انتهاء فصل الشتاء . وفي هذه الأثناء استأجرت قرطجنة خدمات نخبة ممتازة من المرتزقة على رأسهم قائد اسبرطي محترف يدعى زانثيبوس (Xanthippus) . وعلى الفور قام زانثيبوس ورجاله بتدريب الجيش القرطجني وفقا لأفضل أساليب القتال الإغريقية . وما أن وافى ربيع عام ٢٥٥ ق . م . حتى كان الجيش القرطجني في أحسن حال وهزم الجيش الروماني هزيمة فادحة وأسر قائده القنصل رجولوس . ولكنه عندما تصدى الأسطول القرطجني للأسطول الروماني الذي كان قادما بتعزيزات لرجولوس نكب بخسائر جسيمة شلت قوة قرطجنة البحرية على

مدى الأعوام الخمسة التالية . بيد أن الأسطول الروماني المظفر لم يصل إلا بعد انتهاء المعركة البرية ولم يكن في وسعه إلا أن ينقذ فلول الحملة الرومانية . وفي أثناء عودة هذا الأسطول عصفت به الأنواء تجاه شاطىء صقلية الجنوبي وتحطمت أكثر من ٢٥٠ سفينة (من بينها حوالي ١٠٠ سفينة قرطجنية كان قد غنمها في المعركة السابقة) فلم تتبق منه إلا حوالي ١٠٠ سفينة فقط .

٣ ـ المرحلة الثالثة : ٢٥٤ ـ ٢٤١ ق . م .

ولم تدخر روما جهدا ولا مالا في إعادة بناء أسطولها ، ولكنها بدلا من أن تستخدمه في إعادة غزو أفريقيا وجهته إلى التعاون مع الجيش في مهاجمة القواعد القرطجنية الباقية في صقلية . وقد جنت روما أولى ثمار هذا التعديل في خطتها عندما سقطت بانورموس في قبضتها في عام ٢٥٤ ق . م . غير أن نشاطها لم يلبث أن تراخى لأول مرة في خلال الحرب البونية ، ووقف الفريقان يرقب كل منهما الآخر فلم يحدث شيء يذكر حتى عام ٢٥٠ ق . م . عندما حاولت قرطجنة استرداد بانورموس وردت قواتها على أعقابها بخسائر كبيرة ، مما حفز الرومان على استئناف نشاطهم في العام التالي بالزحف على ليلوبايوم ومحاصرة هذه المدينة المنيعة برا وبحرا .

وقد كان من شأن الخطر المحدق بليلوبايوم أنه استنهض همة قرطجنة فأعادت بناء أسطولها ، وفي العام التالي (٢٤٩ ق . م .) ألحق بالأسطول الروماني هزيمتين بالقرب من شواطىء صقلية ، وبذلك استعادت قرطجنة سيادة البحر مؤقتا ، وأتيحت لها فرصة الاستعداد للقيام بهجوم مضاد حاسم على الرومان وقد أنهكت الحرب قواهم واستنفدت مواردهم المالية . وفي عام ٢٤٧ ق . م . أسندت قرطجنة قيادة قواتها في صقلية إلى قائد شاب يدعى هاميلقار بارقا (Hamilcar Barca) . وقد استولى هاميلقار على موقعين منيعين ـ وهما جبل هرقتي (Hercte) قرب بانورموس وجبل أروكس (Eryx) بجوار دربانا ـ واتخذ منهما

قاعدتين لشن إغارات خاطفة ليس فقط على القوات الرومانية التي كانت عندئذ تحاصر ليليبايوم وكذلك دربانا ، بل أيضا على الشواطىء الإيطالية . بيد أن قرطجنة تقاعست عن تزويد هاميلقار بما كان يلزمه سواء من الفرق أم من السفن ليتمكن من خوض معركة برية فاصلة في صقلية أو من تحويل إغاراته الخاطفة على الشواطىء الإيطالية إلى غزو أفعل أثرا .

وفي هذه الأثناء حين تغلب الرومان على مشكلة عجز الخزانة العامة عن مواجهة نفقات الحرب وبناء أسطول جديد بالالتجاء إلى التبرعات الخاصة مما مكنهم من إعداد مائتي سفينة حربية ، قررت حكومة قرطجنة الاقتصاد في النفقات بسحب الجانب الأكبر من أسطولها وتسريح رجاله . وتبعا لذلك عندما تم بناء الأسطول الروماني وذهب في صيف عام ٢٤٢ ق . م . ليضيق خناق الحصار على ليلوبايوم ودربانا من ناحية البحر عجزت قرطجنة عن إعداد أسطولها بحيث يستطيع إنقاذ هاتين القلعتين ، ولم يكن في وسعها أن تفعل أكثر من إرسال نجدة بحرية قابلها الأسطول الروماني خارج دربانا وسحقها في ربيع عام ٢٤١ ق . م . ولما لم يعد هناك أمل في إنقاذ ليلوبايوم ودربانا وأصبح الطريق مفتوحا أمام الرومان ليغزوا إفريقيا ثانية ، فإن قرطجنة قبلت شروط الصلح التي عرضها القنصل جايوس لوتاتيوس قاتولوس (Lutatius Catulus) ،وهو الذي كان يتولى القيادة العليا للأسطول الروماني وعرف هذا الصلح باسمه ، أي صلح قاتولوس .

٤ — نتائج الحرب البونية الأولى

ا — قضت شروط صلح قاتولوس بأن تتنزل قرطجنة للرومان عن كل ما تبقى لها من ممتلكات في صقلية وكذلك عن مجموعة الجزر الواقعة بالقرب من صقلية ، فضلا عن دفع تعويض كبير قدره ٣٢٠٠ تالنت (حوالي ثلاثة أرباع مليون جنيه استرليني) على أقساط سنوية لمدة عشرين عاما .

ب ـ آلت إلى روما السيادة البحرية في غرب البحر المتوسط .

جـ ـ شجع ذلك كله روما على التطلع إلى بناء امبراطورية لها ، ولا سيما أن هذه الحرب أثبتت قدرتها على التعلم من خصومها ، وتفوق مقاتليها على المرتزقة ، ونجاح نظام الحكم الذي وضعته في شبه الجزيرة الإيطالية بدليل بقاء حلفائها على ولائهم لها ومبادرتهم إلى الوفاء بالتزاماتهم برغم كل ما تحملوه من خسائر فادحة على مدى سنين طويلة من القتال المرير . فقد خسر الرومان وحلفاؤهم في البحر فقط حوالي ٥٠٠ سفينة و ٢٠٠,٠٠٠ رجل .

د ـ لم تقتصر نكبة قرطجنة على خسائرها الجسيمة في السفن وفي الرجال ، ولا على إفلات السيادة البحرية من قبضتها بسبب سياستها الخرقاء : في الموازنة الدقيقة بين أرباح كل عملية حربية وخسائرها كما لو كانت صفقة تجارية ، وفي الاعتماد على المرتزقة . ذلك أن هؤلاء المرتزقة الذين أسهموا في الفشل العسكري لم يلبثوا بعد الحرب أن أضافوا إلى نكبة الهزيمة نكبات أخرى لم يفد منها إلا الرومان .

وبيان ذلك أنه ما أن عاد المرتزقة من صقلية حتى طالبوا حكومة قرطجنة بدفع المرتبات السخية التي كان قائدهم هاميلقار قد وعدهم بها . وعندما رفضت الحكومة مطالبهم أشعلوا لهيب الثورة بين الليبيين ، فلم تلبث قرطجنة أن وجدت نفسها مشتبكة في حرب [1] أشد ضراوة وعنفا من الحرب التي خرجت منها . بيد أنه عندما أسندت القيادة العليا إلى هاميلقار تمكن من القضاء على الثوار (عام ٢٣٨ ق . م .) فتنفست قرطجنة الصعداء بعد ثلاث سنوات من الشقاء .

وفي أثناء اشتعال هذه الحرب أظهر الرومان عطفا شديدا على قرطجنة ، فقد زودوها بإمدادات كان حلفاؤهم يريدون بيعها للثوار ، بل سمحت لقرطجنة بتجنيد فرق من الإيطاليين . وعندما ثارت حامية سردينيا على قرطجنة في عام

(١) عن تفاصيل هذه الحرب انظر :
Polyb., III, 75 ff.

٢٣٩ ق . م . وعرضت على الرومان أن تسلمهم الجزيرة ، رفضوا هذا العرض . بيد أنه ما أن انتهت حرب الثوار في أفريقيا حتى غيّر الرومان موقفهم ، ذلك أنه عندما جاء الرومان في عام ٢٣٨ ق . م . عرض ثان من مرتزقة قرطجنة في سردينيا ، قبل السناتو هذا العرض وأرسل قوة احتلت المراكز القرطجنية الواقعة في الجنوب الغربي بسردينيا . وعندما احتجت قرطجنة على هذه القرصنة وشرعت في إعداد حملة ضد مرتزقتها الخارجين على طاعتها ، اعتبر السناتو ذلك عملا عدائيا من جانب قرطجنة وأعلن عليها الحرب إلا إذا آثرت السلم بشرط أن تنزل للرومان عن سردينيا وقورسيقا ، وأن تدفع تعويضا إضافيا قدره ١٢٠٠ تالنت (حوالي ٣٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني) . ولما لم يكن في وسع قرطجنة عندئذ الاشتباك ثانية مع الرومان ، فإنها اضطرت إلى قبول شروط السلم ، وبذلك أصبح البحر التيراني بحيرة رومانية .

وإذا كان يمكن تفسير تصرف روما في هذه المسألة بأنه كان بمثابة إجراء وقائي ضد احتمال تغير سياسة قرطجنة بتأثير من هاميلقار ، فإنه ينهض دليلا على أمرين : وأحدهما ، هو السياسة الاستعمارية التي أخذت روما تنتهجها على الأقل منذ الاستيلاء على أجريجنتوم . والأمر الآخر ، هو بطلان الزعم القائل بأن روما كانت تتوخى العدل والإنصاف في معاملاتها مع الدول الأخرى . وعلى كل حال فإنه لم يكن من شأن ما أقدمت عليه روما القضاء على روح الثأر في قرطجنة بل شد أزرها وتغذيتها .

وفي عام ٢٢٧ ق . م . حددت روما وضع الممتلكات التي أحرزتها خارج إيطاليا بتحويلها إلى ولايتين (provinciae) كانت إحداهما تشمل صقلية كلها ما عدا مملكة هيرو ، والأخرى تشمل جزيرتي سردينيا وقورسيقا معا . ولهذا السبب زيد عندئذ عدد البرايتورس إلى أربعة ليتولى اثنان منهم حكم هاتين الولايتين.

خامسا – الحرب مع إلّوريا (Illyria) : ٢٢٩ – ٢١٩ ق . م .

حين تولت روما أمر علاقات حلفائها مع الدول الأجنبية ، تحملت في الوقت نفسه الدفاع عن صوالح هؤلاء الحلفاء . وقد كان الاضطلاع بهذه المسئولية هو الذي أفضى إلى التدخل الروماني عبر الأدرياتي . وبيان ذلك أنه في أثناء الحرب البونية الأولى وحّد الملك أجرون (Agron) القبائل شبه المتبربرة التي كانت تعيش في أرجاء إلّوريا (يوغوسلافيا على وجه التقريب) تحت حكمه وجعل القرصنة البحرية المورد الرئيسي لمملكته . وعندما تحالف أجرون ، قبيل وفاته في عام ٢٣١ ق . م . ، مع مقدونيا في حروبها ضد أبيروس (البانيا) وعصبتي ايتوليا وآخايا أخذ نشاط القراصنة الالوريين يمتد من البحر الأدرياتي إلى البحر الإيوني الواقع جنوبيه . وعندما توفي أجرون وخلفته زوجته الملكة تيوتا (Teuta) ، تابعت سياسته التوسعية ، وفي عام ٢٣٠ ق . م . استولت على عدد من المدن الإغريقية وكذلك على جانب كبير من أبيروس وأقارنانيا وبذلك أصبح نفوذ إلوريا يمتد إلى خليج قورنثة ، كما أصبح القراصنة الالوريون يمارسون نشاطهم على نطاق واسع في البحرين الأدرياتي والإيوني . وطالما قصر القراصنة اعتداءاتهم على الأغريق لم تول روما نشاط الإلوريين أهمية ولكنهم عندما أخذوا يعتدون على التجار الإيطاليين ويسطون على شواطىء ايطاليا الجنوبية ، أرسل السناتو في شتاء عام ٢٣٠ ق . م . بعثة سياسية إلى تيوتا للاحتجاج على أعمال القراصنة ضد حلفاء روما الإيطاليين ، وطلب التعويض المناسب . ولم يحدث فقط أن مطالب السناتو رُفضت بازدراء بل إن القراصنة اعتدوا على السفراء في طريق العودة وقتلوا أحدهم . وقد رد السناتو على ذلك بأنه أنفذ في عام ٢٢٩ ق. م. أسطولا وجيشا كبيرين أرغما تيوتا على طلب الصلح في العام التالي ، وبمقتضاه تقرر أن تنزل تيوتا عن الفتوحات التي أحرزتها مؤخرا في أبيروس وأقارنانيا وكذلك عما استولت عليه من المدن الإغريقية الواقعة على شواطىء البحرين الأدرياتي والإيوني ، وألا تتخطى سفنها الحربية ميناء ليسوس (Lissus) ، وهو الذي يرجح أنه اعتبر الحدود الجنوبية لإلوريا ، وأن تدفع لروما تعويضا عن الحرب . ولم

تكتف روما بذلك بل أنها اقتطعت من إلوريا إقليمها الساحلي المعروف بدلماشيا وكونت من هذا الإقليم ومن جزيرة فاروس المجاورة له ولاية مستقلة أقامت عليها مغامرا إغريقيا يدعى ديمتريوس الفاروسي ، وكان أصلا في خدمة تيوتا ولكنه عندما بدأت الحرب انضم إلى الرومان . وفضلا عن ذلك فإن روما بسطت حمايتها على عدد من المدن الإغريقية البحرية وكذلك على إقليم ساحلي بجوارها . وقد احتفظت هذه المدن باستقلالها الذاتي ، بينما تولت روما أمر الدفاع عنها وسيطرت سيطرة تامة على علاقاتها الخارجية مع جيرانها ، ومع ذلك فإن روما لم تدخل هذه المدن رسميا في عداد حليفاتها أو تفرض عليها الجزية .

وقد كانت روما تستهدف من وراء الخطوات التي اتخذتها تأمين سيطرتها التامة على بوغاز أوترانتو ، وكان يعتبر الطريق الرئيسي للمواصلات بين إيطاليا وبلاد الإغريق . بيد أنه كان من شأن قيام الرومان لأول مرة بعبور البحر الأدرياتي وخوض غمار حرب مع إلوريا ووضع أقدامهم في شبه جزيرة البلقان بإقامتهم ولاية عميلة تحت إمرة ديمتريوس الفاروسي وبسط حمايتهم على بعض المدن الإغريقية فضلا عن الإقليم المجاور لهذه المدن ، أنه أثار عداء مقدونيا ، فقد كانت حليفة إلوريا وتعتبر نفسها صاحبة حقوق ليس فقط على إغريق البلقان بل على شبه جزيرة البلقان بأجمعها . ومما زاد في سخط مقدونيا ومخاوفها أن الرومان تجاهلوها تجاهلا تاما قبل حربهم مع إلوريا وبعد هذه الحرب بإنشاء علاقات دبلوماسية مع أعداء مقدونيا وحلفائها على السواء : مع عصبتي ايتوليا وآخايا ومع مدينتي قورنثة وأثينا . وقد ترتب على ما أفادته عصبتا ايتوليا وآخايا — عدوتا مقدونيا — من نجاح الرومان في القضاء على القرصنة الإلورية دعم العلاقات بين الرومان وهاتين العصبتين ، مما رأت فيه مقدونيا نذيرا بانحياز الرومان إلى جانب خصومها في الصراع الناشب بينها وبينهم .

ولم تستطع مقدونيا التدخل في الحرب بين إلوريا والرومان بسبب الأزمة

الداخلية التي وقعت في مقدونيا عقب وفاة ملكها ديمتريوس الثاني في عام ٢٢٩ ق. م . وما أن اغتصب أنتيجونوس دوسون (Antigonus Doson) العرش ودعم مركزه حتى استغل فرصة المنازعات التي كانت تقطع أوصال بلاد الإغريق وأعاد بسط سيادة مقدونيا على بلادهم . وقد ساعده على ذلك تقرب عصبة ايتوليا إليه وتحالف عصبة آخايا معه وانتصاره على اسبرطة انتصارا حاسما في عام ٢٢٢ ق . م . ولم تكن نتيجة نشاط أنتيجونوس دوسون توحيد أغلب بلاد الإغريق بزعامة مقدونيا فحسب ، بل أيضا انحياز ديمتريوس الفاروسي إلى جانبه . وقد ظن هذا المغامر أن الفرصة مواتية لممارسة أعمال القرصنة من جديد ، فاعتدى في عام ٢٢٠ ق . م . على بعض السفن والمدن التي كانت في حماية روما . وقد ردت روما على ذلك بعنف لم يجد هذا المغامر أمامه مناصا من الفرار نجاة بحياته ، واستولت روما على أهم موقعين حصينين في ولايته وهما فاروس وديميلّوس (Dimillus) .وشاءت الصدف أن تقع هذه الأحداث أيضاً حين كانت مقدونيا تجتاز أزمة حالت دون تدخلها ، ذلك أن أنتيجونوس دوسون توفي عام ٢٢٠ق.م. وخلفه على العرش ملك شاب يدعى فيليب الخامس ، فظنت عصبة ايتوليا أن شباب الملك الجديد وعدم خبرته سيتيحان لها الفرصة لبسط سيادتها على بلاد الإغريق . ولكن فيليب أذهلها بخبرته وجرأته ، وبعد حرب طاحنة تسمى « حرب الحلفاء » أرغمها على قبول الصلح في عام ٢١٨ ق.م. وما أن فرغ فيليب من هذه الحرب حتى أخذ يعد العدة لطرد الرومان من إلوريا ليستريح بالاً من ناحية أولئك الجيران الدخلاء .

سادسا ـ الحرب مع الغال في شمال ايطاليا : ٢٢٥ ـ ٢٢٢

بعد الاشتباكات التي وقعت في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد بين الرومان والقبائل الغالية النازلة في شمال إيطاليا ، أوقفت هذه القبائل إغاراتها على شبه الجزيرة الإيطالية ، وانصرفت على مدى نصف قرن تقريباً إلى الزراعة والرعي ،

ولم تحاول الإفادة من انشغال الرومان بصراعهم مع بورّوس أو مع قرطجنة . وبعد انتهاء الحرب البونية الأولى ظهرت ثانية بوادر الاضطرابات في شمال إيطاليا عندما قامت قبائل البويي (Boii) في عام ٢٣٦ ق.م. بمحاولة فاشلة للاستيلاء على أريمينوم . ثم هدأت الاحوال بضع سنين ، ولكنه كان أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة ، اذ يبدو كأن سياسة روما التوسعية أقنعت الغال بأن مصيرهم أصبح محتوماً اذا لم يبادروا روما بضربة قاصمة قبل أن تنقض هي عليهم . وعلى كل حال فإن أربع قبائل غالية تحالفت سوياً بزعامة أقوى قبيلتين غاليتين ، وهما قبيلتا الأنسوبرس والبويي ، وضمت إلى الحلف عدداً كبيراً من المغامرين النازلين في بلاد الغال عبر الألب «غاليا ترانس البينا» (Gallia Transalpina)

وفي عام ٢٢٥ ق.م. زحف الغال على شمال شبه الجزيرة بجيش يقدر بحوالي ٧٠,٠٠٠ مقاتل ، تاركين جانباً من قواتهم لرقابة الفنتي (Veneti) الإلوريين وكذلك القنوماني الغال ، وهم الذين نجحت مساعي الرومان الدبلوماسية في إقصائهم عن الاشتراك في الحلف الغالي . ولمواجهة هذا الخطر الداهم حشد الرومان من مواطنيهم ومن حلفائهم قوة تقدر بحوالي ١٣٠,٠٠٠ مقاتل . وعندما نجح الغزاة في الوصول إلى اترووريا عن طريق ممر جبلي لم تكن عليه حراسة ، وأوسعوا اترووريا سلبا ونهبا ، أطبق الرومان عليهم وأرغموهم على الانسحاب نحو الشاطىء . ولم تلبث أن وصلت من سردينيا حملة رومانية ونزلت شمالي الغزاة وبذلك قطعت عليهم خط الرجعة . وعند تلامون (Telamon) خاض الفريقان موقعة حاسمة خسر فيها الغزاة أكثر قواتهم بين قتيل وأسير .

وقد كانت نتيجة الفزع الشديد الذي أثارته غزوة الغال والنصر الذي أحرز الرومان عليهم وكذلك تطور الأحداث الجارية في إسبانيا – على نحو ما سنعرف فيما بعد – أن الرومان قرروا فتح شمال إيطاليا ليقضوا نهائيا على خطر الغال ويجعلوا جبال الألب حدود المناطق الإيطالية التي يسيطرون عليها . وقد كان

معنى ذلك اجتياح واستعمار منطقة تكاد أن تعادل شبه الجزيرة الإيطالية من حيث المساحة . وقد أقدم الرومان على الاضطلاع بهذا العبء الضخم بثقة كبيرة يعززها نصرهم الباهر واحتكامهم في قوات كبيرة . ذلك أنه يتبين من رواية بوليبيوس [1] — استنادا على ما كتبه فابيوس بيقتور ، وكان أحد الذين شاركوا في صد الغال — أن نتيجة التعداد العسكري الذي أجري في هذه المناسبة كانت ٧٠٠,٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٧٠,٠٠٠ من الفرسان ، كان أكثر من نصفهم من الحلفاء .

وقد نجح الرومان في تحقيق هدفهم إلى حد كبير بحملات ساحقة متتابعة . ذلك أنهم في عام ٢٢٤ ق . م . أرغموا البويي على الاستسلام وبسطوا سيطرتهم على الإقليم الواقع جنوبي البو — وهو المعروف باسم « غاليا قيس بادانا » (Gallia Cispadana) أي بلاد الغال هذه الناحية من البو — باستثناء ليجوريا وهي التي لم تشترك في معاداة الرومان عندئذ فتركوها وشأنها مؤقتا . وفي عام ٢٢٣ ق. م. كسر الرومان شوكة الأنسوبرس بفضل النصر الذي أحرزه عليهم جايوس فلامينيوس (Flaminius) . وفي العام التالي نجح قلاوديوس مارقلوس (Marcellus) في إرغام الأنسوبرس على الاستسلام بعد أن تحدى زعيمهم أن يبارزه وأرداه قتيلا . وفيما بين عامي ٢٢١ و ٢١٩ ق . م . بسط الرومان سيطرتهم على كل المنطقة الواقعة شمالي البو — وهي المعروفة باسم «غاليا ترانس بادانا» (Gallia Transpadana) أي بلاد الغال عبر البو — باستثناء أعالي البو . وتأمينا لمركزهم في شمال إيطاليا أنشأوا في عام ٢٢٠ ق . م . طريقا معبدا ضخما يمتد من روما إلى أريمينوم هو طريق فلامينيوس (Via Flaminia) ، كما أنشأوا في إقليم انتزعوه من الأنسوبرس مستعمرتين لاتينيتين هما بلاقنتيا (Placentia) وقرمونا (Cremona) جنوبي البو وشماليه على التعاقب . وحوالي هذا الوقت أنشأ الرومان طريقا معبدا آخر هو طريق أورليا (Via Aurelia) — وكان يمتد من روما محاذيا شاطىء اتروريا

---

(١) Polyb., II, 23 ff.

حتى بيزاي (Pisae) ، وأقاموا قاعدتين بحريتين : أحداهما عند لونا(Luna)والأخرى عند جنوا . وهكذا باستثناء أغلب ليجوريا وأعالي وادي البو أصبح شمال ايطاليا أو على حد تعبير الرومان «غاليا قيس البينا » (Gallia Cisalpina) أي بلاد الغال هذه الناحية من الألب (بشطريها غاليا قيس بادانا وغاليا ترانس بادانا) تحت السيطرة الرومانية .

ولا جدال في أن هذا التوسع الروماني قد أملته اعتبارات ملحة . بيد أنه من ناحية لم يحقق ما كان الرومان ينشدونه من أمن وطمأنينة ومن ناحية أخرى أعمى قوادهم عن مكمن الضعف في أساليبهم الحربية . حقا إن الرومان جعلوا جبال الألب حدود ممتلكاتهم الإيطالية بسيطرتهم على شمال إيطاليا ، ولكنهم لما كانوا قد فرضوا هذه السيطرة بقوة السلاح على قبائل محبة للقتال ولم تألف الخضوع لغيرها ، فإن الغال لم يرحبوا بغزوة هانيبال فحسب بل انضموا إلى قواته للتخلص من ربقة الرومان . واذا كان يمكن الرد على ذلك بأن الغال كانوا على كل حال سينضمون إلى هانيبال بدافع من ميلهم الغريزي إلى القتال ، فضلا عن إغراء الفوز بأسلاب الحرب ، فإنه لا يجب أن يغرب عن البال أن المرارة التي تركها في نفوس الغال هوان الانكسار وذل الخضوع وألم الخسائر كانت كفيلة بحتمية انضمامهم إلى هانيبال وبشحذ رغبتهم في الانتقام . ومن ناحية أخرى لما كان الرومان قد أحرزوا انتصاراتهم على الغال بفضل وفرة قواتهم وتفوق مقاتليهم على مقاتلي الغال ، وكانوا دون شك مقاتلين شجعاناً ولكنهم يفتقرون إلى الدراية بفن الخطط الحربية المحبوكة ، فإن القواد الرومان وقد كانوا ضباطا غير محترفين أهملوا هذا الفن ظناً منهم أن وفرة قواتهم وكفاية مقاتليهم كفيلتان بإحراز النصر على أي عدو . وقد دفع الرومان ثمن ذلك غاليا عندما نهض لتحديهم أستاذ لا يشق له غبار في فن الخطط الحربية ، على نحو ما سنرى عندما جاء هانيبال يطرق أبواب روما في حربها التالية .

سابعا – الحرب البونية الثانية : من عام ٢١٨ – ٢٠٢ ق . م .

١ – قرطجنة تدعم مركزها في أسبانيا

عندما فقدت قرطجنة جزيرتي سردينيا وقورسيقا بعد فقدها صقلية والجزر المجاورة لها . عملت على تعويض خسائرها بإعادة بناء قوتها في إسبانيا . وفي عام ٢٣٧ ق . م . أسندت هذه المهمة إلى هاميلقار . وقد كان الاسبان يؤلفون وحدات قبلية بدائية تفتقر إلى الترابط والوحدة . ولذلك فإنه كان من اليسير إثارة قبيلة ضد أخرى وبسط سيطرة قرطجنة بالدبلوماسية أكثر منها بالقوة الغاشمة. وقد استطاع هاميلقار في خلال السنين التسع الباقية من حياته أن يضع في إسبانيا أسس امبراطورية قرطجنية بسط رقعتها صهره هاسدروبال (٢٢٨ – ٢٢١ ق. م.) فأصبحت تمتد شمالا حتى نهر الأبرو (Ebro) ثم أضاف اليها ابنه هانيبال (٢٢١ – ٢١٨ ق . م .) فأصبحت تمتد في الداخل إلى ما وراء نهر تاجوس (Tagus) .وقد كان الهدف الأساسي للأعمال التي قام بها هاميلقار وخليفتاه والمبرر الذي أقنعوا به مواطنيهم هو الحصول على موارد دخل جديدة يمكن أن تعوض خسائر الحرب . ولما كانت ممتلكات قرطجنة في إسبانيا قد أصبحت تشمل أغنى أجزائها . وكان عائد المناجم قد ازداد كثيرا بعد قيام القرطجنيين باستغلالها ، فإن قرطجنة استعادت سريعا رخاءها ولم يسعها الا أن تبارك نشاط رجالها . وأما الهدف الثاني للقواد القرطجنيين . فإنه كان استغلال موارد إسبانيا الوفيرة من الرجال في بناء جيش يكون على أتم الأهبة لخدمة قرطجنة . وقد نجح هاميلقار وخليفتاه في تكوين جيش قوي شديد الولاء لهم .

وفيما بعد اتهمت الروايات الرومانية هاميلقار بأنه كان يكن عداء دفينا للرومان واعتبرت نشاطه في إسبانيا جزءا من خطة وضعت بعناية لبناء قوة قرطجنة بحيث تستطيع الثأر لهزائمها في الحرب البونية الأولى . ومن الجائز أن يكون اغتصاب الرومان لسردينيا وقورسيقا قد أقنع هاميلقار بأن الوسيلة الوحيدة لوقف تمادي

الرومان في جشعهم كانت حربا وقائية ضدهم . وعلى كل حال فإنه يبدو أنه قد غاب عن الرومان طويلا أمر الجيش الذي كان هاميلقار جادا في إعداده في إسبانيا . وعندما خشيت ماسيليا على مستعمرتيها رودي (Rhode) وأمبورياي (Emporiae) الواقعتين على شاطىء إسبانيا الشمالي الشرقي . واحتجت لدى الرومان بسبب صلاتها التجارية القديمة الوثيقة بهم ، أنفذ السناتو بعثة (حوالي عام ٢٣٠ ق . م .) لمحاولة الوقوف على نوايا هاميلقار . وقد صدّقت البعثة تفسيراته بأنه لم يكن له هدف إلا الحصول على موارد جديدة لتستطيع بلاده أن تدفع لروما تعويضات الحرب ، ولم تفعل البعثة أكثر من الحصول على وعد بعدم الاعتداء على ساجونتوم (Saguntum) ، وكانت فيما يبدو تربطها بماسيليا روابط تجارية وسياسية . وفي عام ٢٢٦ ق . م . أنفذ السناتو بعثة إلى هاسدروبال – خليفة هاميلقار وصهره– عقدت معه معاهدة حظرت عليه تخطي نهر الأبرو شمالا ولكنها أطلقت يده في كل المناطق الواقعة جنوبي هذا النهر . ويرى بعض الباحثين أن شروط هذه المعاهدة توحي بأن روما لم تكن قلقة من جراء قيام قرطجنة بدعم مركزها في إسبانيا . ولكنه لعل أن يكون الأصح هو أن روما لم تكن عندئذ لاهية عما كان جاريا في إسبانيا ولا غير مهتمة بأمره ، وأنها اضطرت إلى الاكتفاء عندئذ بخطوتين تمهيديتين – رأينا إحداهما وسنرى بعد قليل الأخرى – بسبب تجمع النذر باقتراب خطر أعظم وهو غزوة الغال ثم انهماكها في محاربتهم وإخضاع شمال إيطاليا لكي تستطيع بعد ذلك التفرغ لقرطجنة .

والخطوة الأخرى التي اتخذتها روما في اسبانيا هي ما تحدثنا به المصادر القديمة من أن روما عقدت محالفة مع مدينة ساجونتوم الواقعة جنوبي نهر الأبرو . ولا يعرف على وجه اليقين اذا كانت هذه المحالفة قد عُقدت قبل أو بعد المعاهدة التي عقدتها روما مع هاسدروبال ، ولكن عدم احتجاج قرطجنة على عقد هذه المحالفة بوصف كونها خرقا لمعاهدة ٢٢٦ ق . م . يوحي بأن تاريخ المحالفة كان سابقا لهذا العام . وعلى كل حال فإنه سواء أكانت المحالفة قد

عقدت قبل عام ٢٢٦ أم بعده فإن معاهدة ٢٢٦ أطلقت يد قرطجنة في كل المناطق الواقعة جنوبي نهر الأبرو . ويذكر بوليبيوس [١] صراحة أن هذه المعاهدة لم تحدد تفصيلا الأوضاع في إسبانيا ، مما يفند زعم ليفيوس [٢] أن هذه المعاهدة أمنت صراحة استقلال ساجونتوم . ولعلنا لا نعدو الحقيقة اذا تصورنا أن المحالفة عُقدت قبل المعاهدة ، وأن الرومان تعمدوا إغفال ذكر ساجونتوم في المعاهدة لكي يتبينوا على وجه اليقين حقيقة نوايا قرطجنة ويتخذوا من الاعتداء على ساجونتوم ذريعة للتدخل وكبح جماح توسع قرطجنة في إسبانيا .

٢ – مسألة ساجونتوم

عندما قُتل هاسدروبال في عام ٢٢١ ق . م . أسندت قرطجنة القيادة العليا في إسبانيا إلى هانيبال بن هاميلقار . وكان عندئذ شابا في الخامسة أو السادسة والعشرين ، ولكنه كان قد اكتسب ثقة جنوده وورث عن أبيه ضرورة تصفية الحساب مع روما دفاعا عن كيان وطنه . ولما كانت روما لا تزال مشتبكة مع الغال ، فإن هانيبال رأى أن الحكمة تقضي بانتهاز أول فرصة لإشعال لهيب حرب الانتقام قبل أن تفرغ روما من مشاكلها . وقد واتته الفرصة بعد توليه القيادة بقليل حين اشتبكت ساجونتوم مع إحدى القبائل الحليفة لقرطجنة بسبب ترحيبها ببعض المنفيين السياسيين من ساجونتوم ، حيث كانت روما قد تدخلت في السياسة الداخلية وساعدت على إسناد الحكم في ساجونتوم إلى فئة مناهضة لقرطجنة . وإزاء الاستعدادات التي اتخذها هانيبال لمحاصرة ساجونتوم ، ناشدت هذه المدينة مساعدة الرومان ، فأنفذ السناتو بعثة إلى هانيبال في عام ٢١٩ ق . م . لتحذره من الاعتداء على ساجونتوم . وعندما أنكر هانيبال على الرومان حقهم في التدخل في هذه المسألة ، يممت البعثة وجهها شطر قرطجنة حيث أيدت الحكومة

---

(١) Polyb., II, 13,7.

(٢) Liv., XXI, 2,7., Appian., Iber., 7.

وجهة نظر هانيبال . وبالرغم من أن فئة من أرستقراطية قرطجنة بزعامة هانّو (Hanno) كانت تجنح إلى الحفاظ على علاقات ودية مع الرومان وإلى اعتبار افريقيا بدلا من اسبانيا المجال الطبيعي لتوسع قرطجنة ، فإن النتائج الباهرة التي أحرزها هاميلقار وهاسدروبال وهانيبال أضعفت دعوة هذه الفئة الحكيمة البعيدة النظر .

وإزاء تأييد الحكومة لهانيبال واعتماده على الجيش الذي كونه وتابع تنميتـــه هاسدروبال ثم هو نفسه وكذلك على موارد أسبانيا ، وتوقعا منه أن الرومان سيحاولون عاجلا أو آجلا انتحال المعاذير لطرد قرطجنة من اسبانيا على نحو ما فعلوا في صقلية ثم في سردينيا وقورسيقا ، قرر هانيبال الاستيلاء على ساجونتوم ليزيل من جانبه شوكة غير مريحة ويلقي على روما تبعة إعلان الحرب وبذلك يضمن استمرار حكومته في تأييده . وتبعا لذلك بادر هانيبال إلى محاصرة ساجونتوم والاستيلاء عليها بعد مقاومة عنيفة دامت ثمانية شهور (خريف ٢١٩ ق . م .). وبعد سقوط هذه المدينة أرسل السناتو بعثة الى قرطجنة (مارس ٢١٨ ق . م .) تطالب بتسليم هانيبال وهيئة قيادته . وعندما قررت قرطجنة الوقوف الى جانب هانيبال مهما تكن العواقب ، أعلنت البعثة الحرب على روما. وهكذا كانت مسألة ساجونتوم السبب المباشر وإن لم تكن السبب الحقيقي لنشوب الحرب البونية الثانية . ولعل بوليبيوس لم يسرف في الرأي بقوله إنه كانت لهذه الحرب ثلاثة أسباب حقيقية وهي : أولا — حقد هاميلقار على روما منذ أرغمته على تسليم صقلية ، فكرس بقية حياته للانتقام من روما وأورث هذا الحقد لمن أتوا بعده . وثانيا — غضب قرطجنة على رومـــا لسطوها على سردينيا وتجديد تهديدها بالحرب . وثالثا — النجاح الذي حققته قرطاجنة في إسبانيا .

وإذا كان لا جدال في أن تصرف هانيبال مع ساجونتوم كان في نطاق معاهدة عام ٢٢٦ ق . م . وهي التي أطلقت يـــد قرطجنة جنوبي نهر الأبرو ، فإنه

لا جدال كذلك في أن اشتباك ساجونتوم مع القبيلة المحالفة لقرطجنة لم يكن يقتضي الاستيلاء على ساجونتوم ، وتبعا لذلك فأنه كان في وسع هانيبال تفادي الأزمة التي كان يعرف تماما أنها لا بد من أن تعقب استيلاءه على حليفة روما . ويبدو لنا أن هانيبال لم يفعل أكثر من أنه عجل بوقوع صدام لم يكن منه مفر بعد ازدياد قوة روما وانتعاش قوة قرطجنة . ذلك أنه اذا كان من الجائز قيام نوع من توازن القوى بين هاتين الدولتين فترة من الوقت ، فإنه كان من المحال أن يدوم ذلك طويلا بسبب تعارض المصالح .

ولعل أخطر ما حدث بعد تدمير سيادة قرطجنة البحرية في خلال الحرب البونية الأولى أنه حين عملت قرطجنة على بسط سيادتها في افريقيا وفي اسبانيا أهملت إعادة بناء أسطولها ، فقد كان ذلك عاملا بالغ الأهمية في تقرير مصير الصراع المقبل في آخر الأمر وإن لم يبد كذلك في أوله ، وهو ما سنتبينه من تتبع أحداث هذه الحرب .

وبعد أن أعلنت روما الحرب على قرطجنة ، قررت الإفادة من سيادتها البحرية بارسال جيش الى أسبانيا بقيادة القنصل بوبليوس قورنليوس سقيبيو لمواجهة هانيبال ، وحشد جيش آخر في صقلية بقيادة القنصل الآخر تيبريوس سمبرونيوس لونجوس ليغزو أفريقيا. ولكن هانيبال خيب على الرومان هذا التدبير بالخطة الجريئة التي وضعها لغزو أيطاليا .

٣ ـ خطة هانيبال

ويمكن تلخيص هذه الخطة في الزحف برا عبر جبال البرانس وجنوب « بلاد الغال عبر الألب »(Gallia Transalpina) ثم اجتياز جبال الألب والانقضاض سريعا على شمال إيطاليا ، حيث كان يأمل في حسن استقبال الغال له والحصول على إمدادات كافية من المؤنة والرجال ثم التقدم إلى أبوليا في الجنوب ليقطع بذلك خطوط المواصلات الرومانية ويضم إليه حلفاء روما الناقمين عليها ويتمكن

من الاتصال بحرا بقرطاجنة عن طريق إحدى الموانىء الإغريقية في الجنوب . وقد أملت هذه الخطة على هانيبال عدة عوامل كانت أهمها ما يلي :

ا — أنه كان يتعذر نقل قواته وفيلته وخيوله بحرا .

ب — أنه حتى اذا تيسر له ذلك ، فانه كان سيلقى أعداءه مباشرة ، وأما اذا غزا ايطاليا من الشمال ، فانه كان سيلقى أولا الغال ، وهم الذين كانت قلوبهم تنبض حقدا على روما وكراهية لها بسبب ما لاقوه على يديها مؤخرا ويتوقون إلى الثأر من غريمتهم .

ج — أنه نما إلى علمه أن حلفاء روما الايطاليين كانوا ناقمين عليها ، ولذلك اعتقد أنه اذا أحرز نصرا سريعا في الشمال استطاع أن يضمهم إلى جانبه ليستردوا استقلالهم ويقوضوا دعائم سلطان روما .

ولكنه لعل هانيبال لم يقدر :

ا — أن صعاب اجتياز جبال البرانس ونهر الرون وجبال الألب ستحرمه كل فيلته ونصف جنوده الأوفياء المدربين تدريبا ممتازا ، وأنه لن يستطيع تعويض خسائره بجنود على شاكلتهم من جحافل الغال . بل أنه بعد ابتعاده عن الشمال سيتعذر عليه الاعتماد على الغال .

ب — أن وسط ايطاليا كان قد أصبح متآلفا ورومانيا وسيقف إلى جانب روما ويشد من أزرها .

ج — أنه لن يستطيع القضاء على روما دون الاستيلاء عليها ذاتها ، لكن اقتحام أسوار روما كان يتطلب معدات لم تتوافر لديه .

د — أن روما قوية العزيمة صلبة الإرادة إلى حد سيمكنها من الصمود أمامه وتحويل الصراع إلى حرب استنزاف طويلة الأمد .

هـ – أن سيادة روما البحرية ستمكنها من قطع اتصالاته بقرطجنة ومنع وصول الامدادات لديه .

وعلى كل حال فأنه حين كان السناتو يتخذ الاستعدادات لغزو اسبانيا وافريقيا فوجىء بأن هانيبال كان يشق طريقه صوب شمال ايطاليا ليبدأ غزوها .

* * *

وتيسيرا لتتبع الحرب البونية الثانية سنقسمها الى مرحلتين متتبعين مجراها في ميادينها الرئيسية وكانت ايطاليا وصقلية واسبانيا وافريقيا :

١ – المرحلة الأولى : ٢١٨ – ٢١٢ ق. م.

في ربيع عام ٢١٨ ق . م . عجل هانيبال بمبارحة قاعدته في اسبانيا عاهداً إلى أخيه – وكان يسمى هاسدروبال مثل صهره – بجمع الامدادات واللحاق به . وبعد أن اجتاز هانيبال جبال البرانس على رأس جيش من خيرة جنوده الاسبانيين والنوميديين زحف صوب نهر الرون . وبفضل مهارته في المناورة عند هذا النهر تمكن من عبوره وكذلك من تفادي الالتحام مع جيش سقيبيو ، وكان قد وصل بحرا إلى ماسيليا في طريقه إلى اسبانيا . وعندما علم سقيبيو بأن هانيبال اجتاز الرون عاد بنفسه إلى روما ولكن بعد أن قرر إرسال جيشه إلى اسبانيا بقيادة أخيه جنايوس ، وكانت لهذا القرار نتائج بعيدة المدى في سير الحرب ، على نحو ما سنرى .

وفي هذه الأثناء تابع هانيبال زحفه متغلبا على مقاومة الشعوب التي اجتاز أقاليمها وعلى صعاب أخطر من ذلك وهي سوء الطرق ومخاطر الممرات والبرد والجوع إلى أن اجتاز جبال الألب وبلغ سهول شمال ايطاليا في خريف عام ٢١٨ ق . م . بعد زحف استغرق خمسة شهور وكلفه نصف قوته وكل فيلته فلم يبق لديه الا حوالي ٢٠,٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٦٠٠٠ من الفرسان . ولم يعط الرومان هانيبال وقتا كافيا لإراحة جنوده المنهكين وضم الغال إلى جانبه .

ذلك أن سقيبيو — بمجرد عودته من ماسيليا — خف إلى الشمال حيث جمع حاميات البو وزحف غربا لمواجهة الغزاة . كما أن روما ما أن علمت بزحف هانيبال على إيطاليا حتى استدعت سمبرونيوس من صقلية لينضم إلى سقيبيو . وقبل وصول سمبرونيوس أجترأ سقيبيو على مهاجمة هانيبال عند نهر تيقينوس (Ticinus) ولكن القائد القرطجني فاقه في المناورة وتغلب عليه في المناوشات التي وقعت بينهما وتمكن من عبور البو . وعندما انضم سمبرومينوس إلى سقيبيو وقام القنصلان بمهاجمة هانيبال بقوات تبلغ ضعف قواته أنزل بهما هزيمة ساحقة على ضفاف نهر تربيا (Trebia) في ديسمبر عام ٢١٨ ق . م . وكان من جراء هذه الهزيمة أن الرومان انسحبوا من شمال ايطاليا تاركينه تحت رحمة هانيبال ، وأن كثيرين من الغال تشجعوا على الأنضمام إلى جانب القائد المنتصر فبلغ عدد جنوده حوالي ٥٠,٠٠٠ مقاتل .

وقد قضى هانيبال الشتاء في تدريب الغال الذين انضموا اليه استعداداً لغزو شبه الجزيرة الايطالية في ربيع عام ٢١٧ ق . م . وفي هذه الأثناء استقر رأي الرومان على اتخاذ موقف الدفاع ووضعوا جيشا تحت قيادة أحد القنصلين عند أريمينوم ليسد « طريق فلامينيوس » في وجه الغزاة ، ووضعوا جيشا آخر بقيادة القنصل الآخر جايوس فلامينيوس عند أرتيوم (Arretium) ليحمي أترووريا . بيد أن هانيبال مرق من ممر مكشوف بجبال الأبنين ووصل إلى مكان وراء جيش فلامينيوس واستدرجه إلى بحيرة تراسيمني (Trasimene) . حيث أخفى أكثر قواته في التلال الواقعة على الجانب الآخر من الطريق المار بجوار البحيرة . وعندما كان المطاردون يمرون بهذا الطريق انقض عليهم هانيبال من الأمام والجنب والخلف وأباد أكثرهم ، وكان من بينهم قائدهم القنصل فلامينيوس . ولم يلبث هانيبال أن أحرز نصرا آخر عندما علم القنصل الآخر بدخول العدو أتروريا وأرسل فرسانه لتعزيز جيش فلامينيوس ولكنهم وصلوا بعد المعركة ولم يكن نصيبهم إلا أن هانيبال مزقهم إرباً .

حقا انه بعد هذين النصرين أصبح الطريق إلى روما مفتوحا أمام هانيبال ،

ولكن اقتحام أسوارها كان يحتاج إلى معدات يفتقر اليها ، مثل ما كان يفتقر إلى قواعد مجاورة تمده باحتياجاته ليتمكن من محاصرة روما حصارا مجديا ، لأن مدن أواسط إيطاليا جميعا أوصدت أبوابها في وجهه ، وذلك برغم أنه أطلق سراح أسراه الايطاليين لينشروا في مدنهم أنه جاء لتحريرها من ربقة روما . فلا عجب أن هانيبال آثر الابتعاد عن روما والذهاب إلى أبوليا ليتخذ منها قاعدة لنشاطه في إثارة جنوب ايطاليا على روما ، ولكنه في البداية لم يكن في الجنوب أسعد حظا منه في الوسط .

وفي هــذه الأزمة اختار الرومان محاربا محنكا يدعى كوينتوس فابيوس ماكسيموس (Q. Fabius Maximus) وأقاموه عليهم دكتاتورا ، وتبعا لذلك آلت اليه قيادة الجيش الذي حُشد على عجل وأرسل جنوبا لمجابهة هانيبال . ولما كان فابيوس يدرك تماما أنه لا هو ولا فرسانه كانوا أندادا لهانيبال وفرسانه وأن كل نصر يحرزه هانيبال كان يعزز مركزه ، فأنه صمم على تفادي الاشتباك مع العدو في معركة وعلى الأكتفاء بتتبع أثره وترصد حركاته عن كثب فيحرمه الأمان والطمأنينة ويضعف قواته بالأنقضاض على الشاردين منها والضالين . وفضلا عن ذلك فإن مركز هانيبال كان لا بد من أن يتحرج تحرجا شديدا نتيجة لإطالة الحرب دون اعطائه فرصة لاحراز انتصارات تعزز مركزه ، وكذلك نتيجة لاطراد تزايد حاجاته تبعا لاستنزاف موارد البلاد بتوالي سطوه عليها . وتنفيذاً لهذه الخطة اكتفى فابيوس باقتفاء أثر هانيبال في ذهابه من أبوليا إلى قمبانيا ثم في عودته إلى أبوليا . ومجرد وجود فابيوس بين ظهراني أهل الجنوب كان وحده كافيا لتشجيع حلفاء روما على اغلاق أبواب مدنهم في وجه هانيبال . والواقع أنه حتى أوائل عام ٢١٦ ق . م . لم يكن هانيبال قد كسب إلى جانبه أو فتح أية مدينة في شبه الجزيرة الأيطالية بل ظل دخيلا يهيم على وجهه في أقاليمها . بيد أن خطة فابيوس أثارت عليه الرومان فأطلقوا عليه لقب « المتقاعس » (Cunctator) ، وإن كان الشاعر أنيوس (Ennius) قد خلده بوصف كونه « الرجل الذي بمفرده أنقذ الدولة بصبره » .

وإزاء غضب الرومان على فابيوس ، اتخذوا خطوة لم يسبق لها مثيل وهي إعطاء مساعده « قائد الفرسان » ماركوس مينوقيوس (M. Minucius) سلطات معادلة لسلطات فابيوس . وذلك لأن مينوقيوس كان يدعو إلى اتباع خطة هجومية . وفي أثناء تغيب فابيوس في روما لاجراء الانتخابات لوظيفة القنصلية . اجترأ مينوقيوس على مهاجمة العدو فكاد هانيبال أن يقضي على جيشه قضاء مبرما لولا وصول فابيوس لنجدته .

وبدلا من أن يجري الرومان عندئذ على سنتهم المألوفة من حيث الإفادة من أساليب العدو . قرروا التغلب على تفوقه الفني بتفوق عددي ، ولذلك حشدوا جيشا كبيرا أسندوا قيادته إلى قنصلي عام ٢١٦ ق . م . وأمروهما بخوض معركة فاصلة . وفي ربيع هذا العام التقى الرومان في سهل مكشوف قرب مدينة قاناي (Cannae) في أبوليا . وفي هذه الواقعة التي لم يفد فيها الرومان من تفوقهم العددي الا مضاعفة خطوط مشاتهم بقصد زيادة ثقل هجومهم على جبهة هانيبال ، أظهر هذا القائد من البراعة ما أكسبه الاعجاب على مر العصور وحدا بالكثيرين من القواد ، قديما وحديثا ، إلى محاكاة الخطة التي نفذها . ذلك أن هانيبال توقع نوايا خصمه فوزع مشاته إلى قلب وجناحين ، وصف قوات القلب متقدمة وإلى جانبيها فرسانه ، وخلف الفرسان صف جناحي المشاة ، وأمر القلب بالتراجع رويدا رويدا أمام هجوم الرومان . وما أن بدأت المعركة حتى بدد فرسانه فرسان الرومان ليعودوا للاطباق على مشاة الرومان من المؤخرة بعد أن أصبحوا ، تنفيذا للخطة الموضوعة ، محاطين من الأمام والجانبين . وهكذا طوق هانيبال عدوه تطويقا كاملا فلم ينج من الشرك الذي نصبه له إلا حوالي ١٠,٠٠٠ من بين حوالي ٥٠.٠٠٠ مقاتل . وتعتبر هذه المعركة مثلا فذا لنجاح جيش صغير في تطويق جيش أكبر منه تطويقا كاملا .

وقد كانت معركة قاناي بالغة الأهمية في نتائجها ، فمن ناحية فقد حلفاء روما في الجنوب ثقتهم فيها ، وشجعهم على مصالحة هانيبال ما وعدهم به

من عدم إلزامهم بتقديم قوات اليه . وتبعا لذلك فقدت روما كل جنوب ايطاليا تقريبا فيما عدا المستعمرات الرومانية واللاتينية والمدن الاغريقية الساحلية . وأسوأ من ذلك أن قابوا ، على أمل أن تخلف روما بوصف كونها أولى مدن إيطاليا ، هجرت على الفور جانب روما وانحازت إلى خصمها . ولما كانت قابوا عندئذ المركز الصناعي الرئيسي في ايطاليا ، فإن تحالفها مع هانيبال وفر له قاعدة ممتازة لإمداداته . وفضلا عن ذلك فأنه في عام ٢١٥ ق . م . عقد فيليب الخامس ملك مقدونيا مع هانيبال معاهدة لتبادل المساعدة ، وأخذ فيليب يتحرش بالممتلكات الرومانية في إلّوريا لطرد الرومان منها . هذا إلى أنه عندما توفي في هذا العام هيرو ملك سراقوسة وحليف روما ، خلفه على العرش حفيده ولم تابث سراقوسة أن انضمت إلى القرطجنيين .

بيد أنه من ناحية أخرى ، لم يكن من شأن تكالب النكبات على الرومان أنه فلّ من عزيمتهم أو أنه أضعف من معنوياتهم ، بل أنه حفزهم على مضاعفة الجهد وبذل المزيد من التضحيات ، مما كان له أبلغ الأثر في تقرير نتيجة الحرب البونية الثانية . واذا كان السناتو ، بما أظهره من كفاية في تصريف شئون الدولة . قد برر حقه في تسنم الزعامة ، فإن الشعب الروماني ، بما أبداه من ضروب التفاني في البذل وفي الصبر على المكاره ،قد أثبت جدارته بسيادة ايطاليا. وحتى كارثة قاناي لم تنقطع المنازعات بين الأرستقراطية ، وكانوا أميل إلى التزام جانب الحيطة ، وبين العامة ، وكانوا دائبي المطالبة باتباع سياسة تنهي الحرب سريعا . وأما بعد قاناي ، فإن الجمعيات الشعبية أطلقت يد السناتو في توجيه دفة الحرب .

وقد كانت خطة هانيبال في خلال السنوات التالية لمعركة قاناي هي محاولة الإستيلاء على المدن الساحلية الإغريقية ، والتنقل من مكان إلى آخر على أمل أن يغري الرومان على الأشتباك معه في مواقع يدحرهم فيها وبذلك يضطرون إلى التسليم آخر الأمر . وكانت خطة الرومان هي تضييق الخناق على هانيبال وذلك من ناحية بقطع اتصالاته مع الغال ليحولوا دون وصول إمدادات اليه منهم ،

ومن ناحية ثانية بمتابعة النشاط الذي بدأه سقيبيو في اسبانيا لمنع مجيء امدادات إلى هانيبال من الخارج على نحو ما سنرى فيما بعد ، ومن ناحية ثالثة بتتبعه كظله والامتناع عن خوض معارك معه ، ومن ناحية رابعة باسترداد المدن التي انحازت إلى جانبه للحد من مصادر حصوله على المؤنة . وقد حال ذلك كله دون قيام هانيبال بعمليات حربية كبيرة . ومع ذلك فانه في عام ٢١٤ ق . م . انضمت سراقوسة اليه وفي العام التالي استولى على عدد من المدن الساحلية كانت من بينها تارنتم ومتابونتم (Metapontum) وهرقليا وثوريي . ولكن هانيبال لم ينجح سواء في إغراء الرومان على الاشتباك معه في معارك حاسمة أم في منع الرومان من تشديد الحصار على قابوا في عام ٢١٢ ق . م . وإزاء ذلك زحف على روما وأقام معسكره على بعد ثلاثة أميال منها أملا في استدراج الرومان من حول قابوا والاشتباك معه في موقعة فاصلة ، ولكن السناتو فطن إلى نواياه واستبقى قواته حيث هي فاضطر هانيبال إلى الأنسحاب من أمام روما .

وفي هذه الأثناء لمواجهة خطر المحالفة التي عقدت بين فيليب الخامس وهانيبال وتحرش فيليب بالممتلكات الرومانية في إلّوريا ، أمر السناتو في عام ٢١٤ ق . م . قائد الأسطول الروماني بإنزال قوات في أبولونيا على شاطىء إلّوريا وزيادة قوة الأسطول الروماني في البحر الأدرياتي . ولكي يخيب السناتو على فيليب كل تدابيره عقد محالفة مع الأيتوليين في عام ٢١٢ ق . م . وأغراهم على مهاجمة مقدونيا مما أفضى إلى نشوب ما يسمى بالحرب المقدونية الأولى (٢١٢ — ٢٠٦ ق . م .) . وفي هذه الحرب انضمت العصبة الآخية إلى فيليب وانضم أتالوس ملك برجام إلى الأيتوليين فضلا عن تحالف روما معهم وان كانت لم تمدهم الا بمساعدة بحرية . وقد استمرت الحرب سجالا بين الفريقين إلى أن ترتب على سحب الأسطول الروماني في عام ٢٠٧ ق . م . تفوق فيليب والآخيين على خصومهم فاستمعوا إلى نداء بعض الدول المحايدة وعقد الصلح بين الطرفين في عام ٢٠٦ ق . م. وفي العام التالي اصطلح الرومان أيضا مع فيليب . وهكذا بفضل براعة الرومان السياسية فوّتوا على هانيبال وفيليب فرصة تآزرهما سويا في

محاربة العدو المشترك . حين كانت روما تجتاز أسوأ مراحل الحرب البونية الثانية وكان هانيبال في أشد الحاجة إلى عون من الخارج .

وفي عام ٢١٣ ق . م . أنفذ السناتو إلى صقلية جيشا بقيادة القنصل ماركوس قلاوديوس ماركلوس (M. Claudius Marcellus) . وبعد أن أخضع ماركلوس توابع سراقوسة حاصر هذه المدينة المنيعة حصارا شديدا قاومته بفضل استحكاماتها والوسائل التي كان يتفنن في ابتكارها العالم المعروف أرخيمدس ابن هذه المدينة . ولم يستول الرومان على سراقوسة الا بفعل الخيانة في عام ٢١١ ق . م . حين لقي أرخيمدس حتفه لأنه حين كان مطرقا يفكر في رسم خطه على الأرض واقترب منه جندي روماني صاح في الجندي أن يبتعد عن الرسم ، فلم يكن من الجندي الا أنه أرداه قتيلا .

ب ـ المرحلة الثانية ٢١١ ـ ٢٠٢ ق . م .

وبحلول عام ٢١١ ق . م . كانت روما قد اجتازت أسوأ مراحل هذه الحرب ، ففي ذلك العام استردت سراقوسة وقابوا . وقد أتبعت روما استيلاءها على سراقوسة بالاستيلاء على ثرماي (هيمرا) في العام نفسه وعلى أجريجنتوم في العام التالي . وهكذا بفضل نشاط الرومان وجرأة ماركلوس وضعف الأسطول القرطجني استعادت روما سيطرتها على هذه الجزيرة التي كانت تعتبر جسرا بالغ الأهمية بين ايطاليا وافريقيا ، أو بعبارة أخرى بين هانيبال وقرطجنة .

وأتبعت روما استيلاءها على قابوا باسترداد عدد من المدن الصغرى في سامنيوم وأبوليا ، وفي عام ٢٠٩ ق . م . استردت المدينة الكبيرة تارنتم . وبنجاح الرومان في السيطرة على عدد من المواقع الإستراتيجية ، وقطع اتصال هانيبال بالغال وإطباق جيوشهم على القوات القرطجنية القليلة الموجودة في أبوليا وعلى حلفاء هانيبال اللوقانيين والبروتيي ، لم يعد لدى هانيبال أي أمل في النصر الا اذا جاءته إمدادات من خارج ايطاليا . ذلك أنه منذ وصول هانيبال إلى ايطاليا

لم تصله الا امدادات طفيفة من قرطجنة . وبعد قطع اتصالاته مع الغال لم يكن في وسعه تعويض خسائره الا بالاعتماد على الموارد المحدودة للوقانيين والبروتيي لأنه احترم وعده ، سواء طواعية أم قسرا ، بعدم الزام باقي حلفائه الايطاليين بمده بالجنود .

وفي أوائل عام ٢٠٧ ق . م . عندما علم هانيبال بأن أخاه هاسدروبال في طريقه من أسبانيا على رأس جيش كبير ، بدا له أن تحقيق أمله في النصر أصبح وشيكا ، ولا سيما عندما نجح هاسدروبال في بلوغ شمال ايطاليا وضم قوات كبيرة إليه من الغال (ربيع عام ٢٠٧ ق . م .) . ولما كان الرومان يعلقون أهمية كبيرة على الحيلولة دون اتصال الأخوين ، فأنهم أنفذوا جيشين : أحدهما ، بقيادة القنصل جايوس قلاوديوس لمجابهة هانيبال في أبوليا ، والجيش الآخر بقيادة القنصل مارقوس ليفيوس لوقف زحف هاسدروبال . ولما كان هانيبال غير متأكد من خط سير أخيه ، فأنه ظل في أبوليا ينتظر وصول معلومات أكيدة . وتشاء الظروف أن يأسر قلاوديوس مبعوثي هاسدروبال إلى أخيه ويعرف منهم خط سير النجدة القادمة من الشمال ، فيترك جانبا من جيشه أمام هانيبال ويسحب بقيته دون علم العدو ويسارع بالانضمام إلى زميله . وعلى ضفاف نهر متاوروس (Metaurus) قضى القنصلان على جيش النجدة في واقعة دامية خر فيها هاسدروبال صريعا ، فتنفست روما الصعداء واحتفلت بهذا النصر إحتفالا هستيريا ، اذ أنها رأت في هذا النصر بداية النهاية لعدوها الذي دوخها وكاد أن يقضي عليها . وقد أبلغت روما نتيجة الواقعة إلى هانيبال بطريقة مفجعة ، إذ أنها كلفت رسولا من قبلها بالقاء رأس هاسدروبال داخل معسكر أخيه .

ولا أدل على تحرج مركز هانيبال في إيطاليا من انسحابه مع أكثر قواته إلى إقليم البروتيي في أقصى الطرف الجنوبي الغربي بشبه الجزيرة الأيطالية حيث ظل إلى أن صدرت إليه الأوامر بالعودة إلى قرطجنة في خريف عام ٢٠٣ ق . م .

ولا أدل كذلك على كفاية هانيبال العسكرية ومدى خشية الرومان الإشتباك معه من أنهم حتى في هذه الظروف وبرغم تفوقهم عليه تفوقا هائلا من حيث العدد ووفرة المعدات والمؤن لم يجترئوا على مهاجمته .

* * *

مر بنا أنه عندما فشل بوبليوس سقيبيو في الإلتقاء بهانيبال عند الرون في عام ٢١٨ ق . م . قفل راجعا إلى روما ولكنه قرر ارسال جيشه إلى اسبانيا بقيادة أخيه جنايوس ، وأنه كان لهذا القرار نتائج بعيدة المدى في سير الحرب . ذلك أنه منذ اتخذ بوبليوس سقيبيو هذا القرار عمدت روما ، حتى في أشد أيامها حلاكا ، على متابعة نشاطها في اسبانيا ، وذلك من ناحية لتقويض دعائم مركز قرطجنة هناك ، ومن ناحية أخرى لشغلها عن ارسال امدادات كبيرة إلى هانيبال سواء من أفريقيا أم من اسبانيا . وبيان ذلك أن جنايوس سقيبيو اتخذ في عام ٢١٨ ق . م . قاعدة له شمالي نهر الأبرو وشرع في الاستيلاء على الشاطىء الشرقي . وفي العام التالي أرسل السناتو أخاه بوبليوس على رأس قوات إضافية وقام الأخوان بعبور نهر الأبرو وغزو ممتلكات قرطجنة جنوبيه وإغراء قبائل اسبانية كثيرة على الخروج على قرطجنة . واذا كان هاسدروبال قد تمكن آخر الأمر من هزيمة الأخوين اللذين خرا صريعين في ميدان القتال في عام ٢١١ ق . م . فأنه لم يفلح في ذلك إلا بعد نجاح الأخوين سقيبيو في بث الفتنة بين رعايا القرطجنيين وفي شل يد قرطجنة عن ارسال امدادات إلى هانيبال ولو أنها وصلته بعد واقعة قاناي لكان لها تأثير فاصل في سير الحرب . وهكذا فوت الأخوان سقيبيو على قرطجنة أفضل الفرص لدعم مركز هانيبال في ايطاليا حين توالت النكبات على روما ، لأنه بعد نجاح الرومان في استعادة قابوا وسراقوسة في عام ٢١١ ق . م . كان في وسعهم التصدي للامدادات القادمة من اسبانيا على نحو ما مر بنا ، وإرسال تعزيزات لقواتهم في اسبانيا .

وقد كان من أهم الخطوات أثرا في النتيجة التي انتهت اليها الحرب البونية الثانية ذلك القرار الذي اتخذه السناتو في عام ٢١٠ ق . م . بارسال جيش جديدا إلى اسبانيا وإسناد القيادة العليا هناك إلى ابن القنصل القتيل وكان يدعى مثل أبيه بوبليوس قورنليوس سقيبيو . وبرغم أن القائد الجديد كان قد أثبت كفايته العسكرية حين كان يخدم في الجيش تحت امرة أبيه بوصف كونه تريبيونا عسكريا . فأنه كان في الخامسة والعشرين من عمره ولم يكن قد تولى بعد أية وظيفة عامة من الوظائف التي كانت تكسب صاحبها حق ممارسة السلطة العليا وتولى القيادة العسكرية (Imperium) ، وتبعا لأحكام القانون والتقاليد لم يكن جائزا إسناد القيادة العليا إلى سقيبيو . ولكنه ازاء ما اتصف به هذا الشاب من جرأة وكفاية وشخصية قوية، وإزاء ما كان الموقف العسكري يتطلبه ، ضرب السناتو بالتقاليد عرض الحائط وأوصى جمعية المئينات باستصدار قانون خاص يضفي على سقيبيو مرتبة بروقنصل أي قائم بعمل قنصل ويسند اليه القيادة العليا في آسبانيا . وقد كان في ضمير الدهر أن هذا الشاب سيحرز لوطنه انتصارات باهرة تنافس انتصارات هانيبال باستخدام ذات أساليب هذا القائد الفذ .

وفي عام ٢٠٩ ق . م . استأنف سقيبيو أعمال أبيه وعمه في جنوب اسبانيا بجرأة تذكرنا بجرأة هانيبال في ايطاليا . ذلك أنه ما أن نما إلى علمه أن الجيوش القرطجنية انسحبت إلى الداخل حتى انقض فجأة على قاعدتها الرئيسية — قرطجنة الجديدة في الجنوب الشرقي من آسبانيا — قبل أن تجد حاميتها فرصة للاستعداد لصده . وبفضل هذه الضربة حرم خصمه قاعدته الرئيسية في اسبانيا وكذلك الموارد التي كان يستمدها من المناجم الموجودة بجوار هذه المدينة . وبعد ذلك امتنع عن الاشتباك مع خصمه في معارك إلى أن أعاد تسليح قواته بالسيوف الاسبانية الطويلة بدلا من السيوف الرومانية القصيرة ، وتدريبها على أساليب الحركات والمناورات التي كان هانيبال يستخدمها . وفي هذه الأثناء أيضا استأنف سياسة أبيه في كسب القبائل إلى جانبه وصادف في ذلك نجاحا ملحوظاً أكمل هدم ما كان قد بناه هاميلقار وصهره هاسدروبال وابناه هانيبال وهاسدروبال .

وفي عام ٢٠٨ ق . م . أخذ يتوغل داخل جنوب اسبانيا واشتبك مع هاسدروبال في معركة عند بايقولا (Baecula) . واذا كان افتقار سقيبيو إلى عدد كاف من الفرسان قد حال دون نجاحه في تطويق جيش خصمه تطويقا شاملا على نحو ما فعل هانيبال عند قانّاي ، فأنه حطم الجناحين تحطيما كاملا .

وعندئذ قدر هاسدروبال أنه اذا قام فورا بأخذ إمدادات إلى هانيبال واستطاعا سويا إرغام روما على التسليم ، أمكن بعد ذلك استرجاع كل شيء . وأما إذا انتظر أطول من ذلك فقد تذهب كل آمال قرطجنة أدراج الرياح ، لأن الموقف في اسبانيا قد يتدهور إلى حد يتعذر معه إرسال إمدادات إلى هانيبال فيزداد موقفه حرجا في إيطاليا . وتبعا لذلك فان هاسدروبال مرق بقواته عبر هضبة قاستيل . ومن المرجح أن سقيبيو لم يعترض سبيله لأنه من ناحية كان مطمئنا إلى قدرة القوات الرومانية في أيطاليا على معالجة أمر هاسدروبال — بدليل أن وصوله لم يزعج السناتو مثل ما أزعجه وصول هانيبال فهو لم يستدع سقيبيو من اسبانيا مثل ما استدعى من قبل سمبرونيوس من صقلية — ولأن سقيبيو من ناحية أخرى رأى في انصراف هاسدروبال أكبر ضمان له لاتمام فتح اسبانيا . وقد صدق تقدير سقيبيو في الحالتين ، ذلك أن القوات الرومانية في إيطاليا قضت على هاسدروبال ، وتمكن هو من أن يتابع بنجاح فتح اسبانيا ، فما وافى عام ٢٠٦ ق . م . حتى كانت قرطجنة قد فقدت ممتلكاتها الأسبانية إلى غير رجعة .

* * *

وفي خلال قيام سقيبيو بحملاته في اسبانيا مهد السبيل لغزو افريقيا بانشاء علاقات مع كثيرين من زعماء القبائل في نوميديا وبخاصة مع سوفاكس (Syphax) وكان أعظمهم شأنا ويسبب المتاعب لقرطجنة منذ عام ٢١٥ ق . م . وعندما عاد سقيبيو إلى روما في عام ٢٠٥ ق . م . — وكان قد انتخب قنصلا في أثناء

غيابه – طلب السماح له بغزو افريقيا . ولكن السناتو رفض أول الأمر . خوفاً من خفض القوات التي تدافع عن ايطاليا طالما بقي فيها هانيبال ، وعزوفاً عن فرض أعباء جديدة على الحلفاء الأيطاليين بحشد قوات جديدة . وعندما استطاع سقيبيو اكتساب تأييد جمعية المئينات باثارة حماسها للثأر من قرطجنة ، لم ينتظر السناتو حتى يرغم على الموافقة بل بادر إلى السماح لسقيبيو بأن يأخذ أي متطوعين يستطيع جمعهم إلى جانب فرقتين من بقايا الجيش الذي هُزم في واقعة قانّاي ، وكان السناتو قد أرسلهما إلى صقلية ليخدما هناك اثني عشر عاما عقابا لهما على فرارهما من ميدان المعركة عندما احتدم وطيسها . وتفادياً لوقوع أي نزاع ، انصاع سقيبيولقرار السناتو .

وقد قضى سقيبيو بقية عام ٢٠٥ ق . م . في صقلية لتدريب رجال حملته على أساليبه التي تعلمها من هانيبال . وفي عام ٢٠٤ ق . م . نزل سقيبيو على الشاطىء الافريقي قرب أوتيقا (Utica) ، شمالي قرطجنة بغرب ، حيث وجد عدوه مستعدا للقائه . ذلك أن قرطجنة ، حين أدركت أنها على وشك أن تُغزى . اتخذت خطوتين : كانت إحداهما ، هي تكليف ماجو شقيق هانيبال بتكوين قوة والنزول في شمال إيطاليا لجمع قوات هناك من الغال وغزو شبه الجزيرة الايطالية . وقد نجح ماجو في النزول عند جنوده لكنه لم يلق أية مساعدة من الغال وقضى عامين في بذل جهد لا طائل من ورائه (٢٠٥ – ٢٠٣ ق . م .) . وكانت الخطوة الأخرى التي اتخذتها قرطجنة هي إعداد جيش كبير للدفاع عنها . واذا كانت قرطجنة قد تمكنت أخيرا من أن تكسب سوفاكس إلى جانبها ، فان سقيبيو نجح في اكتساب جانب ماسينيسا (Massinissa) ، وكان حاكم ولاية صغيرة في شرق نوميديا ، وفي الأصل من أصدقاء قرطجنة وأسهم في هزيمة الرومان في أسبانيا في عام ٢١١ ق. م. ونجاح سقيبيو في ضم ماسينيسا إلى جانبه يرجع إلى أن سوفاكس كان قد طرد ماسينيسا مؤخرا من ولايته . وقد كان مما ترتب على ذلك أنه لم يستطع أن يقدم إلى سقيبيو أول الأمر إلا مساعدة محدودة كانت عبارة عن أتباعه من الفرسان ، لكنه كان مقدرا لماسينيسا أن يقوم بدور

كبير ليس في مجرى هذه الحرب فقط بل أيضا في المصير الذي انتهت اليه قرطجنة .

وقد تمكن الجيش القرطجني وسوفاكس من شل نشاط سقيبيو في عام ٢٠٤ ق . م . فعمد إلى الحيلة في الشتاء بأن تظاهر باستعداده لعقد الصلح ودخل مع العدو في مفاوضات أطالها عامدا لتسكين خواطره والإقلال من يقظته . وما أن حل ربيع عام ٢٠٣ ق . م . حتى قطع المفاوضات وقام فجأة بحملة خاطفة بددت شمل الجيش القرطجني وجيش سوفاكس . وعندما أعيد تكوين هذين الجيشين أنزل بهما سقيبيو هزيمة ساحقة وخلع سوفاكس وأقام مكانه ماسينيسا في عاصمته قيرتا (Cirta) . وعندئذ طلبت قرطجنة الصلح وكذلك استدعت هانيبال وماجو من ايطاليا . وقد وافق الرومان على عقد هدنة وعرضوا للصلح شروطا تتضمن نزول قرطجنة عن اسبانيا وخفض أسطولها إلى ٢٠ سفينة ودفع تعويض قدره ٥٠٠٠ تالنت (أي حوالي مليون وربع مليون جنيه أسترليني) . وبرغم أن قرطجنة قبلت شروط الصلح ، فان عودة هانيبال ومعه حوالي ١٥٠٠٠ من جنوده المجربين أعاد اليها الثقة في نفسها وشجعها على خرق الهدنة قبل تنفيذ شروط الصلح ، وذلك بالاعتداء على بعض الناقلات الرومانية ورفض تقديم أي تفسير لتصرفها عندما طلب اليها سقيبيو ذلك ، مما أدى إلى استئناف القتال .

وفي صيف عام ٢٠٢ ق . م . التقى عند زاما أعظم قائدين شهدتهما هذه الحرب لتصفية حسابها نهائيا . وقد كان الجيشان متكافئين تقريبا من حيث عدد الجنود ، ولكنه كان لدى هانيبال فرقة من الفيلة ، غير أن مشاته كانوا متفاوتين في الكفاية القتالية ، وكان لضياع نوميديا أثر كبير في إضعاف قوة فرسانه وزيادة قوة فرسان سقيبيو ، وهو الذي كانت لديه ميزة أخرى وهي حسن تدريب مشاته وطول خدمتهم تحت قيادته .

وقد بدأ هانيبال المعركة باطلاق فرقة فيلته على قوات خصمه ، ولكن هذه الخطوة لم تجده فتيلا بل انها أساءت اليه ، ذلك أن سقيبيو كان قد توقع هذه

الخطوة واحتاط لها بحسن توزيع فرقه وبالتنبيه عليها بأنه عند اقتراب الفيلة تقوم باحداث ضجة شديدة وتفتح ثغرات بين صفوفها . وكانت النتيجة أن الضجة بثت الرعب في الفيلة فاندارت بعضها وانقضت على مقدمة جيش هانيبال واندفعت بعضها في الثغرات إلى الخلاء لا تلوي على شيء . وبعد ذلك حاول سقيبيو تطويق هانيبال ، ولكن هانيبال كان يقظا ومد خطوط مشاته بالسرعة نفسها التي مد بها سقيبيو خطوطه . وحين كان مشاة الفريقين مشتبكين في قتال مرير . بدد فرسان سقيبيو شمل فرسان خصمه دون أن يطاردوهم بعيدا ليعودوا ويطبقوا على مشاة هانيبال من الخلف فانسحق جيشه تماما . ولا أدل على فداحة الهزيمة من أن هانيبال — وكان أحد القلائل الذين نجوا بحياتهم من المعركة — ألح على حكومته أن تبادر إلى عقد الصلح .

وقد وافق سقيبيو على الصلح بشروط أهمها : ١ — أن تنزل قرطجنة عن جميع ممتلكاتها ما عدا مدينة قرطجنة ذاتها واقليمها (أي ما يعادل تقريبا تونس) واقليم المدن الثلاث (طرابلس). ٢ — أن تدفع قرطجنة تعويضا قدره ١٠,٠٠٠ تالنت (حوالي مليونين ونصف مليون جنيه استرليني) تقسطه على خمسين عاما . ٣ — أن تسلم قرطجنة لروما جميع سفنها الحربية ما عدا عشر سفن . ٤ — أن تلتزم قرطجنة بعدم خوض غمار أية حرب في أفريقيا أو خارجها دون موافقة روما مسبقا على ذلك . ٥ — أن ترد قرطجنة إلى ماسينيسا « كل الممتلكات التي كانت في حوزته وحوزة أسلافه ». وهذا نص غامض ماكر أتاح لهذا الرجل الطموح الفرصة لاشباع طموحه وخلق الأزمة المناسبة لتدخل روما وتنفيذ مآربها فيما بعد . وكانت روما قد كافأت ماسينيسا على خدماته لها باقامته ملكا على نوميديا ليرقب جارته قرطجنة ويضيق الخناق عليها . ولما كان قد ضاع كل أمل لقرطجنة في المقاومة ، فانه لم يسعها الا أن تقبل الشروط التي أملتها روما ، وفي عام ٢٠١ ق . م . أبرم الطرفان هذه الشروط . وعندما عاد سقيبيو إلى روما احتفل بانتصاره على « قرطجنة وهانيبال » ، وتقديرا لنصره الباهر مُنح لقب « أفريقانوس » (Africanus). أي الافريقي .

خرجت روما من الحرب البونية الثانية سيدة غرب البحر المتوسط وأعظم قوة في العالم القديم . بيد أن روما لم تحرز انتصارها الا بعد أن خاضت غمار صراع لعله كان أعظم صراع شهده العالم القديم . فلا عجب أن بعض الباحثين يعتبرون هذا الصراع « الحرب العالمية » في العصور القديمة ، بسبب تعدد مسارح هذا الصراع وكثرة ضحاياه والمثابرة على متابعته . وقد أبرز هذا الصراع كل فضائل الرومان – الشجاعة والوفاء والبذل والفداء – وكلفهم نفقات طائلة وتضحيات كبيرة في الأرواح ، وترك في ايطاليا آثارا لم يمحها مر الزمن . ذلك أن تكاليف الأساطيل والجيوش أرهقت موارد روما المالية إلى أقصى حد ، مما جعلها تضطر في عام ٢١٦ ق . م . إلى مضاعفة ضريبة الحرب وإلى عقد قرض مع هيرو ملك سراقوسة . وفي العام التالي ناشدت روما وطنية رجال الأعمال فوافقوا على تقديم الإمدادات اللازمة للقوات الموجودة في اسبانيا والحصول على استحقاقاتهم عندما تتحسن حال الخزانة العامة . وفي عام ٢١٤ ق . م . عندما نشأت حاجة إلى انشاء قوة بحرية إضافية لمواجهة الموقف المضطرب في صقلية ، فرضت روما على أثرياء مواطنيها دفع أجور مجدفي السفن الحربية . وعندما تأزمت الحالة نتيجة لخروج قابوا على روما وتعذر دفع مرتبات الجنود ، لم يبال الجنود بذلك . ولا أدل على استمرار الأزمة المالية واستحكام حلقاتها مما تحدثنا به المصادر القديمة من أنه في عام ٢١٠ ق . م . تبرع أعضاء ا[illegible]تو بكمية كبيرة من الذهب والفضة لخدمة المجهود الحربي . وأخيرا اضطرت الحكومة الرومانية في عام ٢٠٩ ق . م . إلى استخدام آخر احتياطي للخزانة العامة وهو المعروف بالخزانة المقدسة (aerarium sanctius) ، وكان عبارة عما تكدس فيها من دخل ضريبة ٥٪ من قيمة العبيد الذين يعتقون . وعندما كان سقيبيو يعد حملته لغزو أفريقيا وعجزت الدولة عن توفير كل حاجته إلى الجنود والسفن سمحت له بمناشدة وطنية الرومان وسخاءهم لتزويده بالمتطوعين والمال . وفضلا عن ذلك كله تحمل الرومان أعباء ارتفاع تكاليف الحياة وخطر حدوث مجاعة ، بسبب اضطراب

الأحوال في ايطاليا وصقلية وتجنيد أعداد كبيرة من المزارعين . ولم ينقذ الرومان في عام ٢١٠ ق . م . الا مناشدة بطلميوس الرابع ملك مصر تزويدهم بالحبوب ، ولكن هذه الأزمة انقضت في العام التالي لأنه في عام ٢١٠ ق . م . كانت روما قد أعادت السلام إلى نصابه في صقلية .

وقد نزلت بأقاليم جنوب شبه الجزيرة الأيطالية أشد ضروب التخريب . لأنه عاما بعد عام كانت الجيوش المتقاتلة تخرب أراضيها وتدمر قراها ، فأصبحت أرضها جرداء وهجرها سكانها الريفيون وتدهورت حال مدنها . ونتيجة لذلك كله لم يفق جنوب إيطاليا ثانية من آثار ما لحقه من خراب وتدمير .

ويدل على ضخامة ضريبة الدم التي تحملها الرومان وحلفاؤهم أن عدد المواطنين الرومان الصالحين للخدمة العسكرية هبط من حوالي ٢٨٠,٠٠٠ في بداية الحرب البونية الثانية إلى حوالي ٢٣٧,٠٠٠ في عام ٢٠٩ ق . م . ولا بد من أن يكون حلفاؤهم قد تحملوا على الأقل عددا مماثلا من الضحايا .

وقد كانت العوامل الرئيسية التي أسهمت في تقرير مصير الحرب هي : أولا — اهتمام الرومان بدعم سيادتهم البحرية إلى حد لم تستطع قرطجنة أن تتحداه تحديا خطيرا . وثانيا — وفرة عدد المواطنين الرومان وحلفائهم مع اتباع نظام فرض التجنيد العام على المواطنين كافة ، مما أتاح لروما حشد جيوش من المواطنين تمتاز على جيوش قرطجنة من حيث العدد والروح المعنوية . فطالما بقي هانيبال في أيطاليا كانت روما تحشد من عام إلى آخر نحوا من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل . ولم يحدث الا مرة واحدة أن عجزت روما عن تعويض خسائرها طبقا لنظام التجنيد العام ، وكان ذلك عقب معركة قاناي عندما اضطرت إلى تجنيد ٨٠٠٠ عبد وعدتهم بالعتق جزاء لحسن بلائهم . وثالثا — تناسي كل الخلافات وترك مقاليد الأمور للسناتو الذي أظهر من الشجاعة والمرونة والكفاءة وبعد النظر

وحسن التقدير ما برر الثقة التي مُنح إياها . ورابعا – حسن تقدير الرومان للظروف ومواجهة متطلباتها سواء بحشد كل طاقاتهم ومواردهم ، أم بتجنيد العبيد ، أم باطالة مدة ممارسة القناصل والبرايتورس للسلطة التنفيذية من أجل التغلب على عيب تغيير القائد العام سنويا ، أم باسناد القيادة العليا إلى خير من يصلح لتوليها وان كان في ذلك خروج على التقاليد . وخامسا – قدرة الرومان على الافادة من خصومهم واستخدام ما أفادوه منهم في التغلب عليهم ، ذلك أنه كما تعلم الرومان من قرطجنة فن البحار وأهمية السيادة البحرية تعلم سقيبيو من هانيبال فن القيادة وأساليب الحركات العسكرية .

ومن ناحية أخرى . اذا كانت قرطجنة قد أظهرت في الحرب البونية الثانية من الحزم والمثابرة أكثر مما أظهرته في الحرب الأولى ، فانها ارتكبت خطأين فاحشين : وأحدهما . هو أنها أهملت أسطولها بعد الحرب الأولى ولم تحاول بناء أسطول قوي يستطيع مجابهة الأسطول الروماني . والخطأ الآخر هو أنها أساءت التقدير بإرسالها إلى اسبانيا إمدادات بعد أخرى لو أنها أرسلتها في الوقت المناسب إلى هانيبال لتغيرت نتيجة الحرب . وهذا خير دليل على حكمة النشاط الذي تابعته روما في اسبانيا منذ بداية الحرب حتى عام ٢٠٥ ق . م . ويرجع الفضل فيه إلى القرار الذي اتخذه والد سقيبيو أفريقانوس في عام ٢١٨ ق . م .

ومع ذلك فانه عقب كل هزيمة نزلت بقرطجنة سواء في اسبانيا أم في افريقيا لم تدخر وسعا في إعادة حشد جيوش جديدة إلى أن حلت بها نكبة زاما . بيد أن مكمن ضعفها كان اعتمادها في بناء هذه الجيوش على المرتزقة وعلى رعاياها الذين أساءت معاملتهم . وقد كان طبيعيا أنه كلما نقصت مواردها أصبح عسيرا عليها تجنيد المرتزقة ، وأنه كلما فرضت التزامات جديدة على رعاياها أدى ذلك إلى إثارتهم مما كان يكلفها جهدا كبيرا لاخضاعهم . وفضلا عن ذلك فان تكوين جيشها من عناصر غير متجانسة كان يتطلب شخصية قوية مثل شخصية

هانيبال ليبث فيها من النظام وروح الجماعة ما يجعلها أهلا لمواجهة جيوش مثل الجيوش الرومانية . ولسوء حظ قرطجنة أنه لم يكن لديها الا هانيبال واحد . وأن باقي قوادها لم يفتقروا إلى شخصية هانيبال وكفايته فحسب ، بل انهم لم يرتفعوا إلى مستوى المسئولية ويتغلبوا على المنافسات الشخصية ويتعاونوا مع بعضهم بعضا تعاونا صادقا سواء في صقلية أم في اسبانيا .

الفصل العاشر

روما تبسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط

المرحلة الثانية [1] : من عام ۲۰۰ حتى عام ١٦٧ ق. م .

أولا – الأوضاع في شرق البحر المتوسط

في خلال ربع القرن الذي أعقب واقعة زاما أحرزت روما في شرق البحر المتوسط مكانة تعادل المكانة التي أحرزتها في غرب هذا البحر بانتصارها في

---

(١) المصادر :

الأوضاع في العالم الهلينيسي والحرب المقدونية الثانية :

Polyb., XV, 20-25; XVI, 1-12; 24-35; XVIII, 1-12; 18-39; 42-48; Liv., XXXI,
1-9; 14-18; 22-47; XXXII, 1-25; 28; 32-40; XXXIII, 1-21; 27-35; XXXIV,
22-41; 48-52; Appian., Maced., IV-IX,4; Dio Cass. XVIII, 57-60; Flor.,
I,23; Plut., Flamminius; Zon., IX, 15-16; 18.

روما وانطيوخوس

(أ) الحرب في بلاد الأغريق :

Polyb., XVIII, 49-52; XX, 3;7-11; XXI, 1-4; Liv.,XXXIII, 38-41;XXXIV,
57; XXXV, 12; 13;15-19; 25-39; 42-51, XXXVI, 1-35;Appian., Syr., I, 1-IV,
21; Flor., I, 24; Plut., Cato, 13-14, Zon., IX, 18-19.

(ب) الحرب في آسيا الصغرى :

Polyb., XXI, 6-48; Liv., XXXVI, 41-45; XXXVII, 1-45; 52-57; 60; XXXVII
1-41; Appian., Syr., V, 22-VII, 44: Flor., I,27; Zon., IX, 20;21.

اخضاع شمال ايطاليا :

Polyb., XXXII, 9;13; XXXIII, 8-10; Liv., XXXI, 2; 10; 29; XXXII, 29-31;
36; 37; XXXIV, 46-48; XXXV, 3-6; 11; 22; XXXVI, 38-40; XXXIX, 1; 2;
20; 54; 55; XL, 16; 25-28; 38; 41; 53; XLI, 1-4; 10-12; 17-19; XLII, 7-9; Appi-
ani, Illyr., II, 11; Dio Cass., XVIII; Flor., I, 26; Zon. IX,15.

الحربين البونيتين الأولى والثانية . ويرجع تدخل روما في شرق البحر المتوسط وبسط سيطرتها عليه سريعا إلى الأوضاع التي كانت قائمة في العالم الهلينيسي عند نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، مما يقتضينا أن نستعرض في إيجاز أحوال أهم الدول الهلينيسية وهي دولة البطالمة ودولة السلوقيين ومقدونيا .

١ ــ دولة البطالمة :

كان الهدف الأساسي للبطالمة الثلاثة الأوائل هو بناء دولة غنية قوية . ومن أجل ذلك وضعوا نصب أعينهم أمرين : وأحدهما هو حكم مصر حكما

= الحرب المقدونية الثالثة:

Polyb., XXII, 1-4; 6-15; 18; 19; XXIII, 1-18; XXIV, 1-3; 6-13; XXV, 2; XXVII, 1-11; 14-16; XXVIII, 3-15; XXIX, 1-11; 13-21; XXX, 6-15; 22; 29; 32; Liv., XXXIX, 23-29; 33-37; 46-53; XL, 2-16; 20-24; 54-58; XLI, 22-25; XLII, 5; 6; 25-67; XLIII, 7-12; 17-23; XLIV, 1-13; 16; 18; 20-46, XLV, 4; 6-9; 17; 18; 26-34; Appian., Maced., XI-XIX; Illyr., II, 9; 10; Dio Cass., XX; Flor., I, 25; Plut., Aem. Paullus; Zon., IX, 22-24.

روما والعالم الأغريقي :

Polyb., XXII, 5; 16; 17; XXIV, 1; 5; 14; 15; XXV, 1; 4-6; XXVI, 1; XXVII, 3; 4; 7; 17-20; XXVIII, 1; 2; 16-23; XIX, 2, 22-27; XXX, 1-5; 16-21; 23-28; 30; 31; XXXI,1-20; 30-33; XXXII, 1-12;15;16; XXXIII, 1-7;11-19;XXXV 6; XXXVI, 14; 15, XXXIX, 7; Liv., XLI, 20; XLII, 11-17;45;XLIII, 6; XLIV, 14; 15; 19; XLV, 3;10-13; 19-26; 44; Epit., XLVI-LIII.

المراجع :

T. Mommsen, History of Rome, Bk. III, Chs. VII-X; W.E. Heitland, The Roman Republic, Vol. II, Chs. XXVII-XXXII; W.S. Ferguson, Greek Imperialism, 1911, Chs. V-VIII; T. Frank, History of Rome, chs. VIII, IX; F.W. Walbank, Philip V of Macedon, 1940; D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, 1950, esp. ch.IV; E. Badian, Rome and Antiochus ,A Study in Cold War, Class. Philol., 1959, pp. 81 ff.; M. Cary, op. cit., Chs. XV, XVI; A.E.R. Boak, op. cit., Ch. IX; H.H. Scullard, op. cit., Chs. XI-XIII; Cambr dge Ancient History, vol. VIII, Chs. V-IX; J.H. Thiel, Studies in The History of Roman Sea Power in Republican Times, 1946, Ch. III; B.H. Liddell-Hart, Scipio Africamus, Chs. XIII-XV.

مطلقا تسانده حراب جنودهم الاغريق . ووضع أيديهم على كل موارد البلاد . وارغام المصريين على استغلالها إلى أقصى حد ممكن لصالح حكامهم وكذلك على أداء سلسلة طويلة من الضرائب . فلا عجب أن قلوب المصريين نبضت حقدا وكراهية وأنهم أخذوا يتطلعون إلى الفرصة التي تتيح لهم تقويض دعائم هذا الحكم الأجنبي البغيض . والأمر الآخر ، هو بناء أمبراطورية بحرية تكفل من ناحية تأمين سلامة دولتهم ، ومن ناحية أخرى سد حاجة مصر إلى الموارد التي تفتقر اليها مثل الأخشاب والمعادن . ومن ناحية ثالثة زيادة ثروتهم تبعا لرواج التجارة والاستيلاء على منافذ طريقين رئيسيين من طرق التجارة القادمة من الشرق الأقصى ، ومن ناحية رابعة الاتصال الوثيق بالعالم الاغريقي وبخاصة بحر أيجة ، وكان عندئذ مصدر الأفكار والرجال ورءوس الأموال .

وقد بلغت امبراطورية البطالمة أقصى اتساعها في عهد بطلميوس الثالث (٢٤٦ — ٢٢١ ق . م .) وكانت تشمل عندئذ ، إلى جانب مصر ، قورينائية وقبرص وفينيقيا وجنوب سوريا « جوف سوريا » وعددا من الأقاليم المطلة على شواطىء آسيا الصغرى الجنوبية والغربية وكذلك شاطىء تراقيا حتى مارونيا ، فضلا عن عدد من جزر بحر أيجة .

وبعد النشاط الذي أبداه بطلميوس الثالث في مستهل حكمه ، جنح إلى السلم بل ترك جيشه وأسطوله يستغرقان في التراخي والضعف إلى حد أنه عندما توفي في عام ٢٢١ ق . م . لم تعد مصر قوة حربية يخشى بأسها . وعندما ارتقى عرش مصر بطلميوس الرابع . وكان شابا عابثا أكثر اهتماما باشباع ملاذه من العناية بشئون الدولة ، رأى الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث الفرصة سانحة للاستيلاء على « جوف سوريا » . وعندما لاحت بوادر الأزمة ولم يكف لبناء جيش قادر على مواجهة الخطر المحدق أولئك الذين استؤجروا من الخارج وأولئك الذين حشدوا من الأغريق المقيمين في مصر ، أضطرت الحكومة إلى الاعتماد على المصريين في تكوين الجيش لأول مرة في عهد البطالمة ، فجندت

٢٠,٠٠٠ مصري ودربتهم وسلحتهم وفقا لأحدث أساليب القتال وكونت منهم قلب الجيش البطلمي . وحين التقى الجيشان في واقعة رفح في عام ٢١٧ ق . م . وانتصر أحد جناحي الجيش البطلمي وانهزم الجناح الآخر ، حسم المصريون نتيجة المعركة باكتساح قلب الجيش السلوقي المكون من المقدونيين والاغريق . وكانوا خـيرة جنود العصر . ومنذ أن عاد المصريون المظفرون من المعركة . وقد أدركوا قيمتهم العسكرية ، نفثوا روح الثورة في البلاد .

وتعتبر واقعة رفح حداً فاصلاً بين عهدين : العهد الذي بلغت فيه دولة البطالمة أقصى اتساعها وأوج مجدها ، والعهد الذي اضمحلت فيه هذه الدولة فتزعزع سلطانها في الداخل وفقدت أملاكها في الخارج وانتهى بها الأمر إلى أفول نجمها وزوال استقلالها . ويرجع هذا الاضمحلال إلى سببين رئيسيين : أحدهما داخلي والآخر خارجي . وأما السبب الداخلي فهو ضعف السلطة المركزية واختلال نظام الحكم ، ويعزى إلى ثلاثة عوامل ، وهي : ١ — أن الدور الذي قام به المصريون في واقعة رفح أعاد اليهم الثقة في أنفسهم فلم يعودوا يتهيبون الوقوف في وجه الحكومة ثائرين على ما كانوا يلقونه من صنوف الضغط والارهاق . وقد تعددت هذه الثورات منذ عام ٢١٦ ق . م . إلى حد أنها أضعفت قوة البطالمة وشلت أيديهم عن الدفاع عن ممتلكاتهم الخارجية . ٢ — منذ وفاة بطلميوس الثالث آل العرش إلى ملوك كانوا إما ضعافا مستهترين وإما صبية صغارا فآلت مقاليد الحكم إلى أوصياء أو وزراء عجزوا عن الارتفاع إلى مستوى الأحداث ، فكان ذلك خير مشجع لذوي المطامع ، الأعداء منهم والحلفاء ، للانقضاض على ممتلكات مصر الخارجية بل على مصر ذاتها . ٣ — ظهور روح التنافس واستحكام النزاع بين أفراد أسرة البطالمة منذ عهد بطلميوس السادس (١٨٠ — ١٤٥ ق . م .) ، ذلك النزاع الذي عمد الرومان إلى استغلاله وساعدهم على التحكم في توجيه سياسة دولة البطالمة وتغلغل نفوذهم فيها .

وأما السبب الخارجي فهو أنه حين بدأت عوامل الاضمحلال تدب إلى

دولة البطالمة كانت تعتلي مسرح السياسة الدولية ثلاث قوى طموحة وهي : الأمبراطورية السلوقية في عهد أنطيوخوس الثالث ، والدولة المقدونية في عهد فيليب الخامس ، والجمهورية الرومانية .

٢ – دولة السلوقيين :

وقد كانت دولة السلوقيين ، أو سوريا على حد تعبير الرومان ، أضخم الممالك الهلينيسية من حيث الاتساع وعدد السكان ، الا أنها كانت تجيء بعد دولة البطالمة من حيث الثراء . وكانت بابل هي النواة التي نبتت منها هذه الدولة ، وبفضل جهود مؤسسها سلوقس الأول لم تمتد حدودها شرقا فحسب حتى وصلت إلى البنجاب بل غربا أيضا إلى البحر حيث شملت أغلب آسيا الصغرى وشمال سوريا لتكون على صلة وثيقة بالعالم الأغريقي . ومن أجل ذلك جعل السلوقيون أنطاكية على نهر العاصي عاصمتهم وكافحوا سيطرة البطالمة على « جوف سوريا » وعلى شواطىء آسيا الصغرى ، لأن تسليمهم بذلك كان يحرمهم موارد ضخمة وإنشاء أسطول كبير والاحتفاظ به في تلك الأصقاع ، بل كان يتيح للبطالمة أن يسدوا في وجوههم الاتصال ببحر أيجة فتصبح دولتهم مملكة شرقية بحتاً منعزلة تماما عن العالم الأغريقي .

بيد أن ذات ضخامة الأمبراطورية السلوقية كانت مكمن ضعفها ، بسبب المسافات الشاسعة التي كانت تفصل بين مقر السلطة المركزية وبين الولايات ، وكذلك بسبب تباين العناصر المتعددة التي كانت هذه الأمبراطورية المترامية الأطراف تضمها بين جوانبها . وفضلا عن ذلك فان سلطة السلوقيين كانت تستند على المرتزقة والنزلاء الاغريق وكذلك على المدن الاغريقية التي أنشأها الأسكندر الأكبر والسلوقيون في رحاب هذه الأمبراطورية ، غير أن هذه الواحات الأغريقية لم تفلح إلى أي حد محسوس في نشر الثقافة الأغريقية وربط أجزاء هذه الأمبراطورية بعضها ببعض . ولم يكن من شأن إخضاع هؤلاء الأهالي لحكم أجنبي استغلالي

أنه كسب ولاءهم أو عطفهم ، بل أنه على العكس من ذلك أثار حفيظتهم والرغبة في الثورة . ولم يضعف الأمبراطورية السلوقية الثورات المتكررة التي وقعت في الولايات الشرقية فحسب ، بل أيضا داء النزاع الأسري الذي ابتليت به أسرة السلوقيين منذ وقت مبكر .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذين العاملين أنه أصاب الأمبراطورية السلوقية تفكك شديد حوالي عام ٢٢٠ ق . م . ولكن أنطيوخوس الثالث تمكن بكفايته ونشاطه من إنقاذ الامبراطورية . ذلك أنه بعد هزيمته في واقعة رفح لم يركن إلى حياة الدعة والخمول بل نشط في القضاء على القوى الهدامة في امبراطوريته ، فتحالف مع أتالوس ملك برجام وحارب ابن عمه أخايوس (٢١٦/٢١٥ — ٢١٣ ق . م .) إلى أن تخلص منه نهائيا واسترد أغلب الممتلكات السورية في آسيا الصغرى ونزل عن باقيها لأتالوس . وفي عام ٢١٢ ق . م . يمم أنطيوخوس وجهه شطر ولاياته الشرقية في أواسط آسيا ، وبفضل حملة مظفرة قارنها العالم الهلينيسي بحملة الأسكندر الأكبر ، قضى على الثورات في فارس وميديا وأظهر قوته أمام ولاته الأسيويين وأعاد وحدة الأمبراطورية على أساس مكين ، فاكتسب مكانة رفيعة في دولته وفي الخارج . ومنذ عودته من هذه الحملة في عام ٢٠٥ ق . م . إتخذ لقب الملك الأكبر مثل الأخمينيين قديما ، وكان الأغريق يدعونه أنطيوخوس الأكبر . ومنذ ذلك الوقت أخذ أنطيوخوس يتأهب للثأر لهزيمته في واقعة رفح واسترداد « جوف سوريا » وباقي ممتلكاته في آسيا الصغرى وتراقيا عندما يحين الوقت المناسب .

٣ — مقدونيا :

وقد كانت مملكة مقدونيا أصغر الدول الهلينيسية العظمى الثلاث من حيث الثروة والاتساع وعدد السكان ، بيد أنها كانت تمتاز على الدولتين الأخريين من حيث الترابط والتقاليد العسكرية والروح المعنوي وولاء المواطنين لحكامهم

القوميين . فقد حرص هؤلاء الملوك على الحفاظ على التقاليد والنظم العسكرية التي وضعها فيليب الثاني وعمل الأسكندر الأكبر على تنميتها . ولما كان الشعب المقدوني لم يفقد طابعه العسكري ، فأنه كان في وسعه بناء جيش على درجة عالية من الكفاية وإن كان صغيرا .

وقد كافحت مقدونيا كذلك سيطرة البطالمة على بحر إيجة واستطاعت في عام ٢٤٥ ق . م . إحراز سيادة جزئية على هذا البحر بانتصارها على الأسطول البطلمي وسيطرتها على عصبة جزر القوقلادس (Cyclades) . ومنذ أواخر عهد فيليب الثاني وبداية عهد الأسكندر الأكبر ، كانت مقدونيا تدعي لنفسها حقوقا على شبه جزيرة البلقان ولكنها بعد وفاة الأسكندر لم تسيطر الا على تساليا والجزء الشرقي من بلاد الأغريق حتى برزخ قورنثة ، فقد وقف حائلا دون سيطرة مقدونيا على بلاد الاغريق الوسطى والجنوبية مقاومة عصبتي أيتوليا وآخايا وأسبرطة ، وكان البطالمة يمدونها بالمساعدة للحيلولة دون اتساع قوة مقدونيا ونفوذها . بيد أن المنافسة الشديدة بين الدول الاغريقية أفضت إلى انحياز عصبة آخايا إلى جانب مقدونيا . وعندما أنزلت مقدونيا هزيمة فاصلة باسبرطة في عام ٢٢٢ ق . م . كونت من أغلب بلاد الأغريق الوسطى والبلوبونيز عصبة بزعامتها . وقد ورث فيليب الخامس هذه الأوضاع وحافظ عليها بفضل انتصاره في الحرب المقدونية الاولى (٢١٢ — ٢٠٦ ق . م .) على الأيتوليين برغم تحالف برجام وروما معهم .

واذا كان فيليب قد خرج من صراعه مع الأيتوليين وبرجام وروما أكثر قوة وأطماعا منه في أي وقت مضى ، فانه كان يدرك أنه يتعذر عليه مكافحة الرومان بنجاح دون أسطول وموارد كافية ، وأن بلاد الاغريق أفقر من أن تمده بهذه الإحتياجات الضرورية ، وأنها لن تهب لمناصرته بعد أن سلبها حريتها . وإزاء ذلك رأى فيليب أن فرصته الوحيدة لتحقيق أغراضه كانت في الوصول إلى الشرق ، وفي إعادة بناء الأسطول الذي أكسب مقدونيا سيادة جزئية على بحر

إيجة عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد . ولما كانت الجزر ومدن آسيا الصغرى لا تزال غنية أو على الأقل أغنى من بلاد الأغريق ذاتها ، فان استيلاءه عليها كان يوفر له الوسائل اللازمة لبناء قوة بحرية كبيرة . ولكن أهداف فيليب كانت تتعارض من ناحية مع أهداف رودس وبرجام وهما اللتان كانتا تطمعان في السيطرة على بحر إيجة ، ومن ناحية أخرى مع أهداف انطيوخوس الثالث وكان على وشك الأنتهاء من دعم بناء أمبراطوريته استعداداً للأنقضاض على امبراطورية البطالمة. وكان سقوط هذه الأمبراطورية محط آمال فيليب بشرط الا تقع في قبضة انطيوخوس .

ولكي يحقق فيليب مشروعاته الإيجية ، عقد الصلح مع الرومان في عام ٢٠٥ ق . م . ولما لم يكن لديه ما يلزمه من الأموال والسفن لتنفيذ هذه المشروعات ، وكان عليه أن يقضي بأية وسيلة ممكنة على قوة رودس وممتلكاتها في بحر إيجة ، فانه لجأ إلى وسيلة تعلمها من الإلّوريين وهي استخدام القراصنة في تحطيم قوة العدو وسلبه موارده . وقد نجح قراصنته في السطو على عدد من الجزر والمدن الأسيوية وبذلوا جهدا كبيرا في تخريب موارد رودس البحرية . وفي الوقت نفسه (عام ٢٠٥/٢٠٤ ق . م .) أثار حربا عنيفة بين كريت ورودس . وهكذا تمكن فيليب من أن ينزل في بحر إيجة أسطولا كان ندا لأسطولي رودس وبرجام .

ويتبين من هذا العرض الموجز ثلاثة أمور وهي : أولا — أنه عند نهاية القرن الثالث قبل الميلاد كان الأضمحلال قد بدأ يدب إلى إحدى الدول الثلاث العظمى في شرق البحر المتوسط ، وأنه اذا كانت الدولتان الأخريان في ذروة قوتهما فانه من ناحية كانت لهما أطماع متضاربة ومن ناحية أخرى كان لهما أعداء في الداخل وفي الخارج يتربصون لهما الدوائر . وثانيا — أنه كانت توجد في العالم الهلينيسي إلى جانب هذه الدول الثلاث العظمى قوى أخرى على قدر من الأهمية وهي مملكة برجام في آسيا الصغرى ، وجزيرة رودس ، وعصبة أيتوليا شمالي خليج قورنثة ، وعصبة آخايا جنوبي هذا الخليج . وثالثا — أنه كانت لهذه القوى ،

وبخاصة برجام ورودس ، أهداف تتعارض وأطماع انطيوخوس الثالث وفيليب الخامس مثل ما كانت أطماع أنطيوخوس تتعارض وأطماع فيليب ، فقد كان الهدف الرئيسي لكل من هذين العاهلين الفوز بأكبر قسط ممكن من امبراطورية البطالمة ، وهي التي سيطرت أمدا طويلا على سياسة العالم الهلينيسي واقتصادياته .

ومجمل القول أنه حين خرجت روما مظفرة من كفاحها مع قرطجنة ، كانت دول العالم الهلينيسي في شغل عنها بتحقيق أهداف متلاطمة لم يكن من شأن الاندفاع في تحقيقها الا تمهيد السبيل لبسط سيطرة روما على شرق البحر المتوسط ، على نحو ما سنرى .

ثانيا – أحداث خطيرة في شرق البحر المتوسط : من عام ٢٠٣ حتى عام ٢٠١ ق . م .

في ٢٨ من نوفمبر عام ٢٠٣ ق. م. عندما أذيع نبأ وفاة بطلميوس الرابع وزوجته [١] ، آل عرش دولة البطالمة إلى ابنيهما الصبي ، وتولت مقاليد الأمور في الدولة عصابة شريرة فاسدة حاولت أن تدرأ الأخطار الخارجية التي كانت تتهدد الدولة بمناشدة مقدونيا وروما المساعدة ، وأن تؤمن مركزها الداخلي بالتخلص من الشخصيات الكبيرة التي قد تسبب لها المتاعب ، ولكنها فشلت فشلا ذريعا في المحاولتين .

وقد عقد أنطيوخوس وفيليب العزم على استغلال ضعف هذه الحكومة الفاسدة ، فاتفقا على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية . ولما كانت المفاوضات سرية ، فأنه لم تعرف بدقة شروط المعاهدة التي عقدت بينهما ، وإن كنا نرجح أن الاتفاق لم يشمل مصر ذاتها وإنما اقتصر على الممتلكات المصرية بحيث يحصل كل منهما على أقربها إلى مملكته ، فيأخذ فيليب ما تبقى لمصر من جزر القوقلادس ،

(١) أنظر ابراهيم نصحي ، مصر في عصر البطالمة ، الجزء الأول ، ١٩٧٦ ، ص ١٦٦

وممتلكاتها في تراقيا والدردنيل ومن المحتمل أيضا قورينائية ، ويأخذ أنطيوخوس « جوف سوريا » وفينيقيا وما تبقى لمصر من ممتلكات في آسيا الصغرى .

ويبدو أن كلا من أنطيوخوس وفيليب كان يطمع في أن يكون غرم مصر غنمه وحده ، ولكن الظروف اضطرتهما إلى أن يقنعا مؤقتا باقتسام ممتلكات مصر الخارجية . ذلك أن خوف أنطيوخوس من فيليب منعه عندئذ من كشف القناع عن أطماعه كلها ، واضطره كارها إلى النزول عن أقاليم تراقية وأسيوية كان يعتبرها من حق الامبراطورية السلوقية منذ أيام جده الأكبر سلوقس الأول . ولذلك لم يكن مخلصا في الاتفاق الذي عقده مع فيليب . وقد كان فيليب يدرك ذلك كله ويخشى ازدياد اتساع الامبراطورية السلوقية وقد أصبحت ثانية شديدة البأس . ولعل أخشى ما كان فيليب يخشاه هو الا يقنع أنطيوخوس بجوف سوريا وفينيقيا ويستولي على مصر بعد ذلك . وكان من مصلحة فيليب أن يظهر أمام مصر في ثوب المدافع عن ممتلكاتها الخارجية لكي تؤول إليه وحده فيما بعد مصر وممتلكاتها . ولكنه كان يرى أيضا أنه من الخير له أن يدعم مركزه في بحر إيجة قبل الاشتباك في حرب مع أنطيوخوس . ولذلك قبل عروض أنطيوخوس وعقد معه تلك « المعاهدة المخزية » – على حد تعبير بوليبيوس – لأنه في الوقت الذي كان يتفق فيه مع أنطيوخوس على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية كان يحسن وفادة البعثة البطلمية ويوهمها باستعداده للدفاع عن تلك الممتلكات .

ومن المحتمل أن تكون تلك « المعاهدة المخزية » قد عقدت في شتاء عام ٢٠٢/٢٠٣ ق . م.، وفي ربيع عام ٢٠٢ ق . م . بدأ فيليب وأنطيوخوس تنفيذ أغراضهما دون أية محاولة لتبرير اعتداءاتهما . فغزا أنطيوخوس جوف سوريا ، ولكننا لا نعرف شيئا عما قام به هناك في خلال حملة هذا العام ، وإن كنا نعرف أنه في ربيع العام التالي استأنف نشاطه في فتح جوف سوريا واستطاع أن يستولي على المنطقة الساحلية حتى غزة ويدخل هذه المدينة بعد مقاومة عنيفة في شتاء ٢٠١ / ٢٠٠ ق . م .

وأما فيليب ، فانه تنفيذا لخطة التظاهر بالدفاع عن الممتلكات المصرية لم يتعرض لهذه الممتلكات ، وبدلا من ذلك انقض على عدة مدن تقع على ضفاف الدردنيل والبسفور ، فأخضع لوسيماخيا (Lysimachia) وخلقدنيا (Chalcedom) وقيوس (Ceos) ، وكانت حليفات لعصبة أيتوليا ، واستولى كذلك على جزيرة تاسوس (Thasus) في طريق عودته إلى مقدونيا .

وقد أثار غضب العالم الاغريقي اعتداء فيليب على مدن وادعة آمنة وبخاصة الفظائع التي ارتكبها في قيوس وتاسوس . واستشاط أنطيوخوس غضبا لقيام فيليب بتلك الفتوحات وبخاصة لاستيلائه على لوسيماخيا وكان يدعي لنفسه حقوقا عليها . وكذلك نقمت أيتوليا على فيليب لاستيلائه على حليفاتها . وأخيرا وليس آخرا أهاجت تصرفات فيليب جزيرة رودس ورأت في استيلائه على المضايق خطرا يهدد تجارتها ، فاعتبرته عدوها وأخذت تستعد لمحاربته .

وفي ربيع العام التالي (٢٠١ ق . م .) استأنف فيليب نشاطه في بحر إيجة وعلى شواطىء آسيا الصغرى ، إذ يرجح أنه استولى عندئذ على عدد من الجزر المستقلة كانت ساموس من بينها ، وفرض سيادته على تيوس (Teos) وحاصر خيوس (Chios) ، مما أفزع رودس وبرجام إلى حد أنهما تآلفتا ضده — برغم أنهما كانتا إلى ذلك الوقت عدوتين — وصممتا على تحدي فيليب . وعند خيوس التقت أساطيل الفريقين في واقعة كبيرة ولكنها لم تكن حاسمة . وبعد ذلك بقليل التقى فيليب بأسطول رودس عند لادي (Lade) وألحق به هزيمة اضطرته إلى الانسحاب جنوبا واستولى فيليب على مليتوس (Melitus) . وإذ ترك فيليب أسطوله يهاجم الجزر التابعة لرودس ، انقض هو على برجام أملا في مفاجأتها والاستيلاء عليها ، ولكنها خيبت أمله فانصرف إلى قاريا (Caria) حيث استولى على عدة مدن لم تكن ممتلكات مصر هناك من بينها . وعندما أراد في شتاء عام ٢٠١/٢٠٠ ق . م . أن يعود إلى مقدونيا ، حاصرت برجام ورودس قواته البحرية والبرية ، ولكنه تمكن في ربيع عام ٢٠٠ ق . م . من رفع الحصار

وخف إلى مقدونيا لمواجهة الأخطار التي أصبحت تحدق به إزاء استنجاد برجام ورودس بروما ضده مع أنهما هما اللتان بدأتاه العداء .

ثالثا — الحرب المقدونية الثانية

وإنه لمن العسير القول بأنه قبل عام ٢٠١ ق . م . كانت لروما سياسة محددة تجاه شرق البحر المتوسط . حقا أنه نشأت بينها وبين البطالمة علاقات ودية منذ تبادلت المجاملات مع بطلميوس الثاني في عام ٢٧٣ ق . م . لكنه لم يترتب على ذلك نتائج سياسية أكثر من وقوف مصر على الحياد في خلال الصراع بين روما وقرطجنة . وقد رأينا كيف أنه في الثلث الأخير من القرن الثالث قبل الميلاد اصطدمت روما مع إلّوريا ثم مقدونيا بسبب اعتداء القراصنة الالّوريين على الايطاليين وتحالف فيليب الخامس مع هانيبال ، مما أفضى إلى نشر حماية روما على منطقة صغيرة على الشاطىء الشرقي للبحر الأدرياتي وإنشائها علاقات مع بعض الدول الاغريقية . بيد أن نشاط روما عبر الأدرياتي كان محدودا غير متواصل ولم تمله سياسة عدوانية طويلة الأجل وانما أملته تصرفات إلّوريا ومقدونيا . ولم تلبث روما أن عقدت الصلح مع فيليب الخامس في عام ٢٠٥ ق . م . وكل هذا يوحي بأن روما ، وقد كانت منهمكة في محاربة قرطجنة حتى عام ٢٠٢ ق . م . ، لم تحفل أو لم يكن في وسعها أن تحفل بالأحداث الجارية في شرق البحر المتوسط إلى أن اجتذبت اهتمامها نداءات دولة البطالمة وبرجام ورودس .

ومن الجائز أنه عندما تدخلت روما في منطقة شرق البحر المتوسط لم تمل سياستها أول الأمر أية رغبة في بسط نطاق امبراطوريتها بضم أقاليم في تلك المنطقة ، وإنما أملاها القلق الذي أثارته في نفسها السياسة التوسعية التي كان يتبعها كل من فيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث في الوقت الذي خرجت فيه من الحرب البونية الثانية منتصرة وانما منهوكة القوى . فقد ساورت روما المخاوف

مما قد يقدم عليه فيليب وأنطيوخوس بعد الفراغ من توسعهما في شرق البحر المتوسط . ولا سيما بعد انتشار خبر اتفاقهما على اقتسام ممتلكات مصر الخارجية . لقد غزا هانيبال إيطاليا . فلماذا لا يقدم فيليب (حليف هانيبال سابقا) وأنطيوخوس (حليف فيليب) على تكرار ذلك ؟ ألم يعتزم الاسكندر الأكبر ضم الغرب إلى أمبراطوريته العالمية ؟ ألم ينضم بورّوس إلى المدن الاغريقية في جنوب ايطاليا ضد روما فأثبت بذلك أنه يوجد في بلاد الاغريق رجال قادرون على أن يوحدوا ضد روما كل الذين يضيقون بسيادتها في ايطاليا ؟ وإلى جانب ذلك كله . فان قرطجنة خرجت من الحرب البونية الثانية منهزمة ولكنه لم يقض عليها قضاء مبرما وكانت دون شك تتوق إلى الثأر لهزيمتها ، فهل كان يبعد أن يجدد فيليب تحالفه معها ؟

لقد كانت هذه الأفكار جميعا تدور بخلد الرومان ، وكانوا لا يأمنون جانب الدول الهلينيسية فقد كانت لها تقاليد حربية جليلة الشأن ، وكانت مواطن أعظم الاختراعات في فنون القتال . والواقع أن الرومان لم يتخلصوا إطلاقا من هذه المخاوف . ذلك أنهم حتى بعد الانتصارات التي أحرزوها على فيليب وأنطيوخوس وبرسيوس بن فيليب كانوا لا يزالون يخشون مقدونيا وسوريا ويدخلون ذلك في اعتبارهم . وحتى في القرن الأول قبل الميلاد كانت روما لا تزال قلقة على نفسها . ويكفي أن نقرأ أشعار هوراتيوس لندرك مدى الارتياح العظيم الذي استشعره الرومان عندما انتصروا على كليوبتره في واقعة اكتيوم ، ونحس مدى القلق الشديد الذي كان يساورهم من البارثيين خلفاء دولة السلوقيين في آسيا . وإزاء ذلك يبدو أن الباعث الحقيقي على اشتباك روما في الحرب المقدونية الثانية كان رغبة روما في تأمين نفسها بتقليم أظافر فيليب وجعل بلاد الاغريق درعا واقيا يحميها من أي خطر يأتيها من الشرق .

وكان طبيعيا إذن أن ينتهز السناتو الفرصة ، عقب النصر الروماني في واقعة زاما ، ليشتبك مع فيليب قبل أن يقوي نفسه وقبل أن يفرغ أنطيوخوس من

مشاغله ويتحالف الإثنان سويا ضد روما . ذلك أن فيليب تحمل خسائر كبيرة في حربه مع رودس وبرجام ، وأن أنطيوخوس كان منهمكا في حربه مع مصر ، وأنه كان يؤيد روما ماديا وأدبيا جانب كبير من العالم الاغريقي ، وبخاصة رودس وبرجام . وإزاء هذه الاعتبارات كان يجب العمل فورا ، فقرر السناتو إعلان الحرب على فيليب بحجة اعتدائه دون مبرر على برجام حليفة روما . وذلك بالرغم من أن برجام هي التي تحالفت مع رودس وبدأت مناصبة فيليب العداء . ولا أدل على عدم رغبة الشعب الروماني بوجه عام في الاشتباك في حرب جديدة عقب انتهاء صراعه مع قرطجنة من أنه عندما عُرض رأي السناتو على جمعية المئينات قررت رفضه في أول الأمر ، ولم توافق عليه في اجتماع ثان الا بعد اقناعها بأن على الرومان أن يتوقعوا قيام فيليب بغزو ايطاليا اذا هم لم يسبقوه بغزو مقدونيا .

وعندما رفضت جمعية المئينات أول الأمر إعلان الحرب على فيليب شكل السناتو بعثة سياسية كانت مهمتها في الظاهر التوفيق بين أنطيوخوس وبطلميوس الخامس إستجابة لطلب مصر ، وأما غرضها الحقيقي فانه كان اثارة الاضطراب في بلاد الاغريق وتسليم فيليب إنذار روما النهائي والوقوف على نوايا أنطيوخوس وضمان حياده في النزاع بين فيليب وروما . وفي ربيع عام ٢٠٠ ق . م . وصل السفراء الرومان إلى بلاد الاغريق عقب عودة فيليب بفليل ، وأفلحوا في إثارة عدد كبير من المدن الاغريقية ضده ، وأبلغوا أحد قواد فيليب إنذار روما . وكان هذا الإنذار يتضمن عدم محاربة أية مدينة إغريقية ودفع تعويضات كافية لبرجام . وعندما علم فيليب بالانذار لم يأبه بالرد عليه ، وإنما سارع إلى إتخاذ الخطوات اللازمة لمواجهة الحرب مع روما . فقد كان لا يزال أضعف من أن ينازلها بحرا ، كما أن مقدونيا كانت مكشوفة من الناحية الشرقية ، ولذلك أراد تأمين هذه الجبهة وفي الوقت نفسه المحافظة على خطوط مواصلاته عبر تراقيا والدردنيل مع آسيا الصغرى حيث ترك قوات لحماية فتوحاته في قاريا . ومن ثم فانه قرر الاستيلاء على شاطىء تراقيا ، وكان لا يزال ملكا لمصر ، وكذلك على

الضفة الشرقية للدردنيل . وعندما أظهرت أثينا استياءها من تصرفات فيليب باعلان الحرب عليه ، أرسل اليها قوة خربت أتيقا ، ومضى هو نفسه فاستولى على شاطىء تراقيا وشبه جزيرة غاليبولي وعبر الدردنيل وحاصر آبيدوس . وقبيل سقوط هذه المدينة قدم اليها أحد السفراء الرومان لينهي إلى فيليب انذارا جديدا . ذلك أنه عند علم السناتو بإغضاء فيليب عن الانذار الأول وباعتدائه على تراقيا وأوتيقا، تمكن في صيف عام ٢٠٠ ق .م . من أخذ موافقة جمعية المئينات على اعلان الحرب على فيليب بمقتضى قرار صيغ في قالب أنذار جديد يتضمن إلى جانب المطلبين الواردين في الانذار الأول مطلبين آخرين ، وهما دفع تعويضات لرودس وعدم المساس بالممتلكات المصرية . وعندما كُلفت البعثة الرومانية — وكانت عندئذ في رودس في طريقها إلى أنطيوخوس — بابلاغ الانذار إلى فيليب شخصيا، أسندت هذه المهمة إلى أحد أعضائها ، وهو ماركوس أيميليوس لبيدوس (M. Aemilius Lepidus) . وقد رفض فيليب الانذار ورد على لبيدوس بأنه اذا كانت روما مصممة على عدم احترام المعاهدة التي بينهما ، فأنه سيدافع عن نفسه بحماية الآلهة [1] .

وبعد تسليم الانذار النهائي إلى فيليب ، أو بعبارة أخرى بعد اعلان الحرب عليه ، كان على السفراء الرومان القيام بأدق جانب من مهمتهم ، وهو زيارة أنطيوخوس . وقد التقوا به حين كان يحاصر صيدا في أثناء قيامه باستكمال فتح « جوف سوريا » . وليست لدينا أدلة مباشرة على ما دار بين السفراء وأنطيوخوس ، ولكنه يمكن استنتاج ذلك من أهداف الرومان ومن سير الحوادث التي تبعت تلك المقابلة ، فهي توحي بأن السفراء لم يحاولوا التوفيق بين أنطيوخوس وبطلميوس وإنما وضعوا نصب أعينهم محاولة اقناع انطيوخوس بالوقوف على الحياد في الصراع المقبل بين روما وفيليب . وتحقيقا لهذا الهدف كان لا بد من أن يكسبوا ود أنطيوخوس ويضمنوا انهماكه في محاربة مصر وفي مشاغل أخرى فلا يجد فرصة

---

(١) Polyb., XVI, 25-34.

للانضمام إلى فيليب . ولذلك لا بد من أن يكونوا قد أعربوا لأنطيوخوس عن حسن نوايا السناتو نحوه وتقدير السناتو لضرورة تحقيق أهدافه المشروعة ، ومعنى ذلك أن السفراء وعدوا أنطيوخوس بحرية العمل كما يشاء . ولعل أن يكون أنطيوخوس قد أبدى للسفراء الرومان ارتياحه لانشاء علاقات مع الجمهورية الرومانية ، لكنه لم يعدهم بشيء فيما يتعلق بمسألة الحياد ، مفضلا اتخاذ موقف مبهم غامض . لإدراكه أن مثل هذا الموقف كان يضمن له أكثر من وعود السفراء حرية العمل كما يشاء .

وفي أواخر عام ۲۰۰ ق . م . نزل جيش روماني في إلّوريا بقيادة القنصل سولبيقيوس (Sulpicius) وحاول الوصول إلى مقدونيا ، ولكن الرومان لم يتمكنوا من إنزال أية هزيمة فاصلة بفيليب أو من غزو مملكته سواء في ذلك العام أم في العام التالي ، بالرغم من أنه كانت تساعدهم قوات العصبة الأيتولية وبرجام ورودس وأثينا . بيد أن الموقف تغير سريعا عند وصول تيتوس فلامينيوس أحد قنصلي عام ۱۹۸ ق . م . ذلك أن فلامينيوس نجح في أن يكتسب جانب العصبة الآخية وفي إرغام فيليب على الانسحاب من أبيروس إلى تساليا . وفي شتاء ذلك العام بدئت مفاوضات الصلح الا أنها لم تثمر لأن الرومان أصروا على انسحاب فيليب من قورنثة ، ومن خالقيس (Chalcis) على الشاطىء الغربي لجزيرة يوبويا (Euboea) ومن ديمترياس (على خليج عميق في تساليا) ، ولأن فيليب رفض النزول عن هذه المدن الحصينة التي كانت تعتبر بمثابة « أغلال بلاد الأغريق » .

وعندما استؤنف القتال في صيف عام ۱۹۷ ق . م . في تساليا اشتبك الطرفان عند قونوس قفلاي (Cynoscephalae = رءوس الكلاب) في واقعة هزم فيها فيليب هزيمة حاسمة ، ففر إلى مقدونيا وطلب الصلح . وبالرغم من أن الأيتوليين وباقي خصوم فيليب من الأغريق طالبوا بغزو مقدونيا والقضاء عليها قضاء مبرما ، فان الرومان رفضوا هذا الطلب لعدة اعتبارات ، كان أهمها هو أنه اذا كان من صالح الرومان إضعاف مقدونيا إلى الحد الذي لا تكون فيه خطرا

عليهم ، فانه لم يكن من صالحهم في ذلك الوقت القضاء عليها . لأن بقاءها كان يكفل وجود حاجز منيع يقي بلاد الاغريق ليس فقط من القبائل المتبربرة التراقية والإلّورية وكذلك القبائل الغالية النازلة في وادي الدانوب الأدنى ، بل أيضا من أنطيوخوس وهو الذي كان لا يزال قوة يخشى بأسها .

وتبعا لذلك عقد الصلح ، وكانت شروطه تقضي بأن يتمتع أغريق آسيا وأوربا بحريتهم ، وبأن يُحكموا وفقا لقوانينهم ، وبأن يسلم فيليب لروما مدن بلاد الاغريق التي كانت في قبضته . وبأن ينسحب من باقي ممتلكاته في إلّوريا وبحر إيجة وآسيا الصغرى ، وبأن يدفع لروما تعويضا قدره ألف تالنت (حوالي ربع مليون جنيه استرليني) ، وبأن يسلم لروما سفنه الحربية جميعا . ولم يكن في وسع فيليب الا أن يقبل هذه الشروط في عام ١٩٦ ق . م . . بل أنه لم يلبث بعد قليل أن أصبح حليفا لروما . ويتبين بجلاء من شروط معاهدة الصلح أن هذه المعاهدة لم تكن مجرد معاهدة صلح بل كانت بمثابة إعلان بأن روما حامية حمى الأغريق وإنذار موجه إلى أنطيوخوس .

وفي ربيع عام ١٩٦ ق . م . أنفذ السناتو إلى بلاد الاغريق بعثة سياسية لتعلن قراره الخاص بشروط الصلح وتساعد فلامينيوس على وضع تسوية لبلاد الاغريق . وعندما أُعلن القرار داخل الاغريق القلق بشأن مصير « أغلال بلاد الاغريق » عندما تُسلّم إلى روما ، فبادر فلامينيوس إلى طمأنة الاغريق . ذلك أنه عندما أقيم في ذلك العام حفل الألعاب الدولي المشهور الذي كان يقام في قورنثة كل عامين ويعرف باسم حفل ألعاب البرزخ (Isthmia) ويؤمه المتبارون من كل أنحاء العالم الاغريقي ، انتهز فلامينيوس هذه الفرصة وأعلن حق الاغريق في أن يتمتعوا بحريتهم وبأن يُحكموا وفقا لقوانينهم المتوارثة دون أن تلزمهم روما بدفع الجزية لها أو بايواء أية حاميات من قبلها ، فهللت لهذا الاعلان أغلب الدول الأغريقية (١) .

(١) Polyb., XVIII, 1-12; 18-39; 42-46; Plut., Flaminius, 10; C.A.H. Vol. VII, pp. 166-183.

بيد أن هذه الموجة الغامرة من الفرح والتهليل لم يلبث أن أعقبها رد فعل مضاد للرومان . لأنهم وإن لم يفرضوا الجزية أو الحاميات على الاغريق استمروا يعتبرون أنفسهم أوصياء على بلاد الاغريق ، وبهذا الوصف أخذوا على عاتقهم تسوية مشاكلها ، وهو الأمر الذي عكفت عليه البعثة السياسية إلى آخر عام ١٩٦ ق . م . وتركت لفلامينيوس إنجازه . وأهم ما حققته البعثة أمران : وأحدهما هو عقد محالفة مع فيليب ، والآخر هو استرضاء الأيتوليين وكانوا على وشك الانفجار بعد أن خيب الرومان آمالهم برفض غزو مقدونيا والقضاء عليها ثم برفض تحقيق كل مطالبهم الاقليمية ، فقد أقنعتهم البعثة بعرض مشاكلهم على السناتو . ولكن البعثة لم توص بسحب القوات الرومانية فورا من بلاد الأغريق .

وفي عام ١٩٥ ق . م . دعا فلامينيوس مندوبين عن كل الدول الاغريقية إلى مؤتمر في قورنثة للتباحث في أمر تحرير أرجوس من قبضة نابيس (Nabis) ملك اسبرطة . وفيما عدا الأيتوليين الذين لم يكن قد فُصل بعد في أمر مطالبهم . وافق الجميع على القيام بحملة لتحرير أرجوس . وعندما نجح فلامينيوس في هزيمة نابيس وأرغمه على تحرير أرجوس وبعض مدن لاقونيا (Laconia) . رفض الاستجابة إلى مطالب الحلفاء الاغريق بالقضاء على اسبرطة . وهكذا تبين الاغريق مرة أخرى أن الرومان لا يفصلون في المشاكل الا من وجهة نظرهم الخاصة . وراعهم كذلك أن فلامينيوس عمد إلى إسناد الحكم في الدول الاغريقية إلى أرستقراطيات محلية اختيرت بعناية . ولكي يخفف فلامينيوس من أثر ذلك كله أقنع السناتو في عام ١٩٤ ق . م . بسحب القوات الرومانية من بلاد الاغريق . ودعا إلى مؤتمر عام في قورنثة وأعلن قرار سحب القوات الرومانية من بلاد الاغريق بما في ذلك « أغلالها الثلاثة » ، وأوصى الاغريق بأن يحسنوا استخدام الحرية التي فازوا بها . وعقب ذلك عاد فلامينيوس إلى روما للاحتفال بانتصاره ، وسحب الرومان قواتهم جميعها من بلاد الاغريق ، اكتفاء بمعاهدات التحالف التي عُقدت معها وبالتنظيمات التي وضعت .

ولا جدال في أن كثيرين من كبار رجال الطبقة الحاكمة في روما ، مثل فلامينيوس ، وقد بهرتهم الحضارة الأغريقية ، كانت سياستهم مشربة بروح العطف على الاغريق ، ومع ذلك فأنهم لم يكونوا على استعداد للتضحية بكل ثمار النصر الروماني على فيليب . ذلك أن الباعث الحقيقي الذي حدا بالرومان إلى محاربة فيليب و « تحرير » الاغريق كان رغبتهم في أن يقلموا أظافر فيليب ، وفي أن يتخذوا من بلاد الاغريق درعا واقيا لهم من أي خطر يتهددهم من ناحية الشرق . وتبعا لذلك اعتبروا بلاد الاغريق منطقة نفوذ رومانية وتولوا تسوية مشاكلها وتنظيم شئونها بحسب ما تراءى لهم ، على أمل أن يتواءم ذلك مع تمتع الاغريق بحريتهم ، وأن يثبت الاغريق أنهم حلفاء أوفياء يقفون سدا منيعا في وجه أي اعتداء على روما يحاول القيام به فيليب أو انطيوخوس أو الاثنان معا .

رابعا ــ الحرب مع أنطيوخوس الثالث والأيتوليين

حين كان فلامينيوس وجيشه لا يزالان في بلاد الاغريق ، أثار نشاط أنطيوخوس قلق السناتو الروماني . ذلك أن أنطيوخوس ما أن أتم الاستيلاء على جوف سوريا في عام ١٩٨ ق . م . وأدرك أن هزيمة فيليب على أيدي الرومان أصبحت وشيكة ، حتى قرر استعادة ممتلكاته الوراثية في آسيا الصغرى وفي تراقيا ، وهي الممتلكات التي كان قد وقع بعضها في قبضة مصر والبعض الآخر في قبضة مقدونيا . ولما كان يجب الشروع فورا في تحقيق هذا الهدف قبل أن تفرغ روما من الحرب المقدونية الثانية وتحول دون ذلك ، فان أنطيوخوس استولى في ربيع عام ١٩٧ على الممتلكات البطلمية الواقعة على شاطىء فينيقيا وقاريا . وعندما تقدم بعد ذلك وأخذ يحاصر إحدى مدن بامفوليا (Pamphylia) . وفدت عليه بعثة من رودس ــ بإيحاء من روما دون شك ــ فقد كان كل أعداء فيليب ، وفي مقدمتهم روما ، يرقبون نشاط أنطيوخوس بجزع خوفا من أنه لم يزحف غربا الا لمساعدة فيليب . ولذلك فان البعثة أبلغت أنطيوخوس أن رودس لا تستطيع السماح له بالزحف إلى ما وراء ذلك . ولما كانت رودس لا تميل إلى

الاشتباك مع أنطيوخوس بسبب صوالحها الكثيرة في امبراطوريته . وكان هو بدوره لا يريد محاربة رودس لعلمه بأن أساطيل روما وبرجام ستؤيدها حتما . فأن الطرفين كانا يحرصان على التفاهم ، ولذلك دخلا في مفاوضات سويا . وعندما وصلت أنباء هزيمة فيليب لم تعد رودس ترى داعيا للوقوف في سبيل أنطيوخوس ، هذا إلى أن انطيوخوس رأى أنه من الحكمة اظهار احترامه لرودس وبرجام احتفاظا بصداقتهما وتفاديا لعداء حليفتهما روما . وتبعا لذلك اتفق الطرفان على أن يسترد أنطيوخوس ممتلكاته الوراثية في آسيا الصغرى دون الاعتداء سواء على المدن الخاضعة لإشراف رودس أم على ممتلكات برجام الوراثية . وبعد الاتفاق مع رودس ، استولى انطيوخوس على أفسوس (Ephesus) وعلى كل المدن تقريبا فيما بين قاريا والدردنيل . وفي صيف عام ١٩٦ ق . م . عبر أنطيوخوس الدردنيل واستولى على غاليبولي وتراقيا . واذا كان هذا في نظر أنطيوخوس آخر فتوحاته غربا ، لأنه بذلك يكون قد استرد آخر جزء من أرثه ، فإن الرومان كانوا يرون في استيلائه على تراقيا مقدمة للاستيلاء على بلاد الاغريق وهي التي أصبحوا يعتبرونها منطقة نفوذ ودرع أمان لهم ، ولذلك حاولوا إقناعه بالانسحاب ولكن دون جدوى .

وفي عام ١٩٤ ق . م . أنفذ أنطيوخوس بعثة سياسية إلى روما للتفاوض في اعترافها بحقوقه على تراقيا وعلى بعض المدن في آسيا الصغرى ، وكانت قد رفضت الإعتراف بسيادته عليها اعتمادا على تأييد الرومان . ولكن البعثة فشلت في مساعيها ، لأن الرومان كانوا يرون في وجود أنطيوخوس في تراقيا خطرا يتهدد باستمرار سلامة بلاد الاغريق وتبعا لذلك سلامتهم أنفسهم . واذا لم يكن أنطيوخوس في الأصل يضمر سوءا للرومان ، .فان رغبته في الاحتفاظ بتراقيا وإصرار الرومان على نزوله عنها ، دفعاه إلى التورط ضد روما بتعاونه مع أبرز العناصر الأغريقية المناهضة لها ، أي مع الأيتوليين حلفاء روما في الحربين المقدونيتين الأولى والثانية .

وترجع نقمة الأيتوليين على الرومان إلى إحساسهم بأن الرومان أصبحوا

أصحاب الكلمة العليا في بلاد الاغريق ، فقد عملوا تسوية الصلح بعد هزيمة فيليب وفقا لوجهة نظرهم الخاصة دون أن يأخذوا في الاعتبار مطالب الأيتوليين برغم أنهم دون سائر الاغريــق قدموا للرومان مساعدات قيمة في أثناء محاربة فيليب . ومع ذلك فان الرومان رفضوا الاستجابة إلى مطالبهم سواء الخاص منها بالقضاء على مقدونيا قضاء مبرما أم الخاص بأدماج تساليا بأجمعها في عصبتهم ، ولم يكافئهم الرومان على خدماتهم الا بمنحهم شطرا صغيرا من تساليا . وفضلا عن ذلك فان تطلع الأيتوليين إلى أن يخلفوا مقدونيا في السيطرة على بلاد الاغريق كان لا يمكن تحقيقه طالما احتفظ الرومان بنفوذهم في بلاد الاغريق . وتبعا لذلك فانه منذ وضع الرومان تسوية الصلح ، أخذ الأيتوليون يعملون على تقويض دعائم النفوذ الروماني في بلاد الاغريق .

وعندما علم الأيتوليون بفشل المفاوضات بين الرومان وأنطيوخوس دخلوا في مفاوضات معه ومع فيليب ونابيس للتحالف سويا من أجل شن الحرب على الرومان . وعلى حين أن فيليب رفض المشاركة في هذه المغامرة ، بادر نابيس إلى نقض معاهدته مع روما وانقض على مدن لاقونيا التي كان قد أرغم على تحريرها ، فانبرت له العصبة الآخية وهزمته وحاصرت اسبرطة ، وأرسلت روما فلامينيوس ضده فأنهى الحرب سريعا مع نابيس في عام ١٩٢ ق . م . على أساس الحفاظ على الوضع القائم (Status quo) ، مخيبا بذلك آمال الآخيين مرة أخرى في عدم السماح لهم بغزو اسبرطة .

وبرغم موقف فيليب وعزوف انطيوخوس حتى ذلك الوقت عن معاداة روما وتحرج مركز نابيس ، فانه قد شجع الأيتوليين على الاستمرار في موقفهم العدائي ما كانوا يلمسونه من ضيق الاغريق بالرومان . وعندما أنفذ أنطيوخوس مبعوثا إلى الأيتوليين (مارس عام ١٩٢ ق . م .) لإبلاغهم استعداده للانضمام اليهم من أجل تحرير الاغريق ، ناشد الأيتوليين أنطيوخوس أن يهب فورا لانقاذ الاغريق وحسم نزاعهم مع روما ، وانقضوا على ديمترياس ودعوا أنطيوخوس

للنزول فيها . ومع أن انطيوخوس لم يكن قد أتم حشد قوات امبراطوريته الضخمة . فانه قدم إلى ديمترياس فورا على رأس طلائع قواته وزحف على لاميا (Lamia) في خريف عام ١٩٢ ق . م . ومما يجدر بالملاحظة أن هانيبال كان لاجئا في بلاط انطيوخوس منذ أرغمته الدسائس على أن يفر من قرطجنة في عام ١٩٦ ق. م. بيد أن انطيوخوس لم يعهد إلى القائد القرطجني الفذ بأية عمليات في الحرب التي أقدم عليها الآن . وقد عزيت إلى هانيبال شائعة مفادها أنه ألح على أنطيوخوس أن يعطيه قوة تتألف من ١٠,٠٠٠ راجل و ١٠٠٠ فارس و ١٠٠ سفينة ليثير قرطجنة على روما ثم يقوم بغزو ايطاليا بينما يتجه أنطيوخوس بكل قواته إلى بلاد الأغريق ليشل حركة القوات الرومانية هناك ويمنعها من التدخل في ايطاليا . ويصعب علينا قبول هذه الشائعة لأنه كان يتعذر على هانيبال غزو أيطاليا بمثل تلك القوة الصغيرة ، كما أنه بعد حرمان قرطجنة ممتلكاتها النوميدية والأسبانيـــة كان يتعذر عليها حشد قوات كبيرة لتعزيز هانيبال في ايطاليا . هذا إلى أنه كان من اليسير على روما حث ماسينيسا على مهاجمة قرطجنة . وفضلا عن ذلك . اذا نزل هانيبال في جنوب ايطاليا فأنه كان لا يمكن أن يتوقع نجاحه في إشعال لهيب ثورة واسعة النطاق قبل تغلب القوات الرومانية عليه ، واذا نزل في الشمال فانه سيكون بعيدا جدا عن قاعدته وكذلك عن هدفه فيصادف ما صادفـــه هاسدروبال وماجو من فشل . واذا كان يصعب أن نتصور أن انطيوخوس لم يستطلع رأي هانيبال في أمر محاربة الرومان أو أن هانيبال لم يدل اليه بأي رأي في هذا الأمر ، فأنه يصعب كذلك تبين وجه الحقيقة في هذه المسألة . ولعل أن يكون هانيبال قد أوصى أنطيوخوس بإثارة قرطجنة تمهيدا لغزو ايطاليا بعد فراغه من بلاد الأغريق ، ولكنه يبدو أن عملاءه فشلوا في تحقيق الهدف الأول وأن سير الأحداث حال دون تحقيق الهدف الثاني .

وعلى كل حال فان قدوم أنطيوخوس على رأس قوة صغيرة لا تزيد على ١٠,٠٠٠ جندي كان مخيبا لآمال الاغريق فلم يهبوا لنجدته على نحو ما كان متوقعا عندما زحف على بلاد الاغريق الوسطى . وأسوأ من ذلك أن الأيتوليين

اكتفوا باختياره قائدا عاما وتقديم قوة صغيرة قوامها ٤٠٠٠ مقاتل ومهاجمة اسبرطة وقتل نابيس مما دفع باسبرطة إلى الانضمام إلى العصبة الآخية التي أعلنت الحرب على أنطيوخوس ، وأن فيليب أعلن جهارا انحيازه إلى الرومان ، وأن رودس وبرجام أنضمتا بأسطوليهما إلى الأسطول الروماني ، وأن هذه الأساطيل وقفت حائلا دون وصول باقي قوات أنطيوخوس باستثناء امدادات قليلة . وقد واجه السناتو الخطر الجديد بارسال جيش زحف عبر بلاد الاغريق دون أن يلقى أية مقاومة من الأيتوليين وسحق قوات أنطيوخوس عند ممر ترموبيل ، ففر الملك المنهزم إلى آسيا في أواخر عام ١٩١ ق . م . تاركا حلفاءه الغادرين ليلقوا جزاءهم من الرومان .

وفي عام ١٩١ ق . م . عندما هاجم الجيش الروماني الأيتوليين من ناحية وهاجمهم فيليب من ناحية أخرى طلبوا الصلح ، ولكنه عندما طلب اليهم الرومان التسليم بدون قيد أو شرط ، قرر الأيتوليون متابعة القتال . وفي عام ١٩٠ ق . م . لم يقم الرومان بعمل حاسم ضد الأيتوليين بسبب انشغالهم في نواح أخرى كان أهمها محاربة أنطيوخوس في آسيا على نحو ما سنرى بعد قليل ، ولكنه في العام التالي (١٨٩ ق . م .) ضيق الرومان الخناق على الأيتوليين وحاصروا قلعتهم الرئيسية : أمبراقيا (Ambracia) حصارا شديدا . بيد أنه من ناحية إزاء استبسال الأيتوليين في القتال ، ومن ناحية أخرى إزاء وساطة الأثينيين لإنهاء الحرب ، تنازل الرومان عن ضرورة تسليم الأيتوليين دون قيد أو شرط ، وتصالح الطرفان على أساس نزول الأيتوليين عن كل الأقاليم التي انتزعها منهم الرومان في أثناء الحرب وتسليم أمبراقيا ، وعقد معاهدة تحالف دائمة مع الرومان على قدم المساواة وإنما مع الالتزام بمساعدة الرومان في أية حرب يخوضون غمارها مع أعدائهم . وبعد أن خرب الرومان أمبراقيا عقب تسليمها لهم واحتلوا جزيرة قفالانيا (Cephallania) — وكانت تواجه مدخل خليج قورنثة ووكرا للقراصنة— سحبوا قواتهم من بلاد الأغريق في عام ١٨٨ ق . م .

وفي هذه الأثناء رفض أنطيوخوس شروط الصلح التي عرضها عليه الرومان ،

فصمموا على غزو آسيا الصغرى في عام ١٩٠ ق . م . ولذلك أنفذوا أسطولهم إلى بحر إيجة وأرسلوا جيشا اجتاز سريعا شبه جزيرة البلقان وزوده فيليب بالمؤنة والأدلاء . وبفضل واقعتين بحريتين كسبهما الرومان بمساعدة رودس وبرجام سيطروا على بحر إيجة وتمكن الجيش الروماني من عبور الدردنيل . وقد كان سقيبيو أفريقانوس ، أعظم القواد الرومان عندئذ ، خير من يصلح لقيادة الحملة التي أرسلت ضد أنطيوخوس ، ولا سيما أن السناتو أخذ بوجهة نظر سقيبيو القائلة بأنه لا يمكن تأمين السلام الا بهزيمة أنطيوخوس في امبراطوريته وتقليم أظافره . وقد حال هذه المرة دون إسناد القيادة العليا إلى سقيبيو تعذر انتخابه قنصلا لأنه كان يشغل هذه الوظيفة منذ ثلاث سنوات وبذلك لم تكن قد انقضت مدة العشر السنوات التي كان القانون يقتضيها لجواز تولي الوظيفة نفسها مرة أخرى . وهذا أمر يستوقف النظر لأنه حين لم يكن سقيبيو أكثر من شاب نابه لامع لم ير السناتو غضاضة في أن يضرب بالقانون والتقاليد عرض الحائط وطلب إلى جمعية المئينات منح سقيبيو مرتبة بروقنصل وإسناد القيادة العليا اليه في اسبانيا. وعلى كل حال فانه تقرر انتخاب أخيه لوقيوس قنصلا لعام ١٩٠ ق . م . وإسناد قيادة الحملة ضد أنطيوخوس إلى هذا القنصل وتكليف أفريقانوس بمرافقة أخيه (١) . ووفقا لهذا الترتيب تولى أفريقانوس القيادة الفعلية للحملة الرومانية وهي التي تمكنت من هزيمة أنطيوخوس في معركة فاصلة واحدة هي معركة ماجنيسيا (Magnesia) في يناير عام ١٨٩ ق . م . فيما يرجح . وانه ليستوقف النظر أيضا عدم إطالة مدة ممارســة لوقيوس للسلطة التنفيذيــة (Imperium) بمنحه البروقنصلية لمتابعة حملته الناجحة حتى يتم وضع التسوية الخاصة بها ، كما جرت عليه العادة .

وبعد هذه المعركة إضطر أنطيوخوس إلى قبول شروط الصلح التي فرضها الرومان ، وكانت تقضي بنزول أنطيوخوس عن ممتلكاته جميعها شمالي جبال

---

(١) Liv., XXXVII, 1-2; Cie. Phil., XI, 7; Pro Mor., 14.

الطوروس وغربيها ، وبدفع تعويض قدره ١٥٠٠٠ تالنت (حوالي ثلاثة ملايين وثلاثة أرباع مليون جنيه أسترليني) ، وبتسليم هانيبال ، ولكن أنطيوخوس دبر له وسيلـــة للهرب ففر إلى بروسياس (Prusias) ملك بيثونيا (Bithynia) .
وبعد وصول جنايوس مانليوس فولسو (Manlius Vulso) أحد قنصلي عـــام ١٨٩ ق . م . والبعثة التي أنفذها السناتو لوضع التسوية النهائية ، أضيفت إلى شروط معاهدة الصلح السابق ذكرها شروط اخرى ، وهي : أن يمتنع أنطيوخوس عن خوض غمار أية حرب في بحر إيجة أو في القارة الأوربية ، مع السماح له برد أي اعتداء اذا هوجم بشرط ألا يبسط سيادته على من يقهرهم أو يعقد معهم محالفات صداقة ، وبشرط أن تقوم روما بالفصل في هذه المنازعات . وفُرض على أنطيوخوس كذلك تسليم فيلته وأسطوله كله ما عدا عشر سفن بشرط الا تبحر هذه السفن غربي رأس ساربدونيوم (Sarpedonium) في قيليقيا .

وبمقتضى معاهدة أباميا (Apamea) التي عقدت في عام ١٨٨ ق . م . وتضمنت شروط الصلح مع أنطيوخوس وتسوية الأوضاع في الشرق الهلينيسي ، حررت روما المدن الاغريقية التي كانت خاضعة لهذا الملك ، وقسمت باقي ممتلكاته الأسيوية شمالي الطوروس بين رودس وبرجام . وقد حصلت رودس على لوقيا (Lycia) — ما عدا تلمسوس (Telmessus) التي أعطيت لبرجام — وقاريا جنوبي نهر الماياند (Maeander) ، وحصلت برجـــام على كل الممتلكات السلوقية شمالي هذا النهر وكذلك على غاليبولي ولوسيماخيا والمنطقة المجاورة لها .

وقد سمحت روما لأنطيوخوس بالاحتفاظ بولايتي قيليقيا الغربية وجوف سوريا ، وهما اللتان انتزعهما من بطلميوس الخامس ، ولكنها لم تسمح لبطلميوس باسترداد شيء من ممتلكاته المسلوبة ، وتبعا لذلك لم يتبق من أمبراطورية البطالمة الا قبرص وقورينائة .

ويتضح من التسوية التي وضعتها روما للشرق الهلينيسي أنها قررت إيجاد

توازن بين القوى هناك بإضعاف دولتي البطالمة والسلوقيين وبتقوية رودس وزيادة قوة برجام بوجه خاص ، مضحية في سبيل ذلك بقدر كبير من الحرية الاغريقية ، وهي التي كانت روما قد نصبت نفسها للدفاع عنها ضد فيليب وأنطيوخوس ، لأنه كان يعني روما قبل كل شيء أن تجعل من برجام دولة قوية ترقب بحرص الدولة السلوقية وتستطيع فصلها عن مقدونيا فتحول دون توحيد جهودهما للانقضاض على إيطاليا . ولا شك في أن نجاح السياسة التي اتبعتها روما في شرق البحر المتوسط ، وكانت تنطوي على التوازن بين القوى في التنافس فيما بينها وفي الخضوع لها هي نفسها ، هو الذي مهد لروما بسط نطاق امبراطوريتها هناك فيما بعد . فهي عندما انتصرت على أنطيوخوس لم تستول على شيء اكتفاء بتنظيم الأوضاع على نحو يكفل أمنها وسلامتها ، وبأنها أصبحت صاحبة الكلمة العليا في شرق البحر المتوسط . ذلك أنه لم تعد توجد في بلاد الأغريق دولة واحدة مستقلة استقلالا تاما ، كما أنه لم تعد توجد في العالم الهلينيسي بأسره دولة واحدة تستطيع أن تتحدى روما . وتبعا لذلك فان كل مختصم أضعف من خصمه ، وكل شخص وقع عليه حيف، كان يلتجيء إلى روما ، فكان سفراؤها يسافرون دواما إلى الشرق للفصل في هذه المشاكل . ومما له دلالته ومغزاه أنه في المدن الأغريقية لم تلبث الديمقراطيات التي كانت تميل إلى الحرية ولو داخليا أن أخذت تتطلع إلى مقدونيا ، على حين أن الأرستقراطيات كانت تفضل الاستجابة إلى طلبات روما حفاظا على صوالحها .

وتأمينا لبرجام ورودس من جيرانهما الغال أصحاب غالاتيا (Galatea)، وكانوا قبائل محبة للقتال ولا تفتأ تشن غارات مدمرة على جيرانها ، قام القنصل فولسو بحملة تأديبية ضد الغال هزمتهم وأرغمتهم على دفع تعويض كبير ؛ ولكن الرومان إكتفوا بفرض غرامة طفيفة على أرياراتس (Ariarathes) ملك قابادوقيا (Cappadocia) جزاء مساعدته لأنطيوخوس في واقعة ماجنيسيا . وفي عام ١٨٦ ق . م . عندما شن بروسياس ملك بيثونيا حربا على برجام وعين هانيبال أحد قواده ، تدخلت روما إلى جانب حليفتها ، وأرغمت بروسياس على عقد

الصلح ، وأصرت على تسليم هانيبال . ولما لم يكن في وسع بروسياس رفض هذا الطلب ، فان هانيبال آثر الانتحار (عام ١٨٢ ق . م .) على الوقوع في قبضة الرومان . وقد حدثت هذه المأساة بعد وفاة أفريقانوس بحوالي عام .

خامسا — اخضاع شمال إيطاليا بأجمعه

قبل أن يبرح هانيبال إيطاليا ، كان الرومان قد استردوا كل ما كان قد انحاز إلى جانب الغازي القرطجني في شبه الجزيرة الإيطالية ما عدا لاقونيا وإقليم البروتيي ، فقد احتفظ هانيبال بهذين الإقليمين حتى بارح إيطاليا في عام ٢٠٣ ق . م . وفي أعقاب رحيل هانيبال بادر هذان الإقليمان إلى التسليم للرومان. وقد قسا الرومان بوجه خاص في معاقبة قابوا وإقليم البروتيي بأن حرموا قابوا استقلالها الذاتي وحقوق المواطنة الرومانية الخاصة وضموا إلى أملاك الدولة الرومانية (Ager publicus) إقليم هذه المدينة بأجمعه كما ضموا نصف إقليم البروتيي واعتبروا أصحاب هذا الاقليم — لمدة غير محددة — أعداء مقهورين سلموا دون قيد أو شرط (dediticii) . ولما كانت مساحة الأرض التي ضمتها روما على هذا النحو أكثر اتساعا من أن تعيد تعميرها بمواطنيها أو باللاتين ، فانها فيما بين عامي ١٩٤ و ١٩٢ ق . م . أنشأت سلسلة من المستعمرات الرومانية واللاتينية على امتداد الشاطىء الجنوبي الغربي من مصب نهر فولتورنوس في شمال قمبانيا حتى مضيق مسانا .

وأما في شمال ايطاليا ، فانه قد أعقبت الحرب البونية الثانية عشر سنين من القتال ، برغم أنه في خلال هذه الحرب ، وباستثناء المساعدات التي قدمت إلى هانيبال في البداية وإلى هاسدروبال في عام ٢٠٧ ق . م . ، لم يثر الغال لروما الا متاعب محدودة بحيث أن فرقتين رومانيتين كانتا عادة تكفيان لكبح جماحهم . بيد أنه عندما وضعت الحرب البونية أوزارها وخشي الغال أن يتفرغ الرومان عندئذ للثأر منهم ، قرروا أن يبدأوا هم أنفسهم بالعدوان ، مثل ما فعلوا بعد

لحروب البونية الأولى . ولكنه في هذه المرة تكون الحلف الغالي من الأنسوبرس والبويي وكذلك من القنوماني الذين لم يشاركوا في معاداة الرومان في المرة السابقة . وقد بدأ الصراع باعتداء البويي في عام ٢٠١ ق . م . على قوة رومانية كانت تريد تأمين ممر في جبال الأبنين قرب وادي سابي (Sapi = سافيو Savio) . وفي العام التالي ، عندما انضمت قبيلتا الأنسوبرس والقنوماني إلى قبيلة البويي . قامت القبائل الثلاث بهجوم مشترك على القلعتين الرومانيتين بلاقنتيا وقرمونا ونجحت في الاستيلاء على القلعة الأولى وتدميرها . واذا كانت هذه القبائل لم تستطع التقدم إلى ما وراء بلاقنتيا ، فانها استطاعت في خلال العامين التاليين (١٩٩ و ١٩٨ ق . م .) من الصمود أمام هجمات القوات الرومانية القليلة التي أرسلت ضدها . وفي عامي ١٩٧ و ١٩٦ ق . م . أنزل الرومان بقبيلتي الأنسوبرس والقنوماني هزيمتين ساحقتين أرغمتاهما على طلب الصلح ، فاستجاب الرومان إلى طلبيهما وسمحوا لهما بالاحتفاظ باقليميهما . وأما قبيلة البويي ، فان الرومان لم يفرغوا من تصفية حسابهم معها تماما الا في عام ١٩٠ ق . م . عندما أخضعوها تماما وانتزعوا منها نصف إقليمها .

وقد وزع الرومان جانبا من الأرض التي أخذوها من البويي على المواطنين الرومان ، فنشأ عدد كبير من المستعمرات الرومانية المدنية الصغيرة (fora) في وادي البو وعلى امتداد الطرق الجديدة التي أنشأها الرومان . وأما باقي الأرض المنزوعة ، فإنه أُنشئت عليها ثلاث مستعمرات عسكرية جديدة عند بونونيا (Bononia) في عام ١٨٩ ق . م . وعند موتينا (Mutina) وبارما (Parma) في عام ١٨٣ ق . م .

ولما كانت جماعة من الغال قد وفدت من وراء الألب في عام ١٨٦ ق . م . واحتلت موقعا عند رأس الأدرياتي كان يمتاز بخصوبة الأرض وبسيطرته على ممرات الألب في هذه المنطقة وبوجود مناجم للذهب بجواره ، فأن الرومان طردوا هذه الجماعة وأقاموا عند أكويليا (Aquileia) في عام ١٨١ ق . م . مستعمرة

عسكرية كبيرة للحيلولة دون قدوم غزاة جدد ولاستغلال موارد هذه المنطقة وكذلك لشد أزر جيران هذه المستعمرة وهم الفنتي الإلتوريون وكانوا يحافظون دائما على صداقاتهم وعلاقاتهم الطيبة مع الرومان . وعندما أزعج إنشاء أكويليا جيرانها إلى الشرق ، وهم أصحاب شبه جزيرة أستريا ، مما دفعهم إلى شن غارة على هذه المنطقة أنفذ الرومان ضدهم حملة في عام ١٧٨ ق . م . أخضعتهم وردتهم إلى ما وراء نهر أرسيا (Arsia) .

وتأمينا لسيطرة الرومان على شمال ايطاليا أنشأوا عددا من الطرق العامة المعبدة كان أهمها طريقان : وأحدهما هو طريق أيميليوس (Via Aemilia) الذي أنشىء في عام ١٨٧ ق . م . ليصل بلاقنتيا والمستعمرات الثلاث الأولى (بارما وموتينا وبونونيا) بأريمينوم (على الشاطىء الغربي) وهي التي كان يصلها بروما طريق فلامينيوس الذي عرفنا أنه أنشىء في عام ٢٢٠ ق . م . والطريق الآخر هو طريق قاسيوس (Via Cassia) الذي أنشىء في عام ١٧١ ق . م . لتيسير الوصول من روما إلى وادي البو عبر أترو ريا .

وبفضل هذه المستعمرات والطرق دعمت روما سيطرتها على المنطقة الواقعة بين الألب والأبنين ومهدت السبيل لصبغ هذه المنطقة سريعا بالصبغة الرومانية . واذا كانت هذه المنطقة ظلت تدعى رسميا « غاليا قيس ألبينا » (Gallia Cisalpina) أي بلاد الغال هذه الناحية من الألب ، فان الناس درجوا في حديثهم العادي في خلال القرن الأول قبل الميلاد على اعتبارها جزءا من « ايطاليا » (Italia) ، وهو الاسم الذي عرفنا أنه أصبح يطلق على شبه الجزيرة الأيطالية منذ أتم الرومان بسط سيطرتهم عليها في عام ٢٦٥ ق . م . ، وظل مقصورا على شبه الجزيرة فقط دون أن يشمل « بلاد الغال هذه الناحية من الألب » .

وفيما عدا إنشاء قاعدتين بحريتين عند لونا وجنوا بعد هزيمة الغال في عام ٢٢٠ ق . م . ثم تطهير الطريق المؤدي من جنوا إلى وادي البو في عام ١٩٧ ق . م . في أثناء محاربة الأنسوبرس والقنوماني ، تمهل الرومان في بسط سيطرتهم على

ليجوريا ، وكانت تمتد من نهر الأرنوس حتى مقاطعة سافوا الحديثة عبر الألب. ولعل مرد ذلك إلى أن هذا الإقليم كان أكثر أقاليم ايطاليا جدبا ووعورة بدليل أن غزاة إيطاليا المتتابعين منذ عصر البرونز تركوا هذا الإقليم في قبضة سكانه البدائيين . بيد أنه بعد اتساع نطاق صوالح الرومان في شمال ايطاليا وفي الخارج حدت بهم الرغبة في حماية المواصلات البرية بين الشاطىء الغربي وغاليا قيس البينا وفي تأمين المواصلات البحرية بين ايطاليا واسبانيا إلى الاستيلاء على ليجوريا . وبفضل سلسلة من الحملات المتعاقبة فيما بين عامي ١٨٦ و ١٧٢ ق . م . تمكن الرومان من إخضاع مختلف القبائل الليجورية وكذلك من بسط سلطانهم حتى امتد إلى إقليم ماسيليا في « بلاد الغال عبر الألب » . وفي أثناء ذلك نقل الرومان ٤٠,٠٠٠ من الليجوريين إلى أراض عامة رومانية غير مأهولة في إقليم سامنيوم بجنوب ايطاليا ، وأنشأوا مستعمرة عند لوقا (Luca) في عام ١٨٠ ق . م . وحولوا القاعدة البحرية عند لونا إلى مستعمرة رومانية كبيرة في عام ١٧٧ ق . م . وعندما تعاطف أهل قورسيقا مع الليجوريين لأنهم كانوا يشاركونهم القرصنة وهبوا ثائرين على الرومان ، أخمدت ثورتهم في الحال (عام ١٨١ ق . م .) وقد كان لثورة قورسيقا صداها في سردينيا ، فقد شبت فيها نيران الثورة فيما بين عامي ١٨١ و ١٧٧ ق . م . ، ولكنه لم يكن لهذه الثورة أيضا أية نتيجة سوى إخضاع سردينيا إخضاعا تاما .

سادسا — إنشاء ولايتين في اسبانيا

لقد كان الهدف الأساسي من وراء الفتوحات التي قام الرومان بها في أسبانيا في خلال الحرب البونية الثانية هو حرمان قرطجنة القواعد والموارد التي تمكنها من غزو إيطاليا . وتبعا لذلك أصبح يتعين على الرومان اتخاذ التدابير التي تكفل الحيلولة دون استعادة قرطجنة قواعدها في اسبانيا . وقد كان من الممكن تحقيق ذلك دون أن يحتل الرومان احتلالا دائما الأقاليم التي فتحوها هناك ، لو أنه كان ميسورا

إقامة إمارات وطنية قوية . بيد أن خبرة رجال أسرة سقيبيو حذرت السناتو من الاعتماد على كفاية أي زعيم وطني أو على استمرار ولائه طويلا . هذا إلى أنه كان هناك حافز آخر على احتفاظ الرومان بفتوحاتهم في اسبانيا وهو ثروتها المعدنية . فقد أسهمت هذه الثروة إلى حد محسوس في تغذية مواردهم المالية أبان المراحل الأخيرة للحرب البونية الثانية ، وكان الرومان يعقدون الآمال على أن تصبح مستقبلا مصدرا جوهريا لدخلهم . وإزاء هذه الاعتبارات وضع السناتو في عام ١٩٧ ق . م . النظم التي تكفل تحقيق الأهداف الرومانية ، وذلك بتحويل الأقاليم التي فتحوها في اسبانيا إلى ولايتين جديدتين أطلقوا عليهما «اسبانيا الدانية» (Hispania Citerior) و « اسبانيا القاصية » (Hispania Ulterior) ، وزادوا عدد البرايتورس إلى ستة ليتولى اثنان منهم حكم هاتين الولايتين . وكانت « اسبانيا الدانية » تشمل وادي الأبرو والشاطىء الشرقي حتى جنوبي قرطجنة الجديدة ، وكانت «اسبانيا القاصية» تشمل وادي بايتيس (Baetis) الوافر الخصوبة والشاطىء الجنوبي .

وتعيين حاكمين برتبة برايتور لحكم هاتين الولايتين ، وإنقاص الحامية في كل منهما إلى ٨٠٠٠ جندي من القوات الايطالية المساعدة ، أمران يوحيان بأن السناتو كان يتصور أن الأمور كانت قد استتبت تقريبا هناك ، غير أن الأحداث لم تلبث أن أثبتت إلى أي مدى كان السناتو شديد التفاؤل . ذلك أنه لم يكد السناتو يفرغ من النظم التي وضعها لحكم هاتين الولايتين حتى أخذت القبائل الوطنية تقوم بثورة بعد أخرى منذ عام ١٩٧ ق . م . فما كانت القوات الرومانية تخمد ثورة في مكان حتى يندلع لهيب الثورة في مكان آخر إلى أن تمكن تيبريوس سمبرونيوس جراكـــوس (Tiberius Sempronius Gracchus) من تهدئة الأوضاع بفضل الحملتين اللتين قام بهما في عامي ١٨٠ و ١٧٩ ق . م . وكذلك بفضل قوة شخصيته التي أكسبته ثقة الأهالي الوطنيين على نحو لم ينجح فيه أي قائد روماني منذ سقيبيو أفريقانوس . وقد ترتب على التسوية العامة التي وضعها جراكوس في عام ١٧٩ ق . م . سيطرة الرومان على شبه الجزيرة الاسبانية

بأجمعها فيما عدا المناطق المطلة على المحيط الأطلسي . وتمتعهم بالهدوء لعدة سنوات . ومما يجدر بالملاحظة أن الرومان أنشأوا في اسبانيا في عام ٢٠٦ ق . م . أول مستعمرة لهم خارج ايطاليا . وكانت مستعمرة لاتينية تسمى إيتاليقا (Italica) بالقرب من أشبيلية ، ثم أنشأوا في عام ١٧١ ق . م . مستعمرة لاتينية أخرى في الجنوب أيضا وهي مستعمرة قارتيا (Carteia) بالقرب من مدخل مضيق جبل طارق .

سابعا — الحرب المقدونية الثالثة

عرفنا كيف أنه بعد الحرب المقدونية الثانية تحالف فيليب الخامس مع روما وقدم لها مساعدات قيمة في محاربة أنطيوخوس الثالث وكذلك في محاربة الأيتوليين ، وكيف أنه بعد اخضاع الأيتوليين سحبت روما قواتها من بلاد الإغريق في عام ١٨٨ ق . م . وفي أعقاب ذلك أخذت العلاقات تسوء باطراد بين روما ومقدونيا . وبيان ذلك أنه بعد انتهاء الحرب مع الأيتوليين وبعد مكافأة برجام مكافأة سخية على خدماتها لروما ضد أنطيوخوس مع أن هذه الخدمات كانت تتضاءل في أهميتها إلى جانب خدمات فيليب ، كان طبيعيا أن ينتظر فيليب من الرومان مكافأته بالسماح له بالاحتفاظ بكل المدن التي استردها من أنطيوخوس . ولكنه لما كان السناتو لا يميل إلى السماح بازدياد قوة مقدونيا — عدو الأمس — ازديادا كبيرا ، فانه لم يسمح لفيليب الا بالاحتفاظ ببعض مدن تساليا ، مما أثار ضغينة فيليب فعكف على تنمية موارد مملكته ودعم حدودها الشمالية حتى تحين الفرصة المناسبة لتحدي روما . وفي هذه الأثناء نشأ بين الفريقين خلاف حول وضع بعض المدن في تساليا وحول استيلاء فيليب على مدينتين في تراقيا . ولم يكن من شأن إرغام فيليب على التنازل عن بعض المدن التسالية وعن المدينتين التراقيتين الا أنه زاد في ضغينة فيليب . ومع ذلك فانه لكي يبدد شكوك السناتو من ناحيته ، أوفد إلى روما أصغر ابنيه — واسمه ديمتريوس — وكان قد اكتسب ود الرومان وتقديرهم في أثناء وجوده رهينة لديهم بعد الحرب المقدونية الثانية . وقد أحسن

الرومان وفادة ديمتريوس ، غير أن النجاح الدبلوماسي الذي أحرزه أثار غيرة أخيه الأكبر برسيوس (Perseus) وخوفه من أن يسلبه أخوه حقه في العرش ؛ ولذلك دبر تزييف خطاب أفضى إلى اعدام ديمتريوس بتهمة الخيانة . وعندما ظهر بطلان التهمة بعد موت ديمتريوس بقليل، صمم فيليب على حرمان برسيوس العرش لصالح فرد آخر من الأسرة ، ولكنه توفي في عام ١٧٩ ق . م . قبل أن ينفذ تصميمه فآل إلى برسيوس عرش مقدونيا . وكان جيشها يتألف عندئذ من ٣٠,٠٠٠ إلى ٤٠,٠٠٠ مقاتل ، وفي خزانتها العامة ٦٠٠٠ تالنت (حوالي مليون ونصف مليون جنيه استرليني) .

وبوصف كون برسيوس مدبر جريمة إعدام أخيه . كان مثار شكوك الرومان وهي الشكوك التي عمل على تغذيتها أن برسيوس لم يكتف باقتفاء أثر أبيه في تقوية الجيش وزيادة رصيد الخزانة العامة فحسب ، بل أنه عقد محالفات مع بعض حكام الأقاليم في تراقيا وفي إلليوريا ، وأنشأ علاقات مع الأحزاب المعادية لروما في مختلف أنحاء بلاد الاغريق . وقد كان انتعاش مقدونيا ونهوضها من كبوتها في الحرب المقدونية الثانية قذى في عين برجام ، وهي التي زاد في نقمتها على برسيوس أنه دعم علاقاته مع سوريا وبيثونيا ، عدوتي برجام ، بزواجه من لاوديقي (Laodice) ابنة سلوقس الرابع ملك سوريا وتزويج أخته إلى بروسياس ملك بيثونيا . وكان أعداء ملك مقدونيا في العالم الاغريقي ، وبخاصة يومنيس ملك برجام . لا يفتأون يبلغون السناتو بكل ما يقوم به ، ويلحون في أن هدف نشاط برسيوس كان تقويض دعائم التسوية التي وضعها الرومان لبلاد الاغريق والقضاء على نفوذهم هناك . ومع ذلك فان السناتو اكتفى بإرسال بعثة بعد أخرى لتقصي الحقائق . واذا كانت جهود هذه البعثات لم تسفر سواء عن إدانة برسيوس أم تبرئته . فانها أسفرت عن تعميق شكوك كل من الطرفين في نوايا الآخر . وتبعا لذلك فانه في عام ١٧٢ ق . م . عندما ذهب يومنيس بنفسه إلى روما وألقى في السناتو خطابا هاجم فيه برسيوس وعزا اليه سلسلة من الإتهامات ، رأى السناتو أنه لم تعد هناك سبيل إلى حسم هذه المسألة الا بالحرب . ولذلك فأن

السناتو أرسل إلى برسيوس مطالب كان من شأن الاستجابة اليها القضاء على استقلاله قضاء مبرما . وعندما رفض برسيوس هذه المطالب استصدر السناتو من جمعية المئينات في عام ١٧١ ق . م . قراراً باعلان الحرب على برسيوس ، وذهبت سدى كل محاولات هذا الملك لتسوية الخلاف تسوية معقولة ، لأن السناتو أصر على الإستجابة إلى مطالبه دون قيد أو شرط . وبرغم سيطرة الرومان على البحار سيطرة تامة وإرسالهم جيشا أكبر عددا من الجيش المقدوني ، فأنهم فشلوا في إحراز أي تفوق عل برسيوس سواء في عام ١٧١ أم في عام ١٧٠ ق . م . بسبب عجز قوادهم واضطراب النظام في صفوف جنودهم وعدم التعاون بين الجيش والأسطول . ومن ناحية أخرى اذا كان برسيوس قد أحرز بعض الأنتصارات الجزئية ، فانه لم يظهر من الكفاية وحسن التقدير ما كان كفيلا بتمكينه من الإفادة إفادة كبيرة من الفرص التي أتاحها له الرومان بسوء تصرفاتهم في أثناء الحرب وبغلوائهم قبلها في معاملة الاغريق . ذلك أنه لو بسط يده وقدم مساعدات مالية كافية لانضمت اليه أغلب الدول الاغريقية ، ولحصل على مساعدات قيمة من القبائل المتاخمة لحدوده . وإزاء سوء تقدير برسيوس وعجزه عن الارتفاع إلى مستوى الأحداث لم يحصل الا على مساعدات طفيفة من بعض مدن بويوتيا ومن أبيروس ومن جنثيوس (Genthius) وكان حاكم إمارة كبيرة في إلّوريا . وأخيرا استطاع الرومان في عام ١٦٩ ق . م . طرد برسيوس من تساليا والوصول إلى مقدونيا ، ولكن المجهود الذي بذلوه منعهم من متابعة الزحف في ذلك العام .

وعندما أُسندت القيادة في العام التالي (١٦٨ ق . م .) إلى القنصل لوقيوس أيميليوس باولوس (L. Aemilius Paulus) هزم برسيوس عند بودنا (Pydna) هزيمة فاصلة أفنت الجيش المقدوني وأرغمت الملك على الفرار كما أرغمت المدن المقدونية على التسليم . ولكن برسيوس لم يلبث أن سلم نفسه فأخذ أسيرا إلى روما وعومل معاملة سيئة وتوفي في الأسر . وعقب النصر الروماني ، لم يعد لمقدونيا وجود بوصف كونها دولة ، فقد قسمها الرومان إلى أربع جمهوريات تتمتع

كل منها باستقلال ذاتي مع حرمانها حقي التزاوج (Conubium) والتعامل (Commercium) مع بعضها بعضا . وفرضوا على كل منها أداء جزية سنوية قدرها ١٠٠ تالنت ، وكانت تعادل نصف الضرائب المباشرة التي كان الملك يجبيها . وفضلا عن ذلك فان الرومان منعوا استغلال المناجم وأملاك التاج .

ثامنا — روما والعالم الاغريقي

عرفنا كيف أن روما نصبت نفسها حامية حمى الاغريق . وكيف أنها بهذا الوصف حاربت فيليب الخامس وأنطيوخوس الثالث ، وكيف أنها بعد ما اكتسبت تهليل أغلب الاغريق أول الأمر أثارت شكوكهم في نواياها بانفرادها بتسوية مشاكلهم وبتدخلها في شئون أغلب الدول الاغريقية حيث أسندت مقاليد الحكم إلى أرستقراطيات اختارتها بعناية . هذا وإن كانت روما من ناحية أخرى لم تفرض على الاغريق دفع الجزية أو ايواء حاميات رومانية أو تضم أي جزء من بلادهم . وساعد على تفاقم العلاقات سوءا أن روما أخذت تقوم بدور أكثر إيجابية في شئون بلاد الاغريق بسبب ما لمسته من روح العداء لها في أثناء محاربة برسيوس وبسبب نشاط العصبة الآخية . وكانت هذه العصبة قد نجحت بزعامة فيلوبويمن (Philopoemen) في توحيد دول البلوبونيز تحت لوائها ، ولكن بعض هذه الدول كانت ترغب في الانفصال عن هذه العصبة واستعادة حريتها ، ومثل ذلك اسبرطة وكانت قد أرغمت قسرا على الانضمام إلى العصبة . وعندما احتدم الخلاف بين اسبرطة والعصبة وناشدت اسبرطة مساعدة روما وتدخلت روما في المشكلة (١٨٩ — ١٨٤ ق . م .) لم يؤد هذا التدخل إلا إلى ازدياد العلاقات توتراً ، فقد أغضب العصبة تدخل الرومان ورفضت التسوية التي وضعوها وأغضب الرومان إهمال شأنهم . وبوفاة فيلوبويمن في عام ١٨٢ ق . م . نشأ في العصبة فريقان ، أحدهما مؤيد لروما وعلى استعداد لتنفيذ أوامرها ، والآخر مناهض لروما ومصمم على الدفاع عن حقوق العصبة وعلى التمتع بحرية

التصرف . ولما كانت روما قد دأبت ، وبوجه خاص منذ عام ١٨٠ ق . م . ، على تأييد ودعم الأرستقراطيات في بلاد الاغريق جميعا بوصف كونها أكثر العناصر اتزانا وقبولا للسياسة الرومانية ، فان الجماعات الديمقراطية أخذت تتطلع إلى مقدونيا للفوز بالحرية .

وعندما فرغت روما من أمر برسيوس ، استدارت للعالم الاغريقي لكي تكافىء أصدقاءها وتعاقب أعداءها . ذلك أنها في إلّوريا أعفت من الضرائب المدن التي بقيت على ولائها لها ، وقسمت إمارة جنثيوس إلى ثلاث جمهوريات منفصلة عن بعضها بعضا وفرضت عليها أداء جزية تعادل نصف الضرائب التي كانت تدفعها لجنثيوس ، وأخضعت شاطىء دلماشيا حتى نهر نارنتا (Narenta) شمالا . وبذلك لم يبق الا الشريط الساحلي الممتد من هذا النهر حتى نهر أرسيا (وهو الذي كان نفوذهم قد وصل اليه في أثناء محاربة أصحاب شبه جزيرة أستريا) لكي يحولوا البحر الأدرياتي إلى بحيرة رومانية . واذا كانت روما قد عزفت عندئذ عن إدخال تعديلات جوهرية على وضع المدن الاغريقية ، فانها صممت على تلقينها درسا قاسيا بتطهير هذه المدن من كل خصوم الرومان : إما باعدامهم وإما بنفيهم وإما ببيعهم في سوق النخاسة. فقد عرفت روما أسماء الكثيرين من خصومها باستيلائها على أوراق برسيوس ، وأطلق السناتو يد البعثة التي أنفذها إلى بلاد الأغريق لوضع الأمور في نصابها بالاشتراك مع باولوس . وقد أسهم في انتقام روما من خصومها تلك العناصر الاغريقية المؤيدة لها ، وهي التي استولت على مقاليد الأمور في كل مكان . وإنه لمن اليسير أن نتصور أن أغلب هذه العناصر كانت ممن لا خلق لهم ولا ضمير . ونتيجة لما أقدم عليه الرومان وذيولهم أعدم ٥٠٠ مواطن في أيتوليا بعد محاكمة صورية ونفي كثيرون من الأيتوليون وصودرت أملاكهم. وفي أقارنانيا وأبيروس وبويوتيا وضعت أسماء أبرز المواطنين على القائمة السوداء وأُمروا بالذهاب إلى روما لمحاكمتهم . ولم تقف نكبة أبيروس عند هذا الحد ، ذلك أنه في عام ١٦٧ ق . م . — بناء على أمر من السناتو بنهب ممتلكات مواطني أبيروس غير الموالين لروما — إجتاح

أرغمت رودس على النزول عن ممتلكاتها في آسيا الصغرى . وكالت لها ضربة قاصمة قضت على رخائها التجاري بانشاء ميناء حر في جزيرة ديلوس . وأما عن برجام ، فان روما اكتفت بإذلال ملكها وإثارة المتاعب له ، وذلك برفض استقبال يومينس للدفاع عن نفسه وبحرمانه مدينتين في تراقيا وبتشجيع أطماع أخيه ووريثه أتالوس وكذلك بتشجيع الغال أصحاب غالاتيا على مضايقته بشن إغارات عليه .

ولما كان أنطيوخوس الرابع قد انتهز فرصة انشغال روما في الحرب المقدونية الثالثة وسلب مصر جزيرة قبرص وغزا مصر ذاتها ، فأنه عقب انتصار روما عند بودنا أنفذت بعثة سياسية إلى أنطيوخوس حين كان يحاصر الأسكندرية . وقد قامت البعثة على الفور بتسليم أنطيوخوس قرار السناتو وطلبت اليه أن يقرأه قبل أن ترد عليه التحية . وعندما اطلع أنطيوخوس على القرار وأبلغ البعثة أنه سيتدبر الأمر مع رفاقه ، لم يكن من كبير المبعوثين الا أنه خط بعصاته دائرة حول الملك وطلب اليه الإفصاح عن رأيه قبل أن يخطو خارج تلك الدائرة ! وإذ أخذ الملك بهذا المسلك الغريب — وهو يعطينا صورة أخرى عما وصل اليه جبروت الرومان وصلفهم — تردد لحظة قبل أن يعلن أنه سيلبي طلب السناتو وكان بالانسحاب فورا من مصر وقبرص . وعندئذ فقط صافح المبعوثون الملك وحيوه تحية ودية .

وقد أقدمت روما على اتخاذ هذا الاجراء إزاء انطيوخوس لأنها كانت لا تسمح لامبراطورية السلوقيين بالاتساع بحيث تضم مصر بين جوانبها ، فقد كان ذلك الاتساع يهدد مركز روما في شرق البحر المتوسط ويقضي على سياسة توازن القوى التي اتبعتها هناك منذ معاهدة أباميا . والواقع أن روما لم تقلم بالأمس أظافر أنطيوخوس الثالث لتسمح اليوم لأنطيوخوس الرابع بالاستيلاء على دولة البطالمة . وهكذا يتضح لنا أن روما لم تنقذ مصر من براثن أنطيوخوس الرابع بوازع من الرغبة في الدفاع عن هذه الحليفة وإنما بدافع من الاشفاق على نفسها من قوة أنطيوخوس وكذلك بدافع من الرغبة في جر مصر في ركابها .

الفصل الحادي عشر

روما تبسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط
المرحلة الثالثة [(١)] : من عام ١٦٦ حتى عام ١٣٣ ق.م.

مرت سياسة روما الخارجية في خلال هذه المرحلة بدورين اكتفت في أولهما باتباع الوسائل الدبلوماسية لتحقيق أهدافها في البحر المتوسط دون الالتجاء إلى

(١) المصادر

الحرب في أسبانيا :

XXXIII, 21; XXXIV, 8 - 21; XXXV, 1; 2; 22;
Polyb., XXXV, 1-5; Liv., XXXIII, 21; XXXIV, 8 - 21; ... 47-50; XLI, 26; Ap-
XXXIX, 20; 21; 30; 31; XL, 16; 30-33; 35; 36; 39; 40; 47-50; XLI, 26; Ap-
pian., Iber., VIII, 39-XVI, 39; 98; Dio Cass. XXII- XXIII; Flor., I, 33;
34; Plut., Cato, 10; Zon., IX, 17.

الحرب البونية الثالثة:

Polyb. XXXI, 21; XXXVI, 1-9; 16; XXXVIII, 7; 8; 19-22; Liv., XXXI, 11;
19;XXXIII,45-49;XXXIV, 60-62; XXXVIII, 7; 8; 19-22; Liv.; XXXI, 11;
19; XXIII, 45-49; XXXIV, 60-62; XXXV, 14; XXXIX, 51; XL, 17; XLII,
23; 24; XLV, 13; 14; Epit., XLVIII- LIII; Appian.,Lib., X,67-XX, 136;
Flor., I, 31; Zon. IX, 18; 26; 27; 29; 30.

الحرب المقدونية الرابعة والحرب الآخية:

Polyb., XXXVI,10; 11; 17; XXXVIII, 9-18; XXXIX, 2-6; Liv., Epit., XLIX
LIII; Flor., I, 30-32; Paus., VII, 11-16; Zon., IX, 28; 31.

الشرق الهلنيسي وضم مملكة برجام :

Polyb., XXII, 5; 16; 17; XXIV, 1; 5; 14; 15; XXV, 1, 4-6; XXVI, I; XXVII,
3; 4; 7;17-20; XXVIII, 1; 2; 16-23; XXIX, 2; 22-27; XXX, 1-5; 16-21; 23-28;
30; 31; XXXI, 1-20; 30-33; XXXII, 1-12;15; 16; XXXIII, 1-7; 11-19; XXXV,
6; XXXVI, 14-15; XXXIX, 7; Liv., XLI, 20; XLII, 11-17; 45; XLIII, 6;
XLIV, 14; 15;19;XLV, 3;10-13; 19-26; 34; Epit., XLVI-LIII; Sallust., Hist.,
Fr. 4, 69 (ed. Maurenbrecher); Dittenberger, no. 338.

الحرب وضم ممتلكات خارجية جديدة . وفي الدور الثاني عزفت روما عن الوسائل الدبلوماسية ولجأت إلى الحرب وتوسيع نطاق امبراطوريتها بضم البلاد المقهورة . وقد كان هذا التغير في الأهداف الرومانية نتيجة طبيعية للآثار الخلقية السيئة التي نجمت عما أحرزه الرومان من قوة لا تقهر ملأت نفوسهم صلفا وغرورا ، وأغرتهم على الإفراط في استخدامها وكذلك في الإفادة من ثمار ذلك . ولولا ما اتسم به الرومان أصلا من فضائل خلقية لظهرت قبل هذه الفترة تلك النقائص الخلقية التي يُبتلى بها دائما أصحاب القوة الغشوم . ومن دلائل ما طرأ على المجتمع الروماني والسياسة الرومانية من تغير ملحوظ بروز جماعة قوية من أعضاء السناتو تتطلع في لهف إلى قيادة الحملات والفوز بأمجاد النصر وأسلاب الحرب ، وشدة الحاح رجال الأعمال الرومان بفتح آفاق جديدة للاستغلال . وتبعا لذلك فانه كلما اجترأت دولة من الدول على عدم تلبية أوامر السناتو ، كانت الصيحات تتعالى بأن كرامة روما قد أُهينت وبأن الإهانة لا يمحوها الا اتخاذ خطوات فعالة يكون من شأنها إرغام العاصي على الطاعة . وقد برزت هذه الاتجاهات قبيل عام ١٥٠ ق . م . وأفضت إلى حروب طويلة في اسبانيا ، وإلى ضم قرطجنة ومقدونيا وإخضاع بلاد الاغريق دون هوادة والحصول على ممتلكات في آسيا الصغرى . (انظر خريطة الامبراطورية الرومانية).

أولا ــ الحرب في اسبانيا

ترتب على نجاح تيبريوس سمبرونيوس جراكوس والتسوية التي وضعها في

= المراجع

T. Mommsen, History of Rome, BK. IV, Ch. I; W.E. Heitland, The Roman Republic, vol. II, Ch. XXXIII; T. Frank, Roman Imperialism, Chs. X-XI; D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, Chs. I - VII; J.A.O. Larsen, Economic Survey of Ancient Rome, IV, pp. 306 ff.; M. Cary, op. cit., Ch. XIV; A.E.R.Book, op. cit., Ch. X; Cambridge Ancient History, Vol.VIII, Chs. X, XV; Vol.IX, Ch. III pt. 1; H.H. Scullard, op. cit., Ch. XIII,4; Ch.XIV, 2-7.

عام ١٧٩ ق . م . تمتع روما بالهدوء في اسبانيا حتى عام ١٥٤ ق . م . عندما طفح كأس الاسبان بالمظالم التي ارتكبها حاكم روماني بعد آخر ، واكتفاء السناتو بمعالجة شكاوي الذين وقع عليهم الظلم بوعود جوفاء . وفي الوقت نفسه نشأ جيل جديد من أبناء القلتيبري (Celtiberi) — أقوى قبائل اسبانيا الدانية — ومن أبناء اللوسيتاني (Lusitani) — أقوى قبائل اسبانيا القاصية — يطالب بالثأر من الرومان للهزائم القديمة والمظالم التي لا ينقطع سيلها الجارف . وقد ثار اللوسيتاني في عام ١٥٤ ق . م . والقلتيبري في العام التالي ، وبذلك تأججت نيران ثورة عارمة في ولايتي اسبانيا القاصية والدانية ، مما اقتضى قيام الرومان بسلسلة من الحملات لخوض غمار حرب دامت اثنين وعشرين عاما بسبب عجز القواد الرومان وما ارتكبوه من أعمال القسوة وعدم احترام ما قطعوه على أنفسهم من وعود ومواثيق .

ولا أدل على عنف هذه الحرب من أن الخدمة العسكرية في اسبانيا غدت شديدة البغض إلى المقاتلين الرومان بحيث أن القوات اللازمة لحملات الأعوام ١٥١ و ١٤٤ و ١٣٧ ق . م . لم تحشد الا بصعوبة بالغة .وأما عن عجز القواد الرومان وغدرهم وأعمال القسوة التي ارتكبوها فالشواهد عليها كثيرة . ذلك أنه عندما وصل القنصل لوقيوس ليقينيوس لوقولوس (L. Licinius Lucullus) إلى اسبانيا الدانية في عام ١٥١ ق . م . ووجد أن سلفه مارقلوس قد أتم عقد الصلح مع أكثر قبائل القلتيبري ، إنقض غدرا على قبيلة الفقّايي (Vaccaei) المسالمة وأعمل القتل فيها دون مبرر ، مما شجع جيرانها على الاستبسال في المقاومة ، فانصرف إلى أسبانيا القاصية لمساعدة البروقنصل جالبا (Galba) . وفي عام ١٥١ ق . م . ارتكب هذا البروقنصل جريمة غدر فاحشة لم يسبق أن لوث الشرف الروماني مثلها ويتضاءل إلى جانبها غدر لوقلوس بالفقّايي الذين لم يكن قد وعدهم بشيء . ذلك أن جالبا بعد أن عقد صلحا مع اللوسيتاني وأغراهم على تسليم سلاحهم ، إنقض عليهم وذبح عدة آلاف منهم . وينهض دليلا على أن فساد الأخلاق لم يكن مقصورا على فئة بعينها بين الرومان أن هذا

القائد الغادر بـُرئت ساحته في روما عندما أصر قاتو على محاكمته .

ولم يكن من شأن هذه المذبحة المروعة الا أن تدفع أحد الناجين منها إلى تزعم اللوسيتاني في صراعهم مع الرومان . وكان هذا الزعيم يدعى فيرياثوس (Viriathus) وكان أصلا راعيا ولكنه كان محاربا بارعا في حرب العصابات فقد استطاع أن يتحدى القوات الرومانية على مدى حوالي ثمانية أعوام (١٤٧ — ١٣٩ ق . م .) إلى أن أُرغم على التسليم ثم دبر القائد الروماني ، البروقنصل سرفيليو قايبيو (Servilius Caepio) ، مقتله في أثناء هدنة عقدها معه . وبعد ذلك تم سريعا إخضاع اللوسيتاني . وفي العامين التاليين (١٣٨ و ١٣٧ ق . م .) توغل البروقنصل دقيموس يونيوس بروتس (Decimus Junius Brutus) في الشمال وأخضع المنطقة التي تعرف اليوم بالبرتغال ، وأظهر في معاملة الأهالي قدرا من الاعتدال يفوق ما أظهره كثيرون من سابقيه .

وفي أثناء متابعة الصراع مع اللوسيتاني كان الرومان قد تمكنوا من تهدئة أكثر قبائل القلتيبري في عام ١٥١ ق . م . ولكن النجاح الأولي الذي صادفه فيرياثوس شجع القلتيبري على الثورة في عام ١٤٣ ق . م . وتركزت الأحداث حول أهم مدنهم — نومانتيا (Numantia) — ولذلك تسمى هذه المرحلة من الحرب الأسبانية « حرب نومانتيا » . وهنا نشهد مرة أخرى مدى تدهور الخلق الروماني . ففي عام ١٤٠ ق . م . عقد القائد الروماني كوينتوس بومبيوس صلحا مع النومانتيين بشروط معقولة شجعتهم على إلقاء السلاح وقبول الصلح . ولكنه لم يلبث أن نقض شروط الصلح وتجاهل السناتو الأمر . وفي عام ١٣٨ ق . م . بلغ من كراهية الرومان للخدمة العسكرية في اسبانيا أن ترابنة العامة تدخلوا لحماية بعض مواطنيهم من التجنيد . وعندما تجاهل القنصلان تدخل الترابنة ألقوا القبض على القنصلين واحتجزوهما بعض الوقت . وفي العام التالي ضيق النومانتيون الخناق على القنصل مانقينوس (Mancinus) وجيشه المؤلف من ٢٠,٠٠٠ جندي ، مما اضطر القنصل إلى عقد معاهدة صلح معهم لانقاذ حياة

جنوده . ولكن السناتو رفض إبرام المعاهدة وجعل من القنصل كبش الفداء بتسليمه إلى العدو مصفدا بالأغلال ، غير أن النومانتيين كانوا أكرم من أن يتمثلوا القنصل وردوه سليما إلى بلاده بعد أن فوت عليهم الغدر الروماني فرصة إحراز نصر باهر .

وبعد سلسلة من الهزائم ، رأى الرومان أنه لن يخرجهم من ورطتهم إلا إذا تولى القيادة في اسبانيا قائد بارع محنك ، ولذلك فانهم انتخبوا مرة أخرى سقيبيو أيميليانوس (Aemilianus) قاهر قرطجنة في عام ١٤٦ ق . م . ليكون أحد قنصلي عام ١٣٤ ق . م . وعهدوا اليه بوضع أمور اسبانيا في نصابها . وقد حقق أيميليانوس الآمال المعقودة عليه بعد أن أعاد تنظيم القوات الرومانية ورفع من معنوياتها وحاصر نومانتيا حصارا شديدا لمدة خمسة عشر شهرا ، مما أرغمها على التسليم لتلقى مصيرها المحتوم من التخريب الشامل وبيع أهلها في سوق النخاسة (عام ١٣٣ ق . م .) . وعندئذ أرسل السناتو بعثة لتعيد تنظيم الأوضاع في اسبانيا فتمتعت بعد ذلك بفترة طويلة من الهدوء .

وقد كان من أهم ما تكشفت عنه حرب أسبانيا — إلى جانب تدهور الأخلاق الرومانية على نحو ما أوضحنا — عجز الجيش الروماني بتنظيمه القائم عندئذ عن متابعة حرب طويلة الأمد خارج ايطاليا متابعة ناجحة ، كما تكشفت عن سوء عواقب إسناد قيادة الحملات في بيئات غير مألوفة إلى برايتورس وقناصل تنتهي قيادتهم سنويا دون إعادة تجديد مدتها سنة أخرى الا نادرا .

ثانيا — الحرب البونية الثالثة

عرفنا أنه قد كان من بين شروط معاهدة الصلح التي أبرمت بين روما وقرطجنة في عام ٢٠١ ق . م . شرطان ، قضى أحدهما بألا تخوض قرطجنة غمار أية حرب دون موافقة روما مسبقا على ذلك ، وقضى الشرط الآخر بأن

تعيد قرطجنة إلى ماسينيسا ملك نوميديا « كل الممتلكات التي كانت في حوزته وحوزة أسلافه » . وقد كان من شأن هذا الشرط الآخر الغامض الماكر وكذلك من شأن تشجيع روما أطماع ماسينيسا التوسعية على حساب قرطجنة خلق الظروف التي تتيح لروما فرصة اتهام قرطجنة بخرق الشرط الأول الذي يحظر عليها الاشتباك في حرب قبل أخذ موافقة روما . وقد حدث ذلك برغم أنه منذ انتهاء الحرب البونية الثانية قبضت على أزمة الحكم في قرطجنة جماعة يتزعمها هانيبال جعلت كل همها الحفاظ على الوئام والسلام مع روما والاهتمام بانعاش تجارة قرطجنة وزراعتها ، فأصبحت ثانية أكبر مركز تجاري في غرب البحر المتوسط وأصبحت أرضها تغل حاصلات وفيرة ، مما مكنها في عام ١٩١ ق . م . — أي بعد عقد معاهدة الصلح بعشر سنوات فقط — من أن تعرض على روما أن تدفع لها عندئذ الأقساط الأربعين الباقية جميعها من تعويض الحرب ، ومن أن تتبرع لروما في العام نفسه وفي عدة مناسبات تالية بكميات كبيرة من القمح دون مقابل .

بيد أن نجاح قرطجنة في النهوض من كبوتها بهذه السرعة وعلى هذا النطاق أقض مضاجع الرومان . ذلك أنهم بعد فترة من الشكوك انتهت بتدبير نفي هانيبال في عام ١٩٦ ق . م . أخذوا ينظرون إلى رخاء قرطجنة بقلق شديد مبعثه من ناحية الغيرة ومن ناحية أخرى الخوف من أن تعيد قرطجنة بناء قوتها ، مما حدا بالسناتو آخر الأمر إلى اقتناص الفرصة المواتية لتدمير قرطجنة .

وقد أتاح هذه الفرصة ماسينيسا وهو الذي عُني منذ معاهدة عام ٢٠١ ق. م. بتنشيط تجارة مملكته وبتقدم الزراعة فيها وبنشر الحضارة الفينيقية في أرجائها ، وكذلك بمحاولة تحقيق حلم كان يراوده بانشاء أمبراطورية تشمل الأقاليم المعروفة اليوم بالجزائر وتونس وطرابلس وتكون قرطجنة عاصمة هذه الامبراطورية . ولما كان ماسينيسا يعتبر استمرار بقاء قرطجنة دولة ذات سيادة ، مهما تكن أظافرها قد قلمت ، بمثابة شوكة في جانبه وحائلا دون ضم طرابلس ، فانه دأب على تغذية شكوك الرومان ومخاوفهم إزاء قرطجنة ، وكذلك على الإغارة على الأقاليم

التي تركتها معاهدة الصلح في حوزة غريمته . وكلما شكت قرطجنة إلى روما
من كل اعتداء جديد ، كان السناتو إما يغض الطرف وإما يصدر قرارا في صالح
ماسينيسا .

ولم تواف ستينات القرن الثاني قبل الميلاد حتى كان ماسينيسا يتأهب
للاستيلاء على مدن طرابلس الثلاث . ذلك أنه طلب إلى قرطجنة السماح له
بدخول طرابلس بحجة مطاردة ثائر فر إلى برقة ، وعندما رفضت قرطجنة هذا
الطلب لم يتردد ماسينيسا في أن يدخل عنوة إقليم طرابلس حيث احتل سهل
الحفارة ، ولكن قرطجنة نجحت في الدفاع عن المدن الثلاث وعجز ماسينيسا
عن الإستيلاء عليها . وعندما شكت قرطجنة إلى روما ، أرسل السناتو حوالي
عام ١٥٥ ق . م . بعثة للتحقيق كان على رأسها قاتو الكبير . وقد هال أعضاء
البعثة ، وبوجه خاص رئيسها ، ما رأوه من مظاهر النعمة والرخاء في هذه العدوة
التي هزمت مرتين ، وفسروا كميات الخشب المخزونة في مستودعات الميناء بأنها
استعداد لإعادة بناء الأسطول ، كما اعتبروا القوات التي صدت ماسينيسا نواة
لجيش تعده قرطجنة لحرب الانتقام . وما أن عادت البعثة إلى روما حتى طالب
قاتو بضرورة إعلان الحرب فورا على قرطجنة ، ولكن معارضي قاتو في السناتو
أفلحوا في اتخاذ قرار بارسال بعثة أخرى لمراقبة الأحوال في افريقيا . ولم يكن من
هذه البعثة الا أنها أمرت قرطجنة بتسليم المدن الثلاث لماسينيسا ودفع تعويض له !
وقد أثار هذا القرار الظالم جموع القرطجنيين إلى حد أن أعضاء البعثة إضطروا
إلى الفرار نجاة بحياتهم ، مما أثار نقمة السناتو وبخاصة قاتو ، وهو الذي دأب
منذ عودة بعثته على اختتام كل خطاب ألقاه في السناتو ، مهما يكن موضوع
هذا الخطاب ، مطالبا بأن « قرطجنة يجب أن تمحى من عالم الوجود » (delenda
est Carthago) . ولكن دعاة الحرب صادفوا معارضة قوية تزعمها نبيل
يدعى بوبليوس قورنليوس ناسيقا (Nasica) ، وكان قد تولى القنصلية مرتين
ولآرائه وزن كبير ، وكان يتسم بأفق أرحب وميول أكرم ويرى أن الخوف من
وجود منافس سياسي قوي لروما لا يضيرها بل أنه على العكس من ذلك في

صالح بقاء حيويتها لأنه يبعثها على أن تظل دائما يقظة لا يتطرق اليها التراخي .

وإزاء انقسام الآراء ظلت مشكلة قرطجنة معلقة .

بيد أنه لم يكن من شأن تسامح روما مع ماسينيسا وعطفها عليه الا أن يزيدا من غلوائه إلى حد أغراه على التدخل في شئونها الداخلية . ذلك أنه عندما وقع نزاع داخلي في قرطجنة (عام ١٥١/١٥٠ ق . م .) ونجح الديمقراطيون في نفي زعماء الحزب الذي يرغب في الاتفاق مع ماسينيسا ، طالب هذا الملك باعادة المنفيين . وعندئذ نفد صبر قرطجنة وأعلنت على ماسينيسا حربا يائسة خاضتها معه بجيش غير معد إعدادا طيبا مما أتاح لماسينيسا أن يهزمه (عام ١٥٠ ق . م .) .

وعندئذ شرعت روما في حشد قواتها للاشتباك مع قرطجنة في الحرب البونية الثالثة على أساس أن قرطجنة بمحاربتها ماسينيسا قد خرقت شروط معاهدة عام ٢٠١ ق . م . ولا جدال في أن هذا كان صحيحا من الناحية الشكلية . ولكن الباعث الحقيقي على دخول الرومان هذه الحرب كان مخاوفهم من قرطجنة وكذلك مخاوفهم من أن السياسة التي كان يتبعونها حتى ذلك الوقت في شمال افريقيا قد تؤدي إلى أن يصبح ماسينيسا بدوره مصدر متاعب لهم لا تقل خطورة عن قرطجنة . وتبعا لذلك رأى الرومان ضرورة التدخل فورا ليقضوا على قرطجنة قضاء مبرما ويحولوا دون أن يجني ماسينيسا ثمار انتصاره الأخير .

وعندما أفاقت قرطجنة من سورة الغضب ، أدركت أنها بمحاربتها ماسينيسا قد خرقت شروط معاهدة الصلح وخشيت انتقام الرومان ، فبادرت إلى إعدام قوادها العسكريين وإرسال بعثة سياسية إلى روما ، لتشكو من تصرفات ماسينيسا وتلقي تبعة الحرب معه على قوادها الذين أعدمتهم ، وتعرب عن الاستعداد للتكفير عما حدث ، ولكن البعثة لم تحصل من السناتو على إجابة شافية . وحين كانت قرطجنة تتداول فيما يجب عمله ، كان الرومان يتمون استعداداتهم . وعندما سلمت لهم أوتيقا في أوائل عام ١٤٩ ق . م . دون قيد أو شرط ، أعلنوا

الحرب على قرطجنة وأرسلوا جيشا وأسطولا إلى أوتيقا . وفي هذه الأثناء وصلت إلى روما بعثة سياسية قرطجنية أخرى لتعلن الاستسلام دون قيد أو شرط ، فأبلغها السناتو بأنه سيسمح للقرطجنيين بالاحتفاظ بحريتهم وقوانينهم وإقليمهم وممتلكاتهم العامة والخاصة بشرط أن يسلموا ثلاثمائة من أبرز رجالهم رهينة وأن « يطيعوا الأوامر التي يصدرها لهم القنصلان » اللذان عبرا البحر إلى أوتيقا على رأس الجيش والأسطول . وهناك طلب القنصلان تسليم الأسلحة ومعدات الحرب جميعها ، ورغبة في استرضاء الرومان بادرت قرطجنة إلى تنفيذ هذا الطلب . وعندئذ كشف القنصلان أخيراً القناع عن هدف السناتو بأن طلبا إلى القرطجنيين إخلاء مدينتهم والاستقرار حيثما شاءوا بشرط أن يكون ذلك على بعد ستة عشر كيلومترا عن البحر . ولما كان معنى ذلك عمليا الحكم بالفناء على دولة كانت التجارة البحرية المصدر الرئيسي لثروتها ، فأنه ملك قرطجنة الغضب الذي يبعث عليه اليأس ورفضت هذا الطلب وصممت على أن تتحدى الرومان ، وبذلك أعطتهم حجة أخرى لشن الحرب عليها وهي حجة عدم احترامها للوعد الذي قطعته على نفسها بالتسليم دون قيد أو شرط ، بعد أن أعطتهم أولا حجة عدم احترامها معاهدة الصلح .

وحين كان القنصلان يتمهلان في الاستعداد عملت قرطجنة بنشاط محموم على دعم أسوارها واستحضار الأسلحة وتكوين جيش جديد اعتمدت في تكوينه على الليبيين المجاورين لها دون أن تلقى أية مساعدة من المدن الفينيقية المجاورة لأنها سارعت إلى مصالحة الرومان . ومن ناحية أخرى فان ماسينيسا ، بعد أن أفرط في تدابيره ضد قرطجنة ورأى الرومان عندئذ ينقضون على الفريسة التي طالما اشتهاها ، امتنع عن تقديم أية مساعدة للرومان .

وبفضل الجهد الكبير الذي بذلته قرطجنة في آخر لحظة ، خيبت آمال الرومان فلم تكن الحرب البونية الثالثة مجرد نزهة عسكرية بل كانت سلسلة من الحملات العنيفة استغرقت أربعة أعوام . ولم يفلح الرومان في خلال العامين

الأولين (١٤٩ و ١٤٨ ق . م .) في أكثر من أن يطوقوا قرطجنة دون أن يستطيعوا اقتحام استحكاماتها المنيعة أو حصارها حصارا فعالا . ولم يكن للحصار أي أثر محسوس قبل عام ١٤٧ ق . م . عندما كان السناتو وجمعية القبائل قد أعربا عن برمهما بسير الحرب بإسناد أحد منصبي القنصلية لعام ١٤٧ ق . م . وكذلك القيادة العامة في افريقيا إلى ضابط شاب كان قد أثبت كفايته في حملتي ١٤٩ و ١٤٨ حين أثبت الآخرون فشلهم . وإنه لمما يستوقف النظر أن هذا الضابط الشاب كان قد عاد إلى روما لترشيح نفسه لوظيفة الأيديلية ، أي أنه لم يكن مؤهلا لتولي القنصلية ، ولكنه بمقتضى قانون خاص منحت القنصلية والقيادة العامة إلى الضابط الشاب بوبليوس قورنليوس سقيبيو أيميليانوس ، وكان ابنا شرعيا لأيميليوس باولوس الذي انتصر في الحرب المقدونية الثالثة ، وحفيدا بالتبني لسقيبيو أفريقانوس . وبفضل ما أظهره أيميليانوس من حزم ونشاط دافق أكثر مما أثبته من نبوغ في فن القيادة العسكرية ، اكتسب بأعماله في حملتي عامي ١٤٧ و ١٤٦ ق . م . شهرة لا تداني الا شهرة جده بالتبني . ذلك أنه لم يدخر جهدا في إعادة تنظيم القوات الرومانية ورفع معنوياتها بحيث استطاع أن يهزم العدو في الميدان وأن يضيق الخناق على المدينة المحاصرة إلى أن تمكن من اقتحامها في ربيع عام ١٤٦ ق . م . ثم الاستيلاء عليها بعد قتال مرير في الشوارع والمنازل برغم ما كان قد نال المواطنين من إعياء شديد بسبب شراسة القتال والجوع وتناقص قواتهم باطراد . وبعد سقوط قرطجنة ، بيع في سوق النخاسة مواطنوها الذين بقوا على قيد الحياة وكانوا حوالي ٥٠,٠٠٠ ، وسويت مباني المدينة بالأرض ، وحوّل إقليمها إلى ولاية جديدة سميت « ولاية افريقيا » (Provincia Africa) ، وجعلت أوتيقا مقر حاكم هذه الولاية . وضمانا لعدم اعتداء نوميديا على هذه الولاية أنشىء خندق على طول امتداد حدودها .

وفي أثناء هذه الحرب ، توفي ماسينيسا في عام ١٤٩ ق . م . وبعد فترة قسمت في خلالها نوميديا بين أبنائه الثلاثة ، أعاد توحيدها ابنه الأكبر ميقيبسا (Micipsa) وهو الذي تخلى عن أطماع أبيه التوسعية ، ولكنه تابع سياسته

في النهوض بمرافق البلاد الاقتصادية وتشجيع أساليب الحياة المستقرة ونشر الحضارة الفينيقية . وفي عهد ميقيبسا تمتعت مدن طرابلس الثلاث بقدر كبير من الحرية . حقا أنها استمرت تدفع الجزية نفسها التي كانت تدفعها من قبل لقرطجنة ثم لأبيه ، ولكنه سمح لها بأن تخرج من العزلة التي كانت قرطجنة تفرضها عليها ، وبذلك أتيح لها انشاء علاقات تجارية نشيطة مع ايطاليا وباقي عالم البحر المتوسط ، فأخذت هذه المدن تزدهر وتنتعش . وخير دليل على ذلك هو ما كشفت عنه أعمال الحفر والتنقيب من دلائل على أن هذه المدن لم تبدأ في الاتساع اتساعا ملحوظا الا بعد تحررها من ربقة قرطجنة .

ثالثا — الحرب المقدونية الرابعة والحرب الآخية

وعند منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ارتدت على روما نتائج تصرفاتها في أعقاب انتصارها في الحرب المقدونية الثالثة . ذلك أنها من ناحية بسبب القسوة التي عاملت بها الجماعات الاغريقية المناهضة لها ، جعلت الكثيرين من الاغريق يتوقون إلى التخلص من سيطرة الرومان عليهم . ومن ناحية أخرى بسبب تقسيمها مقدونيا إلى أربع جمهوريات لتحرم المقدونيين قدرة الاعتداء على جيرانهم ، حرمتهم كذلك قدرة الدفاع عن أنفسهم ضد مغامر يدعى أندريسقوس (Andriscus) . فقد أحس هذا المغامر بمشاعر الاغريق وأراد استغلالها لحسابه الخاص ، ولذلك جمع قوات في تراقيا وزعم أنه ابن برسيوس وصاحب الحق في عرش أبيه واقتحم طريقه إلى مقدونيا في عام ١٤٩ ق . م . وأعاد توحيدها ثانية ، مما أدى إلى نشوب الحرب المقدونية الرابعة . وعندما أرسلت روما ضده جيشا صغيرا أعدته على عجل ، هزم أندريسقوس هذا الجيش هزيمة فادحة واجتاح تساليا . بيد أنه في العام التالي (١٤٨ ق . م .) أرسلت روما ضده جيشا بقيادة البرايتور متلّوس (Metellus) استطاع أن يهزم أندريسقوس هزيمة ساحقة . وفي أعقاب هذا النصر حوّل الرومان مقدونيا إلى ولاية رومانية . وتأمينا لهذه الولاية ، عقد الرومان محالفات مع عدد من حكام تراقيا ، وأنشأوا طريقا عاما ،

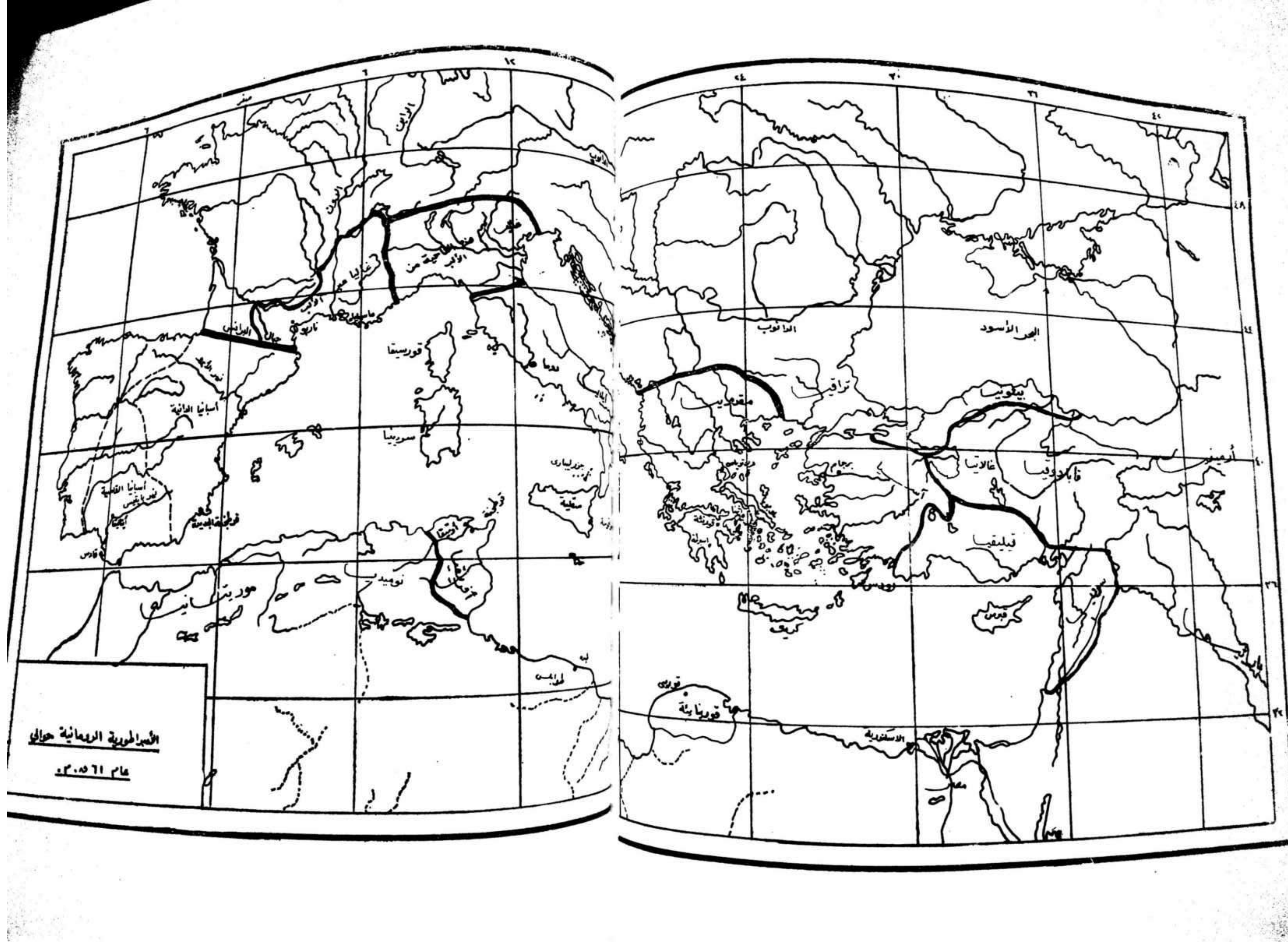
هو طريق أجناتيا (Via Egnatia) ، من أبولونيا على الشاطىء الشرقي للبحر الأدرياتي حتى سالونيك ، ثم مدوه بعد ذلك على مراحل حتى أصبح يصل إلى بيزنطة .

وقد بلغت مشاعر الاغريق المعادية للرومان ذروتها في العصبة الآخية . ولم يكن من شأن الإفراج عمن بقوا على قيد الحياة من الرهائن والسماح لهم بالعودة إلى وطنهم في عام ١٥١ ق . م . أنه خفف من شعور الآخيين بالمرارة ، وكانوا تحت رحمة الحزب المشايع لروما بزعامة قاليقراتيس البغيض اليهم بغضا شديدا إلى حد أن الصبية كانوا يدعونه « الخائن » . وفي هذه الأثناء حاول السناتو عبثا استرضاء الآخيين بحسن اختيار مبعوثيه وبالسماح لعصبتهم أو لمدنها بالتحكيم في المنازعات التي نشبت بين اسبرطة ومجالوبوليس (Megalopolis) في عام ١٦٤ ق . م . ، وبين أثينا وأوربوس (Oropus) في عام ١٥٦ ق . م .

وأخيرا بعدما توفي قاليقراتيس في عام ١٥٠ ق . م . ، وبذلك زال أكبر قيد كان يكبل أعداء الرومان ، إنفجر مرجل غضب الآخيين ورأوا في انشغال روما بحروبها في أسبانيا وافريقيا ومقدونيا فرصة للانتقام من اسبرطة ، جزاء انفصالها عن العصبة الآخية ، بإرغامها عنوة في عام ١٤٩ ق . م . على العودة الى حظيرة العصبة . وبرغم أن روما كانت قد هزمت أندريسقوس ، فان العصبة تجاهلت ما أمرها به السناتو عـــام ١٤٨ ق . م. من ان تحرر ليس فقط اسبرطة بل أيضا قورنثة وأرجوس اللتين لم تنشدا ذلك ، وأخذت تستعد للحرب مدركة تماما أنها لن تلقى أية شفقة أو رحمة من الرومان . وفي قورنثة ، حيث كان الشعور العدائي للرومان جارفا جدا ، وقع اعتداء على المبعوثين الرومان الذين ذهبوا إلى هذه المدينة لإبلاغها قرار السناتو بفصلها عن العصبة الآخية . ولم يكن من شأن رسالة ودية بعث بها السناتو في العام التالي (١٤٧ ق . م .) إلى قورنثة الا إثارة مظاهرة ثانية معادية للرومان . وقد كانت الطبقات الفقيرة في كل المدن الاغريقية تؤازر العصبة الآخية بمشاعرها على أمل أن تتحسن حالتها الاقتصادية اذا تغيرت الأوضاع وحدثت ثورة اجتماعية .

وفي عام ١٤٦ ق . م . تحدت العصبة الآخية سلطة الرومان تحديا مباشرا باجتياح بلاد الاغريق الوسطى، حيث انضمت اليها قوات من بويوتيا ويوبويا، ولكنه عندما انحدر متلوس بجيشه من مقدونيا هزم قوات الآخيين وحلفاءهم ثم زحف صوب الجنوب إلى أن أوقف تقدمه جيش ثان للآخيين عند برزخ قورنثة . غير أنه عندما وصل جيش روماني آخر بقيادة القنصل لوقيوس موميوس (Mummius) انهزم الآخيون هزيمة فاصلة بعد استبسالهم في القتال ضد قوات تفوقهم عدة وعددا (عام ١٤٦ ق . م .) .

وعندئذ قرر السناتو أن يعاقب قورنثة على اعتدائها على السفراء الرومان ، وأن يجعل منها عظة وعبرة لبلاد الاغريق جميعا ، فأمر موميوس بنقل كنوزها إلى روما وتسوية مبانيها بالأرض وإشعال النار فيها وبيع من بقي على قيد الحياة من مواطنيها عبيدا في سوق النخاسة . ويحيط الغموض بتفاصيل التسوية التي قضى بها السناتو غير أنه يتبين مما نعرفه أنه إذا كان الرومان لم يحوّلوا عندئذ بلاد الاغريق إلى ولاية رومانية يتولون إدارتها وحكمها مباشرة ، فإنهم اتخذوا من الاجراءات ما يكفل استتباب الأمر لهم في أرجائها . ذلك أنهم وضعوا بلاد الاغريق تحت إشراف حاكم ولاية مقدونيا وخولوه الصلاحيات للفصل في المنازعات والحفاظ على النظام والأمن ومعاقبة المناهضين للرومان عقابا شديدا دون هوادة. وفضلا عن ذلك فإن الرومان حلوا عصبات الآخيين والبويوتيين والفوقايين ، وفرضوا الجزية على المدن التي أسهمت في مناصبتهم العداء ، وأسندوا الحكم إلى الطبقات الثرية في أغلب المدن ، وحظروا التعامل (Commercium) بين مختلف المدن . واذا كان السلام قد عم بلاد الأغريق على نحو لم تعرفه من قبل ، وكانت لم تنقض بضع سنين حتى أزيل الحظر على تبادل التجارة بين المدن الاغريقية ، وأعيد تكوين العصبات على أساس اجتماعي وديني فقط ، فإن استقلال الاغريق وحريتهم ودورهم في السياسة الدولية غدت جميعا من سمات عهد ولى وانقضى إلى غير رجعة .



الامبراطورية الرومانية حوالي
عام ٦١ ق.م.
الراين
الرون
الدانوب
البحر الأسود
قورسيقا
سردينيا
صقلية
اسبانيا الدانية
اسبانيا القاصية
قادس
قرطاجنة الجديدة
موريتانيا
نوميديا
روما
مقدونيا
تراقيا
بيثونيا
غالاتيا
قابادوقيا
قيليقيا
قبرص
كريت
قورينائية
الاسكندرية

مغضوبا عليه من الرومان .

رابعا – ضم مملكة برجام

وعندما توفي يومنيس الثاني في عام ١٥٩ ق . م . بادر الرومان إلى إعلان تأييدهم وآل عرش برجام إلى صديقهم أتالوس الثاني ، له لاستخدام نفوذهم السياسي عن طريقه في الحفاظ على الأوضاع القائمة في آسيا الصغرى دون الاضطرار إلى التدخل المسلح . وقد نجحت هذه السياسة بفضل تعاون أتالوس مع الرومان وتفانيه في خدمة أهدافهم . بيد أن استمرار هذه السياسة الناجحة كان يتوقف أساسا على بقاء أتالوس على قيد الحياة . ولما لم يكن لهذا الملك وريث شرعي مباشر ، وكان يوقن تماما أن الخلاف على وراثة العرش سيؤدي حتما إلى التدخل الروماني واستيلاء الرومان على المملكة ، فانه على الأقل لكي يجنب مملكته متاعب الخلاف والإخضاع وينقذ ما يمكن إنقاذه أوصى قبل وفاته في عام ١٣٣ ق . م . بأن تؤول مملكته من بعده إلى الشعب الروماني على أن تُعفى من دفع الجزية مدينة برجام وغيرها من المدن الاغريقية في مملكته .

وقد قبل الرومان هذا الإرث ولكنهم قبل أن يتسلموه ظهر مطالب بعرش مملكة برجام ، وكان ابنا غير شرعي ليومنيس الثاني يدعى أريستونيقوس (Aristonicus) . وقد تمكن أريستونيقوس من جمع جيش كبير كونـــه من المرتزقة ومن الأهـــالي الوطنيين الذين كانوا يفلحون أرض الملك أو يمارسون الصناعة . واذا كانت قوات المدن الأغريقية استطاعت صد أريستونيقوس عن الشاطىء ، فانه دعم مركزه في الداخل . وعندما أنفذ السناتو قوات ضده في عام ١٣١ ق . م . ، هزمها وأسر قائدها القنصل بوبليوس ليقينيوس قراسوس (Crassus) وأعدمه، الا أنه لم يلبث هو نفسه أن هُزم وأُسر في العام التالي(١٣٠ق.م). وفي عام ١٢٩ ق . م . حُوّلت مملكة برجام إلى ولاية رومانية جديدة باسم ولاية آسيا (Provincia Asia) . وبضم مملكة برجام أصبحت روما تسيطر على شواطىء أيجة الشرقية والغربية وفي مركز يسمح لها بالتغلغل إلى ما وراء ذلك. ولم يؤد استيلاء روما على مملكة برجام إلى تجنيب رعاياها الويلات على نحو ما كان أتالوس يأمل، لأن الصراع بين الأحزاب في روما جعلهم نهباً لفترة طويلة من الابتزاز وسوء الحكم.

الفصل الثاني عشر

ادارة الولايات الرومانية (١)

أولا – روابط روما بدول البحر المتوسط

إتسع نطاق نفوذ الرومان وعلاقاتهم وممتلكاتهم خارج ايطاليا اتساعا مطردا منذ حوالي منتصف القرن الثالث قبل الميلاد . ولم يواف منتصف القرن الثاني قبل الميلاد حتى كان نوع أو آخر من أنواع الروابط السياسية يربط روما بكل دولة من دول البحر المتوسط فيما عدا موريتانيا وبعض إمارات البلقان .

وقد عرفنا أن هذا الاتساع قد انبثق أصلا من رغبة الرومان في تأمين أنفسهم أولا من قرطجنة وبعد ذلك من مخاطر ازدياد قوة فيليب الخامس وأنطيوخوس

(١) المصادر : بالاضافة إلى مصادر الفصل الحادي عشر ، أنظر :

Cic., In Verrem, II, i and iii; Tacit., Hist., IV, 71, 1.

المراجع

P.C. Sands, The Client Princes of the Roman Empire; L. Matthie, Class. Quarterly, 1908, pp. 182 ff. W.T. Arnold, The Roman System of Provincial Administration, 1914; Cambridge Ancient History, Vol. IX, Ch. X; F.B. Marsh, History of the Roman World, 146 - 30 B.C., 1934, **Chs. I,** II; G.H. Stevenson, Roman Provincial Administration, 1939, Ch. III; **Carcopino,** La Loi de Hiérom et les Romains: W.S. Ferguson, J.R.S., 1921, pp. 86 ff., J.G. Anderson, J.R.S. 1927, pp. 40-41; T. Frank, J.R.S., 1927, 141 ff.; D. Magie, Roman Rule in Asia Minor, 1950; S.I. Oost, Roman Policy in Epiros and Acarnania, 1954. M. Cary, op. cit., Ch. XVII; A.E.R. Boak, pp. 147-152. H.H. Seullard, op. cit., pp. 315-321.

الثالث . وجاء في ركاب الانتصارات الباهرة التي أحرزتها روما تسارع كثير من الدول إلى خطب ودها وكسب صداقتها . ولما لم يكن اتساع نطاق السيطرة الرومانية خارج ايطاليا في الأصل وليد سياسة استعمارية مبيتة ، فإنه لم تكن لدى الرومان خطة مرسومة لطريقة حكم البلاد التي سيطروا عليها أو لتنظيم علاقاتهم مع هذه البلاد . ونتيجة لذلك فإنهم جربوا وسائل مختلفة إلى أن استقر رأيهم قبل أواخر القرن الثاني قبل الميلاد على قواعد عامة معينة .

ومن بين وسيلتي الضم والتحالف ، وهما الوسيلتان اللتان سبق للرومان اتباعهما مع الايطاليين ، كان الرومان حتى حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد يفضلون بوجه عام الوسيلة الثانية في تنظيم علاقاتهم مع البلاد المنهزمة الواقعة خارج ايطاليا ، وذلك بعقد معاهدات تحالف وصداقة (Societas et amicitia) . ومع ذلك فان وضع هذه البلاد لم يكن متماثلا ، فقد كانت بعضها تعامل معاملة الدول الصديقة وتبعا لذلك تعفى من أداء ضريبة أو جزية للرومان ، على حين أن البعض الآخر كانت تعامل معاملة الرعايا وتلزم بأداء ضريبة أو جزية للرومان وكذلك بعدم إنشاء علاقات خارجية مع أية دولة أخرى. وكان الرومان يعقدون كذلك مع الدول التي لم تناصبهم العداء معاهدات تحالف وصداقة يتعهد فيها الطرفان المتعاقدان بتقديم المساعدة العسكرية لأغراض دفاعية عند الحاجة . بيد أنه نظرا إلى الفارق في القوة بين روما والدول الأخرى ، ونظرا إلى المبدأ العام الذي ظل الرومان يلتزمونه مدة طويلة ، وهو مبدأ تجنب الأشتباكات الخارجية قدر الاستطاعة ، لم يكن هناك مفر من الناحية العملية من الا يفيد من هذه المحالفات الا الجانب الأقوى ، أي روما ، فقد دأب الرومان على الإفادة من قوات حلفائهم الأصدقاء (Socii et amici) حين كانوا يرون مصلحتهم في ذلك ، وعلى تجنب استخدام القوات الرومانية خارج ايطاليا لمساعدة هؤلاء الحلفاء الأصدقاء ، ولكن الرومان كذلك كثيرا ما رفضوا المساعدة التي كان هؤلاء الحلفاء يبادرون إلى عرضها تلقائيا . ولعل أهم ميزة لنظام التحالف والصداقة من وجهة نظر الرومان أنه كان يضمن حيدة حلفائهم دون أن يلزمهم عمليا

بمساعدة هؤلاء الحلفاء ، ومن وجهة نظر الحلفاء أن عقد محالفة مع روما كان مكسبا سياسيا كبيرا وإن لم يستتبع حتما الحصول على تأييد قوة روما العسكرية .

ثانيا — إنشاء الولايات

وقد احتفظ الرومان بنظام معاهدات التحالف والصداقة لمدة طويلة في شرق البحر المتوسط بوجه عام حتى بعد أن اتبعوا في بعض أرجاء هذه المنطقة ما كانوا قد اتبعوه قبل ذلك في غرب البحر المتوسط من ضم البلاد التي قهروها .

وقد مر بنا أن صقلية كانت أولى الممتلكات التي أحرزها الرومان خارج ايطاليا باستيلائهم عليها في عام ٢٤١ ق . م . ، وأنه قد تلا ذلك استيلاؤهم على قورسيقا وسردينيا في عام ٢٣٨ ق . م . وقد جرب الرومان أول الأمر إدارة هذه الممتلكات دون إنشاء نظام خاص بها حتى عام ٢٢٧ ق . م . عندما قرروا تحويل هذه الممتلكات إلى وحدتين إداريتين منفصلتين تتألف إحداهما من صقلية والأخرى من قورسيقا وسردينيا . وكانت كل وحدة إدارية من هذا النوع تسمى ولاية (Provincia) ، لأن المعنى الأصلي للكلمة اللاتينية الدالة على ذلك هو نطاق العمل المكلف به حاكم بعينه . ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا الاسم — أي ولاية — اصطلاحا يطلق على كل منطقة تقع خارج ايطاليا وتضمها روما اليها وتحولها إلى وحدة إدارية تقيم عليها حاكما رومانيا ، مثل ما حدث بعد ذلك في عام ١٩٧ ق . م . عندما حول الرومان الأقاليم التي استولوا عليها في اسبانيا إلى ولايتي اسبانيا الدانية واسبانيا القاصية ، وما حدث في عام ١٤٦ ق . م . من تحويل قرطجنة واقليمها إلى ولاية افريقيا وكذلك من تحويل مقدونيا إلى ولاية مقدونيا ، وما حدث في عام ١٢٩ ق . م . من تحويل مملكة برجام إلى ولاية آسيا .

وقد كان الباعث الرئيسي على إنشاء الولايات الأربع الأولى باعثا عسكريا

هو رغبة الرومان في ضمان عدم وقوعها ثانية في قبضة قرطجنة . وكذلك كان
الباعث على إنشاء ولاية مقدونيا باعثا عسكريا هو وضع حد لمتاعبهم هناك
وتأمينهم من ناحية الشرق . وأما تحويل قرطجنة وإقليمها إلى ولاية فلا جدال
في أن الباعث الرئيسي عليه كان الانتقام والاستعمار . ولا جدال كذلك في
أنه كان هناك باعث آخر على انشاء هذه الولايات ، وبخاصة صقلية والولايتين
الاسبانيتين وهو الرغبة في الإفادة من مواردها . بيد أن هذا الباعث ، وهو الذي
كان في أول الأمر يأتي في المرتبة الثانية ، اكتسب أهمية متزايدة على مر الزمن
منذ ضم الرومان مملكة برجام ، وهي التي كان هدفهم من وراء تحويلها إلى
ولاية هدفا استغلاليا بحتا .

ثالثا ــ قانون الولاية

وكان السناتو هو الذي يضع الخطوط العريضة لنظم الحكم في الولايات ،
ويستصدر بها قانونا يسمى قانون الولاية (Lex provinciae) . وكان السناتو
يستنير في ذلك بتقرير اللجنة التي كان يوفدها في كل حالة لوضع التسوية
اللازمة بالاشتراك مع القائد الذي أخضع المنطقة التي تقرر تحويلها إلى ولاية .
وكانت هذه اللجنة تتألف عادة من عشرة من أبرز أعضاء السناتو ويرأسها
القائد المنتصر .

وكان قانون الولاية يحدد حقوق وواجبات مختلف الأجزاء التي تتألف منها
الولاية ، لأن روما لم تنقض فجأة على الأقاليم التي حولتها إلى ولايات ، بل
سبقت ذلك مرحلة طويلة نشأت في خلالها علاقات متباينة بين روما والأجزاء
المختلفة المكونة منها هذه الأقاليم ، ومرت هذه العلاقات بأطوار مختلفة . ولما
كانت كل الأقاليم التي حولت إلى ولايات قد وقعت في قبضة الرومان عن طريق
الفتح ، فإنه بعد الفتح كان أهلوها في وضع المقهورين الذين سلموا دون قيد أو
شرط (dediticii) ، وتبعا لذلك لم تكن لهم أية حقوق الا ما شاء قاهروهم

منحهم إياها ، وكان يمكن إلغاء هذه المنحة في أي وقت . وحيثما وُجدت في ولاية ما مدن كانت تربطها بروما محالفات ولم تناصب هذه المدن روما العداء ، كانت هذه المدن تحتفظ بوضعها المحدد في المعاهدات ، ولذلك فان هذه المدن كانت تتمتع بحكم نفسها ولا تدفع جزية أو تدخل في نطاق الاختصاص الإداري أو القضائي لحاكم الولاية . ذلك أن هذه المدن كانت لا تعتبر جزءا من الولاية وإن كانت تقع داخل حدودها ، ومثل ذلك مسانا في صقلية ، وإنما كانت تعتبر على الأقل من حيث الشكل دولا حرة متآلفة مع روما (civitates liberae et foederatae) . وعادة كان عدد مثل هذه المدن قليلا .

وكانت تلي مثل هذه المدن في المرتبة تلك المدن التي كانت تربطها بروما معاهدات تحالف ثم خرقت هذه المعاهدات بمعاداتها روما ، ومثل ذلك سراقوسة . وكان السناتو يسمح لمثل هذه المدن بحكم نفسها ويعفيها من الضرائب ومن وضع حاميات فيها ، ولكن هذا الإعفاء كان رهنا بسلوك هذه المدن ، وتبعا لذلك كان يمكن إلغاء هذا الإعفاء في أي وقت . وكان عدد مثل هذه المدن أيضا قليلا ، وكانت تسمى الدول الحرة المعفاة (civitates liberae immunes) .

وأما الغالبية العظمى من بلاد الولاية ، فانه كانت توضع فيها حاميات رومانية ويفرض عليها أداء الجزية ، ولذلك فانها كانت تسمى الدول الخاضعة للجزية (civitates stipendiariae) . وعادة كان يسمح لمختلف مدن الولاية بالاحتفاظ بنظم الحكم التي كانت قائمة فيها طالما رأى الحاكم الروماني أن هذه النظم كفيلة باستتباب الأمن والنظام وجمع الضرائب . وكانت مدن الفئتين الثانية والثالثة تدخل في نطاق الاختصاص القضائي للحاكم الروماني .

رابعا ــ حكام الولايات

وفي أول الأمر لم توضع قواعد لتعيين الحكام الذين يتولون أمر ممتلكات روما الخارجية ، ولعله كان يترك عندئذ للقنصلين اختيار من ينيبانهم عنهما في حكم صقلية وقورسيقا وسردينيا . ولكنه منذ تقرر تحويل هذه الجزر الثلاث إلى

ولايتين في عام ٢٢٧ ق . م . تقرر كذلك إسناد حكم هاتين الولايتين إلى برايتورين تنتخبهما جمعية المئينات سنويا مثل البريتورين الآخرين اللذين كانا يبقيان في روما لتصريف شئون العدالة . وفي عام ١٩٧ ق . م . تقرر انتخاب برايتورين آخرين سنويا ليتوليا حكم ولايتي اسبانيا الدانية واسبانيا القاصية . بيد أنه إذا اتضح أن الحالة في إحدى الولايات كانت تنذر بوقوع اضطراب هناك يقتضي نشاطا عسكريا على نطاق واسع ، فإنه كان يعمل ترتيب ليتولى أمرها أحد القنصلين بدلا من اسنادها إلى برايتور .

وبعد أن أصبح عدد البرايتورس ستة في مستهل القرن الثاني قبل الميلاد . عدل الرومان حتى صدر القرن الأول قبل الميلاد عن فكرة زيادة عدد البرايتورس تبعا لزيادة عدد الولايات ولجأوا إلى وسيلة إطالة مدة ممارسة الحكام سلطتهم التنفيذية العليا (prorogatio) ، وبذلك تحولت هذه الوسيلة إلى نظام دائم بعد أن كانت أصلا إجراء مؤقتا لمواجهة ظروف طارئة . ذلك أنه منذ عام ١٤٦ ق . م . — عندما أنشئت ولايتا افريقيا ومقدونيا — أصبحت القاعدة هي إطالة مدة ممارسة القناصل والبرايتورس سلطتهم التنفيذية العليا — بعد انقضاء عام حكمهم — ليتولوا حكم الولايات بوصف كون الواحد منهم قائما بعمل القنصل أي بروقنصل أو قائما بعمل البرايتور أي بروبرايتور .

وكان السناتو هو الذي يحدد سنويا الولايات التي يتولى حكمها في العام التالي حكام من مرتبة البروقنصل وتلك التي يتولى حكمها حكام من مرتبة البروبرايتور . وفي حالات الطوارىء فقط كان السناتو هو الذي يسند ولاية بعينها إلى حاكم بعينه ، وأما في الظروف العادية فانه كان يترك لأصحاب كل مرتبة إقرار الولاية التي يذهب كل منهم لحكمها إما بالاتفاق وإما بالاقتراع . وكانت مدة تولي الحكم في الولايات عادة عاما واحدا ، بيد أنه حيثما كانت الدواعي العسكرية تقتضي استمرار وجود حاكم قدير — وهو أمر كان كثير الحدوث في اسبانيا — كانت مدة الحكم تمتد لعامين وأحيانا لثلاثة أعوام .

ومثل البرايتور في روما ، كان حاكم كل ولاية يصدر بيانا يتضمن القواعد القانونية التي سيتبعها في محكمته ، وكذلك تفاصيل إدارية إضافية مختلفة مثل القيود التي كانت تفرض من حين إلى آخر على الحكومات المحلية . وعلى مضي الزمن أصبحت أكثر بيانات (edicta) الحكام نمطية على وتيرة واحدة . فقد كان الحاكم ينقل عادة عن سلفه الجانب الأكبر من بيانه ، وفي حالات الشك كان ينقل عن بيان البرايتور في روما ، أو عن بيان حاكم ممتاز في ولاية أخرى .

وكانت اختصاصات الحاكم عسكرية وادارية وقضائية : فقد كان القائد الأعلى للقوات الرومانية الموجودة في ولايته ، وكان عليه أن يدافع عن حدودها ويحافظ على الأمن والسلام في أرجائها . وكان عليه أيضا أن يرقب بعين ساهرة العلاقات بين المجتمعات المختلفة في الولاية وكذلك شئون الإدارة في المجتمعات التي تدخل في نطاق اختصاصه . وجمع الجزية أو الضرائب المفروضة على الولاية . وفي الظروف العادية ، كان تصريف العدالة أثقل أعباء الحاكم : فقد كان يرأس محكمته عندما تفصل في أخطر قضايا الأهالي الوطنيين وفي كافة القضايا التي يكون أحد طرفيها من الأهالي والطرف الآخر من المواطنين الرومان ، وكذلك في القضايا التي يكون طرفاها كلاهما من المواطنين الرومان . وفي أول الأمر لم يكن لمحكمة الحاكم الروماني مقر دائم في مدينة بعينها بل كانت تنتقل من إقليم إلى آخر من أقاليم الولاية بحسب القضايا التي تنجم عن المنازعات المختلفة. ولكنه لم يلبث أن تقرر تقسيم كل ولاية إلى عدد محدد من الدوائر (conventus) لكل منها مقر معين تنعقد فيه محكمة حاكم الولاية . وفي الجهات التي كان يستقر فيها مواطنون رومان جرت العـادة بأن يختار الحاكم أبرزهم ليؤلف منهم هيئة محكمته وليسند اليهم مهمة بحث موضوع القضايا المدنية قبل عرضها للفصل فيها .

ولم يكن للحاكم مساعد أساسي سوى كوايستور واحد كان يقوم بمهمة

استلام الدخل من جامعي الضرائب وصرف النفقات التي يتطلبها قيام الحاكم بواجباته . وأزاء ذلك زيد عدد الكوايستورس تبعا لزيادة عدد الولايات . بيد أنه في العادة كان الحاكم يصحب معه وكيلا واحدا (legatus) أو ثلاثة وكلاء (legati) تبعا لما اذا كان برتبة بروبرايتور أو بروقنصل . وكان السناتو هو الذي يعين هؤلاء الوكلاء من بين أعضائه بناء على ترشيح الحاكم نفسه لمساعدته بالمشورة وكذلك للإنابة عنه حيثما وحينما كان الأمر يقتضي ذلك . وكان الحاكم يصحب معه كذلك عددا من الرفاق (comites) كانوا عادة شبانا من أولاد أصدقائه . وكان الهدف من وراء صحبة هؤلاء الرفاق الشبان هو إعطاؤهم فرصة للتدريب على حكم الولايات وكذلك الإفادة من خدماتهم في الاضطلاع ببعض المهام التي يكلفهم بها الحاكم . وفضلا عن ذلك كله فإن الحاكم كان يصحب معه حاشية مؤلفة من الكتبة والخدم .

خامسا – الضرائب والالتزامات الأخرى

وقد مر بنا أن الرومان كانوا لا يفرضون الجزية أو الضرائب سواء على « الدول الحرة المتآلفة » أم على « الدول الحرة المعفاة » . وأما جميع المجتمعات التي لم تحصل على مثل هذا الإعفاء ، فإنها كانت ملزمة بأداء الجزية أو الضرائب . ويبدو أن القصد في أول الأمر من فرض هذا الالتزام كان تغطية نفقات الاحتلال والدفاع ، لأن هذا الالتزام كان يسمى في البداية « ستيبنديوم » (Stipendium) وهو اصطلاح معناه « أجر الجندي » . وأما تسمية هذا الالتزام «تريبوتوم» (tributum) – وهو الاصطلاح الذي كان يطلق على الضريبة العقارية التي يؤديها المواطنون الرومان – فإنها لم تصبح شائعة الا في وقت متأخر . ومرد هذا التغيير في التسمية إلى أن الرومان أصبحوا يعتبرون أنه بإنشاء ولاية من الولايات تحولت قانونا(de iure) ملكية أرضها كلها إلى الشعب الروماني ، وتبعا لذلك أصبح ملاكها السابقون قانونا كذلك في وضع المستأجرين ، ومن ثم فأنه أصبح

يتعين عليهم أن يدفعوا للدولة الرومانية إيجاراً عن الأرض التي يستأجرونها [1] .

ومهما يكن من أمر ذلك فإن الرومان كانوا عادة يحتفظون بالنظام الضريبي السائد في كل إقليم قبل تحويله إلى ولاية ، ويحتفظون الضرائب عما كانت عليه قبل الحكم الروماني . وكانت الضريبة الرئيسية هي ضريبة الأرض . وفي ولايات اسبانيا وافريقيا ومقدونيا ، كانت هذه الضريبة تدفع نقدا وكانت عبارة عن مبلغ محدد تدفعه كل ولاية سنويا . وأما في ولايات صقلية وسردينيا وآسيا ، فإن القاعدة الأساسية هي أن هذه الضريبة كانت تدفع عينا ، وفقا لما كانت عليه الأوضاع أصلا ،وكانت عبارة عن عشر محصول الأرض . بيد أنه اذا كان جباة الضرائب في ولايتي صقلية وسردينيا يسددون ما يجبونه حبوبا ، فإنهم في ولاية آسيا كان يسددون مالاً بدلا مما يجبونه عينا .

وكان أهالي الولايات يدفعون كذلك مكوسا جمركية عن كل السلع الواردة إلى الولايات والخارجة منها . هذا إلى أن أرباب المهن والحرف كانوا يدفعون ضريبة كسب العمل . ولما كان الرومان منذ البداية يعتبرون أراضي التاج والمناجم والمحاجر والمراعي العامة والغابات في البلاد المقهورة جميعا ملكا للشعب الروماني أي جزءا من الأرض العامة الرومانية (ager publicus) ، فإن حق استغلال هذه الممتلكات كان يؤجر إما للأفراد وإما للشركات .

وكانت الوسائل المتبعة في جباية الضرائب تختلف من ولاية إلى ولاية وكذلك تبعا لنوع الضريبة . وعادة حيث كانت الضريبة المباشرة تتخذ شكل مبلغ محدد ، كان هذا المبلغ الإجمالي يقسم إلى حصص على الجماعات المختلفة المفروض عليها أداء هذه الضريبة . وكانت كل جماعة من هذه الجماعات تتولى بوسائلها الخاصة جمع الحصة المفروضة عليها وتسلمها إلى كوايستور الولاية . وأما حيث كانت الضريبة تتخذ شكل نسبة معينة من المحصول السنوي ، فإن الرومان

(١) Cic., In Verrem, II, ii, 7; cf. Ibid,iii, 12.

كانوا يتبعون الطريقة التي استخدموها في إيطاليا وكانت شائعة في عالم البحر المتوسط . وتتلخص هذه الطريقة في أنه كان يباع في المزاد العلني حق جباية الضريبة في منطقة بعينها لمن يتقدم بأكبر عطاء من جماعات محترفي جمع الضرائب (publicani) . وكانت الجماعة التي تفوز بحق جمع الضرائب تعطي للحكومة الرومانية القدر الذي تعاقدت عليه وتستبقي لنفسها ما يزيد على ذلك مما جمعته . وإذا كانت هذه الطريقة تكفل للدولة الحصول على دخلها من الضرائب ، فإنها كانت تعرض دافعي الضرائب لشطط ملتزمي جمعها ، فقد كان في صالحهم جباية أكبر قدر ممكن دون أن يعبأوا عادة بالمعدل الرسمي للضرائب . مما كان له أسوأ الأثر على نحو ما سيأتي ذكره فيما بعد .

وفي صقلية كان حق جباية الضرائب يباع غالبا لجماعات محلية من محترفي جباية الضرائب ، وأما في ولاية آسيا فإن ذلك قُصر على الجماعات أو الشركات الرومانية . وبفضل توافر رؤوس الأموال لدى شركات الجباية الرومانية ، إستطاعت مزاحمة الشركات المحلية في ولايات أخرى غير ولاية آسيا دون أن تجعل جباية الضرائب في هذه الولايات الأخرى وقفا عليها اللهم الا إذا استثنينا مجال الضرائب غير المباشرة . وكانت لكل شركة رومانية مركز رئيسي في روما ووكالات في الولايات التي تباشر نشاطها فيها . وكان يدير المركز الرئيسي في روما مدير عام ومجلس إدارة مؤلف من أعضاء الشركة المساهمين فيها ، ويدير الوكالة في الولاية مدير محلي . وكان هؤلاء جميعا ينتمون إلى طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة الفرسان (equites) ، وأما موظفو الشركة فقد يكونون رومان من طبقة أدنى من طبقة الفرسان ، أو ايطاليين ، أو من أهالي الولايات ، أو من المعتقين ، أو من العبيد .

وإلى جانب الضرائب التي كانت تجبى بانتظام وسبقت الإشارة اليها ، كان أهالي الولايات ملزمين بتوفير المأوى والمؤنة ووسائل النقل لحاشية الحاكم الروماني وجنوده . ويدل على أن هذا العبء كان غير يسير إضطرار السناتو إلى اصدار

قرارات متتابعة لتحدد مقدار الالتزامات المفروضة على الأهالي في هذا الصدد ، ولتحدد كذلك أسعارا مجزية للحبوب التي كانت توضع تحت تصرف الحاكم العام . هذا إلى أنه في صقلية وسردينيا كانت لحكومة الرومانية تحتفظ لنفسها بحق الحصول على كمية إضافية من الحبوب بحيث لا تزيد على عشرثان للمحصول ، وذلك من أجل سد حاجة سكان روما والجيوش الرومانية التي تقوم بحملات خارجية . وكان ثمن ذلك يدفع وفقا للسعر السائد في السوق .

وثمة عبء اقتصادي آخر تحملته بعض الولايات على الأقل في أوقات معينة . ذلك أنه لكي يضمن الرومان لأنفسهم الحصول على مقادير وفيرة من القمح ، كانوا يحظرون على صقلية وسردينيا تصدير القمح إلى بلاد أخرى غير ايطاليا . بيد أنه لا يوجد دليل على أن الرومان حاولوا عرقلة النشاط الاقتصادي في الولايات لصالح التجار الرومان والأيطاليين .

سادسا ــ الفارق في الالتزامات بين أهالي الولايات و « الحلفاء » الأيطاليين

وكان الفارق الجوهري بين أهالي الولايات و « الحلفاء » الايطاليين من حيث الالتزامات المفروضة عليهم ، هو أن الرومان لم يعتمدوا بوجه عام على أهالي الولايات في التجنيد مثل ما كانوا يعتمدون على الايطاليين ، وإن كان على أهالي الولايات أداء الجزية أو الضرائب بانتظام ، وهو ما كان الايطاليون معفين منه وإن كانوا يدفعون المكوس الجمركية . فقد كان الرومان لا يفرضون التجنيد عادة الا على أكثر القبائل بداوة وهي التي لم يكن في وسعها أن تؤدي أي نوع من الضرائب أو الا تؤدي إلا قدرا طفيفا . بيد أنه في حالة الطوارىء كان في وسع الحاكم أن يأمر بحشد قوات محلية ، بل ان « الدول الحرة المتآلفة » كانت ملزمة بتقديم مساعدة عسكرية أحيانا وفقا لشروط المعاهدات المبرمة معها . ونظرا لثقة الرومان في ولاء الايطاليين لهم وفي صلاحيتهم للخدمة العسكرية وفقا للأساليب الرومانية ، كان الرومان يعتمدون أساسا على الفرق الايطالية التي

يرسلونها إلى الولايات للدفاع عن حدودها وحفظ الأمن والنظام فيها ، وتبعا لذلك كانوا في مركز أفضل من مركز أهالي الولايات .

سابعا — عيوب الحكم الروماني في الولايات

واذا كان حكم الرومان في ايطاليا موضع الرضاء بوجه عام في خلال هذه الفترة ، فأن حكمهم في الولايات كان مثار سخط شديد على أوسع نطاق . ومرد ذلك أساساً إلى الفارق الجوهري الذي أشرنا اليه بين الأيطاليين وأهالي الولايات من حيث الالتزامات ، فقد ترتب على ذلك أن أهالي الولايات أصبحوا في نظر الرومان مصدراً كبيراً للكسب غير المشروع . وبما أن أهالي الولايات بوجه عام فقدوا على مر الزمن عادة حمل السلاح ، فإنه لم تكن لديهم وسيلة فعالة لحماية أنفسهم من المفاسد المترتبة على إساءة الرومان استخدام سلطتهم ونفوذهم . وفي كنف هذه الظروف غدا أهالي الولايات ضحايا الاستغلال الذي أسهم فيه الموظفون الرسميون والنزلاء الرومان سواء بسواء .

وقد ضرب المثل لهذا الاستغلال الحكام الرومان أنفسهم ، فقد كانت سلطتهم المطلقة ، وهي التي كانت تساندها ما تحت إمرتهم من قوات ولا تخضع لرقابة مباشرة من السناتو ، تغريهم على إشباع نهمهم في وقت هبط فيه المستوى الخلقي بوجه عام بين الرومان ولم يعد للضمير وازع . حقا إن بعض الحكام احتفظوا بمستوى رفيع من النزاهة وعفة اليد ، ولكنهم كانوا قلة بالقياس إلى الكثرة التي أساءت استغلال سلطتها للفوز بثروة غير مشروعة . وعلى حين أن قصر مدة الحكم كان يحول دون استطاعة حاكم نزيه التعرف على ظروف ولايته وفهمها ، كان ذلك حافزا قويا للحكام المنحرفين على الشطط في جمع الثروة .

وقد كان الحكام لا يحصلون على مرتبات وإنما على مكافآت سخية لتغطية نفقاتهم هم وحاشياتهم . وفضلا عن ذلك فإنه كان من حقهم في حالة القيام

بحرب ناجحة الاحتفاظ بجانب كبير من الأسلاب . وإذا كان نبلاء الرومان يعتبرون الخدمة العامة في روما شرفا لا ينتظرون الحصول على مكافآت مالية لقاء الاضطلاع به ، فانهم أصبحوا يعتبرون - لي حكم إحدى الولايات فرصة ذهبية لجمع الثروة . ذلك أنه كلما عاد حكام الولايات وفي وفاض أكثرهم ثروات طائلة ، وكلما ازدادت تكاليف الحملات الانتخابية والأعباء المالية المترتبة على تولي الوظائف العامة حفاظا على المظهر واستبقاء لتأييد الناخبين ، أصبح الرومان ينظرون إلى تولي الحكم في الولايات مصدرا لا غنى عنه لتعويض ما سبق إنفاقه والاستعداد لما سوف ينفق ، وتبعا لذلك أيضا ارتفعت حمى التنافس على تولي الوظائف العامة .

ولم يكن هناك حد للأساليب التي كان الموظفون الرسميون الرومان يتفننون فيها للحصول على الأموال دون وجه حق . وكان من أكثر هذه الأساليب شيوعا إبتزاز الأموال لقاء مجرد الوصول إلى الحاكم العام ، ولقاء الإعفاء من الأعباء الإضافية الثقيلة ، وهي أعباء توفير المأوى والمؤنة والوقود ووسائل النقل للجنود . وكثيرا ما كانت الأحكام التي يصدرها الحكام أو من ينيبونهم عنهم للفصل في القضايا المعروضة تتوقف على مقدار الرشوة التي تدفع لهم . وكذلك كانت تجمع قسرا « هدايا » الغرض منها في الظاهر الإعراب عن التقدير والإجلال للحاكم (!) أو تزويد الحاكم بالوسائل التي تمكنه من إقامة حفل ترفيهي للشعب الروماني عند عودته إلى روما .

وأسوأ من ذلك كله كانت المظالم التي يرتكبها جباة الضرائب الرومان ، فقد كان من صالحهم أن يجمعوا أكثر مما كان يحق لهم ، لأن كل ما زاد على ما تعاقدوا عليه مع الحكومة الرومانية كان من نصيبهم . ولذلك فإنهم كانوا ينتحلون شتى المعاذير ، ولا يترددون عن التهديد باستخدام العنف لاعتصار قدر أكبر من الضريبة المقررة . وقد كان من واجب الحاكم أن يكبح جماح جشعهم ، ولكنه قلما كان يؤدي واجبه في هذا الصدد لعدم تعاطفه مع ضحايا الجباة ، وكذلك

ليفيد ويستفيد إن لم يكن بطريق مباشر فعلى الأقل بطريق غير مباشر نتيجة لكسب رضاء الرأسماليين الرومان أصحاب النفوذ بترك الحبل على الغارب لجباة الضرائب .

وبالاتفاق مع التجار الرومان (mercatores) ، كان الجباة يلجأون إلى وسيلة وضيعة أخرى للكسب ، وهي أنهم كانوا يشترون الحبوب بأسعار منخفضة عقب المحصول مباشرة ليختزنوها ويبيعوها بأسعار مرتفعة حين يقل المعروض في الأسواق .

وقد وجد المصرفيون (negotiatores) الرومان مرتعا خصبا في الولايات ، حيث انتشروا في كل أرجائها وكذلك في الأقاليم المجاورة لها حيث كانوا يجدون في امتداد النفوذ الروماني اليها سندا وحماية لنشاطهم . وكان هؤلاء المصرفيون يقدمون قروضا بفوائد باهظة قد تصل إلى ٤٪ عن الشهر الواحد . وقد كان هؤلاء المصرفيون كذلك ينتمون إلى طبقة الفرسان ، شأنهم شأن جباة الضرائب ، بيد أنهم في حالات كثيرة كانوا عملاء لأعضاء السناتو ، وهم الذين كان محظورا عليهم قانونا أن يمارسوا بأنفسهم مثل هذا النشاط ، ولذلك كانوا يستخفون وراء غيرهم . وازاء نفوذ هؤلاء المصرفيين وخشية الحكام مما يترتب من نتائج تؤثر في مستقبلهم السياسي اذا هم وقفوا في وجه هذه الجحافل أو ترددوا في مساعدتها لاقتضاء ديونها ، كان الحكام لا يدخرون وسعا في الاستجابة إلى مطالب هؤلاء الدائنين الجشعين بوضع قوات الولاية تحت إمرتهم ، أو على الأقل بنقل هذه القوات لتنزل ضيوفا ثقلاء على المجتمع المتلكىء في السداد إلى أن يضطر المدينون إلى السداد سدادا كاملا وإن انطوى ذلك على خرابهم خرابا شاملا .

واذا كانت العادة قد جرت بترك الإشراف على حكم الولايات للسناتو ، فإن هذا المجلس لم يمارس الا إشرافا عاما على سلوك الحكام . ذلك أنه عند عودة كل حاكم إلى روما كان السناتو يقوم بفحص حساباته والترتيبات التي وضعها وحقه في إقامة مهرجان نصر اذا كان له نشاط عسكري ناجح . ومن

البديهي أنه لم يكن من شأن ذلك وضع حد للمفاسد والمظالم التي كان أهل الولايات يتعرضون لها .

ومن حين إلى آخر كانت تفد على السناتو بعثات من أهالي الولايات للشكوى من تصرفات الحكام أو للإطراء عليها بإيحاء من الحكام وتحت ضغطهم . وكذلك من حين إلى آخر كان بعض قادة الرأي من الرومان ينصبون أنفسهم للدفاع عن أهالي الولايات إما بوازع من ضمائرهم وإما بدافع من انتهاز الفرصة للنيل من خصم سياسي .

ومع أن السناتو كان يستشعر بعض القلق للمظالم التي كانت تقع على أهالي الولايات ، ويقدر العواقب الوخيمة لتعود الحكام الرومان في الخارج على اعتبار أنفسهم فوق القانون ، فإنه كان لا يعالج هذه المشاكل الخطيرة أول الأمر إلا بإصدار لوائح جديدة لحماية أهالي الولايات . وفي عام ١٧١ ق . م . عندما شكا أهالي ولايتي اسبانيا إلى السناتو من مظالم حاكميهما الجشعين، أمر السناتو بتشكيل محكمة لتقرير الأضرار . واذا كان الأهالي المتضررون لم يحصلوا على تعويض مادي لأن المتهمين تهربا من رد ما ابتزاه من أموال بمبارحة روما ، فإن ذلك كان مضاهيا للحكم بالنفي على الحاكمين المجرحين . وفي عام ١٧٠ ق . م . ضاق السناتو ذرعا بالتصرفات السيئة التي صدرت عن برايتور سابق يدعى لوقرتيوس جالوس (Lucretius Gallus) ازاء حلفاء روما في بلاد الاغريق ، فأوعز إلى اثنين من ترابنة العامة بمساءلة جالوس أمام جمعية القبائل وفرضت الجمعية عليه غرامة كبيرة . بيد أنه في عام ١٤٩ ق . م . برأت هذه الجمعية نفسها متهما أشد إجراما وهو سولبيقيوس جالبا (Sulpicius Galba) : وكان قد أوسع الاسبان نهبا وتقتيلا ، ولكنه أفلت من العقوبة عندما نجح في استدرار شفقة أعضاء الجمعية بظهوره هو وأفراد أسرته أمامهم وهم يذرفون الدمع ويرتدون ثيابا مهلهلة .

غير أن هذه المهزلة أدت إلى نقل الفصل في قضايا سوء الادارة في الولايات

من جمعية القبائل إلى محكمة خاصة . ذلك أنه في العام نفسه الذي برىء فيه جالبا استصدر تريبون العامة لوقيوس قالبورنيوس بيسو (Lucius Calpurnius Piso) قانونا تقرر بمقتضاه إسناد الفصل في قضايا الابتزاز إلى محكمة دائمة أنشئت لهذا الغرض وكانت تسمى «محكمة استرداد الأموال المبتزة» (quaestio de rebus repetundis) ، وكان محلفوها الخمسون جميعا من أعضاء السناتو ، ولا يجوز استئناف أحكامها ، ولا تعطيل هذه الأحكام باستخدام ترابنة العامة حق الأعتراض عليها .

ومع ذلك فإنه كان من العبث انتظار خير كثير من وراء إنشاء هذه المحكمة . ذلك أن أغلب ضحايا حكام الولايات كانوا يعزفون عن المطالبة بترضية عما وقع عليهم من حيف ، بسبب النفقات التي كانوا يتكبدونها لحضور محاكمة طويلة في روما ، وصعوبة الحصول على أدلة دامغة ، وقصر العقوبة على دفع تعويض كان لا يمكن أن يقابل الأضرار المادية وحدها فما بالك بالنفقات الإضافية والأضرار المعنوية ، وأهم من ذلك كله الخوف من انتقام الحكام المقبلين . وفضلا عن ذلك كله فإنه لم يكن هناك أمل كبير في الفوز بحكم عادل من هيئة محلفين من أعضاء السناتو يحاكمون واحدا من طبقتهم عن جريمة كان الكثيرون منهم يعتبرونها حقا مكتسبا ، بل يتطلعون إلى الفرصة لارتكاب الجريمة نفسها أو ما يماثلها .

وفي رأي بعض الباحثين أنه من العسير القول بأن الحالة العامة في الولايات كانت في عهد الرومان أسوأ منها في عهد حكامها السابقين . ويستند هؤلاء الباحثون في رأيهم على الحجج التالية : أولا — أن الشر يمتاز على الخير من حيث أنه يثير الحديث عنه بإفاضة . وثانيا — أن أكثر معلوماتنا عن سوء الادارة الرومانية في الولايات مستمدة من الكتاب الذين أفاضوا في الحديث عن أسوأ الحالات الفاضحة ، ومن القضية المشهورة التي أقامها أهالي صقلية أمام محكمة ابتزاز الأموال في صيف عام ٧٠ ق . م . ضد جايوس فرّس (Verres) وهو الذي تولى حكم ولاية صقلية ثلاثة أعوام ابتداء من عام ٧٣ ق . م .

واشتط في ابتزاز أموال أهالي ولايته ، مما حدا بهم الى إقامة قضيتهم وإسناد مهمة الدفاع عنهم واتهام فرّس إلى المحامي النابه شيشرون ، وهو الذي استخدم كل مواهبه الخطابية والقانونية في إدانة المتهم . وثالثا – أننا لا نعرف على وجه اليقين أن عدد الحكام الفاسدين كان يفوق عدد الحكام النزيهين . ورابعا – أن القواعد العامة للحكم لم تكن مرهقة ، بل أن معدل الضرائب كان معقولا وفي بعض الحالات كان أقل منه في الماضي . وخامسا – أن إحلال السلام مكان الحروب في الولايات يكفي وحده لترجيح كفة مميزات الحكم الروماني على مساوئه .

وقد تبدو هذه الحجج لأول وهلة حججا قوية معقولة ، لكننا متى أمعنا النظر فيها وجدنا أنها – على حد قول رجال القانون – اذا كانت مقبولة شكلاً فأنها مرفوضة موضوعا . ذلك أن العبرة دائما ليست بنصوص القوانين وإنما بالروح التي تطبق بها ، وتبعا لذلك فأنه لم تكن هناك قيمة لاعتدال القواعد العامة للحكم الروماني في الولايات أو لمعدل الضرائب المفروضة عليها ما دام الحكام يتمتعون بسلطة جائرة مطلقة لا رقيب عليها الا ضمائرهم في وقت لم يعد فيه للضمير وازع ، وما دامت جحافل جباة الضرائب والتجار وقارضي النقود الرومان تنقض على أهالي الولايات انقضاض الجراد وتلقى من الحكام العون والمساعدة .

ومع أن كثرة عدد الاتهامات التي وجهت إلى الحكام ، وكثرة عدد اللوائح التي أصدرها السناتو لحماية أهالي الولايات ، وإنشاء محكمة استرداد الأموال المبتزة ، توحي بأن المفاسد كانت هائلة وبأن عدد الحكام الفاسدين لم يكن قليلا ، فإننا إذ نسلم جدلا بأن القلة من الحكام هي التي كانت فاسدة وبأن الكثرة كانت تتسم بالنزاهة وعفة اليد ، يحق لنا أن نتساءل عن فائدة نزاهة الحاكم وعفة يده اذا كان خوفه على مستقبله السياسي يمنعه من التصدي لتلك الفئات الجشعة التي كانت تعتصر أهالي الولايات – هذا اذا جاز وصف مثل هؤلاء الحكام بالنزاهة والأمانة .

ولاجدال في أن الناس أميل إلى الحديث عن الشر والفضائح منهم عن الخير والفضائل ، ولكنه لا جدال كذلك في هبوط مستوى أخلاق الرومان بحيث أصبحوا بوجه عام يقدمون صوالحهم الشخصية على كل اعتبار آخر . ولا أدل على ذلك من أنه اذا كان عدد من نعرفهم من الحكام الفاسدين قليلا ، فأن من نعرفهم من الحكام النزيهين الذين كانوا لا يخشون في الحق لومة لائم مثل تيبريوس سمبرونيوس جراكوس وفابيوس وماكسيموس ومارقوس قاتو — كانوا أقل عددا من الفريق الأول .

واذا سلمنا كذلك بأن حكام الولايات من الرومان لم يكونوا أسوأ من حكامها السابقين ، فإنه يجب التسليم أيضا بأن مدة حكم أولئك الحكام السابقين لم تكن موقوتة بفترة زمنية محددة تدفعهم إلى الشطط في اعتصار رعاياهم قبل انتهاء مدة حكمهم ، وبأنه بحكم طبيعة الأشياء كان الواحد منهم يصل إن عاجلا وإن آجلا إلى درجة من التشبع ينتهي عندها جشعه أو على الأقل تخف تدريجا حدته ، على حين أن قصر مدة الحاكم الروماني كانت تحفزه على أن يجمع أكبر قدر ممكن من الثروة في خلال مدة حكمه القصيرة ، وتبعا لذلك فإن أهالي الولايات كانوا على الدوام ضحايا جشع سلسلة متعاقبة من الحكام الفاسدين . وفضلا عن ذلك فإنه في خلال العهود السابقة للحكم الروماني لم يكن أهالي الولايات فرائس لكل تلك الأعداد الكبيرة من جباة الضرائب والتجار وقارضي النقود .

وأما عن السلام الروماني (Pax Romana) المزعوم ، فإنه لم يكن دائما ولا في كل مكان . وأسوأ من ذلك كله أنه في حقيقة الأمر لم يكن الا استسلاما للقوة العاتية التي قضت على كل مظهر من مظاهر الحرية الشخصية والقومية إلى حد أن أهالي الولايات بوجه عام لم يعودوا يتمتعون الا بحق التألم . فلا عجب أنهم أصبحوا يتطلعون إلى كل بادرة للخلاص من الحكم الروماني البغيض ، والا فكيف يمكن تفسير نجاح ميثريداتس (Mithridates) مثلا في طرد الرومان من آسيا الصغرى إلى أن غُلب هو أيضا على أمره ؟

ولا أدل على فساد الحكم الروماني في الولايات من أنه لم يشق به أهالي الولايات وحدهم ، ذلك أن عواقبه الوخيمة لم تلبث أن ارتدت على روما نفسها فجنت ثمار غرسها الفاسد . ذلك أنه ترتبت على الثروات الطائلة التي اغترفها من الولايات الحكام وجامعو الضرائب والتجار وقارضو النقود نتائج اقتصادية واجتماعية خطيرة أثرت بدورها في الحياة السياسية . هذا إلى أن ما سبقت الإشارة اليه من شدة تنافس أفراد الطبقة الارستقراطية على تولي الوظائف العامة للفوز بفرص الحكم في الولايات وقطف ثمارها الوفيرة زاد في نقمة المحرومين من تولي هذه الوظائف وما يتبعها من مغانم مما أدى إلى صراع طبقي عنيف في الفترة التالية. وفضلا عن ذلك فإنه كان من شأن تمتع الحكام الرومان بسلطة مطلقة في الولايات ومد مدة حكمهم أحيانا عدة سنوات متتابعة أنه جعل على الأقل أكثرهم طموحا يتعودون على اعتبار أنفسهم فوق القانون .

وفي تقديرنا أنه ربما كانت أخطر نتيجة لسوء الحكم الروماني في الولايات هي نتيجته الخلقية . ذلك أنه كان من شأن تعود الحكام ومساعديهم على اختلاف أنواعهم ، وجامعي الضرائب وقارضي النقود على وسائل الكسب غير المشروع ، وتعود المرشحين للوظائف العامة على إجزال العطاء للفوز في الانتخابات حتى تتاح لهم فرصة تولي الحكم في الولايات ، وتعود الناخبين على بيع أصواتهم لأكثر المرشحين سخاء في العطاء ، أن ذلك كله زاد في إفساد أخلاق شعب كان قد أسكره حتى أفسده جبروت القوة الطاغية . والواقع أن الأزمة الأخلاقية كانت تكمن وراء الأزمات الطاحنة المتعاقبة التي شهدتها روما في خلال القرن الأخير من عهد النظام الجمهوري وأودت في النهاية بهذا النظام .

الفصل الثالث عشر

الأوضاع في روما وفي إيطاليا (١)
من عام ٢٦٤ حتى عام ١٣٣ ق . م .

عرفنا كيف أن نطاق الامبراطورية الرومانية اتسع في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد اتساعا سريعا مطردا ، وكيف أن هذا الاتساع كان وليد مقتضيات الظروف أكثر مما كان ثمرة سياسة مرسومة . وإذ اندفع الرومان أمام تيار الأحداث لم يدركوا تمام الإدراك مدى عمق المسئوليات المترتبة على إحراز ممتلكاتهم الجديدة ، ولازمهم بطء شديد في تقدير آثار ردود الفعل التي لم يكن هناك مفر من أن تعكسها فتوحاتهم على أحوالهم الداخلية . فقد كان طبيعيا أن يلازم القيام بهذه

---

(١) المصادر

بالأضافة إلى مصادر الفصول التاسع والعاشر والحادي عشر ، راجع

Cicero, De Republica; De Legibus; Dion. Hal. XIV-XX; Plin., XXXIII,
55; Plut., Cato Maior; Nepos, Cato; Liv., VII-X; XXIX, 25; XXXII, 27;
XXXIV; XXXVIII - XXXIX; XLIII; XLV, 25; Epit. of Books IX-XX.

المراجع :

A.H. Greenidge, Roman Public Life, 1901, Chs. VI and VIII; W.E. Heitland,
Roman Republic, Vol. II, Ch. XXXIV; G.W. Botsford, Roman Assemblies,
Chs. XIII and XV; L. Home, Roman Political Institutions (Trans.), Bk. I,
Chs, III and IV; BK II, Ch. I; Cambridge Ancient History, Vol. VIII, Chs.
XI, 8;XII;F.B.Marsh, History of the Roman World, 146-30 B.C.,1934, Chs.
I-II; M. Cary, op. cit., Ch. XVIII; A.E.R. Boak, op. cit., Ch. XI; H.H.
Scullard, op. Cit.,Ch. XV.

الفتوحات ثم تولي حمايتها ومباشرة استثمارها تغيب كثيرين من المواطنين عن حضور المجامع الدستورية الرومانية . كما كان طبيعيا أن يترتب على هذه الفتوحات إزدياد الثروة وكذلك إزدياد عدد العبيد أسرى الحروب . مثل ما كان طبيعيا أن ترتد على الرومان أنفسهم نتائج فساد حكمهم في الولايات والشطط في استغلالها . وأزاء عجز الرومان وقصورهم عن مواجهة تبعاتهم وكذلك عن التكيف تكيفا سليما مع ظروفهم الجديدة كان تاريخ القرن الأخير من عهد الجمهورية إلى حد كبير عبارة عن سلسلة من الأزمات المتتابعة . واذا كنا سنرى كيف أن الرومان أدخلوا في خلال الفترة التي نحن بصددها تعديلات قليلة على نظمهم ، فإننا سنرى كذلك كيف أنهم فشلوا فشلا ذريعا في مواجهة ظروفهم الجديدة مما كانت له آثار بعيدة المدى في نشوب أزمات القرن الأخير من عهد الجمهورية .

اولا — تعديلات في النظم السياسية والادارية والقضائية والمالية

إن الفترة الممتدة من عام ٢٦٤ حتى عام ١٣٣ ق . م . لم تشهد الا عددا قليلا من التعديلات الهامة في النظم السياسية في الدولة الرومانية . فقد قرر السناتو قبل نهاية الحرب البونية الثانية العدول عن الإلتجاء إلى إقامة دكتاتور في وقت الأزمات ، وذلك تمشيا مع سياسة السناتو التي كانت تهدف إلى الحيلولة دون وصول أي حاكم إلى منصب مطلق السلطة خوفا من أن يستغل أحد القواد الناجحين نفوذه ومكانته في الانفراد بالسلطة أمدا أطول من الشهور الستة التي كان الدستور الروماني يحددها لمدة حكم الدكتاتور . ومع ذلك فإن السناتو لم يتخذ الخطوات الكفيلة بالغاء منصب الدكتاتورية ذاته .

وبعد أن كان لا يوجد الا برايتور واحد ، تقرر في حوالي عام ٢٤٢ ق . م . أن ينتخب سنويا برايتور ثان ليشرف على الفصل في القضايا التي يكون أحد طرفيها أو كلاهما من الأجانب ، ولذلك كان يسمى برايتور الأجانب (praetor peregrinus) . وفي عام ٢٢٧ ق . م . تقرر أن يُنتخب سنويا بريتوران

آخران ليتوليا حكم ولايتي صقلية وسردينيا . وفي عام ١٩٧ ق . م . تقرر أن ينتخب سنويا بريتوران آخران ليتوليا حكم ولايتي اسبانيا الدانية والقاصية . ولم يُزد عدد البرايتورس بعد ذلك حتى [illegible] صلا في أوائل القرن الأول قبل الميلاد ، اكتفاء باطالة مدة ممارسة القناصل والبرايتورس السابقين للسلطة التنفيذية العليا من أجل تولي حكم الولايات . بيد أنه قد صحب إنشاء الولايات زيادة عدد الكوايستورس تبعا لزيادة عدد الولايات .

واذا كان الرومان قد لجأوا إلى فكرة إطالة مدة ممارسة الحكام للسلطة التنفيذية العليا من أجل أن يتولوا الحكم في الولايات ، فإنهم لم يعمدوا إلى إطالة مدة حكمهم في روما ذاتها ، بل إنهم بعد الحرب البونية الثانية أحيوا قانونا قديما كان يرجع إلى القرن الرابع ويشترط انقضاء فترة طولها عشر سنوات بين تولي منصب القنصلية مرتين . وفي عام ١٨٠ ق . م . أصدروا قانونا (Lex Villia Annalis) ينظم ترتيب تولي الوظائف العامة بحيث أصبح يتعين تولي الكوايستورية فالبرايتورية فالقنصلية . واذا كان القانون لم يدرج الأيديلية في سلك الوظائف العامة ، فان الراغبين في الانخراط في هذا السلك كانوا يحرصون على تولي هذه الوظيفة لأن شاغليها كانوا يشرفون على الحفلات العامة ، مما كان يتيح لهم فرصة ذهبية لاكتساب رضاء الجماهير اذا بسطوا أيديهم في إقامة الحفلات العامة دون الاكتفاء بالمبالغ المخصصة لهذا الغرض من أموال الدولة . وكذلك لم تدرج وظيفة تريبونية العامة في سلك الوظائف العامة ، الا أن توليها كان أيضا يتيح الفرصة لاكتساب رضاء الجماهير عن طريق استخدام السلطة الواسعة التي كانت لهذه الوظيفة في خدمة صوالح الشعب . وأما القنسورية فانه – وفقا للعادة التي أصبحت مقررة – كان لا يشغلها الا من تولى القنصلية . وقد اشترط قانون تنظيم تولي الوظائف العامة ألا تقل سن من يتولى الكوايستورية عن الثامنة والعشرين من عمره وأن تمر سنتان بين تولي أية وظيفتين عامتين . و[illegible] لذلك فأنه كان لا يستطيع أي شخص تولي القنصلية قبل بلوغه الرابعة والثلاثين من عمره . ولكنه بعد ذلك ببضع سنين – ومن المحتمل حوالي عام

١٥٠ ق . م . — تقرر بمقتضى قانون جديد الا تقل سن القنصل عن اثنين وأربعين عاما ، وألا يُعاد انتخاب شخص لتولي القنصلية . ومما يجدر بالملاحظة أنه حتى عام ١٥٣ ق . م . كان القنصلان الجديدان لا يتوليان منصبيهما الا في ١٥ مارس ولكنه إزاء ظروف الحرب في اسبانيا تقرر تقديم هذا الموعد إلى أول يناير من كل عام ليستطيع القنصل الوصول إلى ميدان القتال في وقت يسمح له بالأستعداد لبدء الحملة في الربيع .

وإزاء اتساع نطاق مهام الحكومة الرومانية في خلال القرن الثاني قبل الميلاد، لم يعد ميسورا الاستغناء عن جهاز حكومي من المحترفين . وتبعا لذلك فان مكاتب الحكام زودت بموظفين دائمين من الكتبة والمحاسبين ، وكانوا عادة من المعتقين . وبطبيعة الحال كان هذا الجهاز الحكومي يؤلف فئة مختلفة تمام الاختلاف عن فئة الحكام .

وفي عام ٢٤١ ق . م . أنشئت قبيلتان ريفيتان جديدتان بحيث أصبح منذ ذلك الوقت عدد القبائل الريفية إحدى وثلاثين وعدد القبائل الحضرية أربعا . وبعد هذا التاريخ عندما كانت تنشأ مستعمرات رومانية جديدة أو تمنح حقوق المواطنة الرومانية لمجتمعات جديدة ، كان مواطنو هذه المستعمرات والمجتمعات يدمجون في عداد قبيلة من القبائل الريفية الموجودة ، وكانت عضوية القبيلة تصبح وراثية دون نظر إلى ما قد يحدث بعد ذلك من تغير مكان الإقامة .

وقد ترتبت على زيادة عدد القبائل إلى خمس وثلاثين نتيجتان : كانت إحداهما نتيجة طبيعية وهي زيادة عدد الوحدات الانتخابية في جمعية القبائل لأن كل قبيلة كانت تعتبر وحدة انتخابية . وكانت النتيجة الأخرى تعديلا في تكوين جمعية المئينات . ويحتمل أن يكون هذا التعديل قد حدث في أثناء قنسورية جايوس فلامينيوس في عام ٢٢٠ ق . م . وإن كان بعض الباحثين لا يستبعد حدوث هذا التعديل حوالي عام ١١٩ ق . م . والشيء المؤكد حول هذا التعديل هو أن عدد المئينات في الفئة الأولى أنقص من ثمانين إلى سبعين مئينا بحيث تكون

لكل قبيلة مئينان في هذه الفئة . ولكننا لا نعرف على وجه اليقين اذا كان هذا النظام قد روعي كذلك في تكوين الفئات الأربع الدنيا بحيث أن كل فئة منها أصبحت تتألف كذلك من ٧٠ مئينا ، وهو ما يذهب اليه بعض الباحثين إستنادا على العبارات الغامضة التي وردت عند ليفيوس وديونيسيوس الهاليقرناسي . ووفقا لهذا الرأي يكون عدد مئينات هذه الجمعية قد أصبح ٣٧٣ مئينا (= ٥ فئات × ٧٠ + ١٨ مئينا للفرسان + ٥ مئينات إضافية للعمال والموسيقيين وأفقر المواطنين) . بيد أنه استنادا على ما جاء عند شيشرون يرى بعض الباحثين أن المجموع الكلي لعدد المئينات قد ظل كما كان من قبل ١٩٣ مئينا ، وأن المئينات العشرة التي أنقصت من الفئة الأولى وزعت على الفئات الأربع الدنيا على نحو ما معروف(١) . واذا كان من العسير الحسم برأي قاطع في هذه المسألة لافتقارنا إلى الأدلة ، فأننا نرى أن الرأي الأول يبدو أرجح من الثاني لأنه من المعقول أن يكون المبدأ نفسه الذي طبق على الفئة الأولى قد طبق على الفئات الأربع الدنيا ، ولا سيما أن ذلك يتفق والاتجاه العام الذي تنم عنه القرائن التي سنذكرها فيما يلي . ذلك أنه بعد إنقاص عدد مئينات الفئة الأولى إلى ٧٠ مئينا ، وسواء أزيد عدد مئينات كل فئة تالية إلى ٧٠ مئينا أيضا أم أنه اكتفي بتوزيع المئينات العشرة التي انقصت من الفئة الأولى على الفئات الأدنى منها ، لم يعد ممكنا منذ ذلك الوقت أن تتكون غالبية مطلقة من مئينات الفئة الأولى ومئينات الفرسان الثمانية عشرة . ومعنى ذلك أن أكثر المواطنين ثراء فقدوا ذلك التفوق العددي في الأصوات وهو الذي ظلوا يتمتعون به طويلا . وفضلا عن ذلك فانه في الوقت نفسه حُرمت مئينات الفرسان ميزة اختيار أحد مئيناتها ليكون له شرف البدء في الإدلاء بالأصوات (centuria praerogativa) وأُعطيت هذه الميزة للفئة الأولى ، وأُنقص المؤهل المالي للتسجيل في الفئة الخامسة من ١١٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ آس . وبما أنه وفقاً لنظام العملة الجديد الذي اتبعته روما منذ عام ١٨٧ ق . م . على الأرجح ، أصبح الآس

---

(١) Cf. H.H. Scullard, op. cit. pp. 426-427.

لا يزن الا أوقيتين فقط ، فانه نتيجة لانقاص وزن الآس وتبعا لذلك نقص قيمته أنقص تلقائيا النصاب المالي للفئات جميعا .

وقد مر بنا أنه في حوالي عام ٢٤٢ ق . م . تقرر أن ينتخب سنويا برايتور جديد ليشرف على الفصل في القضايا المدنية التي يكون أحد طرفيها أو كلاهما من الأجانب . ولما كان البرايتور شاغل المنصب القديم يدعى منذ إنشاء وظيفته برايتور أوربانوس (praetor urbanus) أي برايتور المدينة دلالة على أن مهمته الأولى كانت تصريف شئون العدالة في مدينة روما ، فإنه عندما تقرر إنشاء منصب جديد لبرايتور يختص بقضايا الاجانب أطلق على شاغل هذا المنصب الجديد برايتور برجرينوس (praetor peregrinus) أي برايتور الأجانب ، وتبعا لذلك أصبح اختصاص البرايتور الأول مقصورا على المواطنين دون غيرهم .

وبوجه عام كان برايتور الأجانب يتبع الاجراء نفسه مثل برايتور المدينة أو بعبارة أخرى برايتور المواطنين من حيث أنه كان يرأس هيئة المحلفين ويشرح لها أحكام القانون بعد سماع موضوع القضية . بيد أنه لما كانت أغلب القضايا التي تعرض على محكمة برايتور الأجانب تنطوي على جوانب لم تأخذها في الاعتبار نصوص القانون المدني الروماني (ius civile) — سواء ما جاء منها في اللوحات الأثنتي عشرة أم في قوانين تالية — فإن برايتور الأجانب كان مضطرا إلى الاعتماد على مصادر أخرى . وتبعا لذلك أصبح يزاحم القانون الروماني في محكمة برايتور الأجانب ما يمكن تسميته تجوزاً القانون الدولي (ius gentium) ، وكان عبارة عن مجموعة قوانين أستمدت من الأعراف السائدة في المجتمعات الايطالية المجاورة وكذلك من الأحكام التي أصدرها البرايتورس المتتابعون . هذا إلى أنه عند تطبيق القانون غير الروماني لم يكن برايتور الأجانب مقيدا باتباع الإجراءات الصلبة التي كان القانون الروماني يشترطها ، بل كـان حراً في استخدام فطنته ليس فقط في الطريقة التي يتبعها في نظر القضية بل أيضا في كيفية تفسير القانون لهيئة المحلفين . وعندما اتضحت مزايا ذلك، صدر قانون

(Lex Aebutia) فى حوالى عام ١٥٠ ق . م . — تقرر بمقتضاه أن يباح للبرايتور أوربانوس أتباع النهج المرن نفسه الذى كان يتبعه برايتور الأجانب . وهكذا أسهم البرايتورس فى تطوير الإجراءات القضائية المدنية ، وذلك فضلا عن إسهامهم فى تطوير القانون المدنى الرومانى بتغذيته باطراد بمبادىء قانونية جديدة .

وفى مجال القضاء الجنائى صدرت فى مستهل هذا القرن عدة تشريعات لحماية المواطنين الرومان من الأحكام الصارمة التى كانت تصدر ضدهم ، ويعزى الفضل فى استصدار هذه التشريعات إلى عدد من أعضاء عشيرة بورقيوس . وبيان ذلك أنه فى عام ١٩٩ ق . م . استصدر التريبون بوبليوس بورقيوس لايقا تشريعا تقرر بمقتضاه ألا يقتصر حق المواطنين الرومان على استئناف الأحكام الصارمة الصادرة ضدهم فى روما فحسب ، بل أن يمتد هذا الحق ليشمل كذلك استئناف الأحكام الصارمة الصادرة ضدهم فى إيطاليا وفى الولايات أيضا . وفى عام ١٩٥ ق م . استصدر القنصل مارقوس بورقيوس قاتو تشريعا يحظر جلد المواطنين الرومان . وفى عام ١٨٤ ق . م . استصدر القنصل لوقيوس بورقيوس قاتو تشريعا تقرر بمقتضاه حرمان الضباط العسكريين تنفيذ عقوبة الإعدام فى أى مواطن رومانى دون محاكمة . ولم يواف عام ١٥٠ ق . م . حتى كانت عقوبة الإعدام لا تنفذ فى المواطنين الرومان ، ذلك أنه فى القضايا التى كانت الأدلة تستوجب حكما بالإعدام ، جرت العادة على تأجيل إصدار الحكم إلى أن تتاح للمتهم فرصة الهرب من روما ، وبعد ابتعاده عن العاصمة مسافة كافية كانت المحكمة تصدر حكما بحظر عودته وإلاحرم « الماء والنار » — وهى العبارة التقليدية للنفى . وهكذا استبدلت عقوبة النفى بعقوبة الأعدام .

وفى خلال الفترة التى نحن بصددها ، إزاء عزوف الحكام الرومان بوجه عام عن اصدار أحكام قاسية على مواطنيهم ، تقلص دور الجمعيات الشعبية بوصفها محاكم استئناف ، لكن جمعية القبائل استمرت تتابع القيام بدور

محكمة عليا للقضايا السياسية ، وشهدت في النصف الأول من القرن الثاني عددا غير قليل من المحاكمات التي قام فيها ترابنة العامة باتهام بعض الشخصيات البارزة .

ويعتبر إنشاء محكمة استرداد الأموال المبتزة (quaestio de rebus repetundis) في عام ١٤٩ ق . م . خطوة هامة نحو إلغاء القضاء الشعبي . وكانت هذه المحكمة تتألف أيضا من رئيس بريتوري المرتبة ومن محلفين شأنها شأن محكمتي برايتور المدينة وبرايتور الأجانب الا أن محلفي المحكمة الجديدة كانوا جميعا من أعضاء السناتو ، وأن هذه المحكمة أخذت تدريجيا تتبع إجراءات تلائم طبيعة القضايا الجنائية التي كانت تفصل فيها ، فأصبحت النمط الذي احتذي عندما أنشئت محاكم جنائية جديدة . ويرى البعض أنه إزاء تفشي الرشوة في الانتخابات أنشئت في خلال القرن الثاني قبل الميلاد محكمة جديدة للفصل في مثل هذه القضايا (quaestio de ambitu) [1] .

وإنه لمما يجدر بالملاحظة أن الإفادة من الإصلاحات التي أُدخلت في مجال القضاء كانت مقصورة على المواطنين الرومان . وأما العبيد والأجانب فأنهم كانوا يحاكمون جنائيا محاكمات عاجلة يفصل فيها إما الترابنة وإما الأيديلس وإما هيئة ثلاثية من رجال الشرطة (Tresviri capitales) . وحين كان الرومان شديدي الحذر والتمهل في معالجة أمر المذنبين من مواطنيهم كانوا لا يترددون في إصدار الحكم بالإعدام على متهم من غير المواطنين بعد محاكمة عاجلة .

وقد أفضت الفتوحات الخارجية إلى ازدياد دخل الدولة الرومانية ازديادا كبيرا ، ذلك أنه منذ عام ٢٦٤ ق . م . أفادت الدولة الرومانية من أن خصومها الرئيسيين الذين هزمتهم كانت لديهم موارد ضخمة من الذهب والفضة ، ولذلك فأن التعويضات التي فرضها الرومان عليهم لم يسبق لها مثيل إلا أسلاب الأسكندر

---

(١) L. Homo, op. cit., p. 88.

الأكبر من الفرس . وإلى جانب ذلك كانت الدولة الرومانية تحصل بانتظام من الولايات على الجزية وعلى دخل تأجير حق استغلال المناجم والمحاجر والغابات وكذلك على إيجار الأرض العامة التي وضعت يدها عليها في الولايات . وبفضل هذه الموارد جميعا كان في وسع الدولة الرومانيه اتخاذ خطوتين رئيسيتين : وإحداهما هي إصدار عملة فضية وفيرة أصبحت العملة الرئيسية في غرب البحر المتوسط . والخطوة الأخرى هي أنها منذ عام ١٦٧ ق . م . لم تعد تجبى من المواطنين الرومان ضريبة الملكية (tributum) وهي التي كانت تُجبى لمواجهة نفقات الحروب وكانت تُعتبر بمثابة قرض جبري أكثر منها ضريبة ، وتبعا لذلك فأنها كانت تُرد إلى المواطنين عندما تسمح أسلاب الحروب بذلك .

بيد أنه من ناحية أخرى ازدادت كذلك مصروفات الدولة الرومانية بنسبة تقارب ازدياد دخلها . ذلك أن تكاليف الحروب التي أدت إلى الحصول على هذه الموارد إستنفدت جانبا كبيرا منها . فمنذ الحرب البونية الثانية كانت الخزانة العامة الرومانية مثقلة بالديون ، وقامت الحكومة بسداد هذه الديون سدادا كاملا وردت إلى المواطنين جانبا من ضريبة الملكية . ومنذ النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد ، قلما كان للدولة الرومانية أقل من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل في مختلف ميادين القتال ، وكان يتعين عليها توفير المؤنة لهؤلاء جميعا فضلا عن دفع مرتبات الجنود من المواطنين الرومان ، وكان عددهم يقل قليلا عن نصف مجموع الجنود . وإذا أُضيفت إلى ذلك الاعتمادات التي كانت تخصص للتسليح وإنشاء الطرق العسكرية وتشييد المباني العامة وإقامة الحفلات الترفيهية في روما فضلا عن الهبات المالية التي كانت توزع على المواطنين من حين إلى آخر ، فأنه كان طبيعيا الا يتبقى بعد ذلك كله الا فائض قليل . ولا أدل على ذلك من أنه في عام ١٥٧ ق . م . كان احتياطي الخزانة العامة الرومانية حوالي ٢٥ مليون ديناريوس [1] (أي حوالي مليون جنيه أسترليني) وهو مبلغ يقل عن نصف أكبر احتياطي لخزانة أثينا في عهد بريقلس .

(1) Plin., XXXIII, 55.

وافتقار الرومان إلى رجال مدربين لا يظهر في آي مجال من مجالات الحكومة الرومانية قدر ظهوره في مجال الادارة المالية في الشطر الثاني من عهد الجمهورية. وبالرغم من أن السناتو استمر يتمتع باشراف عام على دخل الدولة وخرجها، فانه كان لا يعد ميزانية مفصلة ولا يراجع حسابات الحكام مراجعة دقيقة. ولم يول القنسورس الشئون المالية الا قدرا طفيفا من العناية. ولم يكن الكوايستورس أفضل حالا، ذلك أنهم بسبب قصر مدة حكمهم وقلة خبرتهم وعدم المامهم بالشئون المالية كانوا أعجز من أن يسيطروا على الجهاز الدائم من موظفي الخزانة العامة.

ثانيا – غوغاء روما وجمعيتا المئينات والقبائل

إن ما سبق ذكره عما طرأ من تعديل في هذه الفترة على تكوين جمعيتي المئينات والقبائل كان أقل أهمية من نوع المواطنين الذين أصبحوا يؤمون اجتماعات هاتين الجمعيتين. ذلك أنه تبعا لاتساع نطاق الاقليم الروماني والازدياد المطرد في عدد المستعمرات الرومانية التي أُنشئت في أرجاء هذا الاقليم، وكذلك تبعا لاتساع الفتوحات ومشاركة المواطنين الرومان في القيام بها، وتبعا لازدياد عدد الولايات وعدد المواطنين الرومان المقيمين فيها إما قسرا لأنهم كانوا ضمن أفراد الحاميات وإما طواعية لممارسة نشاطهم المالي المحموم، أخذ يقل تدريجا عدد المواطنين الرومان الذين كانوا يحضرون اجتماعات جمعيتي المئينات والقبائل إلى حد أنه في خلال القرن الثاني قبل الميلاد أصبح لا يؤم اجتماعات هاتين الجمعيتين إلا أقلية ضئيلة من المواطنين الرومان.

وزاد الطين بلة أن الجانب الأكبر من هذه الأقلية كان يتألف من سكان روما وهي التي اكتظت بالمزارعين الذين أخذوا يهجرون مزارعهم لسبب أو لآخر – على نحو ما سنرى بعد قليل – ويفدون على العاصمة ليتكسبوا قوتهم بأيسر السبل وليفيدوا من الهبات التي كانت توزع على سكان روما، وليستمتعوا

بالحفلات العامة والحملات الانتخابية وما كان يقدم فيها من ألوان الترفيه والأطعمة.
وقد كان لتكاثر مثل هذه العناصر في زوما آثار سيئة في الحياة العامة ، ذلك أن
الغلبة في الجمعيتين الشعبيتين الرئيسيتين ، بوجه خاص جمعية القبائل أصبحت
لغوغاء روما ، لأولئك المهاجرين المعوزين ، فقد كانوا لا يزالون مسجلين في
القبائل الريفية لأن عضوية القبيلة أصبحت وراثية على نحو ما مر بنا . ونتيجة
لانتقالهم في أعداد كبيرة للإقامة في روما وكذلك نتيجة لبطالتهم أو عدم
انهماكهم في ممارسة أعمال مستديمة بانتظام ، أصبح أيسر عليهم ممن بقوا في
مواطنهم بعيدين عن روما أن يؤموا باستمرار اجتماعات جمعية القبائل ولا سيما
أن ذلك أصبح أمرا محببا اليهم لقضاء وقت فراغهم ، فأصبحت قرارات هذه
الجمعية متوقفة على ميول هذه العناصر وعواطفها . ولما كان سكان العاصمة ،
مواطنين كانوا أم غير مواطنين ، يجدون متعة كبيرة في حضور أي اجتماع
عام قضاءً للوقت في الاستماع إلى الخطب السياسية ، فإن رجال السياسة
اتخذوا من ذلك وسيلة لإلهاب عواطف الجماهير وإثارة أحط النزعات
فيها وفي الوقت نفسه إرهاب العناصر المتزنة ضمانا للفوز بموافقة جمعية المئينات
أو جمعية القبائل على وجهات نظرهم . وفي كنف الظروف التي كان أولئك
المتعطلون أو أشباه المتعطلين يعيشون فيها ، كانوا على أتم الاستعداد للموافقة على
أي مشروع يرون فيه أية فائدة مادية لهم ، وعلى انتخاب المرشحين الذين يفوقون
غيرهم سخاء في العطاء العاجل وفي الوعود الآجلة .

وإذ باع العامة أنفسهم للطبقة الحاكمة ، وتغلبت صوالح هذه الطبقة على
الصالح العام فأعمتها عن إصلاح الأوضاع بابتكار وسيلة مناسبة تخلف نظامهم
القائم على أن يمارس المواطنون بأنفسهم حقوقهم الدستورية — وهو النظام الذي
كان مألوفا كذلك في الدول الاغريقية وكان موائما لمدن حرة صغيرة — بدد الشعب
الروماني سيادته العليا في الدولة ، واحتكرت طبقة النبلاء إدارة دفة الدولة إلى
أن هب المصلحون في القرن الأخير من عهد الجمهورية يتحدون النبلاء فاستحكمت
حلقات النزاع إلى أن أودت بالنظام الجمهوري الروماني .

ثالثا — الطبقة الحاكمة ، نبلاء السناتو

كان من شأن النصر الذي أحرزه العامة في صراعهم مع البطارقة القضاء على احتكار البطارقة للسلطة السياسية وتزويد الدولة الرومانية بنظم أعطتها مظهرا ديمقراطيا وان لم تصبح كذلك اطلاقا من حيث الواقع . ذلك أنه برغم الاعتراف بأن الشعب هو صاحب السيادة في الدولة ، فإن دفة الحكومة قد ظلت بعد عام ٢٨٧ ق . م . مثل ما كانت قبل ذلك العام في قبضة طبقة أرستقراطية وإن اختلفت هذه الأرستقراطية إختلافا كبيرا عن طبقة البطارقة القديمة . حقا إن عشائر البطارقة كونت عنصرا هاما من عناصر الأرستقراطية الجديدة الحاكمة وظلت أمدا طويلا مصدر نسبة كبيرة من قادة روما السياسيين وتتمتع بمكانة اجتماعية ممتازة ، بيد أنه إلى جانب البطارقة كانت الأرستقراطية الجديدة تضم مجموعة كبيرة من العامة نتيجة لتوليهم إحدى الوظائف الرومانية العامة التي سبق أن عرفنا أن توليها كان يستتبع الفوز بعضوية السناتو . وقد كان بعض هؤلاء العامة من الرومان والبعض الآخر من اللاتين والايطاليين الذين كانوا أصلا ينتمون إلى أرستقراطيات محلية في مدن مُنحت حقوق المواطنة الرومانية ووفدوا على روما للاستقرار فيها .

وقد مر بنا أنه في النصف الأول من عهد الجمهورية أخذ أثرياء العامة يحذون حذو البطارقة في تنظيم حياتهم الاجتماعية بتكوين عشائر من أكثر أسرهم ثراء ، وأن هذه الأسر والعشائر أصبحت تؤلف ارستقراطية العامة . وبعد انضمام أبرز عناصر العامة إلى البطارقة في السناتو ، أفضى اتفاق الصوالح وتقوية الأواصر بين الفريقين بالتزاوج والتبني إلى انبثاق شعور من الترابط بين كل عناصر الأرستقراطية . وبقدر ما أخذت عشائر البطارقة في الانقراض تدريجا ، نمت وترعرعت عشائر العامة ، وتبعا لذلك أخذ يزداد باطراد عدد العامة في الطبقة الأرستقراطية .

ومما يجدر بالملاحظة أنه اذا كانت تنتمي إلى الأرستقراطية الرومانية كل

الأسر التي كان أحد أجدادها عضوا في السناتو في أي وقت ، فان هذه الأرستقراطية كانت تنقسم فئات متفاوتة في المرتبة على أساس مرتبة الوظائف التي شغلها هؤلاء الأجداد . وكانت أعلى فئات الأرستقراطية مرتبة فئة صغيرة كان الرومان يدعونها فئة النبلاء (nobiles, nobilitas) . وعند توخي الدقة في التعبير فإن سمة النبالة كانت لا تطلق الا على سلالة الذين سبق لهم تولي القنصلية أو الدكتاتورية أو التريبونية العسكرية ذات السلطة القنصلية . ولكن الناس درجوا على التعميم — كما هي العادة في مثل هذه الظروف — بخلع سمة النبالة على الأرستقراطية بأسرها ودعوة أفرادها جميعا النبلاء .

ولا أدل على تفاوت مراتب الفئات التي كانت الأرستقراطية تنقسم اليها من التقاليد التي كانت تنظم الإجراءات المتبعة في السناتو وتُراعى بدقة . ووفقا لهذه التقاليد كان يتولى رياسة الجلسة الحاكم الذي دعا إلى انعقادها ، وكان عادة أحد القنصلين ، وأحيانا البرايتور أو أحد ترابنة العامة . وكان رئيس الجلسة هو الذي يعطي الحق في الكلام ، وذلك وفقا لمرتبة الوظيفة العامة التي كان العضو يشغلها من قبل . وكان عادة يفتتح المناقشة أصحاب المرتبة القنسورية (censorii) — على أساس أنهم كانوا قد تولوا القنصلية قبل توليهم القنسورية — ثم يليهم أصحاب المرتبة القنصلية (consulares) ، فأصحاب المرتبة البرايتورية (praetorii) . ولما كانت العادة قد جرت على أنه بانتهاء هؤلاء كان المجلس يقترع على ما هو معروض أمامه ، فانه قلما كان يدعى للكلام أعضاء المجلس الأصغر سنا وهم الذين كانوا أصحاب المراتب الدنيا : التريبونية (tribunicii) والأيديلية (aedilicii) والكوايستورية (quaestoricii) . ونتيجة لهذه التقاليد التي كانت تعطى أفضلية مطلقة في إبداء الرأي لأرفع أعضاء المجلس مرتبة وتبعا لذلك أكبرهم سنا ، إتسمت تصرفات السناتو عادة بالتمهل المعوق والحذر الشديد ، غير أنه في أوقات الأزمات لم يتردد السناتو في اتخاذ مواقف حاسمة جريئة ، على نحو ما رأينا من الأمثلة الكثيرة في معرض الحديث عن السياسة الخارجية .

وقد كانت الأرستقراطية الجديدة ذات طابع مزدوج . فقد كانت أرستقراطية ثراء وأرستقراطية وظائف . وفي خلال القرن الثالث قبل الميلاد استطاعت دائرتها الموسعة ، المؤلفة من أسر أعضاء السناتو المنحدرين من البطارقة وكذلك من العامة ، أن تقصر على نفسها تولي الوظائف العامة وتبعا لذلك عضوية السناتو ، وهكذا أصبحت دائرة مغلقة دون غيرها . وقد ساعدها على الاحتفاظ بهذا الاحتكار وحال دون اطراد اتساع نطاقها أنه كان لا يستطيع الفوز بوظيفة عامة الا من توافرت لديه ثلاثة مؤهلات رئيسية وهي التمتع بثروة عريضة والانتماء إلى أسرة ذات نفوذ كبير والحصول على رضاء غالبية السناتو . وبيان ذلك أن الوظائف العامة كانت غير مأجورة وأن توليها كان يتطلب الانفاق عن سعة وأن الحملات الانتخابية كانت تتكلف نفقات باهظة ازدادت باطراد على مر الأيام . هذا إلى أن مهام الحكام وأعضاء السناتو كانت تتطلب تخصيص قدر كبير من الوقت مما كان لا يدع فرصة للقيام بعمل آخر . ومع ذلك فإنه عندما ازدادت الثروة ووجد كثيرون ممن توافرت لديهم موارد كافية لمواجهة الأعباء المالية لم يستطع هؤلاء الأثرياء الجدد الفوز بالوظائف العامة لافتقارهم إلى المؤهلين الآخرين مما أثار حقد هؤلاء المحرومين على الأوضاع القائمة وكان عاملا هاما في احتدام الصراع المقبل . وقد كان من شأن نمو نظام التبعية التلقائية نتيجة لتغير الأحوال الاقتصادية ، وتكوين محالفات سياسية واسعة النطاق بين العشائر الكبيرة ، ونشاط الشخصيات البارزة ذات المكانة الكبيرة في تأييد مرشحيها ، أن ذلك كله لم يدع فرصة للنجاح في الانتخابات إلا لأبناء الأسر الموسرة المنتمية إلى عشائر كبيرة ذات نفوذ . وفضلا عن ذلك كله فأنه كان من حق الحاكم الذي يرأس الجمعية يوم الانتخاب أن يرفض عرض اسم أي مرشح لا يوافق عليه . وإزاء ذلك فإنه قلما استطاع شخص لم ترض عنه غالبية أعضاء السناتو تولي الكوايستورية تمهيـــدا لتولي البرايتورية ، وعن طريقها الوصول إلى السناتو . وكانت الأرستقراطية أشد حرصا على من يتولى وظيفة القنصلية وهي التي انفردت منذ آخر القرن الثالث قبل الميلاد بخلع سمة النبالة على من

يتولاها هو وسلالته . ولا أدل على ذلك من أنه من بين المائة والثمانية الذين انتخبوا للقنصلية فيما بين عامي ٢٠٠ و ١٤٦ ق . م . لم يكن الا ثمانية فقط ممن كانوا ينتمون إلى أسر لم يتول أحد من أفرادها هذا المنصب من قبل . والواقع أنه حتى أواخر عهد الجمهورية لم يستطع اختراق الحواجز وتولي القنصلية من خارج صفوف الأرستقراطية إلا أشخاص امتازوا بصفات غير عادية وساعدتهم على ذلك ظروف مواتية ، إما داخلية وإما خارجية ، مثل ماركوس بورقيوس قاتو الكبير وفيما بعد ماريوس وشيشرون . ومنذ القرن الثاني قبل الميلاد ، كان الذي يتولى القنصلية دون أن يسبقه إلى تولي هذه الوظيفة أحد من عشيرته أو أسرته يدعى « رجلا جديداً » (novus homo) .

ومنذ وقت بعيد كان السناتو ينقسم إلى عدد من الجماعات المتنافسة على الفوز بالوظائف العامة وبخاصة وظيفتي القنصلية والقنسورية . وكانت كل جماعة من هذه الجماعات تلتف حول زعيم عشيرة من العشائر البارزة . وعلى نحو ما هو مألوف في مثل هذه الظروف كان يحدث تحالف بين عشيرتين للتغلب على منافسة عشيرة قوية ، بيد أنه لم يحدث مرة أن استمر مثل هذا التحالف طويلا . وقد كان من شأن ذلك كله تحقيق المصالح الشخصية وفي الوقت ذاته منع عشيرة واحدة من الانفراد بأرفع الوظائف وكذلك منع أي شخص ذي نفوذ قوي ومكانة ممتازة من إقامة نفسه حاكما مطلقا .

وبيان ذلك أنه عند بداية الحرب البونية الثانية مثلا ، كانت أبرز العشائر ستاً وهي عشائر فابيوس (Fabii) وفولفيوس (Fulvii) وقلاوديوس (Claudii) وقورنليوس سقيبيو (Cornelii Scipiones) وأيميليوس (Aemilii) وفالريوس (Valerii) . وحتى واقعة قاناي في عام ٢١٦ ق . م . كان من نتيجة تحالف العشيرتين الأخيرتين فوزهما بنصيب الأسد ، ثم آل ذلك النصيب إلى عشيرة فابيوس ، ولكنه لم يواف عام ٢١٢ ق.م. حتى كانت الصدارة لعشيرة قلاوديوس بفضل تحالفها مع عشيرة فولفيوس . وبعد ذلك أخذ نجم عشيرة قورنليوس

في الصعود بفضل ما أصابه بوبليوس قورنليوس سقيبيو من نجاح في اسبانيا ثم في افريقيا .

ولا جدال في أنه عندما انتصر سقيبيو في واقعة زاما في عام ٢٠٢ ق . م . اكتسب مكانة لم يتمتع بها قائد روماني من قبل . ولا جدال كذلك في أنه لو شاء سقيبيو عندئذ لأقام نفسه دكتاتورا . ويتبين من مصادرنا (١) القديمة أنه لم يقبل مما عرضه الشعب عليه من مظاهر التكريم بعد نصره الباهر مثل إقامة التماثيل له وتوليه منصب الدكتاتورية لمدى الحياة سوى لقب أفريقانوس . ولا أدل على نفوذ أفريقانوس ومكانته عقب انتصاره من أنه في عام ١٩٩ انتخب قنسورا واعتبر أرفع أعضاء السناتو مقامـــا (princeps senatus) . وفي عام ١٩٤ أعيد انتخابه للقنصلية ، وأنه استطاع على مدى عشر سنوات بعد إبرام الصلح مع قرطجنة أن يضمن اتباع السياسة التي كان يدعو اليها وهي سياسة مشربة بروح العطف نحو الاغريق وبلادهم ، وكذلك انتخاب أقاربه وأصدقائه . ولم ينفرد أفريقانوس بالنزعة الهلينية ، كما أن محاباة الأقارب والأصدقاء كانت من العيوب الصارخة الشائعة بين الأرستقراطية ، ولكنه انفرد بنفوذ ومكانة أزعجا خصومه فعملوا على هدم مكانته ونفوذه بشن حملة من الإتهامات السياسية ضد الملتفين حوله .

وقد كانت عشيرة فابيوس المحافظة ومؤيدوها أقوى مناهض لنفوذ أفريقانوس ومكانته ونزعته الهلينية . وزاد المعارضة قوة أنه تولى زعامتها « رجل جديد » محافظ ريفي يدعى مارقوس بورقيوس قاتو . فقد ولد قاتو في عام ٢٣٤ ق . م . في توسقولوم من أسرة ريفية طيبة واتسم بالجد والكفاية والنزاهة والقدرة الخطابية ، مما لفت إليه أنظار عشيرة فالريوس فكفلته برعايتها ومهدت له سبيل تولي الوظائف العامة ، فتولى الكوايستورية في عام ٢٠٤ ق . م . والأيديلية الشعبية في عام ١٩٩ ق . م . والبرايتورية في عام ١٩٨ ق . م . والقنصلية في عام ١٩٥ ق . م .

(1) Cf. Liv., XXXVIII, 56.

والقنسورية في عام ١٨٤ ق . م . وبحكم نشأة قاتو وخلقه كان يميل إلى الحياة البسيطة ويكره الحياة المترفة والأخذ بمظاهر الحضارة الاغريقية ، ويدعو إلى إهمال شأن بلاد الاغريق والاهتمام بدعم مركز روما في الغرب ، ويهاجم دون هوادة ابتزاز أموال أهالي الولايات . وبفضل ذلك كله اجتذب قاتو تأييد كل الذين كانوا ينشدون العودة إلى الحياة القديمة البسيطة ، من أمثال عشيرة فابيوس وعشيرة فالريوس .

وفي عام ١٨٧ ق . م . أوعز قاتو إلى اثنين من ترابنة العامة بمطالبة لوقيوس سقيبيو بتقديم حساب للسناتو عن مبلغ ٥٠٠ تالنت [1] (حوالي ١٢٥٠٠٠ جنيه استرليني) ، على أساس أن هذا المبلغ كان جزءا من القسط الأول من تعويضات الحرب التي فرضت على أنطيوخوس الثالث بعد هزيمته في واقعة ماجنيسيا ، وأن لوقيوس احتفظ بهذا المبلغ ليوزعه على جنوده مكافأة لهم . وعندئذ انبرى أفريقانوس للدفاع عن أخيه على أساس أن هذا المبلغ كان جزءا من أسلاب الحرب وأن القائد غير ملزم بتقديم حساب عن تصرفاته في الأسلاب التي أحرزها جيشه ، وأعقب ذلك بتمزيق دفاتر الحسابات على مرأى ومشهد من السناتو . والفصل في هذه المسألة يتوقف على التأكد مما اذا كان المبلغ موضوع المساءلة جزءا من تعويضات الحرب أم من أسلابها ، وهو أمر يتعذر معرفته . وانتهاء المسألة عند هذا الحد في السناتو لا ينهض دليلا على أن تصرف لوقيوس كان سليما أي أن المبلغ كان جزءا من الأسلاب لأنه من الجائز أن إغفال السناتو أمر هذه المسألة كان يرجع إلى مراعاته أفريقانوس أو إلى عدم رضائه عن تدخل ترابنة العامة في الشئون المالية وهي التي أصبح السناتو يعتبرها من صميم اختصاصه . كما أن متابعة الموضوع بعد ذلك خارج السناتو لا يستتبع حتما أن تصرف لوقيوس كان غير سليم لأنه من الجائز أن الباعث على ذلك لم يكن الدليل الدامغ على صحة الدعوى بقدر ما كان تحقيق الهدف المنشود وهو إحراج

(١) راجع عن هذه المشكلة بكل جوانبها :
H. H. Scullard, Roman Politics, 220-150 B.C., pp. 290 ff.

أفريقانوس والنيل من مكانته . ولم تكن هذه هي المرة الوحيدة التي تابع فيها قاتو اتهام خصومه دون أن تكون لديه أدلة كافية على ذلك. بل ان قاتو نفسه برغم ما عرف عنه من نزاهة وأمانة واستقامة وجهت اليه الاتهامات أربعا وأربعين مرة .

وعلى كل حال فانه عندما لم يقنع قاتو بما حدث في السناتو استحث التريبونين على إثارة هذه المسألة في جمعية القبائل ، ولم يحل دون محاكمة لوقيوس يومئذ الا تدخل أفريقانوس والقاؤه خطابا بليغا في الدفاع عن أخيه . ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، ذلك أنه في عام ١٨٤ ق . م . حرض قاتو تريبونا للعامة يدعى جايوس مينوقيوس (Minucius) على اتهام لوقيوس أمام جمعية القبائل باختلاس الأموال العامة . واذ رفض لوقيوس تقديم الضمانات التي تكفل مثوله للمحاكمة ، أصدر مينوقيوس أمرا بالقاء القبض عليه ولم ينقذه من الحبس ويضع حدا لهذه المأساة الا استخدام التريبون سمبرونيوس جراكوس حقه في الاعتراض على تصرفات زميله. ومع ذلك فان قاتو نجح في تحقيق هدفه بارغام افريقانوس على اعتزال الحياة العامة ، لأن قاهر هانيبال اعتبر التهجم على أخيه اهانة بالغة موجهة إليه شخصيا ، فبارح روما حتى توفي في العام التالي (١٨٣ ق.م).

ويرى بعض الباحثين أن هذا الصراع بين أفريقانوس ومناصريه من ناحية وقاتو ومؤيديه من ناحية أخرى يرجع إلى اعتقاد هؤلاء بأنه كانت تجثم في أفريقانوس أشباح حكم الفرد المطلق وبأنه لا بد من القضاء على مكمن هذا الخطر حتى لا يقيم أفريقانوس نفسه دكتاتورا لمدى الحياة . ويرى بعض آخر أنه كان صراعا بين دعاة الهلينية والمناهضين لها الداعين إلى العودة إلى الحياة القديمة البسيطة . ويرى بعض ثالث أن هذا الصراع لم يكن في حقيقة الأمر صراعا على مبادىء بقدر ما كان صراعا شخصيا على النفوذ . ولعل الأدنى إلى الحقيقة أن هذا الصراع كان مزيجا من ذلك كله ، وأنه إن دل على شيء فهو يدل على مدى حرص الطبقة الحاكمة على سلطتها مما كان يحدو بها إلى مناهضة تمتع أي فرد واحد بمركز ممتاز في الدولة .

وقد ساعد على احتدام التنافس بين أفراد الطبقة الأرستقراطية أنهم أصبحوا يألفون لونا من الحياة المترفة الفادحة التكاليف . ولما كان العرف يحرم أعضاء السناتو ممارسة الأعمال المصرفية والأشغال العامة ، وكان من شأن قانون قلاوديوس الذي صدر في عام ٢١٨ ق . م . الا يتيح لأعضاء السناتو فرص الاشتغال بالتجارة الخارجية ، على حين أن تولي القنصلية أو البرايتورية مع ما كان ذلك يوفره من فرص لتولي الحكم في الولايات وقيادة الجيوش كان أيسر السبل للفوز بثروة طائلة تكفل ممارسة الحياة المترفة ، فان التنافس على تولي الوظائف العامة أصبح شديدا . وقد صحب ذلك إنحدار المرشحين لهذه الوظائف إلى حد الرشوة . ولا أدل على شطط هؤلاء المرشحين في شراء أصوات الناخبين في خلال القرن الثاني قبل الميلاد من أنه برغم نجاح بعض قادة الرأي النزيهين في استصدار قانونين جديدين في عامي ١٨١ و ١٥٩ ق . م . للقضاء على الرشوة في الانتخابات ، فان الرشوة ظلت فاشية . بل إن السناتو ، للحفاظ على سيطرته ودعمها استن نظاما جماعيا للرشوة ، وذلك بأنه كان ينتهز فرص هبات القمح المقدمة من قرطجنة ونوميديا وكذلك المواسم التي يكون فيها محصول القمح وفيرا في صقلية أو في سردينيا لتوزيع هبات من الحبوب على عامة روما . وفضلا عن ذلك فان السناتو كان من حين إلى آخر يستخدم جانبا من دخل الجزية المفروضة على الولايات في شراء كميات من النبيذ والزيت لتوزيعها على عامة روما .

وكانت الوسيلة الرئيسية التي عمدت اليها الطبقة الحاكمة لكسب ود الناخبين المقيمين في روما هي الاهتمام بالترفيه عنهم بتقرير إقامة سلسلة من الحفلات العامة . ذلك أنه قبل عام ٢٢٠ ق . م . كان لا يقام بانتظام الا حفل عام واحد للألعاب كان يسمى حفل الألعاب الكبرى أو حفل الألعاب الرومانية (Ludi Magni أو Ludi Romani) ، وكان لا يستمر الا يوما واحدا. وفي عام ٢٢٠ ق . م . قرر السناتو إقامة حفل عام ثان هو حفل الألعاب الشعبية (Ludi Plebeii) . وفي خلال الحرب البونية الثانية – بعد اجتياز أسوأ أزمات هذه الحرب – قرر السناتو إقامة ثلاثة احتفالات جديدة ، أنشأ أحدها في عام ٢١٢

ق . م . (Ludi Megalenses) وثانيها في عام ٢٠٤ ق . م . (Ludi Florales)
وثالثها قبل عام ٢٠٢ ق . م . (Ludi Ceriales) . وفضلا عن ذلك
فانه في عام ١٧٣ ق.م. تقرر أن يقام بانتظام حفل آخر (Ludi Apollinares) .
ولم يقف الأمر عند زيادة عدد الحفلات العامة بل إنه تعداه إلى زيادة
مطردة في عدد الأيام المخصصة لإقامة كل حفل ، فقد زيد عدد الأيام
أولا إلى خمسة ثم إلى سبعة وفي بعض الأحيان إلى أربعة عشر يوما ، وصحبت
ذلك زيادة الاعتمادات التي كان السناتو يخصصها لاقامة هذه الحفلات
العامة . وإلى جانب هذه الاعتمادات المخصصة من الخزانة العامة ، كان الحكام
الذين يشرفون على هذه الحفلات العامة يتبرعون بمبالغ إضافية من أموالهم الخاصة
كسباً لرضاء الجماهير . وبعد أن كانت سباقات الخيول والعربات تؤلف الجانب
الرئيسي من هذه الحفلات العامة الرسمية ، لم تلبث أن أضيفت اليها المسرحيات
ومباريات المجالدين ومباريات صيد الحيوانات المفترسة . وكان الأرستقراطيون
يتسابقون في تقديم هذه المباريات على نفقتهم الخاصة كسباً للشهرة ومحبة الجماهير .

ولا جدال في أنه في خلال الفترة التي نحن بصددها أخذ السناتو يدعم
سيطرته باطراد على أزمة الحكم في الدول الرومانية حتى أصبح يسيطر عليها
سيطرة مطلقة في خلال القرن الثاني قبل الميلاد إلى أن تولى تيبريوس سمبرونيوس
جراكوس التريبونية الشعبية لعام ١٣٣ ق . م . ولا جدال كذلك في أن السناتو
اكتسب مكانته أصلا من التقاليد ثم من ارتفاعه إلى مستوى المسئولية إبان أزمات
الحرب البونية الثانية التي تهددت ذات كيان روما ، مما جعل الرومان يدركون
تلقائيا ضرورة ترك توجيه سياسة الدولة الخارجية إلى هيئة قوية مستديمة . ولم
يكن في وسع الحكام تكوين مثل هذه الهيئة لأن مدة حكمهم كانت عاما
واحدا . ولم يكن ميسورا كذلك أن تنهض الجمعيات الشعبية (Comitia)
بمثل هذا المهام لأن خيرة أفرادها وأكثرهم تمرسا بالشئون العامة كانوا بين صفوف
المحاربين . ولما كان السناتو هيئة مستديمة ، وكان من اليسير أن يدعوها بانتظام
أحد القنصلين أو البرايتورس إلى الاجتماع لبحث الشئون العامة ، وكان أكثر

أعضاء هذه الهيئة يتمتعون بخبرة طويلة في مثل هذه الشئون بحكم أنهم كانوا
يتألفون من الحكام السابقين فضلا عن القنصلين والبرايتورس الحاليين . فانه
كان طبيعيا إذن أن السناتو أصبح يهيمن هيمنة كاملة على السياسة الخارجية
للدولة الرومانية مع مراعاة حق جمعية المئينات في الموافقة على إعلان الحرب وعقد
الصلح .

ولم يكن من شأن اشتباك روما بعد الحرب البونية الثانية في حروب متواصلة
تحدي هيمنة السناتو . وكانت النتيجة الطبيعية لهيمنة السناتو على السياسة الخارجية
أنه جعل من حقه وضع نظم الحكم لممتلكات روما الخارجية واختيار الحكام
لهذه الممتلكات والاشراف على إدارتها .

ولم تقف سيطرة السناتو عند حد السياسة الخارجية ، بل امتدت إلى كل
الشئون العامة بفضل سيطرته على الحكام والوسائل التي انتهجها للسيطرة على
الجمعيتين الشعبيتين الرئيسيتين . وقد استمد السناتو سيطرته على الحكام من أنه هو
الذي كان يسند إلى القناصل والبرايتورس قيادة الجيوش ، ويحـــدد لهم الولايات
التي يحكمونها ، ويطيل لهم مدة ممارسة السلطة التنفيذية العليا (prorogatio) ،
وتبعا لذلك فأنه كان في وسعه مكافأة الذين يسلّسون له القياد ومعاقبة الذين
يتحدون اتجاهاته . وفضلاً عن ذلك فإنه نتيجة لحق الاعتراض (inter cessio) وهو
الذي كان لا يتمتع به ترابنة العامة فحسب بل أيضا كل حاكم يتمتع بسلطة
أعلى (maior potestas) من حاكم آخر أو بسلطة مساوية له (par potestas) ،
كان السناتو يستطيع أن يعوق تصرفات الحكام وترابنة العامة .

وإنه لمن سخرية القدر أن حق الاعتراض أو الفيتو ، وهو الذي كان أمضى
سلاح في قبضة ترابنة العامة ، وكان قد أُنشيء أصلا للحد من سلطة السناتو
والحكام ، أصبح أفعل أداة استخدمها السناتو لكبح جماح ترابنة العامة أنفسهم
وكذلك لوقف تصرف أي حاكم خالف مشيئة هذا المجلس . ذلك أنه بعد
عام ٢٨٧ ق . م . ، عندما أصبح العامة يؤلفون نسبة كبيرة من أعضاء السناتو ،

لم يكن عسيرا على هذا المجلس أن يغري تريبونا أو آخر من ترابنة العامة العشرة على استخدام حقه في الفيتو ضد أي مشروع لم يرض عنه السناتو ، سواء أكان صاحب هذا المشروع حاكما من الحكام أم تريبونا آخر من ترابنة العامة . وهكذا أصبح فيتو الترابنة سلاحا ذا حدين .

وبما أنه لا جمعية المئينات ولا جمعية القبائل كانت تستطيع التصويت إلا على ما يعرضه عليها الحاكم الذي يرأس جلسة انعقادها من مشروعات أو مرشحين ، فانه بفضل نفوذ السناتو على الحكام وصلاته بترابنة العامة استطاع أن يسيطر على كل وجوه نشاط هاتين الجمعيتين ، سواء أكانت هذه الأنشطة انتخابية أم تشريعية . وقد ساعد على هذه السيطرة ما سبق ذكره من أن الغلبة في هاتين الجمعيتين أصبحت للمتعطلين وأشباه المتعطلين الذين اكتظت بهم روما . وأن الطبقة الحاكمة انتهزت هذه الفرصة لشراء رضاء هذه العناصر المعوزة وإثارة أحط النزعات فيها وإرهاب أكثر العناصر روية واتزانا .

ولم تكتف الطبقة الحاكمة بما حققته لها الوسائل التي ذكرناها من فوز بالسيطرة على الجمعيتين الشعبيتين الرئيسيتين عن طريق اكتسابها جانب غوغاء روما ، بحيث سلبت العامة السلطة التي اكتسبوها ابان كفاحهم المرير مع البطارقة ، وأصبحت في خلال القرن الثاني قبل الميلاد تنفرد بإدارة دفة الدولة الرومانية . ذلك أن الطبقة الحاكمة عملت على إيجاد وسيلة جديدة تخلف ما كان السناتو قد فقــده من حق إبرام قرارات الجمعيتين الشعبيتين الرئيسيتين (patrum auctoritas) باستصدار قانونين حوالي عام ١٥٠ ق . م . (Lex Fufia و Lex Aelia) يخولان لأي حاكم قورولي (أي الأيديلس القورولي أو البرايتور أو القنصل) أن يفض اجتماع أية جمعية شعبية بحجة أنه شاهد نذرا سيئة الطالع . وهكذا اذا فشلت الوسائل الأخرى في تهيئة الجو الملائم لاتجاهات الطبقة الحاكمة ، أو اذا أخذت هذه الطبقة على غرة قبل تهيئة هذا الجو ، لم يكن هناك أيسر من الالتجاء إلى الوسيلة الجديدة . واذا كان لا يوجد دليل

على الالتجاء إلى الوسيلة الجديدة بشكل منتظم قبل القرن الأول قبل الميلاد . فان هذا يدل على أمرين : وأحدهما . هو أنه برغم سيطرة الطبقة الحاكمة على زمام الأمور سيطرة تكاد أن تكون تامة في خلال القرن الثاني قبل الميلاد فانه كانت هناك عناصر معارضة لهذه الأوضاع . وأن هذه العناصر كانت تستطيع أحيانا تحدي الطبقة الحاكمة وإقناع إحدى الجمعيتين الشعبيتين الرئيسيتين باتخاذ قرارات لا ترضى عنها هذه الطبقة مما حدا بها إلى اتخاذ الحيطة إزاء مثل هذه التحديات . والأمر الآخر ، هو أنه عندما أساء السناتو استخدام السلطة التي آلت إليه وبلغ السيل الزبى فأصبح عجز الطبقة الحاكمة عن حسن إدارة شئون الدولة أمرا جليا واضحا وأصبحت رائحة فساد هذه الطبقة تزكم الأنوف برز في القرن الأخير من عهد الجمهورية زعماء مصلحون تحدوا الأوضاع القائمة تحديا خطيرا .

وعندئذ ادعى السناتو لنفسه الحق في معالجة الأزمات الطارئة التي تتهدد أمن الدولة وسلامتها في الداخل بإصدار ما يعرف بقرار السناتو النهــائي (senatus consultum ultimum) . وبمقتضى هــذا القرار كان القنصلان يخولان السلطة كاملة في اتخاذ أي إجراء للحفاظ على سلامة الدولة من أي مكروه[1] (senatus decrevit darent operam consules ne quid res publica detrimenti caperet) دون أن يحق لأي حاكم آخر أو أي تريبون من ترابنة العامة استخدام حق الاعتراض (intercessio) على ما يقرره القنصلان ودون أن يحق لأي مواطن استخدام حق الاستئناف (provocatio) إزاء أي حكم يصدره القنصلان أو أحدهما في مثل هذه الظروف . ومعنى ذلك أن قرار السناتو النهائي كان بمثابة إعلان ما يعرف اليوم باسم «الأحكام العرفية» أو «الأحكام العسكرية» .

إن مظاهر نظم الحكم الرومانية أغرت بوليبيوس — ذلك الزعيم السياسي

(١) Sallust, Cat., 29.

والمؤرخ الاغريقي الذي كان رهينة في روما وعلى صلة وثيقة بالطبقة الحاكمة الرومانية — على وصف هذه النظم بأنها تؤلف توازنا بديعا بين الملكية ممثلة في القنصلين، والأرستقراطية ممثلة في السناتو والديمقراطية ممثلة في ترابنة العامة والجمعيات الشعبية . بيد أنه يتضح مما عرضناه أمران يجمع عليهما الباحثون : وأحدهما ، هو أنه إذا كان هذا الوصف يبدو صحيحا من حيث الشكل فانه غير صحيح من حيث الواقع . ذلك أنه من الناحية النظرية كان القنصلان يتمتعان بسلطة الملوك ، وكانت الجمعيات الشعبية وتريبونية العامة نظما تتسم بطابع ديمقراطي وأنشئت أصلا للتعبير عن إرادة جموع الأمة الرومانية والدفاع عن صوالح العامة . غير أنه من الناحية العملية كان القنصلان من الأرستقراطية وعادة طوع بنانها وينفذان مشيئتها ، كما أن الجمعيات الشعبية وتريبونية العامة فقدت وظيفتها الديمقراطية عندما استطاعت الطبقة الحاكمة في أكثر الأحيان السيطرة على هذه الجمعيات وتسخير ترابنة العامة لتحقيق أغراضها والحفاظ على سيطرتها . وتبعا لذلك فإن فئة قليلة مسيطرة هي التي كانت تحكم الدولة الرومانية عن طريق السناتو وإخضاع مختلف أجهزة الحكم لنفوذها . ومعنى ذلك أن نظام الحكم الروماني لم يكن في الواقع الا نظاما أرستقراطيا أو بعبارة أدق نظاما أوليجاركيا ، أي نظام حكم الأقلية .

والأمر الآخر ، هو أن سيطرة السناتو والحقوق التي ادعاها لنفسه لم يكن لها أي سند من القانون ، فهي لم تكن تستند الا على العرف والتقاليد ومكانة السناتو ونفوذه كهيئة وكذلك مكانة أعضائه ونفوذهم . ذلك أنه كما مر بنا لم يكن السناتو في الحقيقة الا هيئة استشارية بحتا تدلي برأيها للحاكم اذا ما طلب اليها ذلك دون أن يكون الحاكم مقيدا من الناحية الدستورية بقبول هذا الرأي واتباعه . واذا كان العرف قد جرى على أن يستشير الحكام السناتو في كل الأمور الهامة وعلى أن يتبعوا مشورة السناتو ، فأنه كان في وسع أي حاكم جريء أن يضرب برأي السناتو عرض الحائط أو أن يتخطى السناتو كلية اذا ما تراءى له ذلك ، دون أن ينطوي مثل هذا التصرف أو ذاك على أية مخالفة دستورية . بيد أن

السناتو كان يستطيع عرقلة عمل ذلك الحاكم بأن يحرك ضده إما زميلا لذلك الحاكم وإما أحد ترابنة العامة ، اللهم الا اذا فشل السناتو في ذلك بسبب مصادفة المشروع الذي يقترحه الحاكم المشاكس قبولا كبيرا لدى جماهير الشعب . وخير مثل لذلك في الفترة التي نحن بصددها ما فعله جايوس فلامينيوس في عام ٢٣٢ ق . م . ذلك أنه عندما رفض السناتو الموافقة على مشروعه بأن يوزع بين صغار المزارعين الرومان بطريقة التقسيم (divisio) إقليم السنونس وهو المعروف باقليم الغال (Ager Gallicus) تغاضى عن رأي السناتو وتقدم إلى جمعية القبائل بمشروعه فأقرته وأصبح نافذ المفعول . ولكنه بوفاة فلامينيوس قلما اجترأ حاكم آخر على تحدي السناتو على هذا النحو إلى أن تولى تيبريوس سمبرونيوس جراكوس تريبونية العامة لعام ١٣٣ ق . م .

ووضعا للأمور في نصابها يجب أن نذكر أنه طوال الوقت الذي كانت فيه روما تواجه ضغطا شديدا من أعدائها وإلى أن تقرر مصير الصراع على سيادة البحر المتوسط في مستهل القرن الثاني قبل الميلاد . دأب السناتو عادة على تغليب المصلحة العامة ، وأظهر قدرا كبيرا من الوطنية والصلابة في وجه المحن الشديدة . كما أظهر براعة فائقة في توجيه السياسة الخارجية للدولة الرومانية . غير أنه ما أن زالت أشباح الأخطار الخارجية الداهمة حتى أخذت الأطماع الشخصية والصوالح الطبقية تتحكم في تصرفات أعضاء السناتو وتدفع بهم إلى الانحراف عن مراعاة الصالح العام ، مما أفضى إلى الحط من شأن السناتو والتشكك لا في قدرته على الحكم فحسب بل فيما اذا كان من حقه أن يحكم على الإطلاق . وهكذا قوض السناتو بتصرفاته دعائم السيطرة التي اكتسبها في خلال الحرب البونية الثانية وأسهمت في دعمها وبسط نطاقها الظروف الخارجية التي أعقبت تلك الحرب وكذلك الوسائل المختلفة التي لجأت اليها الطبقة الحاكمة في خلال القرن الثاني قبل الميلاد .

وقد ساعد على اضمحلال نفوذ السناتو والحط من قدره إخفاقه الذريع في

إدارة الولايات ، وعجزه عن حل المشاكل التي ترتبت على اتساع فتوحات روما ، وتعصبه للطبقة الأرستقراطية التي قصرت على نفسها الوظائف العامة دون الطبقات الأخرى مهما تكن مقدرة أفراد هذه الطبقات . ولذلك كان طبيعيا أن يهبط مستوى الادارة في الولايات وفي روما سواء بسواء ، وأن تثور الأحقاد ، وأن ينبري آخر الأمر الرجال المستنيرون ينشدون الاصلاح . وإذ استمات السناتو في الدفاع عن مكانته ونفوذه ، وقع صراع عنيف خضب القرن الأخير من عهد الجمهورية بالدماء ولم ينته الا بالقضاء على النظام الجمهوري .

رابعا — إيطاليا

مر بنا أن حلفاء روما اللاتين وأغلب حلفائها الايطاليين ظلوا أوفياء لها في خلال أحلك الأزمات التي مرت بها إبان الحرب البونية الثانية . ولا جدال في أن الحلفاء أسهموا بعدد من الجنود أكبر مما أسهم به الرومان في بناء الامبراطورية الرومانية ، ففي الجيوش التي حشدها الرومان في خلال القرن الثاني قبل الميلاد كان عدد الجنود من الحلفاء يبلغ دائما ضعف عدد الجنود من الرومان ، وهو ما كان مألوفا قبل الحرب البونية الثانية . والواقع أن عبء الخدمة العسكرية على الحلفاء أصبح يفرض على أساس أكثر عدلا مما كان متبعا من قبل عندما تقرر في عام ١٩٣ ق . م . العدول عن النظام القديم الذي كان يقضي بأن يلتزم الحلفاء التزاما دقيقا بحشد الأعداد المنصوص عليها في المعاهدات المبرمة بينهم وبين روما ، واتباع نظام جديد يأخذ بعين الاعتبار عدد مواطني كل مدينة حليفة من الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والخامسة والأربعين. واذا استثنينا حالة واحدة ، فإن القواد كانوا عادة يوزعون أسلاب الحرب بالتساوي بين الجنود الحلفاء والجنود الرومان. ولا يمكن التثبت من صحة ما يذهب اليه بعض الباحثين من أنه عند منح أجزاء من الأرض العامة لاستثمارها ، أصبحت مساحة الأقطاعات التي تمنح لمواطني المجتمعات الحليفة أصغر نسبيا مما كانت عليه من قبل .

واذا كان يمكن القول بأن الدولة الرومانية احترمت بوجه عام الحقوق التي

نصت عليها المعاهدات المبرمة بينها وبين حلفائها اللاتين والايطاليين ، وبأن أسلاب الحرب كانت توزع عادة بالتساوي بين الرومان والحلفاء ، فإنه مع ذلك لم يكن هناك مفر من أن يشعر هؤلاء الحلفاء بإجحاف شديد وبأنهم أدنى شأناً من الرومان ، لأنهم بالرغم من إسهامهم في إقامة الامبراطورية على نطاق أكبر مما أسهم به الرومان أنفسهم ، فانهم كانوا محرومين المشاركة في حكم الامبراطورية وكذلك التمتع مثل الرومان بحماية أشخاصهم من جور حكام الولايات وهي الحماية التي كفلتها للمواطنين الرومان التشريعات التي صدرت في مستهل القرن الثاني قبل الميلاد وقضت بعدم قصر حق الأستئناف على الأحكام التي تصـدر في روما فقط ، وبحظر جلد المواطنـين الرومان وكذلك بحظر إعدامهم دون محاكمة ، فقد كان حكام الولايات يتمتعون بسلطات مطلقة سواء على المقاتلين أم التجار الايطاليين . وفضلا عن ذلك فإنه لا جدال في أن الدولة الرومانية وحدها دون حليفاتها الايطاليات هي التي كانت تستحوذ على الجزية والمكوس الجمركية ودخل الأرض العامة والمناجم في الولايات .

ولا بد من أن الحلفاء كانوا يضيقون بما درج عليه الأيديلس الرومان من جمع « تبرعات » من المدن الحليفة لإقامة الحفلات العامة في روما . ويبدو أنه عندما غالى الأيديلس في ذلك واشتد سخط الحلفاء على هذا العبث ، أضطر السناتو إلى إصدار قرار في عام ١٧٩ ق . م . يحظر مثل هذه الابتزازات . وأسوأ من ذلك أن حكام روما في أثناء تنقلاتهم في أرجاء إيطاليا كانوا لا يستأجرون ما يلزمهم من أماكن لإيوائهم هم وحاشياتهم أو يشترون ما يلزمهم من حاجيات وإنما كانوا يفرضون على المدن التي ينزلون بها أن تتكفل بذلك كله . وتذكر المصادر القديمة أنه في كثير من المدن الايطالية أسيئت معاملة الحكام المحليين لأنهم لم يبادروا إلى إخلاء الحمام العام وإعداده ليستخدمه حاكم روماني أو زوجته .

وتشير القرائن إلى أنه بمرور الزمن واتساع نطاق الامبراطورية وانفراد الرومان بحكمها والفوز بنصيب الأسد من فرص استغلال ولاياتها ، أخذ الحلفاء يشعرون

بوجود فوارق قوية أبرزت بوضوح لا لبس فيه ولا غموض أنهم بدلا من أن يكونوا والرومان حلفاء متساوين كان الرومان سادة وهم مسودين . ولا بد من أن إحساس الحلفاء بالمرارة لوجود هذه الفوارق كان يزيده أثرا في نفوسهم مشاركتهم الرومان رفاقا في السلاح على مدى وقت طويل ، وتحملهم العبء الأكبر في الفتوحات ، وانتشار الحضارة الرومانية بينهم انتشارا واسعا عميقا ينهض دليلا عليه مستوى الآداب اللاتينية التي أسهم بها في القرن الثاني قبل الميلاد القمبانيون والأبوليون والأومبريون .

وقد كانت النتيجة المحتومة لهذه الصلات الوثيقة وهذا التطور الحضاري اندماج سكان شبه الجزيرة الايطالية كافة في هيئة المواطنين الرومان . بيد أن مسألة حصول المجتمعات الايطالية الحليفة على حقوق المواطنة الرومانية كاملة لم تظهر في أفق السياسة الرومانية قبل عام ١٢٥ ق . م . والواقع أنه حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد كانت هذه المجتمعات أكثر حرصا على الاحتفاظ باستقلالها من الاندماج في الشعب الروماني . ففي عام ٢١٦ ق . م . رفضت براينستي قبول حقوق المواطنة الرومانية . وإزاء تدهور حالة صغار المزارعين الايطاليين في خلال القرن الثاني قبل الميلاد ، كان الكثيرون منهم يهاجرون إلى روما ويستقرون فيها ويدرجون أسماءهم في قوائم المواطنين الرومان . ولما كان يترتب على ذلك نقص عدد العناصر التي كانت المجتمعات الايطالية تعتمد عليها في تكوين جيوشها ، فإن هذه المجتمعات كانت تطالب السناتو باتخاذ ما يلزم من إجراء لوضع حد لهذه الحالة . وتبعا لذلك فاننا نطالع في المصادر القديمة أنه قد حدث عدة مرات في خلال الفترة الممتدة من عام ١٨٧ إلى عام ١٦٨ ق . م . أن أسماء كثيرين من الحلفاء الايطاليين قد حذفت من قوائم المواطنين الرومان . وأن أصحاب هذه الأسماء قد أُرغموا على العودة إلى مواطنهم . وفي رأي بعض الباحثين أن التفسير الصحيح لهذا الاجراء هو أن الباعث عليه كان الاستجابة إلى رغبات المجتمعات الايطالية الحليفة ذاتها ولم يكن ميل الرومان أنفسهم في ذلك الوقت إلى حرمان حلفائهم التمتع بحقوق المواطنة الرومانية . ويُستدل على

ذلك بأن أهل قابوا – وكانوا قد حرموا استقلالهم الذاتي وحقوق المواطنة الرومانية الخاصة في عام ٢١٠ ق . م . جزاء خروجهم على روما وانضمامهم إلى هانيبال – أعيد اليهم كل ما حرموه في عام ١٨٩ ق . م . ، وبأنه في العام التالي منحت حقوق المواطنة الرومانية كاملة إلى ثلاثة مجتمعات صغيرة تقع على الحدود بين لاتيوم وقمبانيا وهي فوندي (Fundi) وفورمياي (Formiae) وأربينوم (Arpinum) . وفضلا عن ذلك فإن الرومان استبقوا للحلفاء اللاتين حقهم في الحصول على حقوق المواطنة اذا انتقلوا إلى روما للاستقرار فيها ولكن بشرط أن يكونوا قد تولوا قبل ذلك مناصب عامة في مدنهم الأصلية .

وليست هناك مجافاة للحقيقة في تفسير طرد الايطاليين من روما بأنه كان استجابة إلى رغبة المجتمعات الأيطالية ذاتها ، ولكن هذا التفسير لا يصور الحقيقة كاملة . ولا يجوز اعتبار هذا الاجراء وحده دليلا على عزوف الرومان عندئذ عن منح الحلفاء الايطاليين حقوق المواطنة الرومانية كاملة . بيد أن الأدلة التي سيقت على عدم جنوح الرومان إلى ذلك ليست شافية ولا مقنعة . لأن مواطني قابوا لم يمنحوا الحقوق الرومانية كاملة ، ولأنه لم يكن من شأن منح مواطني فوندي وفورمياي وأربينوم هذه الحقوق ولا من شأن احتفاظ الحلفاء اللاتين بحق الحصول على حقوق المواطنة الرومانية كاملة بعد تولي مناصب عامة في مدنهم الأصلية والانتقال إلى روما للاستقرار فيها ، تمتع عدد كبير من الحلفاء بحقوق المواطنة الرومانية كاملة. وفي رأينا أن طرد الايطاليين من روما استجابة إلى رغبة مجتمعاتهم ذاتها لا يمنع من أن الباعث على هذه الاستجابة كان حرص السناتو على عدم التوسع في منح الحقوق الرومانية كاملة ، وهو الحرص الذي أخذ يظهر منذ بداية القرن الثاني قبل الميلاد . ويدل على ذلك أمران : وأحدهما هو أنه كان مألوفا السماح للاتين بالمشاركة في إنشاء المستعمرات الرومانية كما كان مألوفا أن هذه المشاركة كانت تستتبع منح المشاركين اللاتين حقوق المواطنة الرومانية كاملة ، ولكنه عندما شارك مواطنون من فرنتينوم (Ferentinum) في تأسيس مستعمرة بوكسنتوم (Buxentum) في عام ١٩٤ ق . م . وطالبوا

بحقوق المواطنة الرومانية رفض السناتو طلبهم ، وذلك لأن الاستمرار في منح اللاتين الذين يشاركون في إنشاء المستعمرات الرومانية كان يؤدي إلى تمتع عدد كبير من اللاتين بالحقوق الرومانية كاملة مثل ما كان يؤدي إلى ذلك سماح الرومان للحلفاء الايطاليين الاستقرار في روما وتسجيل أنفسهم في قوائم المواطنين الرومان . والأمر الآخر ، هو أنه بعد أن كان يحق لأصحاب الحقوق اللاتينية الذين ينتقلون إلى روما للاقامة الدائمة فيها الحصول على حقوق المواطنة الرومانية كاملة ، قُصر ذلك الحق في القرن الثاني قبل الميلاد على الذين سبق لهم تولي مناصب عامة في مدنهم الأصلية . ومن الواضح أن الهدف من ذلك كان الحد من عدد الذين يحصلون على الحقوق الرومانية كاملة .

وسوف نرى أنه عندما أصبح الحلفاء الايطاليون شديدي الرغبة في الحصول على الحقوق الرومانية وأخذوا يطالبون بالحصول عليها ، أصبح الرومان بدورهم أكثر ميلا إلى عدم التوسع في منح هذه الحقوق ، وأنه كلما اشتدت مطالبة الحلفاء اشتد حرص الرومان على عدم مشاركة الحلفاء لهم في التمتع بمزايا الحقوق الرومانية ؛ مما أفضى الى سلسلة من المآسي التي توجها نشوب « حرب الحلفاء » في صدر القرن الأول قبل الميلاد .

الفصل الرابع عشر

الحياة الاقتصادية ـ الحياة الاجتماعية ـ الحضارة (١)

تمخضت الفتوحات الرومانية منذ عام ٢٦٤ حتى عام ١٣٣ ق . م . عن نتائج في حياة روما وإيطاليا الاقتصادية والاجتماعية لا تقل أثراً عن نتائجها في

---

(١) المصادر :

بالأضافة إلى مصادر الفصول التاسع والعاشر والحادي‌عشر والثالث عشر ، راجع **Cato, De Agri Cultura** ومسرحيات بلاوتوس (Plautus) وترنتيوس (Terentius)

المراجع :

A.H.J. Greenidge, Roman Public Life; W.E. Heitland, Roman Republic, Vol. II, Ch. XXXIV; Agricola, Chs. XXII-XXIII; T. Frank, Economic History, Chs. VI-VII; Economic Survey, Vol. I, Chs. II-IV, J.G. Milne, Development of Roman Coinage, 1937, pp. 11-12; Cambridge Ancient History, Vol. VIII, Chs. VIII, XI, 4-7, XIV, 7 ; Vol. IX, Ch. XXI, 1-8; P. Louis, Ancient Rome at Work, 1927; H. Last, Family and Social Life, in the Legacy of Rome, 1923; H. Hill, The Roman Middle Class, 1952; W.W. Fowler, Religious Experience, Ch. XIII; C. Bailey, Religion of Ancient Rome, Chs. V-VI; F. Altheim, Roman Religion, Bk III; J.W. Duff, A Literary History of Rome from the Origins to the Close of the Golden Age, 1914, Chs. I-VII; J.W. Mackail, Latin Literature, Bk I, Chs. I-III; M. Hadas, History of Latin Literature, 1952, Chs. I-IV; F. Schulz, Roman Legal Science, 1946, pt. I; E. Strong, Art in Ancient Rome, 2 vols., 1929; and in Cambridge Ancient History, Vol. IX, Ch. XX; M. Cary, op. cit., Ch. XIX; A.E.R. Boak, ap.cit., Ch. XI; H.H. Scullard, op. cit., Chs. XVI-XVIII.

الحياة السياسية . وقد كانت لهذه النتائج الاقتصادية والاجتماعية بدورها آثار بعيدة المدى في الحياة السياسية في القرن الثاني قبل الميلاد على نحو ما رأينا ، وكذلك في الصراع السياسي الذي شهده القرن الأخير من عهد الجمهورية الرومانية على نحو ما سنرى فيما بعد .

وقد كانت أهم التطورات في خلال الفترة الزمنية التي نحن بصددها الآن هي كثرة عدد الضياع الكبيرة (Latifundia) وهي التي كان العبيد يستخدمون في استغلالها ، وتدهور حال صغار المزارعين الأحرار ونقص عددهم ، وزيادة عدد أفراد الطبقة الدنيا في روما ، وتكوين طبقة جديدة من رجال الأعمال والتجار وهي المعروفة بطبقة الفرسان (Equites أو Ordo Equester) ، وانتشار حياة الترف بين الأثرياء ، والأخذ بمظاهر الحضارة الأغريقية .

أولا – الحياة الإقتصادية

١ – الزراعة

أسهمت أسباب متعددة في جعل انتشار الضياع الكبيرة عاملا بارزا بعيد الأثر في الزراعة الايطالية . وقد كانت أهم هذه الأسباب : النظام الذي اتبعه الرومان في التصرف في الأرض العامة ، وازدياد الثروة ، وأعمال التخريب التي أنزلتها الحرب البونية الثانية بالأقاليم الزراعية وبخاصة في جنوب إيطاليا . وعجز الكثيرين من صغار أرباب الأراضي عن الحصول من أراضيهم على ما يكفيهم ويكفي أسرهم ،وذلك من ناحية نتيجة لاستدعائهم للخدمة العسكرية وتغيبهم عن أراضيهم ومن ناحية أخرى نتيجة لمنافسة الضياع الكبيرة إلى حد جعل عملهم غير مجزٍ .

وبيان ذلك أن الرومان دأبوا منذ عهد طويل على أن الأراضي الصالحة للزراعة التي تفيض عما يلزم لإنشاء المستعمرات المدنية والعسكرية وكذلك

أراضي المراعي والغابات تؤجر للراغبين في ذلك من المواطنين الرومان ومواطني المدن الحليفة . وفي مقابل ذلك كان المستأجرون يدفعون لخزانة الدولة الرومانية قيمة نحو من ١/٥ المحصول اذا كانت الأرض تزرع كروما أو زيتونا أو فاكهة وقيمة نحو من ١/١٠ المحصول فيما عدا ذلك ، وضريبة عن عدد رءوس الماشية والأغنام التي تربى في أرض المراعي . ونتيجة لغزوة هانيبال وفشلها اتسعت اتساعا كبيرا مساحة الأرض التي كان يمكن تأجيرها ، ذلك أنه في جنوب شبه الجزيرة الايطالية خرب هانيبال أراضي حوالي أربعمائة مجتمع إيطالي وأفنى عددا كبيرا من الايطاليين . واستولت الدولة الرومانية على الأرض التي تركت دون أصحاب فضلا عن استيلائها على جانب كبير من أراضي المجتمعات التي هجرت جانب الرومان وانضمت إلى هانيبال . ولما كانت مساحة الأرض التي ضمتها روما على هذا النحو أكثر اتساعا من أن تعيد تعميرها بمواطنيها أو باللاتين ، فانها فيما بين عامي ١٩٤ و ١٩٢ ق . م . أنشأت سلسلة من المستعمرات الرومانية واللاتينية على امتداد الشاطىء الجنوبي الغربي من مصب نهر فولتورنوس في شمال قمبانيا حتى مضيق مسانا . وفي عام ١٨٠ ق . م . نقلت ٤٠,٠٠٠ ليجوريا من بلادهم إلى إقليم سامنيوم . ومع ذلك فانه تبقت مساحات واسعة من الأرض التي استولت عليها روما قامت بتأجيرها للراغبين في ذلك .

وبطبيعة الحال كان أكثر القادرين على الإفادة من ذلك هم أكثر الرومان ثراء ، لأنهم هم وحدهم الذين كان لديهم من الموارد ما يمكنهم من توفير كل ما يلزم لاستغلال مساحات واسعة من الأرض إما بفلاحتها وإما بتربية الحيوان عليها . والمزايا التي كانت الأرستقراطية الرأسمالية الزراعية تحصل عليها تفسر ولو إلى حد على الأقل سبب معارضة السناتو لمشروع تقسيم أرض « الاقليم الغالي » في عام ٢٣٢ ق . م . وإذ دأب مستأجرو الأرض العامة على اعتبارها في حيازتهم (possessio) ، وأغفلت الحكومة الرومانيـــة على مر الزمن تأكيد حقوق الدولة على أرض الحيازة ومطالبة أربابها (possessores) بسداد الإيجـــار المستحق عنها ، وضاعت في حالات كثيرة السجلات التي تثبت طبيعة أصل

الأرض وحدودها ، نسي أربـاب أرض الحيازة (possessores) أو تناسوا مع الوقت حقوق الدولة على هذه الأرض وأصبحوا يعتبرونها ملكا خاصا لهم ولأسرهم ، ويتصرفون فيها بالبيع والرهن والهبة كما لو كانت ملكا حراً لهم ، وكذلك أصبح من العسير البحث عن أصل الأرض بل إثارة هذا الموضوع دون أثارة الخواطر ، كما سنرى عند الكلام عن أحداث عام ١٣٣ ق . م .

وقد ساعد على اقتناء الضياع الكبيرة وانتشارها ازدياد الثروة نتيجة لفتوحات الرومان المتعاقبة في خلال القرن الثاني قبل الميلاد ، فقد كان الجانب الأكبر من غنائم الحروب من نصيب القواد المنتصرين ، كما أن حكام الولايات كانوا يجمعون ثروات كبيرة في الفترة القصيرة التي يقضونها في حكم ولاياتهم . هذا إلى أن أولئك الذين كانوا يمارسون نشاطا محموما في الولايات سواء في مجال الضرائب أم في مجال استغلال أملاك الرومان العامة هناك أم في مجال التجارة أم في مجال الأعمال المصرفية على اختلاف أنواعها ، كانوا يجنون أرباحا طائلة . وقد كان استثمار الثروة في الأرض أكثر السبل أمانا وكذلك ضمانا لتنميتها ولا سيما أن الاتجاهات الجديدة في الزراعة الايطالية — نتيجة لتأثرها بالأساليب السائدة في الدول الهلينيسية — كانت مواتية للمزارعين الرأسماليين بقدر ما كانت غير مواتية لصغار المزارعين . ذلك أن المزارعين القادرين بادروا إلى الأخذ بالوسائل الفنية المألوفة بين الأغريق ، وكان أهمها العناية بانتقاء البذور الجيدة واتباع نظام الدورة الزراعية تفاديا لإنهاك التربة . ومع ذلك فانه لم يلبث أن تبين أن زراعة القمح لم تعد مجدية ، لأن بعض الولايات كانت تدفع جزيتها لروما قمحا ، وبعض الدول التي تنتج القمح بوفرة وتكاليف زهيدة كانت تصدر قمحها إلى روما ، وإنتاج الضياع الأيطالية كان كذلك وفيرا وبأدنى التكاليف نتيجة لاتباع الوسائل الفنية الحديثة واستخدام العبيد على نطاق واسع . وإزاء ذلك كله انخفض سعر القمح في إيطاليا انخفاضا كبيرا إلى درجة أن نصف مساحة الأرض التي كانت تزرع قمحا أصبحت لا تأتي بتكاليفها . وإذ وقف صغار المزارعين مكتوفي الأيدي حيال هذا الوضع ، عمد

المزارعون الرأسماليون إلى خفض مساحة الأرض التي كانوا يزرعونها قمحاً ، وإلى غرس أخصب أجزاء أراضيهم كروما وأقلها خصبا زيتونا ، وإلى الاهتمام بتربية الماشية .

وبالقياس إلى المستويات المعروفة اليوم ، لم تكن الضياع الإيطالية ضياعا كبيرة ، فقد كانت مساحة الضيعة تتراوح بين ١٠٠ و ٢٤٠ يوجرا (أي ما بين ٦٦ و ١٥٨ فدانا) ، ولكنها بالقياس إلى المستويات القديمة ، وبالنظر إلى قلة الأدوات الزراعية ، كانت تعتبر ضخمة ولا سيما اذا أدركنا أنه في المتوسط كانت مساحة المزرعة التي تقوم على فلاحتها أسرة واحدة تتراوح بين أربعة وثمانية فدادين . بيد أنه يجب أن يلاحظ أن كبار أرباب الأراضي كانوا عادة يملكون عددا من الضياع في أنحاء متفرقة في ايطاليا وبخاصة في جنوبها ووسطها . ووفقا للرسالة التي وضعها قاتو الكبير عن الزراعة ، كانت المزرعة التي تبلغ مساحتها ٦٦ فدانا تحتاج إلى ١٦ عبدا ، فضلا عن الأيدي العاملة التي كانت تُستأجر لأداء أعمال إضافية عند جمع المحصول .

وإنه لمن اليسير أن ندرك كيف أن المزارع الصغير — وكان عادة لا يملك من الوسائل الا أدواته وما يستطيع أن يؤديه من عمل هو وأفراد أسرته — لم يكن في وضع يسمح له بمنافسة الغني أو حتى في مجاراته . ذلك أنه لم يكن في وضع يسمح له بدفع ثمن البذور الجيدة ، ولا بغرس أرضه كروما أو زيتونا وانتظار عدد من السنين حتى يجني ثمار غرسه . ولم يكن في وسعه كذلك أن يستبدل بالزراعة تربية الحيوان لأنه حتى اذا كان يستطيع شراء ماشية لتربيتها فانه كان لا يستطيع أن يوفر لماشيته مراعي في التلال صيفا وفي الأراضي الساحلية المنخفضة شتاء .

وقد كان استثمار الضياع يقتضي وجود وفرة من الأيدي العاملة الزهيدة الأجر . وطوال القرن الثاني قبل الميلاد وجد أصحاب الضياع ما كانوا يحتاجون اليه في الأعداد الكبيرة من أسرى الحرب ، وهم الذين غمرت بهم روما أسواق النخاسة في عالم البحر المتوسط . وقد قُدِّر أن نحواً من ٢٥٠,٠٠٠ أسير أحضروا

عبيدا إلى روما في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد . وحينما كان العرض يقل عن الطلب كان القراصنة يسدون النقص بنشاطهم في خطف كل من كانوا يستطيعون وضع أيديهم عليه . وفضلا عن العبيد المستوردين بطريق أو آخر ، كان كثيرون من العبيد يربون في الضياع ليكونوا مصدر دخل وفير آخر لأربابهم . وطالما أمكن الحصول على العبيد بأثمان زهيدة ، كانوا يفضّلون على الأجراء الأحرار لأنهم من ناحية لم يكونوا عرضة للتجنيد ، ومن ناحية أخرى كان في الأستطاعة استغلالهم بلا رحمة أو شفقة . واذا كان العبيد يحصلون على ما يسد حاجتهم من طعام وكساء ، فان ذلك كان من أحط الأنواع . وغالبا ما كانت أماكن نومهم عبارة عن أقبية تحت سطح الأرض . وكانت فرص افتداء حريتهم من مصروف الجيب (peculium) التافه الذي يعطونه تكاد أن تكون معدومة . وكان سلاح العبيد الرئيسي للتعبير عن سخطهم في بادىء الأمر هو المقاومة السلبية بالتباطؤ أو الاهمال في أداء عملهم وبنشل ما قد تصل اليه أيديهم إذا ما غفل أو تغافل عنهم الرقباء المنوطون بالإشراف عليهم . وإزاء هذه الظروف المنكرة التي كانت أعداد كبيرة من العبيد تعيش في كنفها ، لم تكن فكرة الثورة بعيدة عن آذانهم . واذا كانت شبه الجزيرة الأيطالية لم تشهد في خلال القرن الثاني قبل الميلاد ثورة عارمة بين العبيد مثل تلك التي وقعت في صقلية في عام ١٣٥ ق . م . ودامت ثلاث سنوات ، فانها شهدت عددا من الأضطرابات الصغرى التي قُضي عليها دون هوادة .

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن الاعتماد على العبيد على نطاق واسع قضى كلية على الأجراء الأحرار ، وذلك لأنه لم يوجد من العبيد ما يكفي لمواجهة احتياجات حصاد القمح وجمع محصول العنب والزيتون ، فقد كانت هذه الاحتياجات الموسمية تتطلب عددا من الأيدي العاملة أكبر مما كانت الضياع تستخدمه بانتظام على مدار السنة .

وقد كان من أخطر ما صحب انتشار الضياع الكبيرة وازدهارها أنه في أكثر

أرجاء شبه الجزيرة الأيطالية نقص عدد صغار المزارعين وهم الذين كانوا المصدر الرئيسي لتكوين الجيوش الرومانية . إذ أن قوائم إحصاء المواطنين الرومان الصالحين للخدمة العسكرية ترينا أنه بعد الإفاقة من الخسائر المترتبة على الحرب البونية الثانية ، أخذ عدد أولئك المواطنين يهبط باطراد في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد . وبيان ذلك أن عدد أولئك المواطنين كان ٢٩١,٠٠٠ في عام ٢٢٥ ق . م . أي قبل أن تبدأ الحرب البونية الثانية وهي التي من جرائها هبط عددهم إلى ٢١٤,٠٠٠ في عام ٢٠٤ ق . م . ثم ارتفع إلى ٣٣٧٠٠٠ في عام ١٦٤ ق . م . ليهبط إلى ٣١٨,٠٠٠ في عام ١٣٦ ق . م . ، وذلك بنقص قدره ١٩٠٠٠ مواطن على حين أنه كان يجب أن يزيد بمعدل قدره ٥٠,٠٠٠ على الأقل . وهذا النقص يُفسر إلى حد كبير بنقص عدد الذين لم يعد لديهم النصاب القانوني اللازم لتسجيلهم في قوائم الصالحين للخدمة العسكرية برغم إنقاص المؤهل المالي للتسجيل في أدنى فئات المواطنين ، أي الفئة الخامسة ، من ١١٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ آس (أي إلى حوالي ٤٥ جنيه أسترليني) . وفي كنف هذه الظروف ازدادت باطراد صعوبة حشد الجنود اللازمين للخدمة العسكرية . وكان ترابنة العامة كثيرا ما يتدخلون لانقاذ المزارعين من التجنيد .

وكان مرد نقص عدد صغار المزارعين من ناحية إلى عدد الذين كانوا يلقون حتفهم أو يشوهون في الحروب ، ومن ناحية أخرى إلى أنه في بعض الجهات ترتب على منافسة الضياع الكبيرة أن فلاحة المزارع الصغيرة أصبحت غير مجزية ، وإلى أنه في جهات أخرى كان كبار الملاك يلجأون إلى وسائل غير مشروعة لطرد صغار المزارعين من الأرض العامة التي منحوها وينتهزون كل فرصة لشراء الأقطاعات الصغيرة . وقد أسهمت الخدمة العسكرية إلى حد كبير في تدهور حال صغار المزارعين وتبعا لذلك في نقص عددهم . ذلك أن الخدمة العسكرية كانت لا تفرض الا على المواطنين الذين كان لديهم نصاب مالي كان حده الأدنى في هذه الفترة ٤٠٠٠ آس ، وأن أغلب هؤلاء المواطنين كانوا يتكسبون قوتهم من الزراعة . ونتيجة لذلك كانت الجيوش الرومانية تُجند أساسا من

المزارعين. وعندما أصبحت الجيوش الرومانية تخوض غمار حروبها في ميادين تقع خارج ايطاليا في مختلف أرجاء البحر المتوسط ، كما أصبح ضروريا الاحتفاظ بحاميات رومانية على الأقل في بعض الولايات التي فتحتها هذه الجيوش ، لم يعد ميسورا تسريح القوات في الشتاء وإعادة حشدها للقيام بحملات في الصيف ، مما ترتب عليه أنه لم يعد في وسع الجنود المزارعين العودة إلى مزارعهم للقيام على الأقل بجانب من المهام الزراعية الضرورية . ولما كان الجنود المزارعون يبقون بعيدين عن مواطنهم عدة سنين متتابعة ، فان مزارعهم وموارده‍م المالية كانت تتأثر بهذه الغيبة الطويلة . وفضلا عن ذلك فانه بعد قضاء بضع سنين في حياة الجندية المليئة بالمغامرات كان كثيرون ممن بقوا على قيد الحياة بعد انتهاء خدمتهم العسكرية يجدون أنفسهم غير صالحين أو غير قادرين على العودة إلى مزاولة الحياة الريفية الرتيبة . ولما كانوا يجدون أن مزارعهم قد رُهنت لإعالة أسرهم وأنه لم تعد لديهم الصلاحية أو القدرة على تكسب قوتهم من الزراعة ، فانهم كانوا يبيعون مزارعهم لجيرانهم الأثرياء ويرحلون إلى روما لينضموا إلى جموع الغوغاء المتعطلة . هذا وإن كان بعض من ساءت حالهم المادية ولكنه بقيت لديهم القدرة أو الصلاحية لمزاولة الزراعة كانوا يهاجرون إلى « غاليا قيس البينا » (بلاد الغال هذه الناحية من الألب) ، حيث كانت لا تزال توجد أراض يستطيع صغار المزارعين استغلالها استغلالا مثمرا .

وقد تأثر المزارعون الايطاليون بالعوامل نفسها ، فقد قُتل الكثيرون منهم في الحروب وهجر الكثيرون مزارعهم ويمموا وجوههم شطر روما ، مما حدا بمدنهم إلى استصراخ السناتو لارغامهم على العودة إلى مواطنهم الأصلية .

وحين أخذ السناتو يواجه مشكلة خطيرة في تجنيد القوات العسكرية ، كان أمامه إما الجنوح إلى سياسة خارجية مسالمة والنزول عن الممتلكات الخارجية البعيدة ، وإما الاستمرار في سياسته العدوانية وما كان ذلك يستتبعه من ضرورة حشد الجيوش اللازمة لمتابعة حروب الفتح وإقامة الحاميات في الولايات للدفاع

عنها . وإذ آثر السناتو متابعة سياسته العدوانية كان عليه أن يتدبر الأمر ليستطيع فرض هذه الأعباء العسكرية المتزايدة على مواطنين كان عددهم آخذاً في التناقص .

ولما كان الرومان يدركون النتائج المترتبة على انتشار الضياع الكبيرة ، وكان القانون الذي صدر في عام ٣٦٧ ق . م . وقضى بتحديد مساحة أرض الحيازة وكذلك ما يجوز امتلاكه من ماشية أو أغنام قد أصبح نسيا منسيا ، فانه صدر قانون مماثل حوالي عام ١٨٠ ق . م . فيما يرجح ، لوقف انتشار الضياع الكبيرة ومنع تحويل الأراضي الزراعية إلى مراع . وفي عام ١٧٣ ق . م . خول السناتو لأحد القنصلين تحديد نطاق كل من الأرض العامة والأرض الخاصة في قمبانيا لوقف طغيان أرباب الأرض الخاصة على الأرض العامة . وتقسيم الأرض العامة على فقراء المواطنين . ولم تستطع الحكومة أن تسترد الا ٥٠,٠٠٠ يوجرا بشرائها فعلا من واضعي اليد عليها . وإزاء الضجة التي أثارها الرأسماليون الزراعيون احتجاجا على ذلك ، لم تحاول الحكومة تكرار ما فعلته واتجهت إلى محاولة تجفيف مستنقعات بومبتيناي (Pomptinae paludes) في لاتيوم وإلى انشاء مستعمرة في أوكسينوم (Auxinum) . وعندما تجددت مشكلة الفقراء عقب القضاء على قرطجنة وتسريح الجيش ، حاول جايوس لايليوس الأصغر (Laelius Minor) : أحد البرايتورس في عام ١٤٥ ق . م . حل هذه المشكلة ، فتقدم إلى السناتو بمشروع يقترح استرداد أرض الحيازة الزائدة على النطاق الذي حدده القانون وتوزيعها على فقراء المواطنين ، الا أنه اضطر إلى سحب مشروعه إزاء احتجاج كبار أرباب الأراضي .

واذا كان كبار أرباب الأراضي قد استطاعوا عادة تحقيق رغباتهم الأنانية ، فان انتشار الضياع الكبيرة لم يترك آثاره السيئة بمعدل واحد في كل أرجاء ايطاليا . ذلك أنه اذا كانت الضياع الكبيرة قد طغت على ما عداها في جنوب ايطاليا وقمبانيا ولاتيوم وأترووريا ، فأن المزارعين الأيطاليين في وسط ايطاليا وأومبريا استطاعوا الصمود أمام منافسة الضياع الكبيرة وحيل أربابها .

٢ — الصناعة

لم تشهد ايطاليا الا تغييرات قليلة في مجال الصناعة في خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد . ذلك أنه اذا كان استخدام جانب من أسلاب الحروب في إقامة منشآت عامة في مدينة روما ، واستخدام جانب من الثروة الفردية الجديدة في إقامة منشآت خاصة ، قد أديا إلى ازدهار الحرف المتصلة بالبناء ، فان الثروة الطائلة التي تمخضت عنها الفتوحات لم تؤد إلى ازدهار الحرف والصناعات بوجه عام في روما ، وإلى ما كان ذلك يستتبعه من مزاولتها على نطاق واسع ومن زيادة عدد المشتغلين بها ، بدليل أن أرباب الحرف والصناعات لم يسهموا في زيادة عدد سكان روما إلا بقدر محدود .

واذا كانت تارنتم ، بوصف كونها إحدى المدن الصناعية القديمة في إيطاليا ، لم تستطع إطلاقا التغلب على آثار النكبات التي لحقت بها في أثناء الحرب البونية الثانية ، فان قابوا — برغم حرمانها استقلالها الذاتي وحقوق المواطنة الخاصة الرومانية من عام ٢١٠ حتى عام ١٨٩ ق . م . — ظلت مزدهرة وتمارس إلى جانب صناعتيها القديمتين ، الآنية الفخارية والآنية البرونزية ، صناعتين جديدتين هما صناعتا الأثاث والعطور . وعندما انتعشت الصناعة المعدنية في بوتيولي (Puteoli) إلى حد أنها فاقت مدن أتروريا في هذا المجال ، كما أن صناعة النسيج نمت في بومبيي (Pompeii) نموا كبيرا ، لم تعد أتروريا وإنما قمبانيا هي المركز الصناعي الرئيسي في ايطاليا في خلال القرن الثاني قبل الميلاد .

وقد ترتب على انتشار الضياع الكبيرة واتجاه أربابها إلى غرس الكروم والزيتون ازدهار صناعتي النبيذ وزيت الزيتون وتبعا لذلك ازدهار صناعة الآنية الفخارية اللازمة لتعبئة النبيذ والزيت .

٣ — التجارة

وفي أعقاب اتساع الأمبراطورية الرومانية اتسع نطاق تجارة ايطاليا الخارجية ،

بيد أنها كانت إلى حد كبير من جانب واحد . ذلك أن صادرات ايطاليا كانت طفيفة جدا فيما عدا صادراتها من مصنوعات قابوا البرونزية ومن النبيذ وزيت الزيتون اللذين كانت الضياع الكبيرة تنتجهما بوفرة . على حين أن روما كانت تستورد كميات كبيرة من القمح من الخارج فضلا عن أغلب إنتاج المناجم الأسبانية من الذهب والفضة . هذا إلى أن روما والضياع الكبيرة كانت تستورد بانتظام أعدادا كبيرة من العبيد الذين كانوا يباعون في سوق النخاسة في ديلوس وهي التي أصبحت مركز تجميع هذه السلع البشرية لتصديرها إلى الأسواق الإيطالية .

وقد سبق أن ذكرنا أن السياسة الرومانية لم تعن بضروب النشاط التجاري . وخير دليل على قلة اهتمام الأرستقراطية الرومانية بالتجارة الخارجية أنها سمحت في عام ٢١٨ ق . م . بصدور قانون يحظر عليها امتلاك سفن ذات حمولة كبيرة بحيث تستطيع أن تمخر عباب البحار . وإزاء ذلك لا عجب أن هذه الأرستقراطية لم تحفل بأن تهيء للطبقات الأخرى السبل التي كانت تكفل لها احتكار التجارة الخارجية . والمعاهدات التي أبرمها السناتو مع الشعوب المقهورة والحليفة تدل على الاتجاه نفسه الذي ينم عن إغفال الاهتمام بالتجارة الخارجية . ذلك أن هذه المعاهدات لم تتوخ عادة إعطاء أية امتيازات خاصة للتجار الرومان والايطاليين . وفي الولايات الرومانية كانت أهم ميزة للتجار الرومان هي سهولة الوصول إلى محكمة الحاكم الروماني . وأبلغ من ذلك كله دلالة على قلة الاهتمام بالتجارة الرومانية الخارجية أنه بعد الحرب البونية الثانية نفض السناتو يده من مسئولية حماية التجار الايطاليين من القراصنة . وفي كنف هذه الظروف ظل نقل التجارة في البحر المتوسط بوجه عام في قبضة الاغريق والفينيقيين ، مع ملاحظة أن نشاط قورنثة ورودس وقرطجنة في هذا المجال انتقل إلى ديلوس والأسكندرية من ناحية وإلى أوتيقا وقادس من ناحية أخرى .

ومع ذلك فانه إلى جانب ذلك العدد الكبير من التجار الايطاليين الذين

أتخذوا ديلوس مقرا لنشاطهم التجاري ، اقتفى بعض الايطاليين أثر بحارة قادس في نقل الصفيح من بريطانيا واشتغل البعض الآخر بنقل النبيذ من ايطاليا إلى بلاد الغال وحوض الدانوب . ومما يجدر بالملاحظة أن أغلب التجار الأيطاليين المقيمين في ديلوس – وكان الاغريق يصفونهم بأنهم « رومان » – كانوا أصلا من مدن قمبانيا والمدن الأغريقية في جنوب ايطاليا ، وأن أقلهم كانوا من أواسط ايطاليا ، وأن الميناء الرئيسي الذي كانت تتدفق عليه الواردات الخارجية الذاهبة إلى ايطاليا كان بوتيولي في قمبانيا . وبرغم أن هذا الميناء كان مستعمرة رومانية ، فإن الغالبية العظمى من سكانه كانوا إغريقا أو قمبانيين ، وأما ميناء أوستيا – ميناء روما – فأنه لم يكن قد بلغ بعد درجة تذكر من الأهمية .

٤ – النشاط المالي

وعلى حين أن الرومان أبطأوا الخطى في ممارسة النشاط التجاري ، بلغوا سريعا في مجال النشاط المالي مستوى من المهارة فاق كثيرا مستوى الأغريق والشرقيين . وقد كان تركيز مختلف ضروب هذا النشاط في قبضة الرومان نتيجة طبيعية لفتوحاتهم ، فقد كان من نتائجها أن أرصدة عالم البحر المتوسط من الذهب والفضة تكدست في روما ، مما أتاح للرأسماليين الرومان فرصا لم تكن متاحة لمنافسيهم . وقد كانت ضروب هذا النشاط تشمل التعاقد مع الحكومة الرومانية على إقامة مختلف أنواع المنشآت العامة ، وعلى استغلال المناجم أولا في أسبانيا ثم في مقدونيا ، وعلى جمع إيجارات الأرض العامة وعلى جباية المكوس الجمركية في إيطاليا وفي الولايات الرومانية ، وعلى جباية الضرائب في هذه الولايات . وكان أولئك الذين يتعاقدون مع الحكومة الرومانية على ممارسة نوع أو آخر من هذه الأنشطة يدعون بوبليقاني (Publicani) ، وكانوا عادة يؤلفون شركات مساهمة لها شخصيات معنوية بحيث أنها كانت تستطيع الاستمرار في مزاولة أعمالها بعد تقاعد أو وفاة واحد أو أكثر من الشركاء المؤسسين . واذا كان نشاط البوبليقاني

يمتد ليشمل كذلك تقديم قروض قصيرة الأجل ، فإن ممارسة إقراض النقود كانت عادة جزءا من أعمال المصرفيين وكانت متعددة النواحي ومصدر ربح وفير سواء في ايطاليا أم في الولايات .

وإزاء القيود التي فرضها العرف وكذلك القانون على نشاط أعضاء السناتو ، وكان من شأنها حرمانهم الإسهام بطريق مباشر في الأعمال التجارية والمالية ، ظهرت خارج الطبقة الأرستقراطية طبقة ثرية جديدة تتألف من رجال الأعمال ، هي طبقة الفرسان التي سيأتي الحديث عنها فيما بعد .

ثانياً ــ الحياة الاجتماعية

١ ــ طبقة الفرسان

كان من أبرز مظاهر الفترة التي نحن بصددها ظهور هذه الطبقة الجديدة ، وهي التي أثرت ثراء كبيرا من وراء نشاطها في مختلف ضروب الأعمال الرأسمالية واستثمرت جانبا من أرباحها في شراء الضياع الكبيرة . وقد عرفت هذه الطبقة باسم طبقة الفرسان (Equites أو Ordo Equester) ، وهو الاسم الذي كان يطلق أصلا على كبار ملاك الأراضي الذين كانت أعمارهم تتراوح بين ١٨ و ٤٥ عاما ويخدمون في الجيش على صهوة جياد تمدهم بها الدولة (Equites equo publico) ويؤلفون ثمانية عشر مئينا في جمعية المئينات . ومنذ تطوع أثرياء التجار عند مستهل القرن الرابع قبل الميلاد في أثناء الحرب مع فياي للخدمة في الجيش على صهوة جيادهم الخاصة (Equites equo privato) أخذ اسم الفرسان يتسع في خلال القرن الرابع قبل الميلاد ليشمل كذلك أثرياء التجار وهم الذين كانوا عندئذ وظلوا بعد ذلك غير مسجلين في مئينات الفرسان بسبب ثروتهم المنقولة ولكنه كان لديهم نصاب الفرسان . وكان اسم الفرسان لا يطلق فقط على أثرياء التجار من الشبان القادرين على الخدمة في الجيش بل أيضا على

أثريائهم الذين تجاوزوا سن الخامسة والأربعين وتبعا لذلك لم يعودوا صالحين للقتال. وجملة القول أن لقب فرسان أصبح ينم عن طبقتين مختلفتين تمام الاختلاف. فقد أصبح يعني إما رجلا من الأرستقراطية لم يتول بعد منصبا عاما يؤهله لدخول السناتو ، وفي هذه الحالة كان اسم الأرستقراطي يحذف بمجرد بلوغه الخامسة والأربعين من عمره ، وإما رجلا من الأثرياء لا ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية وانما كان لديه نصاب الفرسان وكان حده الأدنى أول الأمر ١٠٠.٠٠٠ آس ومنذ القرن الثاني قبل الميلاد ٤٠٠,٠٠٠ سسترتيوس (أي حوالي ٤٥٠٠ جنيه أسترليني) . وهذا المعنى الثاني هو ما أصبح مدلول عبارة « طبقة الفرسان » منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، حين بلغت هذه الطبقة من كثرة العدد ووفرة المال ما جعلها تؤلف طبقة اجتماعية بارزة . ولما كان أفراد هذه الطبقة الجديدة الغنية شغوفين بأن يكون لهم نصيب من الوظائف العامة ، وكانت هذه الوظائف مغلقة دونهم ومقصورة على الطبقة الأرستقراطية ، فان اصطدام هذه الطبقة الجديدة الغنية مع الطبقة الأرستقراطية أصبح أمراً لا مفر منه .

٢ — الحياة المترفة

وقد كان من نتائج الفتوحات الرومانية ازدياد اتصال الرومان بالعالم الأغريقي وتأثرهم بالحضارة الأغريقية . وإذ أقبل الرومان على الاغتراف من مناهل هذه الحضارة ، أسرف أثرياؤهم في اقتباس كماليات هذه الحضارة . فقد ضرب الأثرياء عرض الحائط بقول بريقلس « تحضر دون إسراف » ، وأخذوا يعيشون عيشة ترف وبذخ . ذلك أن الرومان ، شأنهم في ذلك شأن أصحاب الثروات الطارئة في كل عصر ومكان ، كانوا يتنافسون في استعراض مظاهر ثروتهم ، فاستبدلوا بمساكنهم المتواضعة مساكن فسيحة أنيقة تزينها تماثيل وصور إغريقية نُهبت أو اشتريت من الأغريق ، واستبدلوا بأكلاتهم البسيطة مآدب فخمة تقدم فيها على صحاف من الفضة أغلى المأكولات وأندرها بعد أن يتفنن

في إعدادها أمهر الطهاة . وتحولت عادة تناول قليل من النبيذ بعد الأكل إلى ندوات شراب يشرف عليها كبير الساقين (magister bibendi) .

وتعتبر من أهم التغيرات الاجتماعية في حياة الأسر الرومانية الكبيرة زيادة استخدام العبيد في شئون الأسرة ، فقد سايرت هذه الزيادة زيادة استخدام العبيد في الزراعة . ذلك أن أثرياء الرومان كانوا يرسلون إلى ضياعهم أسرى الحرب المتبربرين ويحتفظون لبيوتهم في روما بالعبيد الأغريق ، ولا سيما أن الكثيرين منهم كانوا لا يصلحون للعمل الشاق والحياة الرتيبة في المزارع ، ولكنه كان في وسعهم أن يكيفوا أنفسهم للخدمة المنزلية . والواقع أن العبيد الأغريق لم يؤدوا الأعمال المنزلية الوضيعة اللازمة للبيوت الكبيرة ، بل ان منهم من كانوا يؤدون أعمال السكرتارية والتعليم والتطبيب . وكانت الأمات يستخدمن كذلك في الغزل والنسيج . وقد كانت كثرة استخدام العبيد الأغريق في البيوت الرومانية إحدى الوسائل الرئيسية في نقل تراث الحضارة الاغريقية إلى روما . ذلك أن العبد الأغريقي بوصف كونه سكرتيرا خاصا لرب الأسرة أو معلما للأولاد أو طبيبا للأسرة ، كان على اتصال وثيق مستمر بأفراد الأسرة جميعا ، وكان من شأن ذلك أن يجعلهم أيضا على اتصال وثيق مستمر بالحضارة الأغريقية وأن يغرس هذه الحضارة فيهم . فلا عجب أن قال الشاعر الروماني هوراتيوس أن « بلاد الأغريق الأسيرة أسرت آسريها المتخلفين » (Graecia capta ferum victorem cepit) .

وقد كان من شأن البدع الجديدة التي تغلغلت في حياة الرومان الخاصة إثارة سخط أولئك الذين كانوا شديدي الحرص على الحفاظ على عادات الأسلاف : وكان قاتو الكبير في طليعة هؤلاء الساخطين . واذا كان هذا السخط قد أدى إلى إصدار عدد من القوانين الاجتماعية للحد من البذخ والاسراف ، فانه إزاء عدم وجود هيئة تتولى الاشراف على تطبيق هذه القوانين . وأهم من ذلك أنه إزاء عدم انتشار الاستنكار لهذه المظاهر الجديدة ، لم يكن لسن هذه القوانين الاجتماعية أي أثر فعال . والواقع أن التغيرات الجديدة في الحياة الخاصة لم

تبلغ في القرن الثاني قبل الميلاد مبلغ ما وصلت اليه فيما بعد من خطورة . ذلك أنه حين أقبلت الطبقة الأرستقراطية على كماليات الحضارة الأغريقية لم تهجر كلية التقاليد المألوفة ، وأن طبقة الفرسان كانت لا تزال أكثر احتفالا بجمع الثروة منها بالاستمتاع بثروتها .

ولعل أخطر مساوىء استخدام الثروة في روما في خلال القرن الثاني قبل الميلاد كان ما سبقت الاشارة اليه من التجاء الطبقة الحاكمة إلى رشوة عامة روما بطريق مباشر وغير مباشر للحفاظ على مكانتها ونفوذها ، ولا سيما أن عدد سكان روما أخذ يزداد باطراد حتى بلغ في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد نحوا من نصف مليون نسمة ، وبذلك أصبحت تنافس في هذا الصدد أكبر عاصمتين في العالم الهلينيسي ، وهما الأسكندرية وأنطاكية . حقا أن روما لم تكن مدينة صناعية كبرى ولكنها كانت دائما سوقا كبيرة ، وكان من شأن ازدياد أهميتها السياسية في أعقاب اتساع نطاق أمبراطوريتها أن ازدادت كذلك أهميتها الاقتصادية ، وتبعا لذلك قدرتها على اجتذاب السكان اليها ، فأصبحت شوارعها تموج بتجار من مختلف الأجناس والأصقاع ، وبمن على شاكلتهم من أرباب مختلف الحرف الذين يستطيعون سد حاجات الذين اكتظت بهم عاصمة الأمبراطورية . ذلك أنه جنبا إلى جنب تلك الأعداد الكبيرة من العبيد الذين كانوا يعملون في قصور الأثرياء ، ومن المعتوقين الذين أقبلوا على ممارسة مختلف ضروب الأعمال إما لحسابهم الخاص وإما لحساب سادتهم ، هرع إلى روما في ازدياد مطرد أولئك المزارعون الذين هجروا أراضيهم لسبب أو لآخر وجاءوا ينشدون الاستمتاع بمباهج العاصمة، والإفادة من الهبات التي كانت تغدق على سكانها ،وتكسب قوتهم مما يصادفونه من أعمال موقوتة أو من سخاء سادتهم الذين كانت تربطهم بهم رابطة التبعية ، وذلك من ناحية لأن الحرف والصناعات لم تنم في روما بحيث تستطيع استيعاب كل هذه الأعداد الكبيرة ، ومن ناحية أخرى لأنه لم يكن لهؤلاء المهاجرين أية دراية إلا بالأعمال الزراعية . وقد مر بنا ما كان لتكاثر مثل هذه العناصر في روما من نتائج سيئة في الحياة العامة .

وقد كان من نتائج الحرب البونية الثانية أنه في كثير من الأسر الميسورة الحال انقرض الذكور وانتقلت الممتلكات إلى إناثها مما أفضى إلى قدر كبير من الإسراف في الملبس والحلي . ولم تفت هذه الظاهرة المعنيين بالحد من البذخ والترف ، فاستصدروا قانونا في عام ١٦٩ ق . م . يقضي بوضع حد لمقدار الممتلكات العقارية التي يمكن أن تؤول إلى الوريثات . بيد أن هذا القانون لم يكن أكثر فعالية من القوانين الاجتماعية الأخرى ، فقد أمكن التحايل على أحكام هذا القانون بنقل الارث شكلا إلى أوصياء متفاهمين مع الوريثات . وكذلك أمكن التحايل على أحكام القانون الروماني التي كانت تقضي بأن يكون للمرأة وصي يمثلها في المحاكم ويباشر عنها تصرفاتها في أملاكها ، وذلك عن طريق اختيار أوصياء صوريين لم تكن لهم مهمة الا استيفاء الشكليات التي تطلبها القانون ، مما ترتب عليه أن المرأة غير المتزوجة أصبحت حرة طليقة التصرف في ممتلكاتها وفق مشيئتها . ومن المرجح كذلك أنه كان يحق للنساء حضور الحفلات العامة شأنهن في ذلك شأن الرجال سواء بسواء . وفي الأسر الكبيرة الموسرة أصبح حظ البنات من التعليم مماثلا لحظ الأبناء . وفي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد كانت نخبة المثقفين في روما تعقد ندواتها في بيت قورنليا ابنة سقيبيو أفريقانوس وزوجة سمبرونيوس جراكوس ووالدة الزعيمين الشابين اللذين سنلقاهما فيما بعد وهما تيبريوس وجايوس سمبرونيوس جراكوس .

وفي هذه الفترة ازداد انتشار ذلك النوع من الزواج الذي كان الزوجان يتمتعان في كنفه بحقوق متساوية . وأجل من ذلك وأبعد أثرا في الحياة الاجتماعية أنه أخذ ينمو باطراد عدم الاكتراث بالروابط الزوجية . وقد تكشفت هذه الظاهرة في اتجاهين : كان أحدهما ، هو ازدياد العزوف عن الزواج . وكان الاتجاه الآخر ، هو بداية الميل نحو فصم عرى الزوجية لأسباب سياسية أو مالية أكثر منها خلقية . ومع ذلك فإن تفكك الروابط الزوجية لم يبلغ في القرن الثاني قبل الميلاد المدى الخطير الذي بلغه فيما بعد .

١ ـ أثر الأغريق الحضاري

كان من أهم نتائج فتوحات روما تقدمها الحضاري تقدما كبيرا ، وكان العامل الرئيسي في ذلك اتصالها الوثيق بالحضارة الأغريقية . حقا أن روما خضعت من قبل لتأثيرات إغريقية غير مباشرة عن طريق أترووريا ثم لتأثيرات إغريقية مباشرة عن طريق المدن الأغريقية في جنوب شبه الجزيرة الايطالية . ولكنه عندما فتحت روما هذه المدن واحتلت صقلية ثم احتلت بلاد الأغريق ذاتها وبعد ذلك جزءا من آسيا الصغرى ، أصبح الرومان أوثق اتصالا بالعالم الأغريقي وأكثر تأثرا بحضارته ، ولا سيما عندما وفدت على روما أعداد كبيرة من الأغريق بوصف كونهم رهائن أو سفراء أو مدرسين أو تجار أو فنانين ، فضلا عن الكثيرين من العبيد الأغريق المتعلمين الذين استخدمهم أثرياء الرومان في بيوتهم . ولما كانت الحضارة الأغريقية أكثر عراقة وأرفع مستوى من حضارة الرومان ، وكان الرومان يميلون إلى أن يعتبرهم الأغريق قوة سياسية عظمى وفي الوقت نفسه دولة متحضرة تؤلف جزءا من العالم المتحضر ، فإنهم أقبلوا في نهم على الأخذ بالكثير من مظاهر الحضارة الأغريقية ، مما كان له أبلغ الأثر في مختلف نواحي حياتهم .

٢ ـ التعليم

وقد كان من أهم نتائج التأثيرات الأغريقية ظهور اتجاهات جديدة في التعليم الروماني . ذلك أن الطبقات العليا بوجه خاص أصبحت تعنى بتعلم لغة الأغريق ودراسة آدابهم وفلسفتهم وفنونهم الخطابية . وقد حفز الإقبال على هذه الدراسات أن وجهة نظر الأغريق القائلة بأن دراسة الفلسفة والفنون الخطابية تؤهل للنجاح في الحياة العامة والخاصة على السواء صادفت قبولا لدى الرومان بما جبلوا

عليه من ميول عملية . وقد كان من أبرز دعاة الأخذ بالحضارة الاغريقية رجال
من طراز سقيبيو أفريقانوس الكبير وتيتوس فلامينيوس وأيميليوس باولوس وسقيبيو
أيميليانوس .

وحين أصبح تعلم الأغريقية ودراسة المواد اللازمة للنضوج الفكري من
المؤهلات الضرورية لكل شخص متعلم ظهرت مدارس كثيرة يديرها مدرسون
محترفون . ومع ذلك فان الرومان ظلوا غير ميالين إلى إنشاء أي نظام عام للتعليم ،
فكان كل أب يوجه تعليم أبنائه كيفما شاء . وتبعا لذلك فان المدارس كانت
مدارس خاصة ، وكان أكثرها تحت رعاية رجال بارزين ، بل إن بعضها كانت
في بيوت هؤلاء الرجال . وكان مدرسو اللغة والمواد الأولية عادة من الأغريق .
وكان بعضهم عبيدا والبعض الآخر من المعتقين ، وتبعا لذلك فان وضعهم
الاجتماعي كان وضيعا . وكان يشاركهم في ذلك إلى حد ما أساتذة الفلسفة
وفنون الخطابة ، لأنهم كانوا بالمثل من الاغريق وإن كانوا رجالا أحرارا وأرفع
مكانة من المدرسين العاديين .

وقد قوبلت هذه الاتجاهات الجديدة بمعارضة شديدة من شيوخ الرومان
المحافظين مثل قاتو الكبير ، وهو الذي كان يعتبر المؤثرات الاغريقية سيئة الأثر
في أخلاق الرومان ، ولذلك فانه اقتفى أثر العادة الرومانية القديمة وقام بنفسه
بتدريب أبنائه وتعليمهم . بيد أن هذه المعارضة كانت محدودة الأثر ، ولم يلبث
قاتو نفسه أن اضطر آخر الأمر إلى أن يتعلم الأغريقية ويدرس آدابها .

وليس معنى تأثر الرومان بالحضارة الأغريقية في مجال التعليم أنهم ضربوا
عرض الحائط بكل مثلهم التقليدية ، ذلك أنهم ظلوا يعتبرون الخبرة العملية
والبيئة المنزلية أكثر أهمية من الدراسات الأدبية . وتبعا لذلك فانهم استمروا
يحافظون على ما درجوا عليه منذ القدم من تكليف الأبناء بصحبة آبائهم أو
غيرهم من كبار السن ذوي السمعة الطيبة ليتخذوا من تصرفاتهم في الحياة العامة
والخاصة قدوة لهم .

٣ ــ الأدب

سبق أن عرفنا كيف أنه حتى قبيل منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، أو بعبارة أخرى حتى بداية الحروب البونية ، كان نصيب الرومان من الإنتاج الأدبي طفيفا محدودا . وقد كان اتساع الأمبراطورية الرومانية عاملا بالغ الأثر في نمو الأدب الروماني وازدهاره. فمن ناحية بعثت الفتوحات في الرومان اعتزازا بماضيهم ومنجزاتهم ورغبة في تسجيل تاريخهم . ومن ناحية أخرى ترتب على دعم مركز روما وازدياد قوتها أن اللغة اللاتينية طغت على كل ما عداها بين الايطاليين . وقد أظهر الايطاليون ميلا كبيرا إلى تعلم اللاتينية وقدرة فائقة على إتقانها . وخير دليل على ذلك أنه على حين كان أوائل كاتبي النثر اللاتيني من الرومان كان أغلب أوائل ناظمي الشعر اللاتيني من الايطاليين . فقد كان جنايوس نايفيوس (Gnaius Naevius ، حوالي ٢٧٠ ــ ١٩٩ ق . م .) وجـــايوس لوقيليوس (Gaius Lucilius . ١٨٠ ــ ١٠٢ ق . م .) من قمبانيا ، وكوينتوس أنيوس (Quintus Ennius . حوالي ٢٣٩ ــ ١٦٩ ق. م.) ومارقوس باقوفيوس (Marcus Pacuvius ، ٢٢٠ ــ حوالي ١٣٠ ق . م .) من قالابريا في أقصى الطرف الجنوبي الشرقي بشبه الجزيرة الايطالية ، وتيتوس ماقيوس بلاوتوس (Titus Maccius Plautus ، حوالي ٢٥٤ ــ ١٨٤ ق . م .) ولوقيوس آقيوس (Lucius Accius ، ١٧٠ ــ حوالي ٨٥ ق . م .) من أومبريا . وقايقيليوس ستاتيوس (Caecilius Statius ، توفي في عام ١٦٨ ق . م .) من غاليا قيس ألبينـــا ، وليفيوس أندرونيقوس (Livius Andronicus ، حوالى ٢٨٤ ــ ٢٠٤ ق.م.) إغريقياً من تارنتم ، بل أن بوبليوس ترنتيوس آفر (Publius Terentius Afer ، حوالي ١٩٥ ــ ١٥٩ ق . م .) كان ليبي الأصل وأخذ أسيرا في حداثة سنه إلى روما حيث حصل على تعليمه وكذلك على حريته .

ومن ناحية ثالثة كان انتشار تعلم الاغريقية بين الرومان وتذوقهم لآدابها

حافزين قويين على إقبال الرومان على القراءة والكتابة وكذلك على نقل روائع الأدب الاغريقي إلى اللاتينية ومحاولة محاكاتها . وكما هي العادة في تاريخ الأدب كسب الشعر قصب السبق من النثر . وصاحب الفضل في بدء حركة النقل من الأغريقية إلى اللاتينية هو ليفيوس أندرونيقوس الأغريقي الذي أخذ من تارنتم إلى روما أسيراً في عام ٢٧٢ ق . م . حين كان لا يزال صبيا في الثانية عشرة من عمره . وفي العاصمة الرومانية تابع تعليمه واكتسب حريته ونقل إلى اللاتينية أودسة هوميروس وعددا من المسرحيات الأغريقية . وكوينتوس أنيوس ، صاحب أول قصيدة لاتينية كلاسيكية ، أولى كذلك اهتماما كبيرا إلى نقل الكثير من عيون الأدب الأغريقي إلى اللاتينية .

والأدب المسرحي اللاتيني الناشىء لم يستمد نماذجه من المسرحيات الايطالية المعروفة بمسرحيات أتلاّ (fabulae Atellanae) ، وهي التي كان لها شأنها في الفترة السابقة ، وإنما من المسرحيات الأغريقية، بيد أنه في الوقت نفسه لم يغفل كلية الموضوعات الوطنية . ذلك أنه اذا كان جنايوس نايفيوس قد اقتبس من التراجيديا الأغريقية موضوعات الكثير من مسرحياته ، فانه ألف كذلك مسرحيات تراجيدية قوامها موضوعات رومانية بحت مثل المسرحيتين اللتين كان موضوع إحداهما قصة رومولوس وموضوع الأخرى انتصار قلاوديوس مارقلوس على الغال في عام ٢٢٢ ق. م. ، ويتبين من أسماء ثلاث مسرحيات تراجيدية أخرى تدعى على التوالي « أيميليوس باولوس » و « بروتُس » و « دقيوس » أن موضوعاتها كانت أيضا رومانية . وكان باقوفيوس صاحب المسرحية الأولى ، وآقيوس صاحب المسرحيتين الثانية والثالثة .

وفي مجال المسرحيات الكوميدية أيضاً كانت القاعدة الشائعة أول الأمر هي الاقتباس من أصول إغريقية ، إلا أنه لم تلبث أن ظهرت في هذا المجال أيضا مجموعة من المسرحيات التي كانت تدور حول موضوعات محلية مستمدة من الأوضاع الذائعة إما في روما وإما في مدن لاتيوم المجاورة . ومما يجدر بالملاحظة

أن المسرحيات الكوميدية التي كانت قصصها تقتبس من الأغريقية وشخصياتها تستمد من شخصيات الحياة الإيطالية كانت تصادف نجاحاً أكبر من المسرحيات التي كانت تلتزم نماذجها الأغريقية التزاماً دقيقاً . وخير دليل على ذلك أن مسرحيات بلاوتوس وهو الذي كان يتبع النهج الأول ووصلت الينا إحدى وعشرون من مسرحياته حظيت بإقبال أكثر وتمتعت بحياة أطول من مسرحيات ترنتيوس وهو الذي كان يتبع النهج الثاني ووصلت الينا ست من مسرحياته .

ولسوء الحظ أننا لا نعرف من مؤلفي المسرحيات الذين زهى بهم القرن الثاني قبل الميلاد وهم آقيوس وقايقليوس وباقوفيوس أكثر من أسمائهم وأسماء مسرحياتهم ، وإن كنا نعرف أن أحدهم وهو باقوفيوس – مؤلف المسرحيات التراجيدية – قد شارك بلاوتوس من حيث كثرة المناسبات التي أعيد فيها عرض مسرحياتهما في خلال القرن الأول قبل الميلاد .

وقد تطور الأدب المسرحي اللاتيني تطورا سريعا بسبب كثرة الطلب على المسرحيات لعرضها في الحفلات العامة ، وهي التي زيد عددها منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد على نحو ما مر بنا . واذا كان على مر الزمن أخذ مؤلفو المسرحيات اللاتينية يعزفون عن الإقتباس من المسرحيات الإغريقية ويجنحون نحو اتخاذ قصص مسرحياتهم وشخصياتها من البيئة الرومانية أو الإيطالية ، فانهم مع ذلك لم يفلحوا إطلاقاً في التحرر تحرراً كاملا من النماذج الاغريقية .

وكان الشعر الحماسي يحتل مكانا بارزا في الأدب اللاتيني . وأقدم قصيدة حماسية لاتينية هي تلك التي نظمها جنايوس نايفيوس وجعل موضوعها تاريخ الحرب البونية الأولى. وحين نظم كوينتوس أنيوس قصيدته «الحوليات» (Annales) استعار من هوميروس الوزن السداسي وخياله الرائع ليروي تاريخ روما منذ نشأتها حتى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد ، متناولا بإفاضة العهد الملكي والحرب مع بوروس والحروب البونية . ويتلخص فحوى هذه القصيدة في أحد أبياتها وهو

الذي معناه أن الأسس المكينة التي تقوم عليها الدولة الرومانية هي رجالها وعاداتها القديمة (moribus antiquis stat res Romana virisque) .

وشعر النقد اللاذع المصوغ في عبارات مازحة على هيئة حديث عابر يعتبر ابتكارا رومانيا أصيلا ، وتعزى نشأته الى جايوس لوقيليوس . وهو الذي لم يرحم بأشعاره اللاذعة أصحاب الثروة الطارئة والنعرة الوطنية . وقد شجعه على تصويب سهامه دون حساب تمتعه بصداقة سقيبيو أيميليانوس . وكان لوقيليوس يسمي قصائده أحاديث ، ولكنها عرفت فيما بعد باسم «ساتورا» (Satura) بسبب مماثلتها من حيث لغتها الدارجة وموضوعاتها المتباينة لتلك المقطوعات الأيطالية التي كانت تعرف بهذا الاسم .

٤ – التاريخ

وعلى حين أن الشعر اللاتيني تطور تطورا سريعا، تطور النثر اللاتيني بخطى وئيدة . وكما هي العادة ، كان التاريخ أول مجال ظهر فيه النثر الأدبي . وكان أقدم المؤرخين الرومان من طراز رواة الأحداث عاماً فعاما. وقد كان أول المؤرخين الرومان فابيوس بيقتور (Fabius Pictor) وقينقيوس أليمنتوس (Cincius Alimentus) وهما اللذان كانا يعيشان في عهد الحرب البونية الثانية ، وكتب كل منهما تاريخ روما منذ نشأتها حتى نهاية الحرب البونية الثانية ، وأفاض كل منهما في الحديث عن العهد الملكي وعن أحداث القرن الثالث قبل الميلاد . مع المرور سريعا على الفترة الباكرة من العهد الجمهوري ، فكان شأنهما في ذلك شأن أنيوس في قصيدته «الحوليات» . ومما يجدر بالملاحظة أن هذين المؤرخين لم يكتبا باللاتينية وإنما بالإغريقية . ويفسّر ذلك بعاملين ، وأحدهما . هو أن كل المؤلفات التاريخية التي نشرت حتى هذا الوقت كانت إغريقية . وأما العامل الآخر ، ولعله الأهم ، هو أنهما لم ينشدا فقط نشر تاريخ الوطن بين المتعلمين الرومان – وكانوا عندئذ يستطيعون قراءة الإغريقية – بل أيضاً الرد على المؤرخين الإغريق الذين كتبوا تاريخ الحربين

البونيتين الأولى والثانية من وجهة النظر القرطجنية . بيد أنه اذا كان فابيوس وقينقيوس قد كتبا بالإغريقية فانه من الواضح أنهما اقتفيا أثر «حوليات كبار الكهنـــة » (Tabulae Pontificum) من حيث طريقة تسجيل الأحداث وعرضها عرضاً أميناً بوجه عام . واذا كان كتاب رومان آخرون قد استمروا يكتبون في التاريخ الروماني باللغة الأغريقية حتى حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد – مثل ألبينوس أحد قنصلي عام ١٥١ ق.م. . وجايوس آقيليوس (Acilius) عضو السناتو – فإنه منذ أن أصدر قاتو الكبير حوالي هذا الوقت أول مؤلف تاريخي في النثر اللاتيني ، درج المؤرخون الرومان على استخدام اللاتينية في مؤلفاتهم . ومؤلف قاتو « الأصـــول » (Origines) يتكون من سبعة أجزاء ، وهو يتناول في الجزءين الأولين تاريخ إيطاليا الباكر بوجه عام، وفي الأجزاء الباقية الحروب التي خاضتها روما منذ عام ٢٦٤ ق.م. حتى عام ١٥٠ ق.م.، ولعل أبرز ما يميز قاتو عمن سبقوه أنه لم يكتف بتسجيل الأحداث دون نقد أو تعليق، وأنه لم يقنع بالروايات المتواترة المنقولة عن الأسلاف، بل أنه أضاف إلى هذه المعلومات ما استمده من بعض الوثائق التي استطاع الحصول عليها .[١] وإذا كان كتاب « الأصول » لم يصل الينا ، فإن مؤلف قاتو عن الزراعة (De Agri Cultura) ، وكان قد أصدره قبل مؤلفه التاريخي ، قد بقي سليماً مصاناً ويعتبر أقدم مؤلف في النثر اللاتيني وصل الينا كاملا .

وعند أواخر القرن الثاني قبل الميلاد خطا قويليوس أنتيباتر (Coelius Antipater) خطوة هامة في تقدم كتابة التاريخ عند الرومان ، ذلك أنه امتاز عن كل الذين سبقوه من حيث أنه اختار فترة أقصر لتناولها في مؤلفه ودرسها دراسة أعمق ولم يكتف بسرد الحوادث دون تحليلها وتفسيرها . ولعله كانت لمؤلفه عن الحرب البونية الثانية أهمية تاريخية كبيرة ، ومن المرجح أنه كان المصدر الرئيسي الذي اعتمد عليه ليفيوس في كتابة تاريخ المرحلتين الأولى والوسطى للحرب

---

(١) Cf. Scullard, Classical Rev., 1953, pp. 140 ff.

البونية الثانية مثل ما كان تاريخ بوليبيوس مصدره الرئيسي في كتابة تاريخ المرحلة الأخيرة لهذه الحرب .

٥ ـ الفلسفة

وقد مُني بخيبة أمل كبيرة طلائع فلاسفة الإغريق الذين كانوا يترددون على روما ويلقون فيها محاضرات في المنطق وما وراء الطبيعة ، فقد اعتبر الرومان ذلك ضروبا من الأحاجي غير العملية وتبعاً لذلك سيئة الأثر في النفوس . وعندما نقل آنيوس إلى اللاتينية رسالة يوهمروس عن أصل الآلهة وأخذ التشكك في وجود الآلهة وقدرتها ينتشر بين المتعلمين ، برمت الطبقة الحاكمة بمذهب الشكية الذي كان الأكاديميون الاغريق يدعون اليه . وقد كان الرومان أكثر برماً بالأبيقورية بسبب ما بدا لهم من أنها كانت تتعارض تعارضا شديداً مع عادات الأسلاف . فلا عجب أن قرر السناتو في عامي ١٧٣ و ١٦١ ق.م. أن يطرد من روما الرعيل الأول من فلاسفة الاغريق بوصف كون آرائهم مخربة هدامة ، بيد أنه سرعان ما أصبح قرارا السناتو عديمي الأثر .

إن مدرسة واحدة من المدارس الفلسفية الأغريقية ، وهي مدرسة الرواقية ، صادفت بين المثقفين الرومان من الإعجاب والتقدير ما لم تصادفه بين المثقفين الاغريق . ومرد ذلك إلى أن الرواقية ، على خلاف غيرها من المذاهب الفلسفية الاغريقية ، كانت تحبذ الحياة العاملة وتشجع المشاركة في الحياة العامة ، وإلى أن أهم مسلماتها وهي القائلة بأن معترك الحياة اختبار لإرادة الإنسان وقدراته استهوت الرومان بما فُطروا عليه من عناد واحترام للذات . وقد كان بانايتيوس (Panaetius) الرودسي وهو الذي عاش من حوالي عام ١٨٥ إلى عام ١٠٩ ق.م. أبرز أساتذة الرواقية في روما في خلال القرن الثاني قبل الميلاد . وغدا سريعاً صديق سقيبيو أيميليانوس . ومنذ ذلك الوقت أصبح دعاة الرواقية يلقون حظوة كبيرة لدى الطبقة الحاكمة في روما .

وفي مجال الدراسات القانونية تكشف الرومان عن عبقرية فذة وإن لم تخل اتجاهاتهم من تأثيرات اغريقية طفيفة . وقد كان الباعث على هذه الدراسات حاجة ملحة إلى أن يتولى أشخاص أكفاء تفسير القوانين سواء ما ورد منها في اللوحات الاثنتي عشرة أم في تشريعات أخرى . وفي أول الأمر اتخذت هذه التفسيرات شكل نصائح يدلي بها كبار الكهنة للحكام أو الأفراد العاديين الذين ينشدون مساعدتهم في معرفة أحكام القانون فيما يخص حالات بعينها . ويبدو أن تيبريوس قورونقانيوس (Coruncanius) — وكان أول رجل من العامة يتولى منصب كبير الكهنة في عام ٢٥٣ق.م. — هو الذي بدأ عادة مناقشة المشاكل القانونية مع كل من يعنيه الاستزادة في العلم بالقانون . وعندما اقتفى أثره آخرون ممن لم ينتموا إلى هيئة الكهنة ، نمت تدريجاً بين الطبقة الأرستقراطية جماعة من الأخصائيين في القانون عرفوا باسم فقهاء القانون (iuris prudentes) أو المستشارين القانونيين (iuris consulti) . ولم يقصر هؤلاء الفقهاء نشاطهم على عقد الندوات وإعطاء النصائح الشفوية ، بل أخذوا يؤلفون الكتب في مختلف نواحي القانون . وقد كان سكستوس آيليوس بايتوس (Sextus Aelius Paetus) — أحد قنصلي عام ١٩٨ ق.م. — من أوائل الرومان الذين كتبوا في القانون . ويعتبر واضع أساس التأليف في القانون الروماني . ولا أدل على مكانته من أن كفايته القانونية أكسبته لقب الأريب أو الداهية (Catus) ، ومن أن الأجيال التالية اعتبرت كتابه « مهد القانون » الروماني . وكان هذا الكتاب يتألف من ثلاثة أجزاء خصص أولها لعرض قوانين اللوحات الأثنتي عشرة ، وثانيها لتفسير هذه القوانين ، وثالثها لقواعد الإجراءات القانونية . وقد أتى بعد بايتوس عدد كبير من المؤلفين في القانون ، كان من بينهم ماركوس بورقيوس قاتو الكبير ، وكذلك ابنه وهو الذي فاقت شهرته شهرة أبيه في مجال القانون .

ومما يجدر بالملاحظة أن فقهاء القانون الرومان لم يكونوا محامين بالمعنى المألوف

اليوم ، فهم لم يتخذوا من نشاطهم القانوني مهنة لهم ، ولم يتقاضوا أجراً عن استشاراتهم ، فقد كانوا أعضاء في السناتو ويتولون مختلف المناصب العامة من حين إلى آخر ، ويتابعون دراساتهم القانونية بسبب أهميتها لهم في الاضطلاع بمهامهم الرسمية ، وبسبب ما كانت الدراية بالقانون تكسب صاحبها من مكانة رفيعة في المجتمع الروماني . وعن طريق ما كان أولئك الفقهاء يدلون به من تفسيرات قانونية تتكيف بها قرارات الحكام وأحكام القضاء . كان لأولئك الفقهاء أثر أي أثر في فهم القانون الروماني وتطبيقه .

وقد كانت البيانات التي يصدرها الحكام سنوياً ، وبخاصة بيانات أولئك الذين كانت اختصاصاتهم قضائية إلى حد كبير مثل برايتور المدينة وبرايتور الأجانب وحكام الولايات ، من أهم الوسائل في تطور القانون الروماني . ولعل أهم هذه البيانات جميعاً كانت بيانات برايتورس المدينة وهم الذين كانوا يطبقون أحكام القانون على المواطنين الرومان كافة في كل أنحاء ايطاليا . فقد مر بنا أن برايتور المدينة كان يصدر في مستهل عام حكمه بيانا عن القواعد التي سيرعاها في تطبيق أحكام القانون ، وكذلك الظروف التي في كنفها سيقبل رفع القضايا لإنصاف من وقع عليهم ضيم . وعلى هذا النحو كانت بيانات البرايتورس المتتابعين تغذي القانون الروماني على الدوام بمبادىء قانونية جديدة دون ما حاجة إلى استصدار تشريعات جديدة ، فقد كان هدف هذه البيانات – على حد قول أحد الفقهاء الرومان – « مساعدة وتزويد وتصحيح » القانون المدني .

وقد حدث تقدم ملحوظ في مجال الاجراءات القضائية بفضل ما استحدثته بيانات برايتورس الأجانب في هذا الصدد من يسر ومرونة ، مما أفضى إلى زوال الاجراءات المعقدة الصلبة القديمة . وإذا كان بيان البرايتور لا يعتبر ساري المفعول إلا طوال العام الذي يتولى فيه الحكم ، فان العادة جرت بأن البرايتور الجديد كان يدمج في بيانه كل أو جل محتويات بيان سلفه . وتبعاً لذلك فانه كلما استُحدث إصلاح كان هذا الإصلاح يظل باقياً في العادة ، وان

محتويات بيانات البرايتورس أخذت تنمو بالتدريج حتى أصبح كل منها وثيقة بالغة الطول وأصبح شأن هذه البيانات شأن قوانين اللوحات الأثني عشرة في حاجة إلى تفسير فقهاء القانون .

٧ — العلوم

ولم يعن الرومان في هذه الفترة بالعلوم الطبيعية الا بقدر ما كانت تحققه لهم من فوائد ملموسة . وتبعاً لذلك فان المزايا العملية الواضحة لجعل التقويم مطابقاً لفصول السنة هي التي حدت بهم إلى دراسة النظم التي كان الاغريق يتبعونها في احتساب الزمن . وفي عام ١٩١ق.م. استبدل الرمان بقاعدتهم القديمة قاعدة أكثر دقة لتصحيح تقويمهم الرسمي بإدخال شهور إضافية عليه . ولم يدركوا الا في عام ١٥٩ ق .م . أن المزولة التي أحضروها من صقلية في عام ٢٦٣ ق.م. كانت لا تبين الوقت بدقة في روما بسبب الاختلاف في خطوط الطول بين المكانين . مما حدا بهم بعد مرور حوالي قرن إلى إدخال التعديل اللازم على المزولة . وحوالي هذا الوقت استقدموا من بلاد الأغريق أولى ساعاتهم المائية .

وقد كان من الرومان القلائل الذين درسوا الفلك النبيل جايوس سولبيقيوس جالّوس (Gaius Sulpicius Gallus) ، وهو الذي أذهل القوات الرومانية في عام ١٦٨ ق.م. عندما تحقق ما تنبأ لهم به من وقوع خسوف للقمر عشية معركة بودنا .

وبرغم أن بعض الأطباء الاغريق بدأوا يتخذون من روما مقاما لهم منذ أيام الحرب البونية الثانية ، فأن دراسة الطب لم تجد لها في روما مجالا رحباً ولا مكانة خليقة بها . ولعل مرد ذلك إلى أن الكثيرين من عبيد الأسر الكبيرة كانوا يقومون بمهمة طبيب الأسرة .

وفي خلال فترة اتساع الأمبراطورية الرومانية تغلغلت التأثيرات الأغريقية في الديانة الرومانية تغلغلا كان أكثر وضوحاً عندئذ منه في أية فترة سابقة . وسلك هذا التغلغل الطريقين المألوفين من قبل وهما تشبيه الآلهة الرومانية بالآلهة الأغريقية المتماثلة في الخصائص ، والأغتراف من الأساطير الدينية الاغريقية. فلم يواف القرن الثالث قبل الميلاد على نهايته حتى كان الرومان يعترفون رسمياً بمجموعة من الآلهة الكبرى تماثل الآلهة الأغريقية الأثنتي عشرة التي كانت تؤلف مجمع آلهة أولومبوس (Olympus) . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي أن الآلهة ذات الأصل الأغريقي خلفت سريعاً الآلهة اللاتينية الصغرى ، وأن الآلهة الرومانية غير المجسدة اتخذت أشكالاً آدمية مثل الآلهة الأغريقية ، مما أدى إلى كثرة الطلب على إنتاج تماثيل للآلهة الرومانية على غرار تماثيل الآلهة الأغريقية . بيد أن المعبود الأغريقي الوحيد الذي وفد على الديانة الرومانية من أرض إغريقية في خلال الفترة التي نحن بصددها كان المعبودة فينوس (Venus) وهي التي أحضرت من صقلية في عام ٢١٧ ق.م.

وقد سبق أن أشرنا في معرض الحديث عن الديانة في عهد الملكية إلى الدور الكبير الذي قامت به النبوءات السبولية في التأثيرات الأغريقية التي دخلت الديانة الرومانية في عهد باكر . وفي الفترة التي نحن بصددها الآن قامت هذه النبوءات بدور كبير في حمل الرومان على أن ينشئوا رسمياً أعيادا دينية جديدة وبعض المذاهب الدينية الجديدة . ذلك أنه في خلال أزمات الحربين البونيتين الأولى والثانية وافق السناتو في عامي ٢٤٩ و ٢٠٧ ق.م. على إنشاء أعياد دينية ذات طقوس إغريقية استرضاء لإلهي العالم السفلي الإغريقي الأصل ديس (Dis وعند الاغريق هادس أو بلوتون) وبروسربينا (Proserpina ، وعند الأغريق برسفوني) . وفي عام ٢١٧ ق.م. تحول عيد الشكر الإيطالي الأصلي المعروف بعيد ساتورناليا (Saturnalia) من عيد ذي طقوس وقورة كئيبة إلى عيد

مرح بهيج . وبالتدريج ازدادت الأعياد الدينية الرسمية وازدادت كذلك مظاهر البهجة التي كانت تتخللها ، فأصبحت تقام فيها المهرجانات وتعرض في أثنائها المسرحيات . ولم تعد مباريات الألعاب التي كانت تقام في هذه المناسبات مقصورة على سباق الخيول وسباق العربات بل أصبحت تشمل كذلك مباريات أخرى كانت من أهمها مباريات صيد الحيوانات المفترسة ومباريات المجالدين ، محاكاة لما كان يُقدم من هذين النوعين من المباريات في المناسبات الخاصة . واذا كان الرومان قد أخذوا أول الأمر بمظاهر البهجة التي كانت تتسم بها الطقوس الدينية الأغريقية للترفيه عن الأعصاب المكدودة من جراء طول الحرب ، فان الطبقة الحاكمة الرومانية لم تلبث أن أضافت إلى هذه المظاهر تلك المباريات التي لم تكن مألوفة ولا معروفة لدى الأغريق واستخدمت ذلك كله في كسب رضاء الطبقات الدنيا وعرفانها على نحو ما سبق أن ذكرنا .

وكان من أبرز أمثلة العبادات الجديدة التي دخلت الديانة الرومانية الرسمية بناء على توصيات النبوءات السبولية عبادة الأم الكبرى قوبلي (Cybele) . ذلك أنه عندما أوصت هذه النبوءات في عام ٢٠٥ ق.م. بإقامة عبادة رسمية لهذه الإلهة استجاب السناتو إلى ذلك . وفي العام التالي ، بفضل المساعي الحميدة التي بذلها أتالوس ملك برجام ، استطاعت بعثة رومانية أن تحمل إلى روما من معبد الأم الكبرى في بسينوس (Pessin us) بآسيا الصغرى الحجر الأسود الذي كان يُعتقد أنه موئل هذه الإلهة . ولم تكن الأم الكبرى إلهة إغريقية وإنما فريجية الأصل ، ولكن طقوسها اصطبغت بصبغة إغريقية .

ومع ذلك كله فان السياسة العامة للطبقة الحاكمة الرومانية اتجهت نحو الحد من طغيان التأثيرات الأجنبية على العبادة الرومانية ، ونحو القضاء على المذاهب ذات الطقوس الصاخبة . وخير دليل على ذلك أنه بالرغم من السماح بإدخال الطقوس الأغريقية في طقوس المذاهب الرومانية الرسمية أوقف إدخال آلهة إغريقية جديدة بعد استقدام فينوس من صقلية في عام ٢١٧ق.م. وحظر على المواطنين الرومان

المشاركة في إقامة شعائر الأم الكبرى . وفي عام ١٨٦ ق.م. اتخذت إجراءات صارمة ضد الجماعات [١] (Bacchanalia) التي انتشرت في مختلف أنحاء ايطاليا وكانت تقيم في الخفاء طقوسا عابثة تحت ستار عبادة ديونيسوس أو باكوس . وهذا الأتجاه نفسه يفسر طرد المنجمين الكلديين من ايطاليا في عام ١٣٩ ق.م. .

وإذا كانت هذه السياسة تنهض دليلاً على حرص السناتو على الحفاظ على اتزان الديانة الرومانية التقليدية ، فان القرائن تشير إلى أن السناتو لم يكن ليربأ بنفسه عن استغلال الأعياد الدينية لخدمة أغراضه السياسية . ولا أدل على ذلك من أن هذه الأعياد تحولت إلى حفلات ترفيهية كسبا لرضاء الجماهير ودعماً لنفوذ الطبقة الحاكمة وحفاظاً على مكانتها ، كما سبق القول . وكان من أسوأ نتائج ذلك أن هذه الحفلات غدت باطراد مهرجانات للسادية والموت فزادت الجماهير خشونة وقسوة .

٩ ـ الفنون

وكان طبيعياً أن يطرأ على مظهر روما ، عاصمة الأمبراطورية ، تغيرات تقابل ما طرأ عليها من ازدياد ثروتها وأهميتها السياسية وعدد سكانها . وقد كانت الطبقة الأرستقراطية تشيد لنفسها دوراً فسيحة كثيراً ما كانت في الواقع قصوراً ، كانت بها غرف كثيرة صحية ، ومجهزة بالحمامات ودورات المياه وبنظام للتدفئة في الشتاء . وعادة كانت تأتي في مقدمة البيت قاعة استقبال كبرى (atrium) تقوم خلفها حديقة غناء تنتظم حولها باقي الغرف على غرار الفناء الداخلي الإغريقي (peristylon) ثم تأتي بعد ذلك كله غرف تكفي لإيواء حاشية بأكملها من الخدم الأحرار والعبيد . وبقايا المنازل المعاصرة التي كشف عنها في بومبيي تعطينا

---

(١) من القرار الذي أصدره السناتو في عام ١٨٦ ق . م . خاصاً بهذه الجماعات ، أنظر
C.I.L., I, no. 196; I.L.S. no. 18; Liv., XXXIX, 8-18.

كان الأثرياء يشيدونها لأنفسهم في روما . صورة واضحة للمساكن الفخمة التي درج الأثرياء على أن تكون لهم كذلك دور ريفية يقضون فيها أيام الصيف القائظة . بيد أن مثل هذه الدور ظلت تحتفظ بقدر كبير من بساطة الدور الريفية العادية . وخير شاهد على ذلك تلك الدار الريفية التي كان يملكها سقيبيو أفريقانوس في ليترنوم (Liternum) بالقرب من نابولي . ذلك أن بساطة هذه الدار أثارت دهشة الأجيال التالية .

وأما الجموع الحاشدة التي غصت بها روما . فان أوفرها حظاً كانت تعيش في وحدات سكنية كبيرة كانت تدعى « جزراً » (insulae) وتبنى من اللبن . وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تتألف من عدة طوابق كان كل منها ينقسم إلى عدد من المساكن . وكان الأقل حظاً من سكان روما يحشرون حشراً في غرف الطوابق التي كانت تتكون منها وحدات سكنية كبيرة واهنة بنيت من الخشب المغطى بطبقة من الطين . وكانت كل هذه الوحدات السكنية الكبيرة أو الجزر تقوم في أحياء مكتظة . كثيرة الضوضاء . عديمة الهواء النقي . كريهة الرائحة ، موبوءة بالأمراض . وأما أسوأ سكان روما حظاً ، فانه لم يكن لهم فيما يبدو نصيب حتى من أكثر هذه المساكن بؤساً . وذلك اذا صح ما يعزوه بلوطارخ إلى تيبريوس سمبرونيوس جراكوس — وكان احد رابنة العامة في عام ١٣٣ ق.م. — من قوله : « إن للوحوش أوكارها وللطيور أعشاشها . وأما الرجال الذين يحاربون ويموتون من أجل ايطاليا فانهم لا يتمتعون الا بنعمتي النور والهواء » .

وقد كانت تكفر إلى حد عن هذه الأحياء المكتظة بالعمائر المزدحمة تلك الدور الأنيقة التي كانت الطبقة العليا تشيدها لنفسها ، وكذلك المنشآت العامة التي أقيمت تباعاً . فقد أخذت روما منذ القرن الثالث قبل الميلاد تفقد طابعها الريفي وتأخذ تدريجاً مظهراً قشيبا يوائم مكانتها بوصف كونها عاصمة عالمية . وقد أسهمت في تغير معالم روما المنشآت العامة الكثيرة التي أقامها القواد المنتصرون من غنائم انتصاراتهم وكذلك القنسورس من دخل الخزانة العامة . وعلى حين أن

الرومان استمروا في بناء أغلب مبانيهم الخاصة من اللبن والخشب ، كانوا عادة يبنون المنشآت العامة من الأحجار ويغطون جدرانها بطبقة من الجص - وعندما شيدوا معبدي يوبيتر ويونو حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد استحضروا رخاما اغريقياً لهذا الغرض .

وتأتي المعابد في مقدمة المنشآت الرومانية العامة ، فقد بلغ ما شيد منها في روما منذ عام ٢٠٠ حتى عام ١٣٣ ق.م. نحواً من خمسة عشر معبداً . وقد حافظ الرومان دوماً في إنشاء معابدهم على التصميم الأتروسقي الأصل الذي ألفوه منذ زمن بعيد ، وإن كانوا قد استخدموا الرخام الاغريقي أحياناً في إنشاء هذه المعابد، وكذلك بعض عناصر العمارة الاغريقية . واذا كان الرومان يدينون بفضل كبير إلى الأتروسقيين والأغريق في عمارتهم الدينية ، فان اتجاههم نحو المباني المستديرة وبخاصة في المعابد الصغرى يرينا اتجاهاً رومانياً بحتاً مستمداً من الأكواخ المستديرة التي ترجع إلى العصور السابقة للتاريخ .

ويتضح الأثر الاغريقي بجلاء في القاعات العامة الكبرى المعروفة باسم الباسيليقا (basilica) ، فقد أخذ الرومان فكرة هذه القاعات وكذلك اسمها من القاعات المماثلة التي كان الملوك الهلينيسيون قد أقاموها في المدن الاغريقية في شرق البحر المتوسط . ومن الطريف أن القنسور مارقوس بورقيوس قاتو ، ذلك الخصم اللدود للحضارة الأغريقية ، كان أول من شيد في روما هذا النوع من المباني الاغريقية البحت وذلك في عام ١٨٤ ق.م. وعرفت القاعة الكبرى التي شيدها باسم عشيرته أي «باسيليقابورقيا» (Basilica Porcia) . وفي عام ١٧٩ق.م. أنشأ القنسوران أيميليوس لبيدوس وفولفيوس نوبيليور ثانية هذه القاعات . وفي عام ١٦٩ ق.م. أنشأ القنسور تيبريوس سمبرونيوس جراكوس ثالثتها .

وقد كانت الباسيليقا مخصصة أساساً لانعقاد جلسات المحاكم وكذلك لعقد صفقات الأعمال ، الا أن كل ما كان يجري في ميدان السوق كان من الممكن أن يجري في الباسيليقا . وليس معنى ذلك أن إنشاء هذه القاعات الكبرى الثلاث أدى إلى اختفاء السوق والحوانيت ، بدليل إنشاء سوق جديدة للسمك واللحوم

وإقامة عدد من وحدات الحوانيت وتشييد كثير من الأروقة المسقوفة ليستظل بها الباعة والمتنزهون سواء بسواء .

واستجابة لرغبات الجماهير المتزايدة في ضروب الترفيه ، بدأ القنسور فلامينيوس في عام ۲۲۰ ق.م. في إنشاء مضمار جديد لسباق الخيل والعربات (Circus) في ساحة الإله مارس . وإنه لمما يثير الدهشة والتأمل أن الرومان برغم إقبالهم على المسرحيات الاغريقية الأصل لم يقتفوا أثر الأغريق في إقامة مسارح مبنية من الأحجار واكتفوا في الفترة التي نحن بصددها الآن باقامة منشآت خشبية لعرض مسرحياتهم .

وفي عام ۱۲۰ ق.م. خلد فابيوس ماكسيموس ذكرى انتصاره على الغال باقامة قوس للنصر ، وبذلك كان أول من أقام هذا النوع من المباني الرومانية النمط التي ذاع صيتها فيما بعد وأقيمت في مختلف أرجاء الأمبراطورية الرومانية .

وإزاء ازدياد حركة المرور إلى روما وضع أيميليوس لبيدوس في عام ۱۷۹ ق.م. أساس جسر من الحجر (pons Aemilius) لمساعدة الجسر الخشبي القديم (pons Sublicius) الذي ظل حتى هذا الوقت الجسر الوحيد المقام على التيبر . واذا كان قد أعيد رصف شوارع روما بألواح من الصخر الصلد قدت من جبل البانوس ، فأنه لم يبذل أي جهد لزيادة اتساع الشوارع . وتبعاً لذلك فأن الشارع المقدس (Via sacra) ، الممتد من الفوروم إلى جرف فليا (Velia) ، ظل الشارع الوحيد الرحب ، مما جعله الشارع الرئيسي لمرور المواكب . وكذلك لم يتخذ أي إجراء لزيادة اتساع الفوروم الضيق بحيث يستطيع مواجهة المتطلبات المتزايدة التي أصبحت من مقتضيات الحياة العامة في عاصمة الأمبراطورية . بيد أنه وجهت عناية كبيرة إلى الشئون الصحية في المدينة ، ذلك أن قاتو لم يكتف بإقامة الباسيليقا المعروفة باسمه بل قام أيضاً بإصلاح شامل في نظام المجاري العامة في روما . وفي عام ١٤٤ ق.م. تولى البرايتور كوينتوس مارقيوس ركس (Q. Marcius Rex) إنشاء أولى قنوات المياه المرتفعة (Aqua Marcia) ليزود روما بأنقى مياه الشرب من وادي الأنيو على بعد حوالي ٥٧ كيلومتراً من روما .

ويمكن القول بوجه عام أن المنشآت العامة التي أقيمت في روما في خلال القرن الثاني قبل الميلاد تصور ما جُبِل الرومان عليه من تفضيل المباني التي تحقق أغراضاً عملية نافعة على المباني التي ليس من ورائها غرض الا التجميل والزخرفة . وفي هذا المجال العملي استغل الرومان ابتكارهم المعماري الباهر ، ألا وهو القوس أو العقد ، فقد استخدموه على نطاق واسع في إقامة الجسور وقنوات المياه المرتفعة ، حيث لم يدينوا لأحد بفضل ، قبل إستخدامه في المنشآت الأخرى . وتشير القرائن إلى ان المعماريين الرومان لم يلبثوا أن أثبتوا كفاية فائقة ذاع صيتها في كل أنحاء العالم .

وعندما أصبحت روما في أعقاب فتوحاتها متحفاً هائلاً لمنتجات الفنَّين الأتروسقي والاغريقي نتيجة للأعداد الكبيرة من التماثيل التي نُهبت من مدينة فولسينيي (Volsinii) الأتروسقية في عام ٢٦٥ ق . م . ومن سراقوسة في عام ٢١٠ ق.م. ومن تارنتم في عام ٢٠٩ ق. م. ومن قورنثة في عام ١٤٦ ق.م. ، أخذالرومان بالتدريج يتذوقون روائع المبتكرات الفنية ويقدرون بوجه خاص منتجات الاغريق منها تقديراً كبيراً . ولما كانت غالبية هذه الأسلاب المنهوبة قد استخدمت في تزيين المنشآت العامة ، فان الأثرياء أخذوا يتسابقون على الحصول على نسخ مما نُهب ومما لم يُنهب ليزينوا بها بيوتهم ، فأفضى ذلك إلى حركة نشيطة في بلاد الاغريق لتزويد السوق الرومانية بنسخ من منتجات الأقدمين من أساطين المثالين الأغريق .

وعلى غرار العمارة الرومانية الدينية ظل فن النحت الروماني الديني خاضعاً لتأثيرات إغريقية وأتروسقية . ولم يثبت الرومان ذاتيتهم الا في مجالي النحت الدنيوي والتصوير . فقد كان الرومان شديدي الشغف بالتماثيل ، الكاملة منها والنصفية ، التي تصور الخصائص الشخصية تصويراً ناطقاً واقعياً. وقد برع المثالون الرومان في إنتاج مثل هذا النوع من التماثيل وبلغوا من التزام الدقة في ذلك إلى حد أنهم كانوا لا يغفلون إظهار العيوب الطبيعية مهما تبلغ من قبح . وقد كان دين الرومان في هذا الفرع من فن النحت إلى النماذج الأغريقية والأتروسقية أدنى بكثير من دينهم إلى أقنعة الموتى الرومانية القديمة . وقد ساعد على ازدهار هذا النوع

فن النحت الروماني في الفترة التي نحن بصددها الآن عدة عوامل لعل أهمها كان ازدياد الثروة والتنافس على عرض مظاهرها، ذلك أن الأسر الارستقراطية لم تعد تكتفي بعمل أقنعة للموتى بل أصبحت تحرص كذلك على عمل تماثيل بالحجم الطبيعي للبارزين من أفرادها لتعرضها في بيوتها وفي المواكب الجنازية الخاصة بالأسرة . ولما كانت الحكومة الرومانية قد درجت منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد على إقامة التماثيل لتخليد الملوك والأبطال الأسطوريين الذين زعمت الروايات المتواترة أنهم قاموا بأعمال باهرة في باكورة عهد الجمهورية ، فإنها أصبحت منذ عهد الفتوحات تكرم مشاهير القواد وغيرهم ممن أدوا خدمات جليلة للوطن بإقامة التماثيل لهم . وفضلاً عن ذلك فانه قبل نهاية القرن الثاني قبل الميلاد أصبح تكريم كبار الحكام بإقامة تماثيل لهم في الأماكن العامة أمراً مقرراً .

وقد استخدم الرومان التصوير على نطاق واسع في زخرفة الجدران سواء في المقابر أم المنازل أم المعابد أم غير ذلك من المنشآت العامة . واذا كانت قد وصلت الينا بقايا بعض اللوحات الزخرفية التي كانت تُزين بها جدران المقابر ، فانه لم يصل الينا شيء من اللوحات الكبيرة التي كانت تصور المعارك وغيرها من مشاهد الحملات المظفرة وتُزين بها جدران المباني الخاصة والعامة .

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أنه منذ القرن الثالث قبل الميلاد أخذت تتدهور مراكز الفن القديمة الإيطالية ، بل إنه لم يعد هناك وجود لفن صناعة الذهب والفضة وهو الذي كان قد ازدهر ازدهاراً عظيماً في أتروريا وفي برابنستي . وقد كان فن التماثيل الصلصالية هو الفرع الوحيد من فروع الفن الإيطالي الذي احتفظ في أترور يا بذلك المستوى الرفيع الذي كان قد بلغه من قبل .

الفهرس

الفصل الثالث

*

القسم الثاني

تاريخ الرومان منذ قيام دولتهم حتى سيطرتها على شبه الجزيرة الايطالية

الفصل الرابع

الفصل الخامس

*

القسم الثالث

روما تبسط سيادتها على البحر الأبيض المتوسط منذ عام ٢٦٤ حتى عام ١٣٣ ق. م.

الفصل التاسع

الفصل العاشر